سلسلة المحجة البيضاء

العلامة الكبير الفيض الكاشاني

المهلكات الكبرى

الغضب . الحقد

الحسد . الرياء

الكبر . الجاه

العجب . الغرور

دار المحجة البيضاء

شبكة الفكر
alfeker.net

المهلكات الكبرى

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة المحجة البيضاء

المهلكات الكبرى

الغضب - الحقد - الحسد - الرياء - الكبر - الجاه - العجب - الغرور

العلامة الكبير الفيض الكاشاني

دار المحجة البيضاء

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٢٦ هـ ـــ ٢٠٠٥ م

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
حارة حريك - شارع الشيخ راغب حرب - قرب نادي السلطان

ص.ب: ٥٤٧٩ / ١٤ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧
E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com

آفة الغضب

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ مدخل

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله الذي لا يَتَّكِلُ إلاّ على عفوه ورحمته الراجون، ولا يحذرُ سوى غضبه وسطوته الخائفون، الذي استدرج عباده من حيث لا يعلمون، وسلط عليهم الشهوات وأمرهم بتركِ ما يشتهون، وابتلاهم بالغضبِ وكلّفهم كظم الغيظ فيما يغضبون، ثم حفّهم بالمكاره واللذات وأملى لهم لينظر كَيف يعملون، وامتحن به حُبَّهم ليعلم صدقهم فيما يدّعون، وعرّفهم أنّه لا يخفى عليه شيء مما يُسرّون وما يُعلنون، وحذّرهم أن يأخذهم بغتة وهم لا يشعرون، فقال: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

والصلاة والسلام على محمد رسوله الذي يسير تحت لوائه النبيّون والمتّقون، وعلى آله وأصحابه الأئمة المهديّين، والسادةِ المرضيّين، صلاةً يوازي عددُها عددَ ما كان من خلق الله وما سيكون، ويحظى ببركتها الأولون والآخرون.

أمّا بعد، فإن الغضب شعلة نارٍ اقتُبست من نار الله الموقدة، إلاّ أنها لا تطّلع إلاّ على الأفئدة، وإنّها لمكنونة في طيِّ الفؤاد كاستكنان

الجمر تحت الرماد، ويستخرجها الكِبرُ الدفين من قلبِ كلِّ جبّار عنيد، كما يستخرجُ الحجرُ النار من الحديد.

وقد انكشف للناظرين بنور اليقين أنّ الإنسان يَنزِعُ منه عِرقٌ إلى الشيطان اللعين، فمن استفزّتهُ نار الغضب، فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال: «خلقتني من نار وخلقتَهُ من طين». فمن شأن الطين السكونُ والوقار، وشأن النار التلظّي[1] والاستعار والحركةُ والاضطراب والإصطهار[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠﴾.

ومن نتائج الغضبِ، الحقدُ والحسدُ وبهما هلكَ من هلكَ، وفسَدَ من فَسَدَ. ومُغيظها مضغةٌ[3] إذا صلحَت صلح لها سائر الجسد. وإذا كان الحقد والحسدُ والغضبُ مما يسوقُ العبدَ إلى مواطن الهلكة، فما أحوجه إلى معرفة مواطن هلكته، ومساويه، ليحذرها ويتّقيَها ويميطها[4] عن القلب إن كانت موجودة فيه، ويعالجها بأن يلحّ في قلبه ويداويه، فإن من لا يعرف الشرَّ يقعُ فيه، ومَن عرفه فالمعرفة لا تكفيه، ما لم يعرف الطريق الذي به يَدفعُ الشرَّ ويقصيه.

ونحن نذكرُ ذم الغضب وآفات الحقد والحسد في هذا الكتاب. ويجمعها بيان ذمِّ الغضب، ثم بيان حقيقة الغضب ودرجاته، ثم بيان أن الغضب هل يمكنُ إزالة أصله بالرياضة أم لا، ثم بيان الأسباب المهيّجة للغضب، ثم بيانُ علاج الغضب بعد هيجانه، ثم بيان فضيلة

---

(١) التلظي: الالتهاب.

(٢) الاصطهار: الذوبان.

(٣) المُضغة: القطعة التي تُمضغ من لحمٍ وغيره.

(٤) يميطها: يزيلها.

كظم الغيظ، ثم بيان فضيلة الحلم، ثم بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام، ثم القول في معنى الحقد ونتائجه، وفضيلة العفو والرفق، ثم القولُ في ذمِّ الحسد، وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته، وغاية الواجب في إزالته، ثم بيان السبب في كثرة الحسد بين الأمثال والأقران، والأخوة وبني الأعمام والأقارب وتأكده، وقلّته في غيرهم وضعفه، ثم بيان الدواء الذي به يُنفى مرضُ الحسد عن القلب، ثم بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب.

٢ ـ بيان حقيقة الغضب

إعلم أن الله تعالى لما خلقَ الحيوان معرّضاً للفساد والموت بأسباب في داخل بدنه، وأسبابٍ خارجةٍ منه، أنعمَ عليه بما يصونه من الفساد، ويدفع عنه الهلاك إلى أجل معلوم سمّاه في كتابه.

أمّا السبب الداخل، فهو أن الله تعالى ركب الإنسان من الرطوبة والحرارة، وجعل بين الحرارة والرطوبة عداوة وتضاداً، فلا تزالُ الحرارةُ تحلّلُ الرطوبة وتجففها وتبخرها حتى تنتشر أجزاؤها على شكل بخار متصاعد، بحيث لو لم يتّصل بالرطوبة مددٌ من الغذاء يجبرُ ما انحلّ وتبخّر من أجزائها، لفسد الحيوان. فخلق الله الغذاء المناسب لبدن الحيوان، وخلق في الحيوان شهوة تبعثه على تناول الغذاء، كشخصٍ مُوَكّل به يعمل على جبر ما انكسر، وسدِّ ما انثلم، ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك من خلال هذا السبب.

وأمّا الأسباب الخارجة التي يتعرّض لها الإنسان، فكالسيف والسَّنَان وسائر المهلكات التي يُتعرض له بها، ولهذا افتقر إلى قوة وحميّة تثور من باطنه، تدفع عنه المهلكات عنه، فخلقَ الله الغضبَ من النار، وغرزها ـ أي نار الغضب ـ في الإنسان وعجَنها بطينته،

فكلما تعرَّض له أحد في أي شأن من شؤونه، اشتعلت نار الغضب وثارت ثوراناً، يغلي بها دم القلب وينتشر في العروق ويرتفع إلى أعالي البدن كما ترتفعُ النار، وكما يرتفعُ الماء الذي يغلي في القِدر؛ ولذلك ينصبُّ إلى الوجه فيحمر، وتحمرّ معه العين والبشرة بصفائها، تحكي لون ما وراءها من حمرةِ الدم، كما تحكي الزجاجة لونَ ما فيها.

وإنما ينبسط الدمُ إذا غضبَ الإنسان على من دونه واستشعر القدرة عليه. فإن صدر الغضبُ على من هو فوقه، وكان مترافقاً مع اليأس من الانتقام، تولّد من هذا الغضب انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب، وصار حُزناً، ولذلك يصفرُّ اللون. وإن كان الغضبُ من شخصٍ هو نظيرٌ له، ويشكُّ فيه، تولّد منه تردّدٌ بين انقباضٍ وانبساط، فيحمرُّ ويصفرُّ ويضطرب.

وبالجملة، فقوة الغضب محلُّها القلب ومعناها غليان دم القلب لطلب الانتقام، وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات إن لم تكن قد وقعَت، وإلى التشفّي والانتقام إن وقعت؛ والانتقام غذاءُ هذه القوة وشهوتُها، وفيه لذّتها، ولا تسكن إلاّ به.

والناس في هذه القوة على درجات ثلاث، من التفريط والإفراط والاعتدال. أمّا التفريط، فبفقد هذه القوة أو ضَعفها، وذلك مذموم، ومثل هذا الشخص هو الذي يُقال فيه: إنه لا حَميّةَ له، ولذلك قيل: من استُغضِبَ فلم يغضب فهو حمار.

فمن فقدَ قوة الحمية والغضب أصلاً، فهو ناقص جداً. وقد وصف اللّهُ الصحابة بالشّدة والحميّة فقال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، وإنما

الغلظة والشدة من آثار قوةِ الحميّة وهو الغضب.

وأمّا الإفراطُ، فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرُجَ من سياسة العقل والدين وطاعتهما، فلايبقى للمرء معها بصيرةٌ ونظر، ولا فكر ولا اختيار، بل يصير الإنسان في صورة المضطرّ. وسببُ غلبة الغضب أمورٌ غريزية وأمور اعتيادية. فرُبَّ إنسانٍ هو بالفطرة مستعدٌ لسرعة الغضب، حتى كأنَّ صورتَهُ في الفطرة صورة غضبان، ويعينُ على ذلك حرارة مزاج القلب، لأن الغضب من النار، كما قال رسول الله ﷺ: «فبرودة المزاج تُطفيه وتكسرُ سورتَه»[١].

وأمّا الأسباب الاعتيادية فهي أن يخالط قوماً يتبجحون[٢] بتشفي الغيظ وطاعة الغضب، ويسمّون ذلك شجاعة ورجولية، فيقول الواحد منهم: أنا الذي لا أصبر على المحال[٣]، ولا أحتمل من أحدٍ أمراً. ومعناه، لا عقل لي ولا حِلم. ويذكر هذا الكلام في معرضِ الفخر بجهله، فمن سمعه رسّخ ذلك في نفسِهِ حُسن الغضب وحبَّ التشبّه بالقوم، فيقوى به الغضب. وكلّما اشتدت نارُ الغضب وقوي اضطرامها، أعمَت صاحبها وأصمّته عن كل موعظة، فإذا وُعِظ لم يسمع، بل تزيده الموعظةُ غضباً، وإن أرادَ أن يستضيء بنور عقله وراجعَ نفسَهُ، لم يقدر على ذلك، إذ يُطفي الغضبُ نور العقل، وينمحي في الحال بدخان الغضب، فإنَّ معدِنَ[٤] الفكرِ الدّماغُ، ويتصاعدُ عند شدة الغضب من غليانِ دم القلب دخانٌ مظلم إلى

---

(١) السّورَة: الحدّة.

(٢) التبجّح: الفرح والافتخار والتباهي.

(٣) المحالّ: المستحيل.

(٤) معدِن: مكان كل شيء فيه أصلُهُ ومركزه.

الدماغ، يستولي على معادن الفكر، وربما يتعدى إلى معادن الحسّ، فتُظلِمُ عينهُ حتى لا يرى بعينه، وتسوَدُّ عليه الدنيا بأسرها، ويكونُ دماغُه على مثالِ كهفٍ أُضرمت فيه نارٌ فاسودَّ جَوُّهُ، وحَمِيَ مستقرُّه[١] وامتلأت بالدخان جوانبه، وكان فيه سراجٌ ضعيفٌ فانطفى وانمحى نوره، فلا تثبت فيه قدم، ولا يُسمع فيه كلام، ولا تُرى فيه صورة ولايُقدرُ على إطفائه لا من داخلٍ ولا من خارج، بل ينبغي أن يصير في حالة ينبغي أن يحترق معها جميع ما يقبلُ الاحتراق فيه؛ وكذلك يفعلُ الغضبُ بالقلب والدماغ.

وربما تقوى نار الغضب فتُنفى الرطوبة التي بها حياةُ القلب، فيموتُ صاحبُه غيظاً، تماماً كما تقوى النار في الكهف، فينشقُّ وتنهدُّ أعاليه على أسافله، وذلك لإبطال النار ما في جوانبه من القوة الممسكة الجامعةِ لأجزائه؛ فهكذا حال القلب مع الغضب.

وبالحقيقة فالسفينة في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح في لجّة البحر أحسنُ حالاً وأرجى سلامة من النفس المضطربة غيظاً، إذ في السفينة من يحتالُ لتسكينها وتدبيرها، وينظر في شؤونها وما يسوسها. وأمّا القلب فهو صاحبُ السفينة، وقد سقطت حيلته، إذ أعماه الغضبُ وأصمّهُ. ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغيّر اللون، وشدَّةُ الرِّعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام، واضطرابُ الحركة والكلام، حتى أنَّ الزَّبدَ يظهرُ على الأشداق، وتحمرُّ الأحداقُ وتنقلبُ المناخر[٢]، وتستحيل[٣] الخلقة. ولو رأى

---

(١) مستقرُّهُ: مكان سكنه وثباته.

(٢) المناخر: جمع منخر، وهو الأنف.

(٣) تستحيل: تتحول من حالٍ إلى أخرى.

الغضبان في حالة غضبه قُبح صورته، لسكن غضبه حياءً من قُبحِ صورته واستحالة خلقته، وقبحُ باطنه أعظمُ من قبح ظاهره، فإنّ الظاهر عنوانُ الباطن، وإنما قَبُحَتْ صورة الباطن أولاً ثم انتشر قبحُها إلى الظاهر ثانياً، فتغيُّرُ الظاهر ثمرةُ تغيُّرِ الباطن؛ فهذا أثره في الجسد.

وأمّا أثرهُ في اللسان، فانطلاقُه بالشتم والفُحش وقبيح الكلام الذي يستحي منه ذوو العقول، ويستحي منه قائله عند فتور الغضب، وذلك مع تخبُّطِ النظم واضطراب اللفظ.

وأمّا أثره على الأعضاء، فالضربُ والتهجّم والتمزيق والقتلُ والجرحُ عند التمكن، من غير مبالاة، فإن هرب منه المغضوبُ عليه أو فاتَه لسبب من الأسباب، وعجز عن التشفي، رجع الغضبُ على صاحبه فيمزِّقُ ثوبَ نفسِهِ ويلطمُ وجهه، وقد يضربُ الجمادات والحيوانات، فيضرب القصعة[1] على الأرض، وقد يكسرُ المائدة إذا غضبَ عليها، وقد يتعاطى أفعال المجانين فيشتم البهيمة والجماد، ويخاطبهُ ويقول: إلى متى منك ويا كيتَ وكيت، كأنه يخاطبُ عاقلاً، حتى أنّ دابة قد ترفسه، فيرفسُها ويقابلهُ به.

وأمّا أثره في القلب، اتجاه المغضوب عليه، فالحقدُ والحسدُ وإضمار السوء والشماتة إذا ساءه شيء، والحزنُ إذ سرّهُ أمرٌ، والعزمُ على إفشاء السرِّ وهتكِ الأستار، والاستهزاءُ وغير ذلك من القبائح؛ فهذه ثمرة الغضب المفرط.

وأمّا ثمرةُ الحميّة الضعيفة، فقلَّةُ الأنَفَة[2] مما يؤنفُ منه،

---

(١) القصعة: الصَحفة [ما يسمى اليوم بالصحن المستخدم لتناول الطعام].
(٢) الأنفة: عزة النفس.

كالتعرض للحُرُم[1] والزوجة والأمة، واحتمالُ الذلّ من الأخسَّاء[2]، وصِغَرُ النفس والقماءةُ[3]. وهو ـ أي ضعفُ الحمية ـ مذموم، إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرام، وهي خنُوثة. قالﷺ: «إنّ سعداً لغَيور، وإني لأَغيَرُ من سعد، واللَّهُ أغيرُ منّي»[4]. وإنما خُلِقت الغيرة لحفظ الأنساب، ولو تسامح الناس بها لاختلطت الأنساب، ولذلك قيل: كلُّ أُمَّة وضعت الغيرة في رجالها وضعتِ الصيانة في نسائها. ومن ضعفِ الغضب الخورُ والسكوتُ عند مشاهدة المنكرات، وقد قالﷺ: «خير أمتي أَحدَّاؤها»[5][6]. يعني في الدين. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، بل من فقدَ الغضب عجز عن تهذيب نفسه ورياضتها، إذ لا تتمُّ الرياضة إلاّ بتسليط الغضب على الشهوة حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة. ففقدُ الغضبِ مذموم، وإنما المحمود غضبٌ ينتظرُ إشارة العقل والدّين، فينبعث حيث تجبُ الحميّة وينطفي حيث يحسُنُ الحِلم، وحفظ الغضب على حدِّ الاعتدال هو الاستقامة التي كلّفَ الله تعالى بها عباده، وهو الوسطُ الذي وصفَهُ رسول اللهﷺ حيث قال: «خير

---

(١) الحُرم: النساء لرجلٍ واحد، ومنشؤها ما لا يحلُّ انتهاكُه.

(٢) الأخسّاء: جمع خسيس، من الخسّة وهي النقصُ في الوزن أو القدر.

(٣) القمأة: الذّل والصِّغر.

(٤) أخرج مسلم ج ٤ ص ٢١١ من حديث المغيرة بن شعبة قال: قال رسول اللهﷺ: «أتعجبون من غيرة سعد فوالله لأنا أغيرُ منه والله أغير مني ـ الحديث» والمراد سعدُ بن عبادة.

(٥) أحدّاؤها: الذين يشتدُّ غضبهم.

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط، وفيه يغنم بن سالم بن قنبر، وهو كذاب، كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٨، ولفظُه «خيار أمّتي أحداؤهم». [اسم يغنم غير واضح في النسخة التي بين أيدينا لضعف الطباعة، فاقتضى التنويه. المعدّ].

الأمور أوساطُها»[1]. فمن مال غضبُه إلى الفتور حتى أحسَّ من نفسِه ضعفَ الغيرة وخسّةَ النفس في احتمال الذل والضّيم[2] في غير محله، فينبغي أن يعالجَ نفسه حتى يقوى غضبُه. ومن مال غضبُه إلى الإفراط حتى جرّه إلى التهوّر واقتحام الفواحش، فينبغي أن يعالجَ نفسَهُ ليُنقِصَ من سورة الغضب، ويقفَ على الوسطِ الحقّ بين الطرفين، فهو الصراط المستقيم، وهو أدقُّ من الشّعَر وأحدُّ من السيف، فإن عجزَ عنه فليطلُبِ القربَ منه. قال الله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ﴾ فليسَ كلُّ من عجزَ عن الإتيان بالخير كُلِّه ينبغي أن يأتي بالشرّ كلّه، ولكن بعضُ الشرِّ أهونُ من بعض، وبعضُ الخير أرفع من بعض؛ فهذه حقيقة الغضب ودرجاتُه.

٣ ـ إزالة أصل القوة الغضبية

إعلم أنّه قد ظنَّ ظانّون أنَّه يُتصوّرُ محوُ الغضب بالكلية، وزعموا أن الرياضة تتوجه نحوه ـ أي المحو ـ وإياهُ تقصد. وظنَّ آخرون أنّه أصلاً لا يقبلُ العلاج، وهذا رأيُ من يظنُّ أن الخُلُقَ كالخَلْقِ، وكلاهما لا يقبلُ التغيير؛ وكلا الرأيين ضعيف، بل الحقُّ في ما سوف نذكره، وهو أنه ما دام الإنسانُ يحبُّ شيئاً ويكرهُ شيئاً، فلايخلو عن الغيظ والغضب، وما دام يوافقه شيء ويخالفُه آخر، فلا بدّ من أن يحبَّ ما يوافقه ويكره ما يخالفه، والغضب يتبع ذلك، فإنه كلّما أُخذ منه محبوبه غضبَ لا محالة، وإذا قُصد بمكروه غضب لا محالة، إلاّ أنّ ما يحبّه الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

---

(١) أخرجَهُ البيهقي في الشعب مرسلاً، وقد تقدم.

(٢) الضيم: الظلم.

الأول: ما هو ضرورة لجميع الخلق

وهو القوتُ والمسكن والملبس وصحة البدن، فمن تعرض أحدهم لبدنه بالضرب والجرح فلا بدّ وأن يغضب. وكذلك إذا أُخذ منه ثوبه الذي يستر عورته، وكذلك إذا أُخرج من داره التي هي مسكنه وأُريق ماؤه الذي هو لعطشه. فهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها، ومن غيظٍ على من يتعرّض لها.

الثاني: ما ليس ضرورياً لأحد من الخلق

كالجاه والمال الكثير والغلمان والدواب، فإن هذه الأمور صارت محبوبة نتيجة العادة، والجهلِ بمقاصد الأمور. حتى صار الذهب والفضة محبوبين في أنفسهما فيُكنزان، ويغضب على من يسرقهما وإن كان مستغنياً عنهما بالقوت. فهذا النوع من الأشياء، مما يُتصوَّر أن ينفكّ الإنسانُ عن أصل الغيظ عليه، فإذا كانت له دار زائدة على مسكنه فهدمها ظالم، فيجوز أن لا يغضب صاحبها لأنه يصحُّ أن يكون بصيراً بأمر الدنيا فيزهدَ في الزيادة على الحاجة، فلا يغضب لأخذ هذه الزيادة منه، حيث إنه لا يُحبُّ وجودها.

ولو أحبَّ وجودها لغضبَ بالضرورة على أخذها، وإن أكثر غضبِ الناس على ما هو غير ضروري، كالجاه والصيت والتصدر في المجالس والمباهاة بالعلم، فمن غلب هذا الحبُّ عليه، فلا مَحالةَ سوف يغضب إذا زاحمه مزاحم على الصدر في المحافل، ومن لا يحبُّ ذلك فلا يبالي حتى لو جلس في صفّ النِّعال، فلا يغضب إذا جلس غيرُهُ فوقَه. وهذه العادات الرديئة هي التي أكثرت محبوبات الإنسان ومكروهاته، فأكثرت غضبه، وكلّما كانت الرغبات والشهوات أكثر، كان صاحبُها أحطَّ رتبة وأنقص، لأن الحاجة صفة نقص،

وكلما كثرت كثُرَ النقصُ، والجاهلُ أبداً جهدُه في أن يزيد في حاجاته وفي شهواته، وهو لا يدري أنه بذلك يستكثر من أسباب الغم والحزن، حتى يصلَ الحال ببعض الجهال نتيجة العادات الرديئة ومخالطة رفقاء السوء، إلى أن يغضب حتى لو قيل له إنك لا تحسن اللعب بالطيور، واللعبَ بالشطرنج، ولا تقدر على شُربِ الخمر الكثير، وتناولِ الطعام الكثير وما يجري مجراه من الرذائل. فالغضب على هذا النوع من الأمور ليس بضروري، لأنّ حبّه ليس بضروري.

الثالث: ما يكون ضرورياً لبعض الناس دون بعض

كالكتاب مثلاً للعالِم، فإنه مضطر إليه فيحبّه، ويغضبُ على من يحرقُه ويُغرقه. وكذلك أدوات الصناعات بالنسبة للمكتسب الذي لا يمكنه التوصل إلى القوت إلاّ بها، فإنما هي وسيلة إلى الضروري؛ والمحبوبُ يصير ضرورياً ومحبوباً، وهذا يختلف بحسب الأشخاص. وإنما الحب الضروري ما أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «من أصبح آمناً في سربه، معافًى في بدنه، ولهُ قوتُ يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[1] ومن كان بصيراً بحقائق الأمور، وسلِمتْ له هذه الثلاث (الأمن والعافية والقوت) يكون من المتصوَّر أن لا يغضب في غيرها؛ فهذه ثلاثة أقسام، ولنذكر غاية الرياضة في كلٍّ منها.

أمّا القسم الأول: فليست غايةُ الرياضة فيه أن ينعدم غيظ القلب، ولكن أن يتمكن من أن لا يُطيع الغضب ولا يستعمله في الظاهر إلاّ على حدٍّ يستحبه الشرع ويستحسنه العقل، وذلك ممكن

---

(١) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٠٨، وابن ماجة تحت رقم ٤١٤١. وفي النهاية: الحذافيرُ في الجوانب، وقيل: الأعالي. واحدها: حذفار، وقيل حذفور، أي فكأنما أعطي الدنيا بأسرها.

بالمجاهدة وتكلُّفِ الحِلْم والاحتمال لمدة من الزمن، حتى يصير الحِلمُ والاحتمال خُلُقاً راسخاً. وأمّا قلعُ أصل الغيظ من القلب - وذلك ليس من مقتضى الطبع - فهو أمر غير ممكن. نعم يمكن كسر سورته وتضعيفه حتى لا يشتدّ هيجان الغيظ في الباطن، وينتهيَ ضعفه، إلى أن يصل إلى حدٍّ لا يظهرُ أثره في الوجه، ولكنَّ ذلك شديدٌ جداً؛ وهذا حكمُ القسم الثالث أيضاً، لأنّ ما صار ضرورياً في حقِّ شخصٍ، لا يمنعه من الغيظ استغناءُ شخصٍ غيرِهِ عنه، فالرياضة في هذا القسم تمنعُ الاشتغال به وتضعف هيجانه في الباطن حتى لا يشتدّ التألمُ بالصبر عليه.

وأمّا القسم الثاني: فيمكن التوصل بالرياضة إلى الانفكاك عن الغضب عليه، حيث يمكنُ إخراجُ حبه من القلب، وذلك بأن يعلم الإنسان بأن وطنه القبرُ ومستقرَّهُ الآخرة، وإنما الدنيا معبَرٌ يُعبر عليها ويُتزوّدُ منها قدر الضرورة، وما وراء ذلك فهو وبال عليه في وطنه ومستقرّه - أي الآخرة - فيزهدُ في الدنيا ويمحو حبّها من القلب. فلو كان للإنسان كلب لا يحبُّه، لم يغضب إذا ضربَهُ غيرُه، فالغضب تبَعٌ للحب. فالرياضة في هذا القسم قد تنتهي إلى قمع أصل الغضب، وهو نادر جداً، وقد تنتهي إلى المنعِ من استعمال الغضب والعملِ بموجَبه، وهو أهون.

٤ - الأسباب المهيجة للغضب

قد عرفت أنّ علاجَ كلِّ علّة بحسمِ مادتها وإزالة أسبابها، فلا بدّ من معرفة أسباب الغضب. وقد قال يحيى لعيسى عليه السلام: أيُّ شيءٍ أشد؟ قال عيسى: الكِبر والفخر والتعزز والحميّة. والأسباب المهيجة للغضب هي الزهو والعجبُ والمِزاحُ والهزلُ والهزؤ والتعيير

والمماراة[1] والمضادّة والغدر وشدةُ الحرص على فضول المال والجاه، وهي بأجمعها أخلاق رديئة، مذمومة شرعاً، ولا خلاصَ من الغضب مع بقاء هذه الأسباب، فلا بدّ من إزالة هذه الأسباب بواسطة أضدادها، فينبغي أن تُميت الزهوَ بالتواضع، وتميت العجبَ بالمعرفة بنفسك ـ كما سيأتي في كتاب الكبر والعجب ـ وتزيل الفخرَ بأنك من جنسِ عبدِكَ، إذ الناس يجمعهم في الانتساب أبٌ وإنما اختلفوا من حيث الفضل أشتاتاً، فبنو آدم جنسٌ واحدٌ، وإنما الفخر بالفضائل، والفخر والعجب أكبرُ الرذائل، وهما رأسها وأصلها، فإذا لم تخل عنها فلا فضلَ لك على غيرك، فلا تفتخر وأنتَ من جنسِ عبدك من حيث البنية والنسب والأعضاء الظاهرة والباطنة. وأمّا المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعبُ العمرَ وتفضلُ عنه، لو عرفت كم عليك من المسؤوليات الدينية! وأمّا الهزل فتزيله بالجدِّ في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة والعلوم الدينية التي توصلك إلى سعادة الآخرة. وأمّا الهزؤ فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس، وبصيانة النفس عن أن يُستهزأ بك. وأما التعيير فبالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مُرِّ الجواب. وأمّا شدة الحرص على مزايا العيش فيُزال بالقناعة بقدر الضرورة، طلباً لعزّ الاستغناء وترفّعاً عن ذلّ الحاجة. وكلُّ خُلُق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يُفتقَر في علاجها إلى رياضةٍ وتحمُّلِ مشقّةٍ، وحاصلُ هذه الرياضة هو أن تُعرَف مضارها لترغب النفس عنها، وتنفُرَ من قبحها، ثم المواظبةُ على القيام بأضدادها مدة مديدة، حتى تصير بالعادة مألوفة هيّنة على النفس، فإذا انمحت عن النفس فقد زكَت وطَهُرَتْ عن هذه الرذائل وتخلّصت أيضاً عن الغضب الذي يتولّد منها.

---

(١) المماراة: المجادلة والمنازعة.

ومن أشدِّ البواعث للغضبِ عند أكثر الجهّال تسميتُهم الغضبَ شجاعةً ورجولية، وعزَّ نفسٍ وكِبَرَ همَّةٍ، حيث يلقبونه بالألقاب المحمودة غباءً وجهلاً حتى تميلَ النفسُ إليه وتستحسنه. وقد يتأكد ذلك الميل بما يحكى عن شدة الغضب من قبل الأكابر في معرضِ المدحِ بالشجاعة، والنفوسُ مائلة إلى التشبّه بالأكابر، فيهيج الغضب لهذا السبب في القلب.

وتسميةُ ذلك عزّةَ نفسٍ وشجاعةً، جهلٌ محضٌ، بل هو مرضُ قلبٍ ونقصانُ عقلٍ، وهو لضعفِ النفسِ ونقصانها. والدليل على أن منشأه ضعفُ النفس أن المريض أسرعُ غضباً من الصحيح، والمرأةُ أسرعُ غضباً من الرجل، والصبي أسرعُ غضباً من الكبير، والشيخُ الضعيفُ أسرعُ غضباً من الكهل، وذو الخُلق السيء والرذائل القبيحة أسرعُ غضباً من صاحب الفضائل. فالرّذيل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة، ولبخله إذا فاتته الحبّة، حتى يغضبَ على أهله ووُلده وأصحابه، والقويُّ من يملكُ نفسَهُ عند الغضب، كما قالﷺ: «ليس الشديدُ بالصرعة إنما الشديد الذي يَملكُ نفسه عند الغضب»[1] بل ينبغي أن يعالجَ هذا الجاهل بأن تُتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو، وما استُحسِنَ منهم من كظم الغيظ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك والفضلاء، وضدُّ ذلك منقول عن الأتراك والأكراد والجهلة والأغبياء الذين لا عقل لهم ولا فضل.

٥ ـ علاج الغضب بعد هيجانه

إعلم أنَّ ما ذكرنَاهُ هو حسمٌ لمواد الغضب وقطعٌ لأسبابه حتى

(١) سيأتي عن مسلمٍ وغيره لاحقاً.

لا يهيج، فإذا هاج، فعندئذٍ يجب الثبات حتى لا يُضطّر الغاضب إلى الوقوع في المذموم، وإنما يعالجُ الغضبُ عند هيجانه بمعجون العلم والعمل.

٥: أ ـ العلاجُ العلمي

هو ستةُ أمور: التفكر في الأخبار الواردة، وتخويف النفس بالعقاب، والتفكر في عواقب العداوة، والتفكر في قبح صورة الغاضب، والتفكر فيما يدعوه إلى الانتقام، والعلم بأن منشأ الغضب هو الاعتراض على الله.

٥: أ: ١ ـ التفكر في الأخبار الواردة

العلاج الأول هو أن يتفكر في الأخبار التي سنوردها في فضل كظم الغيظ والعفو والحِلم والاحتمال، فيرغبَ في ثوابه، وتمنعه شدةُ الحرص على ثواب الكظم عن التشفي والانتقام وينطفي عنه غيظه.

غضبَ بعضُهم على رجلٍ فقال الرجل: «خذ العفو وأمر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين» فخلّى عنه.

٥: أ: ٢ ـ تخويفُ النفس بالعقاب

العلاج الثاني هو أن يخوّف نفسه بعقاب الله، فيقول: قدرةُ الله عليَّ أعظم من قدرتي على هذا الإنسان، فلو أمضيتُ غضبي عليه، فبماذا آمنُ أن يُمضي اللّهُ غضبَهُ عليّ يوم القيامة وأنا أحوج ما أكونُ إلى العفو، وقد قال الله تعالى في بعض الكتب: يا بن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب فلا أمحقك فيمن أمحق. وبعث رسول اللهﷺ وصيفاً[1] له إلى حاجة فأبطأ عليه، فلمّا جاء قال:

---

(١) وصيف: الغلامُ الذي بلغ أوان الخدمة.

«لولا القصاص لأوجعتك ضرباً»[1] أي القصاص في القيامة. وقيل: ما كان في بني إسرائيل مِلِكٌ إلاّ ومعه حكيمٌ، إذا غضب أعطاه صحيفة، وفيها: إرحم المساكين، واخش الموت، واذكر الآخرة، فكان يقرأها حتى يسكن غضبه.

٥: أ: ٣ ـ التفكر في عواقب العداوة

العلاج الثالث أن يُحدث نفسه بعاقبة العداوة والانتقام، وباستعداد العدو لمقابلته والسعي في هدم أغراضه والشماتة بمصائبه ـ وهو لا يخلو من المصائب ـ فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخافُ من الآخرة، وهذا العلاج يرجعُ إلى تسليط شهوةٍ على غضب، وليس هو من أعمال الآخرة، ولا ثواب عليه، لأنه متردد على حظوظه العاجلة يقدِّمُ بعضَها على بعض، إلاّ أن يكون محذوره أن يتشوش عليه في الدنيا فراغُه للعلم والعمل وما يعينه على الآخرة، فيكون حينئذٍ مثاباً عليه.

٥: أ: ٤ ـ التفكر في قبح صورة الغاضب

العلاج الرابع هو أن يتفكر في قبح صورته عند غضبه، بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب، ويتفكّر في قُبحِ الغضب في نفسه، وشبه صاحبه بالكلب الضاري والسبع العادي، وتشبه الحليم الهادي التارك للغضب بالأنبياء والعلماء في عادتهم، لتميل نفسُه إلى حبِّ الاقتداء بهؤلاء، إن كان قد بقي معه مسكةٌ[2] من عقل.

٥: أ: ٥ ـ التفكر فيما يدعوه إلى الانتقام

العلاج الخامس هو أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى

---

(١) أخرجه أبو يعلى من حديث أم سلَمة بسندٍ ضعيف، كما في المغني.

(٢) مُسكة: بقية من الشيء.

الانتقام ويمنعُه من كظم الغيظ، إذ لا بدّ أن يكون لذلك سببٌ، كقول الشيطان له: إنّ عدم الانتقام، وكظمَ الغيظِ، يُحملُ منك على العجز وصِغَرِ النفس والذلّة والمهانة، وتصيرُ حقيراً في أعين الناس. فليقل حينها لنفسه: ما أعجبكِ يا نفسُ، تأنفين من الاحتمال الآن، ولا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ فلان بيدكِ وانتقمَ منك. وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس، ولا تحذرين من أن تصغري عند الله وعند الملائكة والنبيين بانتقامك من هذا (الشخص). فكلَّما كظمَ الغيظ، وجبَ أن يكظمه لله، وذلك يعظّمه عند الله، فما له وللناس، وذُلُّ من ظلَمه يوم القيامة أشدُّ من ذلّه لو انتقم الآن. أفلا يحبُّ أن يكون هو القائمَ إذا نودي يوم القيامة: ليقُمْ من أجرُه على الله، فلا يقوم إلاّ من عفا عن حق، فهذا وأمثاله من معارف الإيمان، وينبغي أن يذكر قلبه به دوماً.

٥: أ: ٦ ـ منشأ الغضب الاعتراضُ على الله

العلاج السادس أن يعلَم أن غضبه هو من تعجُّبه من جريان الشيء وفقَ مُراد الله تعالى، لا على وفقِ مراده، فكيف يقول: مرادي أولى من مراد الله تعالى، ويوشكُ أن يكون غضبُ الله أعظم من غضبه.

٥: ب ـ العلاج العملي

وأما العلاج بالعمل فأن تقول بلسانك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أمر رسول الله ﷺ أن يُقال عند الغيظ[1]..

ويستحبُّ أن يقولَ ذلك، فإن لم يزُلْ بذلك، فاجلس إن كنت

---

(١) الأمرُ بالتعوذ بالله من الشيطان عند الغيظ أخرجه مسلم ج ٨ ص ٣٠ من حديث سليمان بن صُرَدِ الخزاعي.

قائماً، واضطجع إن كنت جالساً، واَقرَبْ من الأرض التي منها خُلقت لتعرف بذلك ذُلّ نفسك، واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون، فإن سبب الغضب الحرارة، وسببَ الحرارة الحركة، إذ قالﷺ: «إن الغضب جمرة تتوقد في القلب. ألم تر إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينه، فإذا وجدَ أحدُكُم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس، وإن كان جالساً فلينم، فإن لم يزُل ذلك فليتوضأ بالماء البارد وليغتسل، فإن النار لا يطفيها إلاّ الماء»[١]. وقد قالﷺ: «إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء البارد فإنّ الغضب من النار»[٢]. وفي رواية «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خُلق من النار، وإنما يطفي النارَ الماءُ، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»[٣]. وقال ابن عباس: قال رسول اللهﷺ: «إذا غضبتَ فاسكت»[٤]. وقال أبو هريرة: «كان النبيﷺ إذا غضبَ وهو قائم جلس، وإذا غضِبَ وهو جالس اضطجع، فيذهبُ غيظُه»[٥]. وقال أبو سعيد الخدري: قال النبيﷺ: «ألا إنَّ الغضبَ جمرةٌ في قلب ابن آدم. ألا ترونَ إلى حُمرةِ عينيه، وانتفاخ أوداجه. فمن وجد من ذلك شيئاً فليُلصق خده بالأرض»[٦] وكان هذا الكلام إشارة إلى السجود، وهو تمكين أعزّ الأعضاء من أذل المواضع، وهو التراب، لتستشعر به النفسُ الذلّ، وتبتعد به عن العزة والزهو الذي هو سبب الغضب.

---

(١) أخرجه الترمذي في حديث طويل ضمن خطبة خطبها رسول اللهﷺ بعد العصر، رواه أبو سعيدٍ الخدري.
(٢) أخرجه أبو داود باللفظ الذي يأتي.
(٣) تقدم عن أبي داود أخرجه ج ٢ ص ٥٥٠.
(٤) رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات، كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٧٠.
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا وفيه من لم يسمِّ، كما في المغني.
(٦) جزء من الحديث المتقدم الذي رواه الترمذي.

وقيل: كان رجلٌ ممن كان قبلكم يغضبُ فيشتد غضبُه فكتب ثلاث صحائف فأعطى كُلَّ صحيفة رجلاً، وقال للأول: إذا غضبتُ فأعطني هذه الصحيفة. وقال للثاني: إذا سكنَ بعضُ غضبي فأعطني هذه. وقال للثالث: إذا ذهب غضبي فأعطني هذه. فاشتد غضبُه يوماً فأُعطي الصحيفة الأولى، فإذا فيها: ما أنتَ وهذا الغضب. إنك لست بإله، إنما أنت بشرٌ أوشك أن يأكل بعضُك بعضاً، فسكن بعض غضبه، فأعطي الثانية فإذا فيها: إرحم من في الأرض يرحمُك من في السماء، ثم أعطي الثالثة فإذا فيها: خُذِ الناس بحق الله، فإنهم لا يُصلحهم إلاّ ذلك؛ أي لا تعطل الحدود.

٦ ـ ذم الغضب

قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ الآية[١]. ذمَّ الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل، ومدح المؤمنين بما أنعم الله عليهم من السكينة.

وروي «أنّ رجلاً قال: يا رسول الله، مُرني[٢] بعملٍ وأقلِل. قال: لا تغضب، ثم أعاد عليه، فقال: لا تغضب»[٣] وعنهﷺ: «أنّه سُئلَ ماذا يُبعد عن غضب الله؟ قال: لا تغضب»[٤].

---

(١) الفتح: ٢٦. والحميّة: الأنفَة والغضب.

(٢) مُرني: أي أأمرني.

(٣) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٣٥، ورواه أحمد في المسند، والطبراني في الأوسط، كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٩.

(٤) أخرجه أحمد، وفيه ابن أبي لهيعة، وهو ليّن الحديث، كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٩.

وقال ابن مسعود: قال النبي ﷺ: «ما تعدُّون الصرعة فيكم؟ قلنا: الذي لا يصرعُه الرجال، قال: ليس ذلك، ولكن الذي يملكُ نفسَهُ عند الغضب»(١) وعنه ﷺ: «ليسَ الشديدُ بالصرعة، إنما الشديدُ من يملكُ نفسَهُ عند الغضب»(٢) أي أن الإنسان الشديد ليس هو من يتمكن من صرع غيره والتغلّب عليه، بل هو من يستطيع أن يصرعَ غضبه ويسيطر عليه.

وعنه ﷺ: «من كفَّ غضبه سترَ اللّهُ عورتَهُ»(٣). وقال سليمانُ بن داود: «يا بنيّ، إياك وكثرةَ الغضب، فإن كثرة الغضب تستخفُّ فؤاد الرجل الحليم» وقال يحيى لعيسى عليه السلام: «لا تغضب، قال: لا أستطيعُ ألاّ أغضب، إنما أنا بشر، قال: لا تقتنِ(٤) مالاً، قال: هذا عسى إن شاء الله تعالى».

وقال ﷺ: «الغضبُ يفسدُ الإيمان كما يفسِدُ الصبرُ العسل»(٥) وقال ﷺ: «ما غضِبَ أحدٌ إلاّ أشفى(٦) على جهنم»(٧) وقال رجل: «يا رسولَ الله، أيُّ شيءٍ أشدُّ عليّ؟ قال: غضبُ الله، قال: فما يُبعدني

---

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٣٠. الصّرعة: من الصرع أي إنزال الهزيمة بالآخرين، والمراد هنا المتّصف بهذه الصفة.
(٢) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٣٤. ورواه الطبراني في الأوسط بسندٍ ضعيف، كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٧٠.
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن أبي هريرة، وابن عمر، بسندٍ ضعيف كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٧٠.
(٤) الاقتناء: اتخاذُ الشيء للنفس.
(٥) الكافي ج ٢ ص ٣٠٢. والمراد من الصبر هنا: الشيء المرّ.
(٦) أشفى: أشرفَ.
(٧) أخرجه البزاز من حديث ابن عباس هكذا «قال رسول الله ﷺ: «بابٌ للنار لا يدخُله أحد إلاّ من يَشفي غيظَهُ بسخط الله» راجع مجمع الزوائد ج ٨ ص ٧١.

من غضبِ الله؟ قال: لا تغضب»[١].

ومن طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن أبي عبد اللّهعليه السلام قال: قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: «الغضبُ يُفسِدُ الإيمان كما يفسِدُ الخلُّ العسل»[٢]. وعن ميسرةَ قال: ذُكِرَ الغضبُ عند أبي جعفرٍعليه السلام فقال: «إنّ الرّجل ليغضب فما يرضى أبداً حتى يدخُلَ النار، فأيما رجل غضبَ على قوم وهو قائم فيجلسُ من فوره ذلك، فإنه سيذهبُ عنه رجز الشيطان، وأيّما رجلٍ غضبَ على ذي رحمٍ فليدنُ منه فليمسّه، فإن الرحمَ إذا مُسَّتْ سكنت»[٣].

وعن أبي حمزة الثمالي عنهعليه السلام قال: «إن هذا الغضب جمرةٌ من الشيطان توقَدُ في جوف ابن آدم، وإنّ أحدكم إذا غضب احمرّت عيناه وانتفخت أوداجه ودخلَ الشيطان فيه، فإذا خافَ أحدُكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض، فإنّ رجز الشيطان يذهب عنه عند ذلك»[٤]. وعن أبي عبد اللّهعليه السلام قال: «الغضبُ مفتاحُ كلِّ شرّ»[٥].

وعنهعليه السلام قال: «سمعت أبي يقول: أتى رسولَ اللهصلى الله عليه وآله رجلٌ بدويٌّ فقال: إنّي أسكنُ البادية فعلّمني جوامع الكلم، فقال: آمرك أن لا تغضب، فأعاد الأعرابي عليه المسألة ثلاث مرات، حتى رجع الرجل إلى نفسه، فقال: لا أسألُ عن شيء بعد هذا، ما أمرني رسول

---

(١) أخرجه أحمد من حديث عبد اللّه بن عمر بالشطر الأخير، وقد تقدم.

(٢) الكافي ج ١ ص ٣٠٢؛ يعني يُذهب حلاوتَهُ وخاصيته، وصار المجموع شيئاً آخر.

(٣) الكافي باب الغضب ج ٢ [الظاهر وجود اشتباه في رقم الصفحة بحسب الموجود في نسخة الكتاب الذي بين أيدينا. المعد].

(٤) الكافي باب الغضب ج ٢ [الملاحظة السابقة].

(٥) الكافي باب الغضب ج ٢ [الملاحظة السابقة].

الله ﷺ إلاّ بالخير، قال: وكان أبي يقولُ: أيّ شيء أشدُّ من الغضب! إن الرجل يغضبُ فيقتُل النفسَ التي حرّم اللَّهُ ويقذف المحصنة»[1].
وعنه عليه السلام قال: «من كفَّ غضبَه ستر الله عورته»[2].

وعنه عليه السلام قال: «إنّ في التوراة مكتوباً: يا بن آدم، اذكرني حين تغضب، أذكرك عند غضبي، فلا أمحقك فيما أمحق، وإذا ظُلمتَ بمظلمةٍ فارض بانتصاري لك، فإن انتصاري لك خيرٌ من انتصارك لنفسك»[3]. وعنه عليه السلام: «الغضبُ ممحَقَةٌ(*) لقلب الحكيم، وقال: من لم يملك غضبه لم يملك عقله»[4] وعنه عليه السلام قال: «قال رجلٌ للنبي ﷺ: علّمني، قال: إذهب ولا تغضب، فقال الرجل: قد اكتفيتُ بذلك فمضى إلى أهله، فإذا بين قومه حربٌ قد قاموا صفوفاً ولبسوا السلاح، فلما رأى ذلك لبسَ سلاحه ثم قام معهم، ثم ذكر قول رسول الله ﷺ: «لا تغضب» فرمى السلاح ثم جاء يمشي إلى القوم الذين هم عدوّ قومه، فقال: يا هؤلاء، ما كانت لكم من جراحة أو قتل أو ضرب ليس فيه أثر، فعليَّ في مالي أنا أوفيكموه، فقال القوم: فما كان فهو لكم نحنُ أولى بذلك منكم، قال: فاصطلح القوم وذهبَ الغضب»[5].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: «من كفَّ نفسَهُ عن أعراض الناس، أقالَ اللَّهُ نفسَهُ يوم القيامة، ومن كفَّ غضبه عن الناس كفَّ اللَّهُ عنه عذاب يوم القيامة»[6]. وعنه عليه السلام قال: «مكتوبٌ في التوراة فيما ناجى الله به موسى عليه السلام: يا موسى أمسك غضبك عمّن ملّكتُكَ عليه، أكفُّ عنك غضبي»[7].

(*) مَمْحَقَةٌ: هي ما يمحق أي يُبطل ويمحو ويُنقص.

(١) (٢) (٣) (٤) (٥) (٦) (٧) الكافي باب الغضب ج ٢ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٦.

وفي الآثار، عن ذي القرنين أنّه لقي ملكاً من الملائكة فقال: علّمني علماً أزداد به إيماناً ويقيناً، قال: لا تغضب، فإن الشيطان أقدرُ ما يكون على ابن آدم حين يغضب، فَرُدَّ الغضبَ بالكظم وسكّنهُ بالتؤدة، وإياكَ والعجلة، فإنّك إذا عجّلت أضعت نصيبك، وكن سهلاً ليّناً للقريب والبعيد، ولا تكن جباراً عنيداً.

وعن وهب بن منبّه أنّ راهباً سأل الشيطان: أيُّ أخلاق ابن آدم أعونُ لك عليهم؟ قال: الحدَّة. إن الرجل إذا كان حديداً ـ أي حاداً ـ قلبناهُ كما يقلبُ الصبيان الكرة. وقال خيثمة: الشيطان يقول: كيف يغلبني ابن آدم وإذا رضي جئتُ حتى أكون في قلبه، وإذا غضبَ طرتُ حتى أكون في رأسه.

وقال جعفر بن محمدعليه السلام: «الغضب مفتاح كُلِّ شر»(١). وقال بعض الحكماء: رأسُ الحُمق الحدّة، وقائده الغضب، ومن رضي بالجهل استغنى عن العلم، والحلم زينٌ ومنفعة، والجهلُ شينٌ ومضرّة، والسكوت عن جواب الأحمق جواب له.

وقال مجاهد: قال إبليس: ما أعجزني بنو آدم فلن يُعجزوني في ثلاث: إذا سكِرَ أحدُهم أخذنا بخُزامته(٢)، فقدناهُ حيث شئنا وعملَ لنا بما أحببنا. وإذا غضبَ قال بما لا يعلم، وعمل بما يندم. ونبخّلهُ بما في يديه، ونمنّيه بما لا يقدر عليه.

وقيل لحكيم: ما أملكَ فلاناً لنفسه، قال: إذاً لا تذلّهُ الشهوات، ولا يصرَعُهُ الهوى، ولا يغلبه الغضب. وقال بعضهم: إياك والغضب فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار.

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٣٠٣، وقد تقدم.

(٢) الخزامة: أو الخزام، وهي حلقة يُشدُّ فيها الزمام.

وقال عبد اللّه بن مسعود: انظروا إلى حِلم الرجل عند غضبه، وأمانتِهِ عند طمعه، وما علمُكَ بحلمه إذا لم يغضب، وما علمك بأمانته إذا لم يطمع. وقال بعضهم لابنه: يا بنيّ، لا يثبت العقل عند الغضب كما لا تثبت روح الحيّ التنانير (جمع تَنّور) المسجورة، فأقلُّ الناسِ أعقَلُهم، فإن كان للدنيا كان دهاءً، ومكراً، وإن كان للآخرة، كان علماً وحلماً. وقد قيل: الغضب عدوٌّ للعقل، والغضبُ غولُ العقل.

وقال نبي من الأنبياء لمن معه: من تكفّل لي أن لا يغضب فيكونُ معي في درجتي ويكونُ بعدي خليفتي، فقال شاب من القوم: أنا، ثم أعاد عليه فقال الشاب: أنا أوفي به، فلمّا مات كان في منزلته بعده، وهو ذو الكِفل، سمّي به لأنه تكفّل بالغضب ووفى به.

وقال وهبُ بن منبّه: للكفر أربعة أركان: الغضبُ، والشهوة، والخُرق[1] والطمع.

٧ ـ فضيلة كظم الغيظ

قال الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾؛ وذكِرَ ذلك في معرض المدح. وقال رسول الله ﷺ: «من كفَّ غضبه كفَّ الله عنه عذابه، ومن اعتذر إلى ربّه قبِلَ الله عُذرُه، ومَن خزنَ لسانه ستر الله عورته»[2]. وقال ﷺ: «أشدُّكُم من ملكَ نفسَه عند الغضب، وأحلمكم من عفا عند القدرة»[3] وقال ﷺ: «من كظَم غيظاً ولو شاءَ أن يمضيه

---

(١) الخُرق: الحمق ـ سوء التصرف والجهل ـ ضعف الرأي.

(٢) راجع مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٨، رواه مختصراً عن الطبراني في الأوسط بسندٍ ضعيف من حديث أنس.

(٣) أخرجَهُ ابن أبي الدنيا في ذم الغضب بسندٍ ضعيف عن علي عليه السلام كما في مجمع الزوائد.

أمضاهُ، ملأ اللّهُ قلبَهُ يوم القيامة رضا». وفي رواية أخرى «أمناً وإيماناً»[١]. وعنه ﷺ: «ما جرّع[٢] عبدٌ جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله»[٣].. وقال ﷺ: «ما من جُرعة أحبُّ إلى الله تعالى من جرعةِ غيظٍ يكظمُها عبدٌ، وما كظمها عبدٌ إلاَّ ملأ الله جوفه إيماناً»[٤]. وقال ﷺ: «من كظم غيظاً وهو يقدر على أن يُنفذه، دعا الله على رؤوس الخلائق يخيّرهُ في أيِّ الحُورِ شاء»[٥].

وقال لقمان لابنه: يا بنيَّ لا تُذهِبْ ماء وجهكَ بالمسألة، ولا تشفِ غيظك بفضيحتك، واعرف قدرك تنفعُكَ معيشتك. وقال أيوب: حلمُ ساعةٍ يدفعُ شرًّا كثيراً.

ومن طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن علي بن الحسين عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «من أَحبِّ السبيلِ إلى الله تعالى جرعتان: جرعةُ غيظ تردُّها بحِلم، وجرعةُ مصيبةٍ تردُّها بصبرٍ»[٦]. وعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «كان علي بن الحسين عليه السلام يقول: ما أُحبُّ أن لي بِذُلِّ نفسي حُمْرَ النَّعَم[٧]، وما تجرعتُ جرعة أحبُّ إليّ من جرعة غيظ لا

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر، كما في المغني. وبالرواية الثانية أبو داوُد ج ٢ ص ٥٤٨.

(٢) جرّع: بلع شيئاً فشيئاً.

(٣) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٤١٨٩ بإسناد صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن ابن عباس، كما في الجامع الصغير؛ وقد تقدم.

(٥) أخرجه أبو داوُد ج ٢ ص ٥٤٨ من حديث معاذ، وقد تقدم.

(٦) الكافي ج ٢ ص ١٠٩.

(٧) حمر النعم أي كرائم النعم كما في (المغرب) وقال الكرماني: حُمر النَّعم ـ بضمّ الحاء وسكون الميم. والنعم، المال الراعي، وهو جمعٌ ولا واحد له من لفظه، وأكثر ما يقع على الإبل. انتهى. ونبّه بذكر تجرّع الغيظ عقيب هذا على أن في التجرع العزّ وفي المكافأة الذل.

أكافي بها صاحبها»[1].

وعن أبي جعفرعليه السلام قال: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إمضائه حشا الله قلبَهُ أمناً وإيماناً يوم القيامة»[2]. وعن أبي عبد اللّهعليه السلام قال: «نعم الجرعةُ الغيظُ لمن صبر عليها فإن عظيم الأجر لَمِن عِظَم البلاء، وما أحبَّ الله قوماً إلاّ ابتلاهم»[3]. وعنهعليه السلام: «ما من عبدٍ كظم غيظاً إلاّ زاده الله تعالى عزاً في الدنيا والآخرة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وأثابه الله مكان غيظه ذلك»[4]. وعنهعليه السلام: «مَن كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه[5] ملأ اللّهُ قلبَهُ يوم القيامة رضاه»[6]. وعن أبي الحسن الأولعليه السلام: قال: «إصبر على أعداء النِّعم فإنّك لن تكافىء من عصى الله فيك بأفضل من أن تُطيع الله فيه»[7].

٨ ـ فضيلةُ الحِلم

إعلم أن الحلم أفضلُ من كظم الغيظ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التَّحَلُّمْ، أي تكلّفُ الحلم، ولا يحتاجُ إلى كظم الغيظ إلاّ من هاج غيظه، ويحتاج فيه إلى مجاهدةٍ شديدة، ولكن إذا اعتاد على ذلك مدة فلا يهيج الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب، وهو الحِلْم الطبيعي، والذي يدل على كمال العقل وسيطرته، وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل، غير أنّ بداية الحلم التحلّمُ وكظم الغيظ تكلّفاً. قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: «إنما العلم بالتعلّم والحلمُ بالتحلّم ومن

---

(١) الكافي ج ٢ ص ١١٠.

(٢) (٣) الكافي ج ٢ ص ١١٠، وباب شدة ابتلاء المؤمن ص ٢٥٢.

(٤) الكافي ج ٢ ص ١١٠.

(٥) الإمضاء: الإنفاذ والإتمام.

(٦) (٧) الكافي ج ٢ ص ١٠٩ و ١١٠.

يتجرّى[1] الخيرَ يعطَهُ ومن يتوقى الشرّ يوقَهُ»[2]. أشار بهذا إلى أنّ اكتساب الحلمِ طريقُه التحلُّمُ أولاً وتكلّفه، كما أنّ اكتساب العلم طريقه التعلّم.

وعنه ﷺ: «اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم. ليّنوا لمن تتعلمون منه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلبَ جهلكم حلمَكُم»[3] أشار بهذا إلى أن التجبّر والكبر هو الذي يهيّج الغضب ويمنعُ من الحلم واللين.

وكان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم أغنني بالعلم وزيّني بالحلم وأكرمني بالتقوى وجمّلني بالعافية»[4] وعنه ﷺ: «ابتغوا الرفعة عند الله، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: تصلُ من قطعَك، وتُعطي من حرمك، وتحلُمُ عمن ظلمك أو جهِلَ عليك»[5]. وقال ﷺ: «خمسٌ من سنن المرسلين: الحياء، والحلم، والحجامة، والسواك، والتعطر»[6]. وقال علي عليه السلام: قال النبي ﷺ: «إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم وإنه ليُكتب جبّاراً عنيداً وما يملكُ إلاّ أهل بيته»[7].

وروي أن رجلاً قال: «يا رسول الله، إنّ لي قرابةً أصِلُهُم

---

(١) يتجرّى: يقدم على الشيء ويهجم.
(٢) أخرجه الطبراني والدارقطني في العلل من حديث أبي الدرداء بسندٍ ضعيف، كما في المغني.
(٣) أخرجه ابن السنى في رياضة المتعلمين بسندٍ ضعيف كما في المغني.
(٤) أخرجه ابن النجار من حديث ابن عمر بسندٍ حسن كما في الجامع الصغير.
(٥) أخرجه ابن عديّ في الكامل من حديث ابن عمر كما في الجامع الصغير.
(٦) أخرجه البخاري في التاريخ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، والبزاز في مسنده، والطبراني في الكبير، وأبو نعيم في المعرفة، والبيهقي عن حصين الخطمي بسندٍ ضعيف كما في الجامع الصغير.
(٧) أخرجه أبو الشيخ ابن حبّان في كتاب الثواب كما في الترغيب ج ٣ ص ٤١٨.

ويقطعوني، وأُحسنُ إليهم ويسيئون إليّ، ويجهلون عليّ وأحلُمُ عنهم، قال: لئن كان كما تقول فكأنّما تُسِفُّهُم المَلَّ، ولا يزالُ معكَ من الله ظهير ما دمت على ذلك المَلّ»(١) يعني الرّمل.

وقال رجل من المسلمين: «اللهمّ ليس عندي صدقةٌ أتصدّق بها فأيما رجلٍ أصاب من عرضي شيئاً فهو عليه صدقة، فأوحى الله إلى النبيّ أن قد غفرت له بذلك»(٢).

وقيل في قوله تعالى: ﴿رَبَّنِيِّـۧنَ﴾(٣) أي حلماء علماء، وفي قوله: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي حلماء ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾ أي حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا، وقيل في قوله عز وجلّ: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾(٤) أي إذا أوذوا صفحوا، وفي قوله: ﴿وَكَهْلًا﴾(٥) قيل: الكهل منتهى الحلم.

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يحبُّ الحليم الحيي الغنيّ المتعفّف ويبغض الفاحش البذي السائل الملحف»(٦). وقال ابن

---

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٨، وقال النووي: قوله ﷺ: «كأنما تُسِفّهم الملّ» أي كأنما تُطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقُهم من الألم بما يلحقُ آكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن، بل ينالهم الإثم العظيم في قطيعته وإدخالهم الأذى عليه.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في الاستيعاب تحت عنوان «أبو ضمضم» عن ابن عينية عن عمرو بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة. ورواه البيهقي في الشعب، وأبو نعيم في الصحابة، وقال العراقي: إنه علية بن زيد وأبو ضمضم ليس له صحبة، إنما هو متقدم.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٩.

(٤) سورة الفرقان، الآيتان: ٦٣ و ٧٢.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٤٦.

(٦) لم أجد تمام الحديث في أي أصل، وجاء مضمونه في عدة أحاديث. راجع الجامع الصغير ج ١ ص ٧٤. وفي الكافي ج ٢ ص ١١٢ «إنّ الله يحبُّ الحييّ الحليم العفيف المتعفف».

عباس: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من لم يكن فيه واحدة منهنّ فلا يعتَدَّن بشيء من عمله: تقوى تحجزه عن معاصي الله، وحلمٌ يكفُّ به السفيه، وخُلُق يعيش به في الناس»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «إذا جمعَ الله الخلائق يوم القيامة، نادى منادٍ أين أهل الفضل، فيقوم ناس وهم يسيرٌ، فينطلقون سراعاً إلى الجنّة فتلقاهم الملائكة فيقولون: إنا نراكم سراعاً إلى الجنّة فيقولون: نحن أهلِ الفضل، فيقولون: ما كان فضلكم؟ فيقولون: كنّا إذا ظُلمنا صبرنا، وإذا أسيء إلينا غفرنا، وإذا جُهِلَ علينا حلمنا، فيُقال لهم: ادخلوا الجنة فنعمَ أجر العاملين»[٢].

وقال علي عليه السلام: «ليس الخيرُ أن يكثُر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر عملك ويعظُم حِلمُك، وأن لا تباهي الناس بعبادة ربّك، فإذا أحسنت حمدت الله وإذا أسأت استغفرت الله»[٣]. وعن علي بن الحسين بن علي عليهما السلام أنه سبّه رجلٌ فرمى إليه خميصة[٤] كانت عليه وأمر له بألف درهم، فقال بعضهم: جمع له خمس خصال: الحِلمُ وإسقاط الأذى، وتخليص الرجل مما يبعده من الله، وحملُه على الندم، والتوبة، ورجوعه إلى المدح بعد الذم؛ اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير.

وقال رجلٌ لجعفر بن محمد عليه السلام: إنه وقع بيني وبين قومٍ منازعة

(١) أخرجه أبو نعيم في كتاب الإيجاز بإسنادٍ ضعيف، والطبراني من حديث أم سلمة بإسنادٍ فيه لين (المغني).

(٢) رواه الأصبهاني عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده كما في الترغيب ج ٣ ص ٤١٨.

(٣) لم يذكر مصدر الحديث في الكتاب [المعد].

(٤) خميصة: ثوبٌ أسود مربّع.

في أمرٍ، وإني أريد أن أتركه، فيُقال لي: إن تركك له ذلّ. فقال جعفرعَلَيْهِ السَّلَامُ: إنَّما الذليلُ الظالم. ومرَّ المسيح ابن مريمعَلَيْهِ السَّلَامُ بقوم من اليهود، فقالوا له شراً، فقال لهم خيراً، فقيل له: إنهم يقولون شراً وأنت تقول خيراً؟ فقال: كلٌّ واحد ينفق مما عنده.

وقال لقمان: ثلاثةٌ لا يُعرفون إلاّ عند ثلاثة: لا يعرفُ الحليم إلاّ عند الغضب ولا الشجاع إلاّ عند الحرب، ولا تعرفُ أخاك إلاّ عند حاجتك إليه.

ومن طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن أبي جعفرٍعَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «قال رسول اللهصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إنّ الله يحبُّ الحيّي الحليم العفيف المتعفف»[1]. وعن أبي عبد اللّهعَلَيْهِ السَّلَامُ: قال: «قال رسول اللهصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: ما أعزَّ اللّهُ بجهلٍ قط ولا أذلّ بحلمٍ قط»[2] أي ما جعل الله الجهل طريقاً للعز ولا الحلم سبباً للذل.

وعن أبي جعفرعَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «كان علي بن الحسينعَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: إنه ليعجبني الرجلُ يدركُه حلمُه عند غضبه»[3]. وعن أبي عبد اللّهعَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «كفى بالحلم ناصراً، وقال: إذا لم تكن حليماً فتحلّم»[4] وعن حفص بن أبي عائشة قال: «بعث أبو عبد اللّهعَلَيْهِ السَّلَامُ غلاماً له في حاجة فأبطأ فخرج أبو عبد اللّهعَلَيْهِ السَّلَامُ في أثره، فوجده نائماً، فجلس عند رأسه يرّوحه[*] حتى انتبه، فلما انتبه قال له أبو عبد اللّهعَلَيْهِ السَّلَامُ: يا فلان، والله ما ذلك لك تنامُ الليل والنهار، لك الليل ولنا منك النهار»[5].

---

(١) لم أعثر على أصله، إنما أورده الشعراني في الطبقات ج ١ ص ٢٨.
(٢) (٣) (٤) (٥) الكافي ج ٢ ص ١١٢، باب الحلم.
(*) يروّحه: أي يريحه (في نومه حسب ما جاء في المتن).
(٦) الكافي ج ٢ ص ١١٢. باب الحلم.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا وقع بين رجلين منازعة نزل ملكان فيقولان للسفيه منهما: قلتَ وقلتَ، وأنت أهلٌ لما قُلت، ستُجزى بما قلت. ويقولان للحليم منهما: صبرت وحلِمت، سيغفر الله لك إن أتممت ذلك، قال فإن ردَّ الحليمُ عليه، ارتفع الملكان»[1] وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «لا يكون الرجلُ عابداً حتى يكون حليماً، وإن الرجل كان إذا تعبّد في بني إسرائيل لم يُعدَّ عابداً حتى يصمتَ قبل ذلك عشر سنين»[2].

ودخل على بعض الحكماء صديق له، فقدّم إليه الطعام، فخرجت امرأة الحكيم وهي سيئة الخُلق فرفعت المائدة وأقبلت على شتم الحكيم، فخرج الصديق مغضباً فتبعه الحكيم وقال: أتذكرُ يوماً كنا في منزلك نطعَمُ - أي نأكل - فسقطت دجاجة على المائدة وأفسدت ما عليها فلم يغضب أحدٌ منا، فقال: نعم، فقال: إحسب أنّ هذه مثل تلك الدجاجة، فَسُوِّيَ عن الرجل - أي خفّ غضبه وألمه - وانصرف وقال: صدق الحكيم، الحِلمُ شفاءٌ من كل ألم.

وضربَ رَجلٌ قدمَ حكيم فأوجعه، فلم يغضب، فقيل له في ذلك، فقال: أقمته مقام - أي افترضت أنه - حجرةٍ تعثّرت بها فوقعتُ، فذبحتُ الغضب.

وقال محمود الورّاق:

سأُلزم نفسي الصفحَ عن كلِّ مذنب ... وإن كثُرت منه عليّ الجرائمُ
وما الناس إلاّ واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومثل مقاوم
فأما الذي فوقي فأعرف فضلَهُ ... وأتبع فيه الحقَّ والحقُّ لازم

---

(١) (٢) الكافي ج ٢ ص ١١٢. باب الحلم.

وأما الذي دوني فإن قال صنتُ عن إجابته عرضي وإن لام لائمُ
وأمّا الذي مثلي فإن زلّ أو هفا تفضّلتُ إنّ الفضلَ بالخير حاكمُ

٩ ـ جواز الانتصار والتشفي

إعلم أنّ كلَّ ظلم صدر من شخص، فلا تجوز مقابلتهُ بمثله. فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغِيبة، ولا مقابلةُ التجسس بالتجسس، ولا مقابلةُ السبِّ بالسبْ، وكذا سائر المعاصي، وإنما القصاص والغرامةُ على قدر ما ورد في الشرع. قال رسول الله ﷺ: «إن امرؤ عيّركَ بما فيك فلا تُعيّره بما فيه»[١]. وقال ﷺ: «المُستبَّان شيطانان متهاتران»[٢]. وشتمَ رجلٌ أبا بكر وهو ساكت، فلما ابتدأ لينتصر منه ـ أي ليرد عليه ـ قام رسول الله ﷺ: «فقال أبو بكر: إنك كنتَ ساكتاً لـمّا شتمني، فلما تكلمتُ قمتَ؟ قال: لأنَّ الملَكَ كان يجيب عنك، فلمّا تكلَّمتَ ذهب الملَكُ وجاء الشيطان، فلم أكن لأجلس في مجلسٍ فيه الشيطان»[٣].

وقال قوم: تجوز المقابلةُ بما لا كذبَ فيه، ونهيُه ﷺ عن التعيير بمثله نهيُ تنزيهٍ، أي أن الأفضلَ ترك التعيير بالمثل، لكن المقابلَ لمن شتمه لا يعصي بفعله إن هو ردَّ، والذي يرخّصُ فيه هو أن تقول: من أنتَ! وهل أنت إلاّ من بني فلان، ومثلَ قوله: يا أحمق. قال مطرف: كلُّ الناس أحمقٌ فيما بينه وبين ربه إلاّ أن بعض الناس أقلُّ حماقة من بعض. وقال ابن عمر في حديث طويل: حتى ترى الناس كلُّهم حمقى في ذات الله. وكذلك قوله: يا جاهل، إذ ما من أحد إلاّ

---

(١) أخرجه أحمد من حديث جابر بن مسلم، وقد تقدم.

(٢) تقدم عن الطيالسي، ورواه ابن حبان ـ كما في الترغيب والترهيب ـ ج ٣ ص ٤٦٩. والمستبّان أي الرجلان يسبُّ أحدهما الآخر، والتهاتر: ادعاء الرجل على صاحبه باطلاً أو الشهادات التي يكذب بعضها بعضاً.

(٣) أخرجه أبو داوُد ج ٢ ص ٥٧٢ من حديث سعيد بن المسيّب.

وفيه جهل، فقد آذاه بما ليس بكذب». وكذلك قوله: يا سيّء الخُلق، يا صفيق الوجه[1]، (يا) ثلاّبا للأعراض[2]، وكان ذلك فيه. وكذلك قولَه: لو كان فيك حياءً لما تكلّمت، وما أحقرك في عيني بما فعلت، وأخزاك الله وانتقم منك.

وأمّا النميمة والغيبة والكذب وسبّ الوالدين فحرامٌ بالإتفاق. والدليل على جواز المقابلة بما ليس بكذبٍ وحرام ـ كأن ننسبه إلى الزنى والسبِّ والفحش ـ ما قال ﷺ: «المستبّان، ما قالا فعلى البادي منهما حتى يعتدي المظلوم»[3].

ومن طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن الكاظم عليه السلام في رجلين يتسابّان قال: «البَادي منهما أظلم ووزره ووزر صاحبه عليه ما لم يعتذر إلى المظلوم». فأثبت للمظلوم حقاً بالانتصار إلى أن يعتدي، فهذا القدر هو الذي أباحه، وهو رخْصةٌ في الإيذاء جزاءً على إيذائه السابق.. ولكنْ الأفضل ترك ذلك لأنه يجرُّ إلى ما وراءه، ولا يمكن الاقتصار على مقدار الحق فيه عادة، والسكوتُ عن أصل الجواب لعلّه أيسر من الشروع في الجواب والوقوفِ على حدِّ الشرع فيه، ولكن من الناس مَن لا يقدرُ على ضبط نفسِهِ في فورة الغضب غير أنه يعود سريعاً، ومنهم من يكفُّ نفسَهُ في الابتداء ولكن يحقد على الدوام.

والناسُ في الغضبِ أربعة: فبعضُهم كالحُلفاء سريعُ الاشتعال سريعُ الخمود، وبعضهم كالغضاء[4] بطيء الاشتعال بطيء الخمود،

---

(١) صفيق الوجه: الوجه الذي لا حياء له.

(٢) ثلاّباً من ثلبَ بمعنى عاب وتنقّص، والمثلبة: المسبّة.

(٣) أخرجه أحمد ج ٢ ص ٢٣٥، وتقدم عن عدة من المصادر.

(٤) الحلفاء: نبتٌ معروف. والغضا: شجرةٌ من الأثل خشبُها من أصلب الخشب وجمرها يبقى زماناً طويلاً.

وبعضهم بطيء الاشتعال سريعُ الخمود ـ وهو الأحمدُ بين الناس ما لم يؤد ذلك إلى فتور الحمية والغيرة ـ وبعضهم سريع الاشتعال بطيء الخمود ـ وهذا هو شرُّ الناس. وفي الخبر: «المؤمن سريع الغضب سريع الرضا فهذه بتلك»[1].

قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «ألا إن بني آدم خُلقوا على طبقات شتّى، منهم بطيء الغضب سريع الفيء، ومنهم سريع الغضب سريعُ الفيء فتلك بتلك، ومنهم سريع الغضب بطيء الفيء، ألا وإنّ خيرهم البطيء الغضب السريع الفيء، وشرهم السريع الغضب البطيء الفيء»[2].

ولما كان الغضبُ في الحال يهيج ويثور في كل إنسان، وجبَ على السلطان أن لا يعاقبَ أحداً في حال غضبه عليه، لأنه ربما يتجاوز الواجب، ولأنه يكون مغتاظاً فيأتي عقابه تشفياً؛ بقصد إراحة نفسه.. وينبغي أن يكون انتقامه وانتصاره لله لا لنفسه.

رأى بعضُ الولاة سكران، فأراد أن يأخذه ويعزّره، فشتمَهُ السكران، فرجع وقال: أغضبني، ولو عزّرته لكان ذلك لغضبي لنفسي، ولم أحبَّ أن أضرب مسلماً حميّة لنفسي.

---

(١) تقدم سابقاً.

(٢) أخرجه الطيالسي تحت رقم ٢١٥٦ والبزاز باختلاف في لفظه من طريق بن شريك عن أبيه، هما ثقتان وفيهما ضعف، وبقية رجاله رجال الحديث الصحيح عن أبي هريرة، كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٨.

آفة الحقد

١ ـ معنى الحقد

إعلم أن الغضبَ إذا لزمَ كظمُهُ لعجزٍ عن التشفي في الحال، رجعَ إلى الباطن واحتقن فيه، فصار حقداً. ومعنى الحقد أن يُلزِمَ قلبَهُ استثقالَ امرىءٍ والبُغضةَ له، والتنفُّرَ منهُ، وأنْ يداوم على ذلك ويستمرَّ. وقد قالﷺ: «المؤمن ليس بحقود»[1] فالحقدُ ثمرةُ الغضب.

٢ ـ ثمار الحقد

يثمر الحقد ثمانية أمور: الحسد، والشماتة، والهجران، والاستصغار، وارتكاب المحرَّم، والمحاكاة أو التقليد لتصرفات المحقود عليه، والإيذاء، ومنع الحقوق.

٢: أ ـ الحسد

وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنّى زوال النعمة عنه، فتغتمّ بنعمةٍ إن أصابها، أي نالها، وتُسرَّ بمصيبة إن نزلت به؛ وهذا من فعل المنافقين ـ أعني الحسد ـ وسيأتي ذمه.

(١) تقدم في كتاب العلم.

٢: ب ـ الشماتة

بأن تزيد على إضمار الحسد في باطنك، فتشمت بما يصيبه من البلاء.

٢: ج ـ الهجران

بأن يحملك الحقد على أن تصارمه ـ أي تقاطعه ـ وتنقطع عنه، وإن طلبَكَ وأقبلَ عليك.

٢: د ـ الاستصغار

بأن يكون إعراضك عنه استقلالاً لشأنه واستهانة به.

٢: هـ ـ إرتكابُ المحرّم

بأن تتكلم فيه بما لا يحلُّ من كذبٍ وغِيبةٍ وإفشاءِ سرٍّ وهتك سترٍ، وغير ذلك من المحرمات.

٢: و ـ المحاكاة والتقليد

بأن تقلّد أفعاله وأقواله استهزاءً به وسخريةً منه.

٢: ز ـ الإيذاء

بأن يدفعك الحقد كي تضربَهُ وتؤلمَ بدنه.

٢: ح ـ منع الحقوق

بأن تحرمه من حقوقه كصلة الرحم، وقضاء الدّين، أو ردّ مظلمة.

وكل ذلك حرام، وأقلُّ درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة، ولا تخرُجَ بسبب الحقد إلى ما تعصي الله به،

ولكن تستثقله في باطنك ولا يتوقف قلبُك عن بغضه حتى تمتنع عمّا كُنت تتطوع به من البشاشة والرّفق والعناية، والقيام بحاجاته، والمجالسةِ معه على ذكر الله، والمعاونة على ما ينفعه، أو حتى تتركَ الدعاء له والثناءَ عليه أو الحرص على برّه ومواساته. فهذا كلُّه مما يُنقص درجتك في الدين، ويحولُ بينك وبين فضلٍ عظيم وثواب جزيل، وإن كان لا يعْرِضُك لعقاب الله. والأولى أن يبقى على ما كان، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسانِ مجاهدةً للنفس وإرغاماً للشيطان، فذلك هو مقام الصديقين، وهو من فضائل أعمال المقرّبين.

فللحقود ثلاثة أحوالٍ عند القدرة: أحدها، أن يستوفي حقّه الذي يستحقّه من غير زيادة أو نقصان؛ وهو العدل. والثاني، أن يُحسن إليه بالعفو والصّلة؛ وذلك هو الفضل. والثالث، أن يطلبه[1] بما لا يستحقه؛ وذلك هو الجور، وهو اختيار الأراذل، والثاني هو اختيار الصديقين، والأول هو منتهى درجة الصالحين. ولنذكر الآن فضيلة العفو والإحسان.

٣ ـ فضيلة العفو

إعلم أنّ العفو هو أن تستحقّ حقاً فتُسقطه وتبرأ عنه من قصاصٍ أو غرامة، وهو غير الحلم وكظم الغيظ، فلذلك أفردناه. قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ: «التواضعُ لا يزيدُ العبدَ إلاّ رفعة،

(١) في «الإحياء» أن يظلمه بما لا يستحقه.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

فتواضعوا يرفعُكُم الله، والعبدُ لا يزيدُ العبدَ إلاّ عزًّا، فاعفُ يُعزكم، والصدقة لا تزيد المال إلاّ كثرة فتصدقوا يغنكم الله»[1]،

وقالت عائشة: «ما رأيتُ رسول الله ﷺ منتصراً من مظلَمة ظُلمها قط، ما لم يُنتهك حرمةٌ من محارم الله، فإذا انتهك من محارم الله شيءٌ، كان أشدّهم في ذلك غضباً، وما خُيِّرَ بين أمرين إلاّ اختار أيسرهما مما لم يكن مأثماً»[2].

وقال عقبةُ بن عامر: «لقيتُ رسول الله ﷺ يوماً فبدرتُه فأخذت بيده أو بدرني فأخذ بيدي، فقال: يا عقبةُ، ألا أُخبركَ بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تصلُ من قطَعك وتعطي من حرمك وتعفو عمّن ظلمك»[3].

وقال رسول الله ﷺ: «قال موسى: يا ربِّ أيُّ عبادك أعزَّ عليك؟ قال: الذي إذا قدر عفا»[4]. وجاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو مظلمة، فأمره النبي ﷺ أن يجلس، وأراد أن يأخذ له بمظلمته، فقال رسول الله ﷺ: «إنّ المظلومين هم المفلحون يوم القيامة» فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث[5]. وعنه ﷺ: «من دعا على من ظلمه فقد

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت عن محمد بن عميرة العبدي بسندٍ ضعيف كما في الجامع الصغير، ولأحمد في مسندِ عبد الرحمن بن عوف مثلُه. راجع المسند ج ١ ص ١٩٣.
(٢) أخرجَهُ مسلم باختلاف في اللفظ ج ٧ ص ٨٠؛ وقد تقدم.
(٣) أخرجه أحمد ج ٤ ص ١٤٨ و ١٥٨، والطبراني، وأحد إسنادي أحمد رجاله ثقات كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٨٩. بدرتُه: أي بادرتُه.
(٤) أخرجه الخرائطي في المكارم، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة، كما في الجامع الصغير.
(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب من رواية أبي صالح الحنفي؛ بسندٍ ضعيف كما في الجامع الصغير.

انتصر»[1]. وعنه ﷺ: «إذا بعث الله الخلائق يوم القيامة نادى منادٍ من تحت العرش ثلاثة أصوات: يا معشر الموحدين، إن الله قد عفا عنكم فليعفُ بعضُكم عن بعض»[2].

وروي «أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة، طافَ بالبيت وسعى وصلّى ركعتين، ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي[3] الباب، فقال: ما تقولون وما تظنون؟ قالوا: نقول أخٌ وابن عمٍّ حليمٌ رحيمٌ ـ قالوا ذلك ثلاثاً ـ فقال رسول الله ﷺ: أقولُ كما قال أخي يوسف: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحمُ الرحمين» قال: «فخرجوا كأنما نُشروا من القبور فدخلوا في الإسلام»[4].

وعنه ﷺ: «إذا وقفَ العبادُ نادى منادٍ: ليقُم من أجره على الله فليدخل الجنة، قيل: من ذا الذي أجرهُ على الله؟ قال: العافونَ عن الناس، فيقوم كذا وكذا ألفاً فيدخلونها بغير حساب»[5].

وقال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لوالي أمرٍ أتى بحدٍّ إلاّ أقامه، والله عفوٌّ يحبُّ العفو، ثم قرأ ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾[6] وقال جابر: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ من جاء بهنَّ مع إيمان، دخل من أي أبواب الجنّة شاء، وزوّجَ من الحور العين حيث شاء: من أدى دِيناً حنيفاً، وقرأ في دُبُر كل صلاة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشر مرات، وعفا عن

---

(١) أخرجه الترمذي ج ١٣ ص ٦٦ من حديث عائشة.

(٢) ما عثرتُ على لفظ الحديث.

(٣) عِضَادَتا الباب: خشبتاه من جانبيه.

(٤) أورده جُلُّ المؤرخين في قصة فتح مكة. راجع تاريخ الطبري، وسيرة ابن هشام، والكامل لابن الأثير ج ٢ ص ١٢٠.

(٥) أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق، وفيه فضلُ بن يسار، ولا يتابعُ على حديثه.

(٦) أخرجه أحمد ج ١ ص ٤٣٨، والحاكم وصححه.

قاتله. قيل: أو إحداهنَّ يا رسول الله؟ قال: أو إحداهنَّ»[1].

ومن طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبته: ألا أُخبركم بخيرِ خلائق الدنيا والآخرة: العفو عمّن ظلمك، وتصلُ من قطعك، والإحسان إلى من أساء إليك، وإعطاءُ من حرمك»[2]. وعنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عليكم بالعفو، فإن العفو لا يزيدُ العبدَ إلاّ عزّاً، فتعافوا يعزّكم الله»[3]. وعن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين عليه السلام قال: سمعته يقول: «إذا كان يوم القيامة جمعَ اللّهُ تعالى الأولين والآخرين في صعيدٍ واحد، ثم ينادي منادٍ: أين أهل الفضل؟ قال: فيقوم عُنُق من الناس فتلقّاهم الملائكة فيقولون: وما كان فضلكم؟ فيقولون: كنّا نصلُ من قطعنا، ونعطي من حرمنا، ونعفو عمن ظلمنا، قال: فيُقال لهم: صدقتم، ادخلوا الجنة»[4].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «الندامةُ على العفو أفضلُ وأيسرُ من الندامة على العقوبة»[5]. وعنه عليه السلام قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله أُتي باليهودية التي سمّت الشاة للنبي صلى الله عليه وآله فقال لها: ما حملكِ على ما صنعتِ؟ فقالت: قلتُ: إن كان نبياً لم يضرَّه، وإن كان ملِكاً أرحتُ الناس منه، قال: فعفا رسول الله صلى الله عليه وآله عنها»[6].

وعن أبي عبد اللّه عليه السلام: «ثلاثٌ من مكارم الدنيا والآخرة: تعفو عمن ظلمك، وتصلُ من قطعك، وتحلم إذا جُهل عليك»[7]. وعن أبي الحسن عليه السلام قال: «ما التقت فئتانِ قطُّ إلاّ نصر أعظمهما عفواً»[8].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط في الدعاء بسندٍ ضعيف كما في المغني.

(٢) الكافي ج ٢ ص ١٠٧. والخلائق: جمع الخليقة وهو الطبيعة، والمراد هنا الملكات النفسانية الراسخة.

(٣) الكافي ج ٢ ص ١٠٧ و ١٠٨، باب العفو. وتعافوا: أي تبادلوا العفو فيما بينكم.

(٤) (٥) (٦) (٧) (٨) الكافي ج ٢ ص ١٠٧ و ١٠٨، باب العفو.

وعن معتّب قال: «كان أبو الحسن موسى عليه السلام في حائطٍ[1] لم يُصرم[2] فنظرت إلى غلام له قد أخذ كارة[3] من تمر فرمى بها وراء الحائط، فأتيته وأخذته وذهبت به إليه، فقلت له: جعلت فداك، إني وجدت هذا وهذه الكارة، فقال للغلام: يا فلان، قال: لبيك، قال: أتجوع؟ قال: لا يا سيدي، قال: فتعرى؟ قال: لا يا سيدي، قال: فلأي شيء أخذت هذا؟ قال: اشتهيتُ ذلك، قال: إذهب فهي لك، وقال: خلّوا عنه»[4].

في الآثار، قيل لراهب: أرأيت ذا القرنين، أكان نبياً؟ قال: لا، ولكنه إنما أعطي ما أعطي بأربعِ خصالٍ كُنَّ فيه: كان إذا قدِر عفا، وإذا وعدَ وفا، وإذا حدّث صدق، ولا يجمعُ اليوم لغد. فقال بعضهم: ليس الحليم من ظُلم فحلِمَ حتى إذا قدِرَ انتقم، ولكنّ الحليم من ظُلم فحلِمَ، ثم قدر فعفا. وقيل: القدرةُ تذهبُ الحفيظة، يعني الحقد والغضب.

وروي أن سارقاً دخل على خبأ عمار بن ياسر بصفين، فقيل له: اقطعه ـ أي أقم عليه حدّ القطع ـ فإنه من أعدائنا، فقال: بل أسترُ عليه، لعلّ الله أن يسترَ عليّ يوم القيامة.

وجلس ابن مسعود في السوق يبتاعُ متاعاً، فابتاع ثم طلبَ الدراهم ـ أي مدَّ يده إليها ليأخذها ـ وكانت في عمامته، فوجدها قد حُلَّت ـ أي أرخيت وفتحت وأُخذ ما فيها ـ فقال: لقد جلستُ وإنها

(١) حائط: بستان.
(٢) يصرم: من صرمَ النّخل أي جزّه.
(٣) كارة: مكيال.
(٤) الكافي ج ٢ ص ١٠٨.

لمعي، فجعلوا يدعون على السارق: اللهم إقطع يد السارق الذي أخذها، فقال عبد اللَّه: اللهمَّ إن كان حَملَهُ على أخذها حاجة فبارك له فيها، وإن كان حملَتهُ على الذنب جُرأةٌ فاجعله آخر ذنوبه.

وقال الفضيل: ما رأيتُ رجلاً أزهد من رجلٍ من أهل خراسان، جلسَ إليَّ في المسجد الحرام، ثم قام ليطوف فسُرقَت دنانيرٌ كانت معه، فجعل يبكي، فقلتُ: أعلى الدنانير تبكي؟ قال: لا، ولكن مثّلتُني وإياه - أي تخيلت أنني وإياه - بين يدي الله عز وجل، فأشرفَ عقلي على إدحاض حجته - أي قام عقلي بإبطال حجّته - فبكائي رحمةٌ له. وقيل: مكتوبٌ في الإنجيل: من استغفر لمن ظَلَمَهُ فقد هزمَ الشيطان.

٤ - فضيلةُ الرفق

إعلم أن الرفقَ محمود ويضاده العنفُ والحدَّة. والعنفُ نتيجة الغضب والفظاظة، والرفقُ واللين نتيجةُ حسنِ الخُلُقِ والسلامة. وقد يكون سبب الحدّة الغضب، وقد يكون سببها شدّةَ الحرص واستيلاءه - أي سيطرته الشاملة - بحيث يُدهش عن التفكّر - أي يمنعُ العقل عن التفكير الصحيح - ويمنعُ من التثبّت. فالرفق في الأمور ثمرةٌ لا يثمرها إلاّ حسنُ الخُلق، ولا يحسنُ الخُلُق إلاّ بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة وحفظهما على حدِّ الاعتدال. ولأجل هذا أثنى رسول الله ﷺ على الرفق، وبالغَ فيه، فقال: «إنه من أُعطي حظَّهُ من الرفق، أُعطي حظّه من خير الدنيا والآخرة، ومن حُرمَ حظه من الرفق، حُرمَ حظّه من خير الدنيا والآخرة»(١) وقال ﷺ: «إذا أحبَّ الله أهل بيتٍ أدخلَ

---

(١) أخرجه الترمذي بنحوه، وأخرجه بلفظه أحمد، والعقيلي في الضعفاء في ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكرٍ المليكي وضعّفه عن القاسم عن عائشة (المغني).

عليهم الرفق»[1]. وقالﷺ: «إن الله ليُعطي على الرفق ما لا يعطي على الخُرق، وإذا أحبَّ الله عبداً أعطاهُ الرفق، وما من أهل بيتٍ يُحرمون الرفق إلاّ قد حُرموا محبة الله»[2].

وقالﷺ: «إنّ الله رفيق يحبُّ الرفق، ويعطي عليه ما لا يُعطي على العنف»[3] وقالﷺ: «من يُحرم الرفق يحرمِ الخير كلّه»[4] وقالﷺ: «أتدرون من يحرّمُ على النار؟ كلُّ هيّنٍ ليّنٍ سهلٍ قريب»[5] وقالﷺ: «الرّفق يُمنٌ والخُرق[6] شؤم»[7]. وقالﷺ: «التأنّي من الله والعجلة من الشيطان»[8].

ومن طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن أبي جعفرٍعليه السلام قال: «قال رسول اللهﷺ: لو كان الرّفق خَلقاً يُرى، ما كان مما خلقَ اللَّهُ شيءٌ أحسن منه»[9] وعنهعليه السلام قال: «قال رسول اللهﷺ: إن الرفق لم يوضع على شيءٍ إلاّ زانَهُ، ولا نُزعَ من شيءٍ إلاّ شانَه[10]»[11].

---

(١) أخرجَهُ أحمد من حديث عائشة بسندٍ صحيح، كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٩، ولفظُه هكذا «إذا أراد الله بأهل بيت خيراً ـ الحديث» وهكذا رواه البزاز عن جابر.

(٢) أخرجه الطبراني ورجاله ثقات، من حديث جرير بن عبد اللَّه، كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٨.

(٣) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٣٦٨٨.

(٤) أخرجه أبو داوُد ج ٢ ص ٥٥٤ من حديث جرير بن عبد اللَّه.

(٥) أخرجه الترمذي وابن حبان في صحيحيهما، كما في الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤١٨.

(٦) الخُرق: الحمق.

(٧) أخرجه البيهقي في الشُعب من حديث عائشة بسندٍ ضعيف، كما في الجامع الصغير.

(٨) أخرجه الترمذي ج ٨ ص ١٧٢.

(١٠) شانه: عابه.

(٩) و(١١) الكافي ج ٢ ص ١١٩ وص ١٢٠، باب الرفق.

وعنه عليه السلام: «إن الله رفيقٌ يحبُّ الرفق»[1] وعنه عليه السلام قال: «إن لكلِّ شيءٍ قفلاً، وقفلُ الإيمان الرفق، ويُعطى على الرفق ما لا يُعطى على العنف»[2].

وعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الرفقُ يمنٌ والخرق شؤم»[3]. وعنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما اصطحبَ اثنان إلاّ كان أعظمُهما أجراً، وأحبّهما إلى الله تعالى أرفقهما بصاحبه»[4]. وعنه عليه السلام: «من كان رفيقاً في أمره نال ما يريدُ من الناس»[5]. وعنه عليه السلام: «إن الله رفيق يحبُّ الرفقَ، فمِن رفقه بعباده تسليلُه أضغانَهم، ومضادته لهواهم وقلوبهم، ومن رفقه بهم أنه يدعُهُم على الأمر يريد إزالتَهُم عنه رفقاً بهم لكيلا يُلقي عليهم عُرى الإيمان ومُثَاقَلتَهُ جملةً واحدة فيضعفوا، فإذا أراد ذلك نسخَ الأمرَ بالآخر فصار منسوخاً»[6].

وعن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: «الرفقُ نصف العيش»[7] وعنه عليه السلام قال لمَن جرى بينه وبين قومه كلامٌ: «إرفق بهم فإنَّ كُفرَ أحدِكُم في غضبه، ولا خيرَ فيمن كان كفرُهُ في غضبه»[8]. وعن عمرو ابن أبي المقدام رفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله قال: «إنّ في الرفقِ الزيادة والبركة، ومن يحرم الرفق يحرم الخير»[9]. وعنه رفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله:

---

(١) (٢) الكافي ج ٢ ص ١١٩ وص ١٢٠، باب الرفق.

(٣) (٤) (٥) الكافي ج ٢ ص ١١٩ وص ١٢٠ باب الرفق.

(٦) الكافي ج ٢ ص ١١٨. والتسليل: انتزاع الشيء وإخراجُه في رفق. والأضغان: الأحقاد التي في القلوب، والعداوة والبغضاء. والمضادّة: منعُ الخصم عن الأمر برفق. عرى الإيمان: من العروة وهي ما يوثق به وما يعوّل عليه. مثاقلته: أي ثقله جملة واحدة: أي دفعة واحدة.

(٧) (٨) (٩) الكافي ج ٢ ص ١١٩ و ١٢٠، باب الرفق.

«ما زُويَ الرفقُ عن أهل بيتٍ إلاّ زويَ[1] عنهُمُ الخير»[2].

فهذا ثناءُ أهل العلم على الرفق، وذلك لأنه محمود ومفيد في أكثر الأحوال وأغلبِ الأمور، والحاجةُ إلى العنف قد تقع، لكن نادراً. وإنما الكاملُ من يميّزُ مواقع الرفق عن مواقع العُنف، فيُعطي كل أمرٍ حقّه، فإن كان قاصِرَ البصيرة وأُشكل عليه حكمُ واقعةٍ من الوقائع، فليكن ميلُه إلى الرفق، فإنّ النّجحَ ـ أي النجاح ـ معه في الأكثر.

وله الحمد أولاً وآخراً

---

(١) زويَ: بمعنى منع وحرم.

(٢) الكافي ج ٢ ص ١١٩ و ١٢٠، باب الرفق. وزويَ بمعنى منع وحرم.

آفة الحسد

١ ـ حقيقة الحسدِ وحكمُه

إعلم أنه لا حسد إلاّ على نعمة، فإذا أنعمَ اللّهُ على أخيكَ بنعمةٍ، فلك فيها حالتان: إحداهما، أن تكره تلك النعمة وتحبَّ زوالها؛ وهذه الحالة تسمى حسداً. فالحسد حدّهُ كراهة النعمة وحبُّ زوالها من المنعَمِ عليه. والحالة الثانية، أن لا تحبَّ زوالها ولا تكره وجودها ودوامها، ولكنك تشتهي لنفسك مثلها؛ وهذه تسمّى غبطة، وقد تُخصُّ باسم المنافسة. وقد تسمّى المنافسةُ حسداً، والحسدُ منافسةً، ويوضعُ أحد اللفظين بدل الآخر، لكن لا حجرَ في الأسماء ـ أي لا منع ولا مشاحّة وخلاف ـ بعد فهم المعاني. وقد قالﷺ: «إن المؤمن يغبطُ والمنافقَ يحسُد»[١].

فأمّا الأول ـ أي الحالة الأولى ـ فهو حرام على كل حال، إلاّ حالَ نعمةٍ أصابها فاجر أو كافر، وهو يستعين بها على تهييج الفتنة وإفساد ذات البين وإيذاء الخلق، فلا يضرُّك كراهتك لها ومحبتك لزوالها، فإنك لا تحب زوالها من حيث إنها نعمة، بل من حيث إنها آلةُ الفساد، ولو أمنت من فساده لم تغمُّك نعمته.

---

(١) رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٣٠٧ تحت رقم ٧، وقد تقدم.

ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي سننقلها، وإن هذه الكراهة سخطٌ لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة، وأيُّ معصية تزيد على كراهتك لراحةِ مسلمٍ من غير أن يكون لك فيها مضرّة!

وإلى هذا أشار القرآن بقوله: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾[1]، وهذا الفرح شماتة، والحسدُ والشماتةُ يتلازمان. وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[2] فأخبر أن حبهم زوال نعمةِ الإيمان حسد. وقال: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾[3]، وذكرَ الله حسدَ إخوةِ يوسف، وعبّر عمّا في قلوبهم فقال: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٨ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾[4]، فلمّا كرهوا حبَّ أبيه له ساءهم ذلك وأحبوا زوالها عنه، فغيّبوه عن أبيهم. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾[5]، أي لا تضيق به صدورهم ولا يغتمون، فأثنى عليهم بعدم الحسد، وقال تعالى في معرض الإنكار: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[6] وقال: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[7] قيل في

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٩.

(٤) سورة يوسف، الآيتان: ٨ ـ ٩.

(٥) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٦) سورة النساء، الآية: ٥٤.

(٧) سورة البقرة، الآية: ٢١٢.

التفسير: حسداً، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾[(١)] فأنزل الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته، وأمرهم أن يتألّفوا بالعلم، فتحاسدوا واختلفوا، حيث أراد كلٌّ منهم أن يتفرّدَ بالرئاسة وقبول القول، فردَّ بعضهم على بعض.

قال ابن عباس: كانت اليهود قبل أن يُبعث النبيﷺ إذا قاتلوا قوماً قالوا: نسألك بالنبيّ الذي وعدتنا أن ترسِلَهُ، وبالكتاب الذي تنزّله إلاّ ما نصرتنا، فكانوا يُنصرون. فلما جاء النبيﷺ من ولدِ إسماعيل عرفوه وكفروا به بعد معرفتهم إياه، فقال تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾ إلى قوله: ﴿أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا﴾ أي حسداً[(٢)].

وقالت صفية بنت حُييّ للنبيﷺ: «جاء أبي وعمّي من عندكَ يوماً، فقال أبي لعمّي: ما تقول فيه؟ قال: أقول: إنه النبي الذي بشّر به موسى، قال: فماذا ترى؟ قال: أرى معاداته أيام الحياة»[(٣)]؛ فهذا حكم الحسدِ في التحريم.

وأمّا المنافسةُ فليست بحرام، بل هي إمّا واجبة وإمّا مندوبة أو مباحة، وقد يُستعمَلُ لفظ المنافسةِ بدلَ الحسد، والحسدِ بدل المنافسة. قال قُثَم بن العباس لمّا أراد هو والفضل أن يأتيا النبيﷺ

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٤.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق عطاء وضحّاك عن ابن عباس، كما افي الدر المنثور ج ١ ص ٨٨، والآية في سورة البقرة: ٨٩.

(٣) أورده ابن إسحاق في السيرة، قال: حدثني أبو بكر بن محمد بن عمر بن حزم قال حديث عن صفية فذكر نحوه وهو منقطع. (المغني).

فيسألانه أن يؤمرهما على الصدقة، قالا لعليّ حين قال لهما: لا تذهبا إليه فإنه لا يؤمركما عليها، فقالا له: ما هذا منك إلاّ نَفاسة واللهِ لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك[1]. أي هذا منك حسد، وما حسدناك على تزويجك فاطمة.

فالمنافسة مشتقة في اللغة من النفاسة، والذي يدل على إباحة المنافسة قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[2]، وقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[3]، وإنما المسابقة عند خوف الفوت، وذلك كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما، إذ يجزع كلّ واحدٍ أن يسبقه صاحبُه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها، فكيف وقد صرح رسول الله ﷺ بذلك، فقال: «لا حسدَ إلاّ في اثنين رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته[4] في الحق، ورجل آتاه الله علماً فهو يعمل به ويعلمه الناس»[5]، ثم فسّر ذلك في حديث أبي كبشة الأنصاري، فقال: «مثلُ هذه الأمة مثل أربعة رجال: رجل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل بعلمه في ماله، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً، فيقول: ربِّ! لو أنّ لي مال فلان كنتُ أعملُ فيه بمثل عمله، فهما في الأجر سواء [وهذا منه حبٌّ لأن يكون له مثل ما كان له من غير حبِّ زوال النعمة عنه، قال[6]]: ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفق في معاصي الله، ورجلٌ لم يؤته الله مالاً فيقول: «لو أنّ لي مال فلان كنتُ أعملُ بمثل

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١١٨ وفيه ربيعة بن حارث مكان قثم.
(٢) سورة المطففين، الآية: ٢٦.
(٣) سورة الحديد، الآية: ٢١.
(٤) يريد من هلكته صرفَه في وجوهه. المعد.
(٥) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٤٢٠٨ من حديث عبد الله بن مسعود.
(٦) ما بين القوسين من المؤلف ـ الغزالي ـ ذكرها توضيحاً.

عمله، فهما في الوزر سواء»[1] فذمه رسول الله ﷺ من جهة تمنّيه للمعصية، لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله، فإذاً لا حرج على من يغبطُ غيره في نعمةٍ ويشتهي لنفسه مثلها، طالما أنه لم يحبَّ زوالها عنه ولم يكره دوامها له. نعم، إن كانت تلك النعمة نعمةً دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة، فهذه المنافسة واجبة، وهو أن يحبَّ أن يكون مثله، لأنه إن لم يحبَّ ذلك فسيكون راضياً بالمعصية، وذلك حرام. وإن كانت النعمة من الفضائل كإنفاق الأموال في المكارم والصدقات، فالمنافسة فيها مندوب إليها، أي مستحبة. وإن كانت نعمةً يُتنعَّمُ فيها على وجهٍ مباح، فالمنافسة فيها مباحة؛ الميزان في ذلك يرجع إلى رغبته في أن يساوي منافسه ويلحق به في النعمة، وليس إلى كرهه لها. فالمنافسة المشروعة إنما تكون عندما يوجد في البين أمران: أحدهما، راحةُ المنعَم عليه. والآخر، ظهور نقصان غيره وتخلفه عنه ـ أي عن صاحب النعمة ـ فيكره المنافسُ أحد الأمرين، وهو تخلّفُ نفسه عن المنعَمِ عليه، ويحب مساواته له.

ولا حرج على من يكرهُ تخلُّفَ نفسه ونقصانها في المباحات. نعم، ذلك يُنقص من الفضل، ويناقض الزهد والتوكل والرضا، ويحجب عن المقامات الرفيعة، ولكنه لا يوجب العصيان. وههنا مسألة دقيقة غامضة، وهي أنه إذا أيسَ عن أن ينالَ مثل تلك النعمة، وهو يكره تخلفه ونقصانه، فلا محالة يحبُّ زوال النقصان. وإنما يزول نقصانه إمّا بأن ينال مثلَها أو بأن تزول نعمةُ المحسود، فإذا انسدَّت إحدى الطريقتين، يكاد القلبُ لا ينفكُّ عن شهوةٍ للطريقة الأخرى، حتى إذا زالت النعمةُ عن المحسود، كان ذلك أشهى عنده

---

(١) أخرجه ابن ماجة في باب النية تحت رقم ٤٢٢٨.

من دوامها، إذ بزوالها يزول تخلّفُه وتقدُّمُ غيره، وهذا لا يكادُ ينفكُّ القلب عنه، فإن كان بحيث لو أُرجعَ الأمرُ إليه ورُدَّ إلى اختياره لسعى في إزالة النعمة عنه، فهو حسودٌ حسداً مذموماً، وإن كانت التقوى تردعُهُ عن إزالة ذلك، يُعفى عما يجدُه في طبعه من الارتياح إلى زوال النعمة عن محسوده، بقدر ما يكون كارهاً لذلك من نفسه بعقلِه ودينه. ولعله المعنيُّ بقوله ﷺ: «ثلاثٌ لا ينفكُّ المؤمن عنهنّ: الحسدُ والظنُّ والطِّيَرة[1] ـ ثم قال: ـ وله منهنّ مفرج، إذا حسدتَ فلا تبغِ»[2] أي إذا وجدت في قلبِكَ شيئاً فلا تعمل به، وبعيد أن يكونُ الإنسانُ مريدَ اللحاق بأخيه في النعمة فيعجزُ عنها ثم ينفكُّ عن ميلٍ إلى زوال النعمة، إذ يجدُ لميله هذا ترجيحاً على ميله لبقائها. فهذا الحدُّ من المنافسةِ يجعل الحسد متاخماً للحرام، فينبغي أن يحتاط فيه، فإنه موضعُ الخَطر، وما من إنسان إلاّ وهو يرى فوق نفسه شخصاً من معارفه وأقاربه يحبُّ أن يساويه، ويكادُ ذلك ينجرُّ إلى الحسد المحظور إن لم يكن قويَّ الإيمان وحسنَ التقوى، وكلّما كان محرّكُه خوف التفاوتِ، وظهورَ نقصانه عن غيره، فسوف يجره ذلك إلى الحسد المذموم، وإلى ميل الطبعِ إلى زوال النعمة عن أخيه، حتى ينزل أخوه إلى مساواته، حيث لم يقدر هو أن يرتقي إلى مساواته بإدراك النعمة؛ وذلك لا رخصةَ فيه أصلاً، بل هو حرامٌ سواء أكان في مقاصدِ الدين أو مقاصد الدنيا، ولكن يُعفى عنه في ذلك ما لم يعمل به إن شاء الله، وتكون كراهته لوجود هذه الحالة في نفسه كفّارة له. فهذه حقيقةُ الحسد وأحكامه.

---

(١) الطِيَرة: ما يُتشاءمُ به.

(٢) أخرجه الطبراني، وفيه إسماعيل بن قيس الأنصاري، وهو ضعيف كما في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٧٨.

٢ ـ مراتبُ الحسد

للحسد مراتب أربع: الأولى، أن يُحبَّ زوال النعمة عنه وإن كانت لا تنتقل إليه؛ وهذه غاية الخبث. الثانية أن يحبَّ زوال النعمة عنه [إليه] لرغبته في تلك النعمة، كرغبته في دار حسنةٍ أو آمرأة جميلة أو ولاية نافذة واسعة نالها غيره، وهو يحبُّ أن تكونَ له، ومطلوبُه تلك النعمة لا زوالها عنه ـ أي عن المتنعم بها ـ ومكروهه فقدُ النعمة، لا تنعُّمَ غيرِه بها. الثالثة، أن لا يشتهي عينها بل يشتهي لنفسه مثلها، فإن عجز عن مثلها، أحبَّ زوالها عن المتنعّم بها، كيلا يظهر التفاوت بينهما. الرابعة، أن يشتهي لنفسِهِ مثلَها، فإن لم يحصل ما يريده، فلا يحبُّ زوالها عن المتنعم بها؛ وهذا الأخير هو المعفوُّ عنه إن كان في الدنيا، والمندوب إليه إن كان في الدين. والمرتبة الثالثة فيها المذموم وغير المذموم، والمرتبة الثانية أخفُّ من الثالثة، والمرتبة الأولى هي الحسدُ المذموم بالكامل. وتسميةُ الثانية حسداً فيه تَجوُّزٌ ـ أي استعمال للفظ الحسد في غير ما وضع له (استعمال مجازي) ـ وتوسّع، ولكنّه مذموم. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۢ﴾[1]. فتمنيه لمثل ذلك غير مذموم، أمّا تمنّيه عين ذلك فمذموم.

٣ ـ أسبابُ الحسد والمنافسة

أما المنافسةُ فسببها حبُّ ما يُتنافسُ بشأنه، فإن كان ذلك أمراً دينياً فسبُبه حبُّ الله تعالى وحبُّ طاعته، وإن كان دنيوياً فسببه حبُّ مباحات الدنيا والتنعم فيها. وبحثنا الآن هو حول الحسدِ المذموم، ومداخلُهُ كثيرة جداً، ولكن تنحصِرُ جملةُ هذه المداخل بسبعة أسباب:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٢.

العداوة، والتعزّزُ، والكبرُ، والتعجب، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة، وحبّ الرئاسة، وخبث النفس وبخلها. فإن المرء إنما يكره النعمة على المنعَم عليه لأنه عدوه فلا يريد له الخير؛ وهذا لا يختص بالأمثال ـ أي فيمن يُشبه الواحدُ منهم الآخر في الحال والصفات والمقام ـ بل يحسدُ الخسيسُ الملكَ بمعنى أنه يُحبُّ زوال نعمته لكونه مبغضاً له بسبب إساءته إليه أو إلى من يحبّه. وإمّا أن يكون الكرهُ من حيثُ يعلم أنه سيتكبّر بالنعمة عليه، وهو لا يطيقُ احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه؛ وهو المراد بالتعزز. وإمّا أن يكون في طبعه أن يتكبر على المحسود ويمتنع ذلك عليه بسبب نعمته؛ وهو المراد بالتكبّر. وإمّا أن تكون النعمةُ عظيمة والمنصب كبيراً، فيتعجّب من فوز مثله بمثل تلك النعمة؛ وهو المراد بالتعجب. وإمّا أن يخاف من فوات مقاصدِه وغاياته بسبب نعمة المحسود، بأن يتوصل بها إلى مزاحمته في أغراضه. وإمّا أنّه يحبُّ الرئاسة التي تقوم على أساس الاختصاص بنعمةٍ لا يُساوى فيها. وإمّا أن لا يكون لسبب من هذه الأسباب، بل لخبثِ النفسِ وشحِّها بالخير لعباد الله؛ ولا بدّ من شرح هذه الأسباب.

السبب الأول: العداوة والبغضاء

وهو أشدُّ أسباب الحسد، فإنّ من آذاه إنسان بسبب من الأسباب، وخالفَهُ في غرضه بوجه من الوجوه، أبغضهُ قلبه وغضِبَ عليه، ورسخ في نفسه الحقد. والحقد يقتضي التشفي والانتقام، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى منه بنفسه، أحبَّ أن يتشفى منه بتغيّر الزمان، وربما يبرر ذلك بكرامة نفسه عند الله، فكلّما أصابت عدوَّهُ بلية فرح بذلك، وظنّها مكافأة من جهة الله له على بغضه، وإنما قد أصابه ذلك لأجله. وكلما أصابته نعمة ساءه ذلك لأن هذا ضدُّ مراده،

وربما بدا له أنّه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه، بل لقد أنعم عليه.

وبالجملة، فالحسد يلازم البغض والعداوة ولايفارقها، وإنّما غاية التقى أن لا يبغي، وأن يكره ذلك ـ الحسد ـ من نفسه. وأمّا أن يبغض إنساناً ثم تستوي عنده مسرّتُه ومساءته فهذا غير ممكن، وهو ما وصف الله الكفارَ به ـ أعني الحسد بالعداوة ـ إذ قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾(١) وكذلك قال: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾(٢) والحسدُ بسبب البغض ربما يُفضي إلى التنازع والتقاتل واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيلِ والسعاية، ـ أي الوشاية ـ وهتك الستر وغير ذلك مما يجري مجراه.

السبب الثاني: التعزز

وهو أن يَثقل عليه أن يترفّع عليه غيره، فإذا أصابَ بعضُ أمثالِه ولايةً أو علماً أو مالاً، خاف أن يتكبر عليه، وهو لا يطيقُ تكبره، ولا تسمح نفسُه باحتمال صَلَفِهِ(٣) وتفاخره عليه، فليس غرضه من الحسد أن يتكبر، بل غرضُه أن يدفعَ كبرَ المنعَمِ عليه، فإنه قد رضي بمساواته له مثلاً، ولكن لا يرضى بترفّعه عليه.

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١١٩ ـ ١٢٠.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١١٨.

(٣) صَلِفَ ـ يَصلِفُ: تمدّح بما ليس فيه أو عنده، وادعى فوق ذلك تكبّراً فهو صَلِفٌ ـ كَكَتِفٌ ـ وصلِفَ لصاحبه أي تكلّم له بما يكرهه.

السبب الثالث: الكِبْر

وهو أن يكون في طبعه أن يتكبّر عليه ويستصغره ويستخدمه، ويتوقعَ منه الإنقياد له والمتابعة في أغراضه، فإذا نال نعمةً خافَ أن لا يحتمِلَ تكبُّرَه ويترفّعَ عن متابعته، أو ربما يطمحُ إلى مساواته أو إلى أن يترفّع عليه فيصيرُ متكبّراً بعد أن كان متكبّراً عليه. وبسبب التعزز والتكبّر كان حسدُ أكثر الكفار لرسول الله ﷺ إذ قالوا: كيفَ يتقدّم علينا غلامٌ يتيمٌ، وكيف نطأطىء له رؤوسنا، فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1] أي كان لا يَثقُلُ علينا أن نتواضع له ونتبعه لو كان عظيماً. وقال الله تعالى يصفُ قولَ قريش: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾[2]، كالاستحقار لهم والأنَفةِ منهم.

السبب الرابع: التعجُّب

وهو ما أخبر الله تعالى عن الأمم الماضية إذ قالوا: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[3] وقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾[4]، وقالوا: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[5]، فتعجبوا من أن يفوز برتبة الرسالة والوحي والقرب من الله بشرٌ مثلُهُم في الخلقة، لا عن قصدِ تكبّر وطلبِ رئاسة وتقدُّم عداوة - أي عداوة سابقة - وسبب آخر من سائر الأسباب، وقالوا متعجبين: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[6] وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[7] فقال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣١، وراجع الدر المنثور ج ٦ ص ١٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٣.
(٣) سورة يس، الآية: ١٥.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٤٧.
(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٣٤.
(٦) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.
(٧) سورة الفرقان، الآية: ٢١.

﴿جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾[1].

السبب الخامس: الخوف من فوت المقاصد

وذلك يختص بمتزاحمَينِ على مقصود واحد، فإنّ كلَّ واحدٍ منهما يحسدُ صاحبه في كلِّ نعمةٍ تكون عوناً له في الانفراد بالحصول على المقصود، ومن هذا الجنس تحاسدُ الضرّات في التزاحم على مقاصد الزوجية، وتحاسدُ الأخوة في التزاحم على نيل المنزلة في قلب الأبوين للتوصل به إلى مقاصد الكرامةِ والمال، وكذلك تحاسدِ التلميذين لأستاذٍ واحد في نيل المنزلة في قلب الأستاذ، وتحاسد نُدماءِ الملك وخواصّه في نيل المنزلةِ من قلبه للتوصّل به إلى الجاه والمال، وكذلك تحاسد الواعِظَينِ المتزاحمينِ على أهل بلدةٍ واحدة، إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم، وكذلك تحاسد العالِمَينِ المتزاحمينِ على طائفة من المتفقّهين المحصورين، إذ يطلبُ كلُّ واحدٍ منزلةً في قلوبهم للتوصل إلى أغراضٍ لهم.

السبب السادس: حبُّ الرئاسة

وهو طلبُ الجاه نفسِهِ من غير توصّلٍ به إلى مقصود، وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون بلا نظير في فنٍّ من الفنون إذا غلبَ عليه حبُّ الثناء واستفزَّهُ الفرح بما يُمدحُ به من أنه واحد الدهر وفريدُ العصر في فنِّه، وأنه لا نظير له، فإنه لو سمعَ بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك وأحبَّ موتَهُ أو زوال النعمة عنه التي بها يشاركه في المنزلة، من شجاعةٍ أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك ممّا يتفرّدُ هو به، ويفرحُ بسبب تفرُّده. وليسَ السببُ في هذا عداوةٌ ولا تعززٌ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٦٩.

ولا تكبُّرٌ على المحسود، ولا خوفٌ من فوات مقصود سوى محض الرئاسة بدعوى الإنفراد؛ وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب الناس للتوصّل إلى مقاصد أخرى غير الرئاسة، وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله ﷺ ولا يؤمنون به خيفةً من أن تبطُلَ به رئاستُهم، وأن يصبحوا تابعين إذا نُسخ علمهُم.

السبب السابع: خبثُ النفسِ وشُحُّهَا

بأن تشح النفسُ بالخير لعباد الله، فإنك تجدُ من لا يشتغلُ برئاسةٍ وتكبر، ولا طلبِ مالٍ، إذا وُصف عنده حسنُ حالِ عبدٍ من عباد الله فيما أنعمَ الله عليه به، شقَّ ذلك عليه، وإذا وُصِفَ له اضطرابُ أمور الناس وابتعادهم عن الخير وفواتُ مقاصدهم وتنغّصُ عيشهم، فرح به، فهو أبداً يحبُّ البعد عن الخير لغيره، ويبخلُ بنعمةِ الله على عباده، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزائنه، ويقال: البخيلُ من يبخلُ بمال نفسه، والشحيحُ هو الذي يبخلُ بمال غيره. فهذا يبخَلُ بنعمةِ الله على عباده الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة، ولا سبب ظاهر لهذا الأمر سوى خبثٍ في النفس ورذالةٍ في الطبع، عليهِ وقعت الجبلّة، ومعالجتُه شديدة، لأن الحسد الثابت والناشىء من سائر الأسباب، أسبابهُ هذه عارضةٌ ويُتصوّرُ زوالها، فيُطمَعُ في إزالتها، وهذا الحسدُ الذي تحدثنا عنه خبثٌ في الجبلّة لا عن سببٍ عارض، فتعسُر إزالتُهُ، إذ من المستحيل عادة إزالته؛ فهذه أسباب الحسد، وقد يجتمع بعضُ هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخصٍ واحد، فيعظُمُ الحسدُ لذلك ويقوى بحيث لا يقدر على الإخفاء والمجاملة، بل ينتهكُ حجاب المجاملة، وتظهرُ العداوة بالمكاشفة. وأكثر المحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب، وقلّما يستقلُّ سبب واحدٌ منها.

٤ ـ سبب كثرة الحسد

إعلم أن الحسدَ إنما يكثرُ بين قومٍ تكثرُ بينهمُ الأسباب التي ذكرناها، وإنما يقوى بين قومٍ تجتمع لهم جملةٌ من هذه الأسباب وتبرز بينهم، إذ الشخصُ الواحدُ يجوزُ أن يُحسد لأنّه قد يمتنع عن قبول التكبر، ولأنه يتكبَّرُ، ولأنه عدو، ولغير ذلك من الأسباب.

وهذه الأسباب إنما تكثرُ بين أقوامٍ تجمعهم روابطُ يجتمعون بسببها في مجالسِ المخاطبات، ويقدمون على تحقيق مقاصدهم، فإذا خالف واحد صاحبَهُ في غرضٍ من أغراضه، نفرَ طبعُهُ وأبغضَهُ، وثبت الحقد فيه، فعند ذلك يريدُ أن يستحقره ويتكبر عليه ويكافيه على مخالفته لغرضه، ويكرهَ تمكُّنَه من النعمة التي توصِلُهُ إلى أغراضه. وترادفُ جملةُ هذه الأسباب، فحيث لا رابطة بين شخصين في بلدتين متنائيتين، لا يكون بينهما محاسدة؛ وكذلك في محلّتين. نعم، إذا تجاوروا في مسكنٍ أو سوقٍ أو مسجدٍ أو مدرسة، أقدما على مقاصدَ تتناقضُ فيها أغراضهما، فيثور من التناقض التنافر والتباغض، ومنه تثور بقية أسباب الحسد. فلذلك ترى العالِمَ يحسدُ العالِمَ دون العابد، والعابدَ يحسدُ العابدَ دون العالم، والتاجرُ يحسد التاجر، والإسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسدُ البزاز إلاّ بسبب آخرَ سوى الاجتماع في الحرفة. ويحسدُ الرجلُ أخاه وابنَ عمّه أكثر مما يحسدُ الأجانب، والمرأة تحسدُ ضرَّتها وسريّة زوجها أكثر مما تحسدُ أمَّ الزوج وابنته، لأن مقصد البزاز غير مقصدِ الإسكاف، فلا يتزاحمون على المقاصد، إذ مقصدُ البزاز الثروة، ولا يحصّلها إلاّ بكثرة الزبون(١). وإنما ينازعه فيه بزاز آخر، إذ حريفُ البزاز لا يطلبُه الإسكاف بل البزّاز؛ ثم إن

(١) الزبون: الحريف. وقال الجوهري: أما الزبون للغبيّ، والحريفُ فليسَ من كلام أهل البادية.

مزاحمة البزاز المجاور للبزاز القريب أكثرُ من مزاحمته للبزاز البيعد، عنه إلى طرف السوق، فلا جرمَ يكونُ حسدُهُ للقريب أكثر. وكذلك الشجاع يحسدُ الشجاعَ، ولا يحسدُ الشجاعُ العالمَ على هذا الغرض ـ أي العلم ـ وكذلك يحسدُ العالمُ العالمَ ولا يحسدُ الشجاع؛ ثم حسدُ الواعظِ للواعظ أكثرُ من حسده للفقيه والطبيب، لأن التزاحم بينهما على مقصودٍ واحدٍ أخصّ.

فأصلُ هذه المحاسداتِ العداوةُ، وأصلُ العداوةِ التزاحمُ على غرضٍ واحد، فالغرض الواحد لا يجمع بن متباعدين بل بين متناسبين، فلذلك يكثرُ الحسدُ بينهم. نعم، من اشتد حرصُه وأحبَّ الصيت في جميع أطراف العالَم، فإنه يحسدُ كلَّ من هو في العالم ـ وإنْ بَعُدَ ـ ممن يشاركُه في الخصلة التي يتفاخر بها. ومنشأ جميع ذلك حبُّ الدنيا، فإنّ الدنيا هي التي تضيقُ على المتزاحمين، أمّا الآخرة فلا ضيقَ فيها، وإنما مثل الآخرةِ كمثلِ نعمةِ العلم، فلا جرم من يحبُّ معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته وأنبيائه وملكوت أرضه وسمائه، لم يحسد غيره إذا عرف ذلك أيضاً، لأن المعرفة لا تضيقُ عن العارفين، بل المعلومُ واحد يعرفُه ألفُ ألفِ عالمٍ، ويفرحُ بمعرفتِهِ ويلتذُّ به ولا تنقُصُ لذة واحدٍ بسبب غيره، بل تحصل بكثرة العارفين زيادةُ الأُنس وثمرةُ الإفادة والاستفادة، فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسدة، لأنّ مقصدَهُم معرفةُ الله تعالى، وهو بحرٌ واسع لا ضيقَ فيه، وغرضُهم المنزلةُ عند الله سبحانه. ولا ضيق أيضاً فيما عند الله تعالى، لأنّ أجلَّ ما عند الله سبحانه من النعيم، هو لذّة لقائه، وليس فيها ممانعة ولا مزاحمة، ولا يُضيّق بعض الناظرين على بعض، بل يزيدُ الأُنسُ بكثرتهم.

نعم، إذا قصدَ العلماءُ بالعلمِ المالَ والجاهَ تحاسدوا، لأن المال هو أعيانٌ وأجسام، إذا وقعتَ في يد واحدٍ، خلَتْ عنها يدُ آخرين. ومعنى الجاه مِلكُ القلوب، وكلّما امتلأ قلبُ شخصٍ بتعظيم عالم، انصرفَ عن تَعظيم الآخر أو نقُصَ عنه ـ أي عن تعظيمه ـ لا محالَة، فيكونُ ذلك سبباً للمحاسدة. وإذا امتلأ قلبٌ بالفرح بمعرفة الله تعالى، لم يمنع ذلك أن يمتلي قلبُ غيره به وأن يفرح به. فالفرق بين العلم والمال، أنّ المال لا يحِلُّ في يدٍ ما لم يرتحل عن اليد الأُخرى، والعلَمُ في قلب العالم مستقرٌّ، ويحلُّ في قلب غيره بتعليمه من غير ما أن يرتحل عن قلبه. وإن المال أعيانٌ وأجسامٌ ولها نهاية، فلو ملك الإنسان جميع ما في الأرض، لم يبق بعدَهُ مال ليتملّكه غيره، والعلم لا نهاية له ولا يتُصوَّر استيعابه، فمن عوّدَ نفسهُ الفكرَ في جلال الله وعظمته وملكوت أرضه وسمائه، صار ذلك عنده ألذَّ من كل نعيم، ولم يكن ممنوعاً عنه ولا مزاحماً فيه، فلا يكونُ في قلبِهِ حسدٌ لأحدٌ من الخلق، لأن غيره لو عرف أيضاً مثلَ معرفته، لم يُنقص من لذته، بل تزيد لذته بمؤانسته، فتكونُ لذة هؤلاء في مطالعةِ عجائبِ الملكوت دائماً، أعظمَ من لذة من ينظُر إلى أشجار الجنّة وبساتينها بالعين الظاهرة، فإنّ نعيمَ العارفِ وجنَّتَهُ، هي معرفتُه التي هي صفةُ ذاته، يأمنُ زوالها، وهو أبداً يجني ثمارها، فهو بروحه وقلبِهِ متغذٍّ بفاكهة علمه، وهو فاكهة غير مقطوعة ولا ممنوعة، بل قطوفها دانية.

فهو وإن غمضَ العين الظاهرة، فروحُهُ أبداً ترتاح(١) في جنة عالية ورياضٍ زاهرة، فإن فرض وجود كثرةٍ من العارفين، لم يتحاسدوا، بل كانوا كما قال فيهم ربُّ العالمين: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِ

---

(١) ترتاح: ارتاحَ أي سُرَّ ونَشِطَ. وارتاحَ الله له برحمته: انقذه من بلية.

صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾[1] فهذا حالُهم وهم بعدُ في الدنيا، فماذا يُظنُّ بهم عند انكشاف الغطاء ومشاهدةِ المحبوب في العقبى؟! فإذن لا يُتصوّر أن يكون في الجنّة محاسدةٌ، ولا أن يكون بين أهل الجنّة في الدنيا محاسدة، لأنَّ الجنةَ لا مضايقةَ ولا مزاحمة فيها، ولا تُنال إلاّ بمعرفة الله التي لا مزاحمةَ فيها في الدنيا أيضاً. فأهل الجنة بالضرورة برآءٌ من الحسدِ في الدنيا والآخرة جميعاً، بل الحسدُ من صفات المبعدين عن سِعَةِ العلّيين إلى مضيق السِّجّين، ولذلك وُسِمَ به الشيطانُ اللعين، وذُكِرَ من صفاته أنّه حسدَ آدم على ما خُصَّ به من الإجتباء، ولمّا دُعي إلى السجود استكبر، وأبى وتمرّد وعصى.

فقد عرفتَ أنه لا حسدَ إلاّ للاشتغال بمقصود يضيق عن الوفاء بالكلّ، ولهذا لا ترى الناس يتحاسدون على النظر إلى زينةِ السماء، ويتحاسدون على رؤية البساتين التي هي جزء يسير من جملةِ الأرض، وكلُّ الأرضِ لا وزنَ لها بالإضافةِ إلى السماء، ولكن السماء متّسعة الأقطار وافية لجميع الأبصار ـ أي تراها كل العيون ـ ولهذا لم يكن فيها تزاحم ولا تحاسدٌ أصلاً.

فعليك إن كنت بصيراً، وعلى نفسك مشفقاً، أن تطلبَ نعيماً لا زحمة فيه، ولذّةً لا مكدِّرَ لها، ولا يوجدُ ذلك في الدنيا إلاّ في معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله وعجائب ملكوت السماوات والأرض، ولا يُنال ذلك في الآخرة إلاّ بهذه المعرفة أيضاً، فإن كنتَ لا تشتاق إلى معرفةِ الله ولم تجد لذّتها في نفسِكَ، فضعفت في النعيم رغبتك فأنت في ذلك معذور، فالمخنّثُ والعنّين لا يشتاق إلى لذة

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٧.

الوقاع، والصبي لا يشتاقُ إلى لذة المُلك، فإن هذه لذات يختصُّ بإدراكها الرجالُ دون الصبيان والمخنثين، فكذلك لذة المعرفة يختصُّ بإدراكها الرجال ﴿رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ ولا يشتاق إلى هذه اللذة غيرهُم، لأن الشّوق بعد الذوق، ومن لم يذق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشتق، ومن لم يشتق لم يطلب، ومن لم يطلُب لم يُدرك، ومن لم يُدرك بقيَ مع المحرومين في أسفل سافلين ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾.

٥ ـ ذم الحسد

إعلم أن الحسدَ من نتائج الحقد، والحقدُ من نتائج الغضب، فهو فرعُ فرعِ الغضب، والغضبُ أصلُ أصلِهِ، ثم للحسدِ من الفروع الذميمة ما لا يكاد يُحصى، وقد ورد في ذمِّ الحسدِ خاصةً أخبار كثيرة.

قال رسول الله ﷺ: «الحسد يأكل الحسناتِ كما تأكلُ النارُ الحطب»[1]. وقال رسول الله ﷺ في النهي عن الحسدِ وأسبابه وثمراته: «لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً»[2]. وروي «أنه ﷺ شهِدَ لرجلٍ من الأنصار بأنه من أهل الجنّة، فلمّا فتّشوا عن حاله ما رأوه يعملُ عملاً كثيراً، غير أنه إذا انقلب على فراشه، ذكر الله تعالى ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر، فقيل له في ذلك فقال: «ما هو إلاّ ما ترون غير أني لا أجدُ على أحدٍ من المسلمين في نفسي غِشّاً ولا حسداً على خيرٍ أعطاه الله إياه»[3].

---

(١) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٤٢١٠ في حديث عن أنسٍ.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم وقد تقدم مراراً.

(٣) رواه أحمد في حديث طويل في مسندِ أَنَس بإسنادٍ على شرط الشيخين والنسائي وأبو يعلى والبزاز، وسمّى الرجل المبهَم سعداً؛ راجع الترغيب ج ٣ ص ٥٤٩.

وقالﷺ: «ثلاث لا ينجو منهن أحد: الظن والطيرةُ والحسد وسأحدِّثُكم بالمخرجِ من ذلك: إذا ظننت فلا تُحقِّق، وإذا تطيرت فامضِ، وإذا حسدتَ فلا تبغ»[1] أي إذا ظننت فلا تبن وفق ظنك كمن هو جازم قاطع برأيه، وإذا تشاءمت من أمرٍ فلا تبالِ به وامضِ لما أنت عازم عليه متوكلاً على الله تعالى، وإذا حسدت فلا تعمل بما تجده في قلبك.

وفي رواية «ثلاث لا ينجو منهنّ أحد وقلَّ من ينجو منهنّ»[2] فأثبتَ في هذه الرواية إمكان النجاة. وقالﷺ: «دبَّ إليكمُ داءُ الأُمم من قبلكم: الحسدُ والبغضاءُ، والبُغضة هي الحالقة، لا أقول: حالقة الشعر ولكن حالقة الدين.

والذي نفسُ محمدٍ بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابّوا، ألا أُنبّئكم بما يثبتُ ذلك لكم. أفشوا السلامَ بينكم»[3]. وقالﷺ: «كاد الفقرُ أن يكون كفراً، وكاد الحسدُ أن يغلِبَ القدَر»[4] وقالﷺ: «إنه سيصيبُ أمتي داء الأُمم، قالوا: وما داء الأمم؟ قال: الأشَرُ والبَطرُ والتكاثُرُ والتنافسُ في الدنيا والتباعدُ والتحاسدُ، حتى يكون البغي ثم يكون الهرج»[5]. وقالﷺ: «لا تُظهر

---

(١) (٢) أخرجهما ابن أبي الدنيا في كتابِ ذم الحسد من حديث أبي هريرة، والرواية الأولى فيها يعقوب بن محمد الزهري وموسى بن يعقوب، ضعَّفهما الجمهور. والثانية رواها ابن أبي الدنيا أيضاً مرسلاً، كما في المغني.

(٣) أخرجه أحمد والترمذي من حديث الزبير بن العوام بسندٍ صحيح كما في الجامع الصغير.

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب من رواية يزيد الرقاشي وأبو مسلمٍ الكشي أيضاً، ويزيد ضعيف كما في المغني. وسيأتي عن الكافي مثله.

(٥) أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة بسندٍ صحيح كما في الجامع الصغير، والأشر هو البطرُ والمرح، والبطرُ هو التكبُّر عن الحق وعدم تقبّله، أو الدهشة والحيرة عند هجوم النعمة، وترك شكرها.

الشماتة بأخيك فيرحمُهُ اللّهُ ويبتليك»[1]. وروي أن موسى عليه السلام لمّا تعجَّلَ إلى ربّه، فسألَ ربه أن يخبره باسمه، فلم يخبره باسمه وقال: أحدِّثُك من عمله بثلاث: «كان لا يحسدُ الناس على ما آتاهم الله من فضله، وكان لا يعقُّ والديه، ولا يمشي بالنميمة»[2]. وقال زكريا عليه السلام: قال الله تعالى: «الحاسدُ عدوٌّ لنعمتي، متسخِّطٌ لقضائي، غير راضٍ لقسمتي التي قسمتُ بين عبادي».

وقال ﷺ: «أَخوفُ ما أخاف على أمتي أن يكثر لهم المال فيتحاسدون ويقتتلون»[3].

وقال ﷺ: «استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمانْ، فإنّ كلَّ ذي نعمةٍ محسود»[4]. وقال ﷺ: «إنّ لنِعم الله أعداءً، فقيل: ومن أولئك؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله»[5]. وقال ﷺ: «ستةٌ يدخلونَ النار قبل الحساب بستة، قيل: يا رسول الله: من هم؟ قال: الأُمراءُ بالجور، والعربُ بالعصبية، والدهاقين بالتكبّر، والتجار بالخيانة، وأهل الرستاق[6] بالجهالة، والعلماءُ بالحسد»[7].

---

(١) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٣١٢ من حديث واثلة بن الأسقع [ولم يشر إلى مصادر الحديثين التاليين. المعد].

(٢) (٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي عامرٍ الأشعري (المغني).

(٤) أخرجه العقيلي في الضعفاء، وابن عديّ في الكامل، والطبراني في الكبير، وأبو نعيمٍ في الحلية، والبيهقي في الشعب. (الجامع الصغير).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس «إن لأهلِ النعمِ حُسّاداً فاحذروهم» (المغني).

(٦) الرستاق: القرية.

(٧) أخرجَهُ أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر وأنس بسندين ضعيفين (المغني).

ومن طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن أبي جعفرِ عليه السلام قال: «إنّ الرجل ليأتي بأيٍّ بادرةٍ[1] فيكفر، وإنّ الحسدَ ليأكُلُ الإيمان كما تأكُلُ النار الحطب»[2] وعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: «آفة الدين الحسدُ والعجبُ والفخرُ»[3]. وعنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله تعالى لموسى بن عمران: يا بن عمران لا تحسدَنّ الناس على ما آتيتهم من فضلي، ولا تمدنَّ عينيك إلى ذلك ولا تُتبعه نفسَك[4]، فإنّ الحاسدَ ساخطٌ لنعمي، صادٌّ لقِسَمِي الذي قسمتُ بين عبادي ومن يك كذلك فلستُ منه وليس منّي»[5]. وعنه عليه السلام: «اتقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضاً. إن عيسى بن مريم عليه السلام كان من شرائعه السيح[6] في البلاد، فخرجَ في بعض سيحه ومعه رجلٌ من أصحابِه، قصيرٌ، وكان كثيرَ اللزومِ لعيسى، فلما انتهى عيسى عليه السلام إلى البحر قال: بسم الله بصحةِ يقينٍ منه، فمشى على ظهر الماء. فقال الرجل القصير حين نظر إلى عيسى جازه[7]: بسم الله بصحة يقينٍ منه، فمشى على الماء ولحق بعيسى، فدخَلَهُ العجبُ بنفسه فقال: هذا عيسى روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي على الماء، فما فضلُهُ عليّ، قال: فرُمِسَ[8] في الماء، فاستغاث بعيسى فتناوله من الماء فأخرجه، ثم قال له: ما قلتَ يا قصير؟ قال: قلتُ: هذا روح الله يمشي على الماء وأنا أمشي، فدخلني من ذلكَ عجبٌ، فقال له عيسى: لقد وضعتَ نفسك في غير

---

(١) البادرة: ما يبدرُ من حدتك في الغضب من قولٍ أو فعل، وفي النهاية: الكلامُ الذي يسبق الإنسان في الغضب.

(٢) (٣) (٤) الكافي، باب الحسد، ج ٢ ص ٣٠٦ و ٣٠٧.

(٥) أي ولا تجعل نفسك تتبع ما آتى الله من الفضل للآخرين.

(٦) السياحة والتجوال.

(٧) جازه: عَبره.

(٨) فرُمِسَ: أي غُمِسَ، من رمستُ الميتَ إذا دفنتُه في التراب.

الموضعِ الذي وضعكَ الله فيه، فمقتَك الله على ما قُلت، فتُب إلى الله عز وجلّ ممّا قلت، قال: فتابَ الرجلُ وعادَ إلى مرتبته التي وضعَهُ الله فيها، فاتقوا، ولا يحسدنّ بعضكم بعضاً»[١].

وعنه عليه السلام قال: «إن المؤمن يغبُط ولا يحسد، والمنافقُ يحسدُ ولا يغبط»[٢].

وفي مصباح الشريعة[٣] عنه عليه السلام قال: «الحاسدُ يضرُّ بنفسه قبل أن يضرَّ بالمحسود، كإبليس أورث بحسده لنفسه اللعنة ولآدمَ الإجتباءَ والهدى والرَّفعَ إلى محلِّ حقائقِ العهدِ والاصطفاء، فكن محسوداً ولا تكن حاسداً، فإن ميزان الحاسد أبداً خفيف بثقلِ ميزان المحسود، والرزقُ مقسومٌ فماذا ينفعُ الحسدُ الحاسد؟ وماذا يضرُّ المحسودَ الحسدُ؟ والحسدُ أصلُهُ من عمى القلب وجحودِ فضل الله، وهما جناحان للكفر، وبالحسد وقع ابن آدم في حسرة الأبد، وهلكَ مهلِكاً لا ينجو منه أبداً، ولا توبة للحاسد لأنه مصرٌّ عليه، معتقد به، مطبوع فيه[٤]، يبدو بلا معارض به ولا سبب، والطبعُ لا يتغيّر عن الأصل وإن عولج».

وفي الآثار، قال بعض السلف: إنّ أول خطيئة كانت هي الحسد، حسدُ إبليس آدم عليه السلام إذ أُمر أن يسجُدَ له، فحملَهُ الحسدُ على المعصية.

وقال بكر بن عبد اللّه المزني: كان رجل يغشي بعض الملوك، فيقوم أمام الملك ويقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه، والمسيءُ سيكفيكه مساوئه. فحسده رجلٌ على ذلك المقام والكلام فسعى به إلى

(١) (٢) الكافي، بابُ الحسد، ج ٢ ص ٣٠٦ و ٣٠٧.
(٣) الباب الحادي والخمسون.
(٤) مطبوع فيه: أي أصبح طبعاً له.

الملك، فقال: إنْ هذا الذي يقوم بحذائك ويقول ما يقول يزعمُ أنّ الملِكَ أبخر[1]، فقال له الملك: فكيف يصحُّ ذلك عندي؟ قال: تدعو به غداً إليك فإذا دنا منك وضع يده على أنفه كي لا يشمَّ رائحة البخر، فقال له: انصرف حتى أنظر، فخرج من عند الملك فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم، فخرج الرجل من عنده وقام أمام الملك فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه والمسيء سيكفيكه مساوئه، فقال له الملك: أدنُ مني، فدنا منه، فوضع يده على فيه مخافة أن يشم منه الملك ريح الثوم، فقال الملِكُ في نفسه: ما أدري فلاناً إلاّ صدَق.

قال: وكانَ الملكُ لا يكتبُ بخطّه إلاّ جائزة أو وصلة، فكتب له كتاباً بخطه إلى عاملٍ من عماله: إذا أتاك حامل كتابي هذا، فاذبَحهُ واسلخَهُ واحشُ جلده تبناً، وابعث به إليّ. فأخذ الرجل الكتاب وخرج، فلقيه الرجل الذي سعى به إليه فقال: ما هذا الكتاب؟ فقال: خطّ الملكِ، أمر لي بصلة، فقال: هبه لي، فقال: هو لك، فأخذه ومضى إلى العامل، فقال العامل: في كتابك أن أذبحك وأسلخَك، قال: إن الكتاب ليس هو لي، فاللَّهَ اللَّهَ في أمري حتى تراجعَ الملك، قال: ليس لكتاب الملكِ مراجعة، فذبحه وسلخه وحشا جلده تبناً وبعث به. ثم عاد الرجل إلى الملكِ كعادته وقال له مثل قوله فتعجب الملك وقال: ما فعلت بالكتاب؟ فقال: لقيني فلان، فاستوهبَهُ مني فوهبته له، فقال الملك: إنه ذكر لي أنك تزعمُ أني أبخَر. قال: مَا قلتُ ذلك. قال: فلم وضعتَ يدك على أنفك؟ قال: كان أطعمني طعاماً فيه ثوم فكرهتُ أن تشمّه، قال: صدقت. إرجع إلى مكانك فقد كفاكَ المسيء مساوئه.

(١) بَخِرَ يبخرُ الفمُ: أنتنَ ريحُهُ، فهو أبخر.

وقال ابن سيرين: ما حسدتُ أحداً على شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على أمر الدنيا وهي حقيرةٌ في الجنّة. وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصيرُ إلى النار.

وسُئِلَ بعضهم: هل يحسدُ المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب! نعم، ولكن غمُّهُ في صدره. وإنه لا يضرُّك ما لم تعدّ به يداً ولا لساناً.

وقال أبو الدرداء: ما أكثر عبدٌ ذكرَ الموت إلاّ قلَّ فرحُه وقلّ حسده. وقيل: كلُّ الناس أَقدرُ على رضاه إلاّ حاسدَ نعمةٍ، فإنه لا يُرضيه إلاّ زوالها، ولذلك قيل:

كل العداوةِ قد يُرجى مودّتها　　　إلاّ عداوة من عاداك من حسد

وقد قال بعض الحكماء: الحسدُ جرحٌ لا يبرأ، وحسبُ الحسود ما يلقى. وقال أعرابيّ: ما رأيتُ ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد، إنه يرى النعمة عليك نقمةً عليه. وقال بعضهم: الحاَسدُ لا ينال من المجالسِ إلاّ مذمّة وذُلاً، ولا من الملائكة إلاّ لعنةً وبُغضاً، ولا ينال من الخلقِ إلاّ جزعاً وغمّاً، ولا ينال عند النّزعِ إلا شدّة وهولاً، ولا ينال عند الموقفِ إلاّ فضيحة ونكالاً.

٦ ـ دواءُ الحسد

إعلم أنّ الحسدَ من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوى أمراضُ القلوب إلاّ بالعلم والعمل.

٦: أ ـ العلاجُ العلمي

العلمُ النافع لمرض الحسد هو أن تعرف بشكل جازم أنَّ الحسدَ

ضرر عليك في الدنيا والدين، وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدين والدنيا، بل ينتفع به في الدنيا والدين. فإذا عرفت هذا عن بصيرة، ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوِّكَ، فارقت الحسد لا محالة.

أمّا كونه ضرراً عليك في الدين فهو أنّك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى وكرهتَ نعمته التي قسّمها بين عباده، وعدلَهُ الذي أقامهُ في مُلكه بخفيّ حكمته، واستنكرت ذلك واستبشعته[1]؛ وهذه جنايةٌ على حَدَقةِ التوحيد وقذًى في عين الإيمان، وناهيك بها جناية على الدين. وأُضيفَ إلى ذلك أنك غششتَ رجلاً من المؤمنين وتركت نصيحته، وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخيرَ لعباد الله، وشاركت إبليس وسائر الكفار في حبهم البلايا وزوال النعم للمؤمنين، وهذه كلها خبائث في القلب تأكلُ حسناتِ القلب كما تأكلُ النارُ الحطب، وتمحوها كما يمحو الليلُ النهارَ.

وأمّا كونه ضرراً في الدنيا عليك، فهو أنك تتألم بحسدكَ وتتعذب به، ولا تزال في كدٍّ وغمٍّ، إذ أعداؤك لا يخلّيهمُ الله عن نِعم يُفيضها عليهم، فلا تزال تتعذب بكلِّ نعمةٍ تراها، وتتألم بكل بليةٍ تنصرفُ عنهم، فتبقى مغموماً محزوناً متشعِّبَ القلب ـ أي مهموماً لكثرة ما يرد عليه ويشغله ـ ضيّق النَّفس، كما تشتهي لأعدائك ويشتهي أعداؤك لك. فقد كنتَ تريد المحنة لعدوك، فوقعت محنتُك في الحال وأصبت بالغم فوراً، ولا تزال النعمةُ على المحسود بحسدك.

ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب، لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد لما فيه من ألمِ القلب ومساءته ـ أي

(١) استبشعه أي استقذره، والبشِعُ ضد الحسن.

أذاه ـ مع عدم نفعٍ يعود عليك بحسدك، فكيف وأنتَ عالمٌ بما في الحسدِ من العذابَ الشديد في الآخرة! فما أعجبُ من العاقلِ أن يتعرّضَ لسخطِ الله من غير نفعٍ يناله، مع ضرر يحتمله وألمٍ يقاسيه، فيُهلكَ دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة.

وأمّا أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضحٌ، لأن النعمةَ لا تزول عنه بحسدك، بل ما قدّرهُ الله من إقبال ونعمةٍ فلا بدّ أن يدوم إلى أجلٍ قدّرهُ الله، فلا حيلة في دفعه، بل ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ و ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾. ولذلك شكا نبيٌّ من الأنبياء من إمرةٍ ظالمةٍ مستوليةٍ على الخلق بالأذى، فأوحى الله تعالى إليه أن فُرَّ من قدّامها (لأنه كان فاقداً للأنصار على ما يبدو) حتى تنقضي أيامها، أي ما قدّرناه في الأزل لا سبيل إلى تغييره، فاصبر حتى تنقضي المدة التي سبق القضاء بدوام إقبالها فيها، وطالما لم تزل النعمةُ بالحسد، لم يكن على المحسود ضررٌ في الدنيا، ولا يكون عليه إثم في الآخرة.. فلو كانت النعمة تزول بالحسد، لم تبق لله عليك نعمةٌ ولا على الخلق، ولا حتى نعمة الإيمان أيضاً، لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان. قال الله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[1] إذ ما يريده الحسود لا يكون. نعم، هو يَضِلُّ بإرادته الضلال لغيره، فإنّ إرادة الكفر كفرٌ. فمن اشتهى أن تزول النعمة عن المحسود بالحسد، فكأنه يريد أن يسلبَ نعمة الإيمان بحسد الكفار؛ وكذا سائر النِّعَم. وإن اشتهيت أن تزولَ النعمةُ عن الخلق بحسدك ولا تزولَ عنك بحسدِ غيرك، فهذه غاية الجهلِ والغباوة، فإنَّ كلَّ واحدٍ من حمقاء الحُسَّادِ أيضاً يشتهي

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٩.

أن يُخصَّ بهذه الخاصية، ولستَ بأولى من غيرك؛ فمن نعم الله عليك أن النعمة لم تزل بالحسد، وهي مما يجب عليك شكرُها، وأنت بجهلك تكرهها.

وأمّا إنّ المحسود ينتفعُ به ـ أي بالحسد ـ في الدين والدنيا فواضح. أما منفعته في الدين فهو أنه مظلومٌ من جهتك، لا سيما إذا أخرجتَ الحسدَ إلى القول أو الفعل، بالغيبة والقدحِ فيه وهتكِ ستره وذكر مساوئه؛ فهذه هدايا تهديها إليه، أعني أنك بذلك تهدي إليه حسناتك حتى تلقاه يوم القيامة مفلساً محروماً من النعمة كما حُرمتَ في الدنيا منها، وكأنك أردتَ زوال النعمةِ عنه فلم تزل. نعم، كان لله عليك نعمةٌ إذ وفّقَكَ للحسنات، فنقلتها إليه فأضفتَ له نعمة إلى نعمة، وأضفتَ لنفسك شقاوة إلى شقاوتك.

وأمّا منفعته في الدنيا فهو أنّ أهم أغراض الخَلق، هو مساءة الأعداءِ وغمُّهم وشقاوتُهم وكونُهم معذَّبين مغمومين، ولا عذاب أعظم مما أنتَ فيه من ألمِ الحسد، وغايةُ أماني أعدائك أن يكونوا في نعمةٍ وأن تكون في غمٍّ وحسرةٍ بسببهم، وقد فعلتَ بنفسك ما هو مرادهم، ولذلك لا يشتهي عدوُّكَ موتَك، بل يشتهي أن تطولَ حياتُك، ولكن في عذاب الحسد والغمّ، لتنظُرَ إلى نعمةِ الله عليه، وينقطعَ قلبُكَ حسداً. ولذلك قيل:

لا ماتَ أَعداؤُك بل خُلِّدوا	حتى يروا فيك الذي يُكمِدُ
لا زلتَ محسوداً على نعمة	فإنما الكاملُ من يُحسَدُ
ولا خلاّك الدهرُ من حاسدٍ	فإنما الفاضلُ من يُحسدُ

ففرح عدوك بغمّك وحسدك أعظمُ من فرحه بنعمته، ولو علم أنك تنجو من ألم الحسد وعذابه، لكان ذلك أعظمَ مصيبة وبليةً عنده،

فما ملازمتُك لغمِّ الحسد إلاّ الحال التي يشتهيها عدوك لك، فإذا تأملت هذا عرفتَ أنك عدوُّ نفسِكَ وصديقُ عدوّك، إذ أقدمتَ على ما تضررتَ به في الدنيا والآخرة، وانتفع به عدوك في الدنيا والآخرة، وصرت مذموماً عند الخالق والخلائق، شقياً في الحال والمآل، ونعمةُ المحسود دائمة شئت أم أبيت، ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت إلى إدخال أعظم سرورٍ على إبليس الذي هو أعدى أعدائك، لأنه لما رآك محروماً من نعمةِ العلم والورع والجاه والمال الذي ٱختُصَّ به عدوُّك عنك، خاف أن تحبَّ ذلك له، فتشاركه في الثواب بسبب المحبّة، لأنّ من أحبَّ الخير للمسلمين كان شريكاً في الخير، ومن فاتَهُ اللحاق بدرجة الأكابر في الدين لم يفُتهُ ثواب الحبِّ لهم طالما استدام على حبِّ ذلك، فخاف إبليسُ أن تحبَّ ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه، فتفوز بثواب الحبّ، فبغّضَهُ إليكَ حتى لا تلحقه [في مقامه] بحبّك كما لم تلحقهُ بعملك. وقد قال أعرابيٌّ للنبيﷺ: «الرجلُ يحبُّ القوم ولما يلحق بهم؟ فقال النبيﷺ: هو مع من أحب»[1].

وقام أعرابي ورسول الله ﷺ يخطبُ فقال: متى الساعة؟ فقالﷺ: ما أعددت لها؟ فقال: ما أعددتُ لها كثير صلاةٍ ولا صيام إلاّ أنّي أحبُّ اللّهَ ورسوله، فقال النبيﷺ: أنتَ مع من أحببتَ»[2] قال الراوي: فما فرحَ المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذٍ، إشارة إلى أن أكثر ثقتهم كانت بحبِّ الله ورسوله»[3]. وقال أبو موسى،

(١) أخرجهُ مسلم ج ٨ ص ٤٣ من حديث ابن مسعود.

(٢) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٤٩ من حديث أنس، ومسلم ج ٨ ص ٤٢.

(٣) في «الإحياء»: «أنّ أكبر بغيتهم كانت حبَّ الله ورسوله».

قلتُ: يا رسول الله، الرجل يُحِبُّ المصلِّين ولا يُصلّي، ويحبُّ الصوّام ولا يصوم ـ حتى عدَّ أشياء ـ فقال النبيﷺ: هو مع من أحبّ»[1]. وقيل: إن لم تكن عالماً ولا متعلّماً فكُن محبّاً وإلاّ فلا تُبغضهُم.

فانظُر الآنَ كيف حسدَك إبليس ففوّت عليكَ ثوابَ الحبِّ ثم لم يقنع به حتى بغّضَهُ إليك وحملكَ على الكراهة حتى أثمتَ، فكيف لا؟ وعساك أن تُحاسِدَ رجلاً من أهل العلم وتحب أن يُخطىءَ في دين الله وينكشفَ خطأه ليُفتضحَ، وتحب أن يخرس لسانُه حتى لا يتكلّم، أو يمرضَ حتى لا يعلمَ ولا يتعلّم! وأي إثمٍ يزيدُ على ذلك! فليتكَ إذا فاتك اللحاق به، واغتممت بسببه، سلمتَ من الإثم وعذاب الآخرة. وقد جاء في الحديث: «أهل الجنّة ثلاثة: المحسنُ والمحبُّ له والكافُّ عنه»[2] أي من يكفُّ عنه الأذى والحسد والبغضُ والكراهة.

فانظر كيف ابعدكَ إبليس عن جميع المداخل الثلاثة ـ الإحسان والحبُّ والكفُّ ـ حتى لا تدورَ بها البتة. فقد نفذَ فيك حسدُ إبليس، وما نفذ حسدك في عدوك بل في نفسك، بل لو كُوشفتَ بحالك في يقظةٍ أو منام لرأيتَ نفسك أيها الحاسد في صورة من يرمي حجراً إلى عدوه ليصيب به مقتَلَهُ فلا يصيبه، بل يرجع إلى حدَقَتِه اليمنى فيقلعُها فيزيد غضبُه ثانياً، فيعود فيرميها أشدَّ من الأول فيرجعُ على عينه الأخرى فيعميها فيزداد غيظُهُ، فيعود ثالثاً ويرميها على رأسه فشجَّهُ، وعدوّه سالمٌ في كل حال، وهو ـ أي الحجر ـ إليه راجع مرة بعد

---

(١) متفق عليه كما مر.

(٢) قال العراقي: ما عثرتُ على أصلٍ له.

أخرى، وأعداؤه حوله يفرحون به ويضحكون عليه، وهذه حال الحسود وسخرية الشيطان منه، لا بل حالُكَ في الحسدِ أقبحُ من هذا لأن الحجر العائد إلى راميه لم يخسر إلاّ العينين، ولو بقيتَ على حالك لفُتَّ بالموت لا محالة. والحسد يعود بالإثم، والإثم لا يفوتُ بالموت، ولعلّه يسوق صاحبه إلى غضبِ الله وإلى النار، فلأن تذهب عينُه في الدنيا خيرٌ من أن يبقى له عين يدخلُ بها النار، فيقلعُها لهيب النار.

فانظر كيف انتقمَ اللّهُ منَ الحاسدِ إذا أرادَ زوال النعمةِ عن المحسود فلم يزلها منه، ثم أزالها من الحاسد، إذ السلامةُ من الإثم نعمة، والسلامة من الغم والكمَد نعمة، وقد زالتا عنه تصديقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[1] وربما يُبتلى بعينِ ما يشتهيهِ لعدوّه، وقلّمَا يشمتُ شامت بمساءة إلاّ ويبتلى بمثلها، حتى قالت عائشة: ما تمنيت لعثمان شيئاً إلاّ نزلَ بي، حتى لو تمنيت له القتلَ لقُتِلت، فهذا إثمُ الحسدِ نفسِه، فكيف بما يجرُّ إليه الحسدُ من الاختلاف، وجحود الحقّ، وإطلاق اللسان واليدِ بالفواحش، في التشفي من الأعداء، وهو الداءُ الذي فيه هلكتِ الأمم السالفة؛ فهذه هي الأدوية العلمية، وكلما تفكّر الإنسانُ فيها بذهنٍ صافٍ وقلبٍ حاضر، انطفأت من قلبه نار الحسد، وعلِمَ أنه مهلِكٌ نفسَهُ ومفرحٌ عدوه ومسخطٌ ربّه ومنغّصٌ عيشه.

٦: ب ـ العلاج العملي

وأمّا العمل النافع في علاج الحسد فهو أن يتحكّم بالحسد، فكلُّ ما يقتضيه الحسد من قول وفعل ينبغي أن يكلّف نفسَهُ نقيضه،

(١) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

فإن بعثه الحسدُ على القدح فيه، كلّفَ لسانَهُ المدح له والثناءَ عليه. وإن حمَلَهُ على التكبّر عليه ألزمَ نفسَهُ التواضُع له والاعتذار إليه. وإن بعثه على كفّ الإنعام عنه، ألزمَ نفسَهُ الزيادة في الإنعام.

فكلما فعلَ ذلكَ عن تكلّفٍ، وعرفَهُ المحسود، طابَ قلبُه وأحبه. وكلّما ظهر حبُّه عاد الحاسد وأحبَّهُ، وتولّدت بينهما الموافقة التي تقطع مادةَ الحسد، لأن التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستميلُ قلبَ المنعَمِ عليه ويسترقُّه ويستعطفه، ويحمله على مقابلة ذلك بالإحسان، ثم يعودُ ذلكَ الإحسانُ إلى الأول فيطيبُ قلبُه، ويصير ما تكلّفَهُ في البداية، طبعاً في النهاية. ولا يصُدَّنَّهُ عن ذلك قولُ الشيطان له: لو تواضعتَ وأثنيت عليه، حملَهُ العدو على العجز أو على النفاق والخوف، وإنَّ ذلك مذلّة ومهانة، فإن ذلكَ من خُدَعِ الشيطان ومكائده، بل المجاملةُ ـ تكلّفاً كانت أو طبعاً ـ تكسِّرُ سَورةَ العداوة عن الجانبين وتُقِلُّ من عزَّتها[1]، ويعود القلب إلى التآلف والتحاب، وبه يستريحُ القلبُ من ألمِ الحسد وغمِّ التباغض.

فهذه هي أدوية الحسد، وهي نافعة جداً، إلاّ أنّها مرّةٌ جداً، لكنَّ النفعَ في الدواء المرّ، فمن لم يصبِرْ على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء، وإنّما تهونُ مرارة الدواء، أعني التواضع للأعداء والتقرّبَ إليهم بالمدح والثناء، بقوة العلم بالمعاني التي ذكرنا، وقوة الرغبةِ في ثواب الرضا بقضاء الله وحبِّ ما أحبَّهُ الله، وعزّة النفسِ وترفُّعها عن أن يكون في العالم شيءٌ على خلاف مرادها جهل، وعند ذلك يريدُ ما يكون، حيث لا مجال ليكون ما يريد، وفواتُ المراد ذلٌّ

(١) في «الإحياء»: «تقلّ مرغوبها».

وخيبة، ولا طريق إلى الخلاص من هذا الذلّ إلاّ بأحد أمرين: إما أن يكون ما يريد أو بأن يريد ما يكون. والأمر الأول ليس لك، ولا مدخَلَ للتكلّف والمجاهدة فيه. وأمّا الثاني، فللمجاهدة فيه مدخل، وتحصيله بالرياضة ممكن، فيجب تحصيله على كلِّ عاقل؛ هذا هو الدواء الكلّي.

وأمّا الدواء المفصّل فهو بقمع أسباب الحسدِ من الكبر وعزة النفس وشدة الحرص على ما لا يعني؛ وسيأتي تفصيل مداواة هذه الأسباب في مواضعها، فإنها مواد هذا المرض، ولا ينقمع المرض إلاّ بقمع المادة، فإن لم تقمع المادة لم يحصل مما ذكرناه إلاّ تسكين وتطفية، ويتكرر المرضُ مرة بعد أخرى، ويطول الجهدُ في تسكينه مع بقاء مواده، فإنه ما دام محباً للجاه، فلا بدّ أن يحسدَ من استأثر بالجاه والمنزلةِ في قلوب الناس دونه، ويَغمّه ذلك لا محالة، وإنما غايتُه أن يهوّن الغم على نفسه، ولا يظهره بلسانه ويده، وأمّا الخلوُّ عنه رأساً ـ مباشرة ـ فلا يُمكنه.

٧ ـ القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب

إعلم أنّ المؤذي ممقوت بالطبع، ومن آذاك لا يمكنك غالباً أن لا تبغضه، وإذا تيسّرت له نعمة فلا يمكنك أن لا تكرهها له... ولا يزال الشيطان ينازعك في الحسد له، ولكن إن قوي ذلك فيك حتى يبعثك على إظهار الحسد بقولٍ أو فعلٍ بحيث يعرفُ ذلك من ظاهركَ بأفعالك الاختيارية، فأنت إذاً حسود عاصٍ بحسدك. وإن كففت ظاهرك بالكلية إلاّ أنك بباطنك تحبُّ زوال النعمة، وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة، فأنت أيضاً حسود عاصٍ، لأن الحسدَ صفة القلبِ لا صفة الفعلِ. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ

أُوتُوا۟﴾[١]، وقال: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾[٢] وقال: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾[٣]. أما الفعلُ فهو غيبة وكذب، وهو عمل صادر عن الحسد، وليس هو عين الحسد، بل محلُّ الحسدِ القلب دون الجوارح. نعم، هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها، بل هو معصية بينك وبين الله، وإنما يجب الاستحلال من الأسباب المؤدية إلى ظهور ما في القلب على الجوارح. وأمّا إذا كففت ظاهركَ وألزمت مع ذلك قلبك كراهية ما يترشّح منه بالطبع من حبِّ زوال النعمة، حتى كأنك تمقتُ نفسَكَ على ما في طبعها، فتكونُ تلك الكراهية من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع، فقد أديت الواجبَ عليك، ولا يدخلُ تحت اختيارك في أغلب الأحوال أكثر من هذا.

وأمّا تغيير الطبع ليستوي عنده المؤذي والمحسن، ويكون فرحه أو غمُّه ممّا تيسَّر لهما من نعمة أو انصبَّ عليهما من بلية سواء، فهذا مما لا يطاوعُ الطبعُ عليه ما دام ملتفتاً إلى حظوظ الدنيا، إلاّ أن يصير مستغرقاً بحبِّ الله تعالى مثل السكران الواله، فقد ينتهي أمرهُ إلى أن لا يلتفتَ قلبُه إلى تفاصيل أحوال العباد بل ينظر إلى الكلِّ بعين واحدة ـ وهو عين الرحمة ـ ويرى الكلّ عباداً لله، وأفعالهم أفعالاً لله ويراهُم مسخرين. وذلك إن حصل، فهو يحصل كالبرق الخاطف لا يدوم، ويرجعُ القلب بعد هذا إلى طبعه، ويعودُ العدو إلى منازعته ـ أعني الشيطان فإنه يُنازِعُ بالوسوسة ـ وكلّما قابل ذلك بكراهية يلزمها قلبَهُ، فقد أدّى ما كُلِّفَ به؛ وذهب ذاهبون إلى أنه لا يأثم إذا لم يظهر

(١) سورة الحشر، الآية: ٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.

الحسد على جوارحه.

وروي مرفوعاً أنه «ثلاثةٌ في المؤمنِ له منهنَّ مخرج، ومخرجه من الحسد أن لا يبغي»[1]. والأولى أن يحمل هذا على ما ذكرنا من أن يكون في الحاسد كراهةٌ من جهة الدين والعقل في مقابلة حبِّ الطبع لزوال النعمة عن العدو، وتلك الكراهةُ تمنعُه من البغي ومن الإيذاء، فإنّ جميعَ ما وردَ من الأخبار في ذمِّ الحسدِ يدلُّ ظاهرها على أن كلَّ حاسدٍ آثم، والحسدُ عبارة عن صفةِ القلب لا الأفعال، فكلُّ مُحبٍّ لمساءة المسلمين حاسدٌ، وكونه آثماً لمجرد حسد القلب من غير فعل هو محل اجتهاد.

وقد عرفتَ من هذا أنّ لك في أعدائك ثلاثة أحوال:

إحداها، أن تحبَّ مساءتهم بطبعك وتكره حبّك لذلك وميل قلبِكَ إليه عقلك، وتمقت نفسك عليه وتودُّ لو كانت لك حيلة في إزالة ذلك الميل منك؛ وهذا معفوٌّ عنه قطعاً لأنه لا يدخل تحتَ الاختيار أكثرُ منه.

الثانية، أن تحبَّ ذلك وتُظهر الفرح بمساءته إما بلسانك أو بجوارحك، فهذا هو المحظور قطعاً.

الثالثة، وهي بين الطرفين (الأولى والثانية)، أن تحسد بالقلب من غير مقتك لنفسك على حسدك، ومن غير إنكار منك على قلبك، ولكن تحفظُ جوارحك عن طاعة الحسد؛ وهذا محل خلاف، والظاهر أنه لا يخلو عن إثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه.. والحمد لله أولاً وآخراً والصلاةُ على محمدٍ وأهل بيته وسلم.

وله الحمد أولاً وآخراً

---

(١) مرّ آنفاً.

آفة الجاه

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ مدخل

الحمد لله علام الغيوب، المطّلع على سرائر[١] القلوب، المتجاوز عن كبائر الذنوب، العالم بما تجنُّه[٢] الضمائر من خفايا الغيوب، البصير بسرائر النيات وخفايا الطويّات[٣]، الذي لا يقبلُ من الأعمال إلاّ ما كمُلَ ووفى، وخلص عن شوائب الرياء والشرك فصفا، فإنه المتفرد بالملكوت والملك، فهو أغنى الأغنياء عن الشرك، والصلاة والسلام على محمد وآله وأصحابه المبرئين من الخيانة والإفك، وسلّمَ تسليماً كثيراً.

أما بعدُ، فقد قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخافُ على أمّتي الرياء والشهوة الخفيّة»[٤]. والرياء من الشهوة الخفية، التي هي أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمّاء في الليلة

---

(١) سرائر: مفردها سريرة وهي السرُّ الذي يُكتم.

(٢) تجنّه: تُسِرُّهُ.

(٣) الطويّات: النوايا والضمائر.

(٤) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٤٢٠٥ وفيه «الشرك» بدل «الرياء» وفسره بالرياء.

الظلماء، ولذلك عجز عن الوقوف على غوائلها[1] سماسرة[2] العلماء فضلاً عن عامّة العُبَّادِ والأتقياء، وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكائدها. وإنما يبتلى بها العلماء والعبّاد المشمّرون عن ساقِ الجدّ لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم كلّما قهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصنافِ العبادات، عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة التي ترتكبها الجوارح، فتطلبُ الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم، وتجدُ مخلَصاً من مشقّة المجاهدة إلى لذّة القَبول عند الخلق ونظرهم إليها بعين الوقار والتعظيم، وتسارع إلى إظهار الطاعة وتتوصّل إلى اطلاع الخلق ولا تقنع باطلاع الخالق، وتفرح بحمد الناس ولا تقنع بحمد الله وحده، حيث علِمتْ أنهم إذا عرفوا تركها الشهوات وتوقّيَها الشبهات وتحمُّلَها مشاقّ العبادات، أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء، وبالغوا في التفريط والإطراء، ونظروا إليها بعين التوقير والاحترام، وتبرّكوا بمشاهدتها ولقائها، ورغبوا في بركة دعائها، وحرصوا على اتباع رأيها وفاتحوها بالخدمة والسلام، وأكرموها في المحافل[3] غاية الإكرام، وسامحوها في البيع والمعاملات، وقدّموها في المجالس، وآثروها بالمطاعم والملابس، وتصاغروا لها متواضعين وانقادوا لها في أغراضها موقِّرين، فتصيب النفسُ في ذلك لذّةً هي أعظمُ اللذات، وشهوةً هي أغلبُ الشهوات، وتستحقرُ لأجل ذلك ترك المعاصي والهفوات، وتستلينُ خشونة المواظبة على العبادات، لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة

---

(١) غوائل: شرور ودواهي.
(٢) سماسرة: جمع سمسار. من معانيها: مالكُ الشيء وقيّمه.
(٣) المحافل: المجالس.

الشهوات، وصاحب هذه النفس يظنُّ أن حياتَهُ بالله وبعبادته المرضِيَّة، وإنما حياته بهذه الشهوة الخفية التي تعمى عن إدراكها العقول النافذة القويّة، وهو يرى أنه مخلِصٌ في طاعة الله ومجتنب لمحارم الله، والنفسُ قد استبطنت هذه الشهوة تزييناً للعباد وتصنّعاً للخلق وفرحاً بما نالت من المنزلة والوقار وحسنِ الحال والإقبال، وأحبطت بذلك ثواب الطاعات وأُجور الأعمال، وأثبتت اسم صاحبها في جريدة المنافقين، وهو يظنُّ أنه عند الله من المقرّبين. وهذه مكيدة للنفسِ لا يسلمُ منها إلاّ الصديقون، وهُوّةٌ(١) لا يرقى منها إلاّ المقرّبون، ولذلك قيل. آخر ما يخرج من رؤوس الصدّيقين حبُّ الرئاسة.

وإذا كان الرياء هو الداءُ الدفين الذي هو أعظمُ شبكةٍ للشياطين، وجبَ شرحُ القول في سببه وحقيقته، ودرجاته وأقسامه وطرق معالجته. والحذر منه. ويتضح الغرضُ منه في ترتيب الكتاب على شطرين: الشطر الأول في حبِّ الجاه والشهرة، وفيه: بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت، وبيان فضيلة الخمول، وبيان ذم الجاه، وبيان معنى الجاه وحقيقتِه، وبيانُ السبب في كونه محبوباً حبًّا أشدَّ من حبِّ المال، وبيانُ أن الجاه كمال وهميٌّ وليس بكمال حقيقيٍّ، وبيانُ ما يُحمدُ من حبِّ الجاه وما يُذمّ، وبيان السبب في حبّ المدح والثناء وكراهية الذمّ، وبيانُ العلاج في حبِّ الجاه، وبيان علاج حبِّ المدح، وبيان علاج كراهية الذمّ، وبيان اختلاف أحوال الناس في الذمِّ والمدح؛ فهي اثنا عشر فصلاً منها تنشأُ معاني الرياء، فلا بدَّ من تقديم الكلام عنها.

(١) الهوّة: ما انهبط من الأرض.

٢ ـ بيان معنى الجاه وحقيقته

إعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا، ومعنى المال مِلكُ الأعيان المنتفع بها، ومعنى الجاه مِلكُ القلوب المطلوب تعظيمُها وطاعتُها. وكما أن الغنيّ هو الذي يملكُ الدنانير والدراهم، أي يقدرُ عليهما ليتوصّل بهما إلى الأغراض والمقاصد وقضاء الشهوات وسائر حظوظ النفس، فكذلك ذو الجاه هو الذي يملكُ قلوبَ الناس، أي يقدر على أن يتصرّفَ فيها ليستعمل بواسطتها أربابها ـ أي أصحابها ـ في أغراضه ومآربه. وكما أنه يكتسبُ الأموال بأنواعٍ من الحِرف والصناعات، فكذلك يكتسبُ قلوبَ الخَلقِ بأنواعٍ من المعاملات، ولا تصيرُ القلوبُ مسخّرةً إلاّ بالمعارف والاعتقادات، فكلُّ من اعتقد القلبُ فيه وصفاً من أوصاف الكمال، إنقاد له وتسخَّر له بحسب قوّةِ اعتقاده، وبحسبِ درجة ذلك الكمال عنده. وليسَ يُشترطُ أن يكونَ الوصفُ كمالاً في نفسه، بل يكفي أن يكون كمالاً عنده وفي اعتقاده، وقد يعتقد ما ليس كمالاً كمالاً ويذعنُ قلبُه للموصوف به إذعاناً ضرورياً وفق اعتقاده، فإن انقياد القلبِ حالٌ للقلب، وأحوال القلبِ تابعة لاعتقادات القلوب وعلومها وتخيلاتها، وكما أنَّ محبَّ المال يطلبُ مِلكَ الأرقّاء والعبيد، فطالبُ الجاه يطلبُ أن يسترقّ الأحرار ويستعبدَهُم ويملكُ رقابَهم بمِلك قلوبهم، بل الرقُّ الذي يطلبه صاحب الجاه أعظم، لأنّ المالك يملك العبد قهراً، والعبدُ آبٍ ـ أي رافضٍ ـ بطبعه ولو خُلّي ورأيَهُ إنسلّ عن الطاعة. وصاحب الجاه يطلبُ الطاعة طوعاً، وينبغي أن يكون له الأحرار عبيداً بالطبع والطوع، مع الفرح بالعبودية والطاعةِ له. فما يطلبُه طالبُ الجاه هو فوقَ ما يطلبه مالكُ الرقّ بكثير.

فإذاً معنى الجاه قيام المنزلة في قلوب الناس، أي اعتقاد

القلوب لنعتٍ من نعوت الكمال فيه، إذ بقدر ما يعتقدون من كماله تذعنُ له قلوبهم، وبقدر إذعان القلوب تكون قدرتُه على أرباب القلوب، وبقدر قدرته على القلوب. يكونُ فرحهُ وحبُّهُ للجاه؛ فهذا هو معنى الجاه وحقيقته، وله ثمرات كالمدح والإطراء ـ فإنَّ المعتقِدَ للكمال لا يسكتُ عن ذكرِ ما يعتقده، فيثني عليه ـ وكالخدمة والإعانة ـ فإنه لا يبخلُ ببذل نفسه في طاعته بقدر اعتقاده، فيكون سخرة له مثل العبد، في أغراضه ـ وكالإيثار وترك المنازعة والتعظيم والتوقير بالمفاتحة بالسلام وتسليم الصدر ـ صدر المجلس ـ في المحافل والتقديمِ في جميع المقاصد. فهذه آثار تصدُر عن قيام الجاه في القلب، ومعنى قيام الجاه في القلب اشتمالُ القلوب على اعتقادِ صفات الكمال في الشخص، إمّا بعلمٍ أو عبادةٍ أو حُسنِ خلقٍ أو نسبٍ أو ولايةٍ أو جمالٍ في صورة أو قوةٍ في بدن أو شيءٍ مما يعتقده الناسُ كمالاً، فإن هذه الأوصاف كلُّها يعظُمُ محلّها في القلوب، فتكون سبباً لقيام الجاه.

٣ ـ سبب حبِّ الجاه

إعلم أن السببَ الذي يقتضي كونَ الذهب والفضة وسائر أنواع الأموال محبوباً، هو الذي يقتضي بعينه كون الجاه محبوباً، بل يقتضي أن يكون أحبَّ من المال كما يقتضي أن يكونَ الذهبُ أحبَّ من الفضة مهما تساويا في المقدار. وهذا السبب هو أنك تعلمُ أن الدراهمَ والدنانير لا غرضَ في أعيانهما، إذ لا تصلحُ لمنكحٍ ولا لمطعمٍ ولا لملبسٍ، وإنما هي والحصى بمثابةٍ واحدة، ولكنها محبوبة لأنها وسيلة إلى جميع الأمور المحبوبة، وذريعةٌ إلى قضاء الشهوات. وكذلك الجاه، لأن معنى الجاه مِلكُ القلوب، وكما أنّ ملكَ الذهبِ

والفضة يفيدُ قدرةً يتوصّلُ الإنسانُ بها إلى سائر أغراضه، فكذلك ملكُ قلوب الأحرار والقدرة على تسخيرها يفيدُ قدرةً على التوصّل إلى جميع الأغراض. فالاشتراك في السبب اقتضى الاشتراك في المحبّة، وترجيحُ الجاهِ على المال اقتضى أن يكونَ الجاهُ أحبَّ من المال.

ولملكِ القلوب ترجيح على ملك المال من ثلاثة أوجه:

الأول: أن التوصل بالجاه إلى المال أيسرُ من التوصل بالمال إلى الجاه. فالعالم أو الزاهد الذي حدث له جاه في القلوب، لو قصد اكتساب المال لتيسّر له ذلك، فإن أموال أرباب القلوب مسخّرةٌ للقلوب، ومبذولةٌ لمن اعتُقِدَ فيه الكمال. وأمّا الرجل الخسيس الذي لا يتصف بصفةِ كمالٍ إذا وجدَ كنزاً ولم يكن له جاهٌ يحفظُ ماله، وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه، لم يتيسّر له. فإذن الجاه آلةٌ إلى المال ـ أي وسيلة إليه ـ فمن ملكَ الجاه، فقد ملكَ المال أيضاً، ومن ملك المال لم يملكِ الجاه دوماً، فلذلك صار الجاهُ أحبَّ.

الثاني: هو أن المال معرض للبلوى والتَلف، لأنّه يُسرق ويُغصبُ، ويَطمعُ فيه الملوك والظلمة، ويحتاجُ إلى الحفظ والحراسة والخزائن، وتتطرق إليه أخطار كثيرة. وأمّا القلوبُ إذا مُلِكَتْ لم تتعرض لهذه الآفات، فهي بنحوٍ مؤكد خزائنُ عقيدةٍ لا يقدرُ عليها السرّاق ولا تتناولها أيدي الغصّاب. وأثبتُ الأموال العقارُ، ولا يؤمن فيه الغصبُ والظلم، ولا يستغنى عن المراقبة والحفظ. وأمّا خزائن القلوب فهي محفوظة بأنفسها، وذو الجاه في أمنٍ وأمان من الغصب والسرقةِ فيها. نعم، إنما تُغصبُ القلوب بصرفها عمن تحبّ، وتقبيح حال من تحب فتنفر منه، وتغيير الاعتقاد فيما صدقَ به من أوصاف الكمال؛ وذلك كلّه مما يهون دفعهُ ويتيسّر على محاولِهِ فعلُهُ.

الثالث: إنّ ملكَ القلوب يسري وينمو ويتزايد من غير حاجةٍ إلى تعبٍ ومقاساة، لأن القلوب إذا أذعنت لشخصٍ واعتقدت كمالَهُ بعلم أو عملٍ أو غيره، أفصحت الألسنةُ لا محالةَ عما فيها، فتصفُ ما تعتقده للغير، فيقتنص قلبه ذلك أيضاً ولهذا الأمر يحبُّ بالطبع الصيتَ وانتشار الذكر، لأنّ ذلك إذا استطار ـ أي انتشر ـ في الأقطار، اقتنصَ القلوب ودعاها إلى الإذعان والتعظيم، فلا يزال يسري من واحدٍ إلى واحد ويتزايد، وليسَ له مردٌّ معين. وأمّا المال، فمن ملكَ منه شيئاً فلا يملك ما عداه، ولا يقدر على استنمائه إلاّ بتعبٍ ومقاساة. فالجاه أبداً ودائماً في حالة نماءٍ بنفسه ولا مردَّ لموقعه، والمال واقف. ولهذا إذا عظم الجاه وانتشر الصيت وانطلقت الألسنة بالثناء، استُحقرت الأموال في مقابل الجاه؛ فهذه أهم أسباب ترجيح الجاه على المال، وإذا فُصّلت كثُرت وجوه الترجح.

غير أنَّ لامرىء أن يقول بأنّ الإشكال قائم في المال والجاه جميعاً، فلا ينبغي أن يُحبَّ الإنسانُ المال والجاهَ. نعم، القدر الذي يُتوصّل به إلى جلبِ الملاذ ودفعِ المضارّ معلومٌ، كالمحتاج إلى الملبس والمسكن والمطعَم أو كالمبتلى بمرضٍ أو عقوبة إذا كان لا يتوصّل إلى دفع العقوبة عن نفسه إلاّ بمالٍ وجاه، فحبُّه للمال والجاه معلومٌ، إذ كلُّ ما لا يُتوصل إلى المحبوب إلاّ به فهو محبوب. وفي الطباع أمرٌ عجيب وراء هذا، وهو حبُّ جمع الأموال وكنزِ الكنوز وادخّار الذخائر واستكثار الخزائن بما يفوق جميع الحاجات، حتى أن العبد لو كان له واديان من ذهب، لابتغى وراءهما ثالثاً. وكذلك، يحب الإنسان اتساع الجاه وانتشار الصيتِ إلى أقاصي البلاد التي يعلمُ قطعاً أنه أبداً لا يطؤها ولا يشاهدُ أصحابها، ليعظّموه، أو ليَبرُّوه بمال، أو ليعينوه على غرضٍ من أغراضه، ومع اليأس من ذلك فإنّه

يلتذّ بمجرد انتشار صيته غاية الالتذاذ، وحبُّ ذلك ثابت في الطبع، ويُكاد يُظنُّ أنّ ذلك جهلٌ، فإنه حُبٌّ لما لا فائدة فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة. فكيف ذلك؟

والصحيح في المقام أنّ هذا الحب لا تنفكُّ القلوب عنه، وله سببان: أحدهما جليٌّ تدركُه العامّة، والآخرُ خفيٌّ، وهو أعظم السببين، ولكنه أدقهما وأخفاهما وأبعدهما عن أفهام الأذكياء فضلاً عن الأغبياء، وذلك لاستمداده من عرقٍ خفيٍّ في النفس وطبيعةٍ مستكنّةٍ في الطبع، لا يكاد يقفُ عليها إلاّ الغواصون.

فأما السبب الأول، فهو دفع ألم الخوف، لأنّ الشفيق من البشر مولعٌ بسوء الظنّ، والإنسانُ وإن كان مكتفياً في الحال، فإنه طويل الأملِ ويخطرُ بباله أن المال الذي فيه كفايتُه ربما يتلف، فيحتاجُ إلى غيره. فإذا خطر ذلك بباله، هاج الخوفُ من قلبه، ولا يدفعُ ألم الخوف إلاّ الأمن الحاصل بوجود مالٍ آخر يُفزعُ إليه ـ أي يُلجأ إليه ـ إن أصابت هذا المال جائحة[1]. فهو أبداً لشفقته على نفسه وحبّه للحياة، يقدّرُ طول الحياة، ويقدّر هجوم الحاجات، ويقدّرُ إمكان تطرّقِ الآفاتِ إلى الأموال، ويستشعر الخوف من ذلك، فيطلبُ ما يدفعُ خوفَه ـ وهو كثرةُ المال ـ حتى إذا أُصيب في طائفة من ماله استغنى بالأخرى، وهذا خوفٌ لا يوقَفُ له عند مقدار مخصوصٍ من المال، فلذلك لم يكن لميلهِ هذا توقف إلى أن يملكَ جميعَ ما في الدنيا. ولذلك قالﷺ: «منهومان لا يشبعان منهومُ العلمِ ومنهومُ المال»[2].

(١) جائحة: البلية والتهلكة والداهية العظيمة.
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس؛ وقد تقدم في كتاب العلم.

ومثلُ هذه العلّة ـ أي السبب ـ تطّرد في حبّه حدوث المنزلة والجاه في قلوب الأباعدِ عن وطنه وبلده، فإنّه لا يخلو عن تقديرِ سببٍ يزعجُه عن الوطن ـ أي يدفعه لمغادرته ـ أو يزعجُ أولئك عن أوطانهم إلى وطنه، ويحتاجُ إلى الاستعانة بهم. وطالما كان ذلك ممكناً، ولم يكن احتياجه إليهم مستحيلاً في الظاهر، كان للنفسِ فرحٌ ولذّةٌ بحدوث الجاه في قلوبهم، لما فيه من الأمن من هذا الخوف.

وأمّا السبب الثاني، وهو الأقوى، أن الروح أمرٌ رباني، وصفه الله تعالى إذ قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1] ومعنى كونه ربانياً هو من أسرار علوم المكاشفة، ولا رخصة في إظهاره، إذ لم يظهره رسول الله ﷺ. ولكنك قبل معرفة ذلك، تعلمُ أن للقلب ميلاً إلى صفات بهيمية كالأكل والوقاع، وإلى صفات سبُعيَّة كالقتل والضرب والإيذاء، وإلى صفاتٍ شيطانية كالمكر والخديعة والإغواء، وإلى صفات ربوبية كالكبر والعزّ والتجبّر وطلب الاستعلاء، وذلك لأنه مركبٌ من أصولٍ مختلفة يطول شرحُها وتفصيلُها.

فهو لما فيه من الأمر الرباني يحبُّ الربوبية بالطبع، ومعنى الربوبية التوحّدُ بالكمال والتفرُّدُ بالوجود على سبيل الاستقلال، فصار الكمال من نعوت الإلهية، وصار محبوباً بالطبع للإنسان.

والكمال في التفرد بالوجود، فإن المشاركة في الوجود نقصٌ لا محالة، فكمالُ الشمس في أنّها موجودة وحدها، فلو كانت معها شمسٌ أُخرى، كان ذلك نقصاناً في حقّها، إذ ليست متفردة بكمال معنى الشمسيّة. والمتفرّد بالوجود هو الله تعالى، إذ ليس معه موجود سواه، فإنّ ما سواه أثرٌ من آثار قدرته، لا قوام له بذاته، بل هو قائم

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

به، ولذا لم يكن موجوداً معه، لأن المعيّة توجب المساواة في الرتبة، والمساواة في الرتبة نقصانٌ في الكمال، بل الكامل من لا نظير له في رتبته. وكما أن إشراق نور الشمس في أقطار الآفاق ليس نقصاناً في الشمس، بل هو من جملة كمالها، وإنما نقصانُ الشمس بوجود شمسٍ أخرى تساويها في الرتبة مع الاستغناء عنها نفسِها، فكذلك وجود كلِّ ما في العالم يرجع إلى إشراق أنوار القدرة، فيكون تابعاً ولا يكونُ متَّبعاً.

فإذاً، معنى الربوبية التفرُّدُ بالوجود، وهو الكمال. وكلُّ إنسان يحبُّ بطبعه لأن يكونَ هو المتفرّدَ بالكمال، ولذلك قال بعض مشايخ الصوفية: ما من إنسانٍ إلاّ وفي باطنه ما صرّح به فرعونُ من قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ولكنه ليس يجدُ له مجالاً؛ وهو كما قال. فإن العبوديةَ قهرٌ على النفس، والربوبية محبوبة بالطبع، وذلك للنسبة التي أومأ إليها قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾. ولكن لما عجزت النفس عن الوصول إلى منتهى الكمال، لم تسقط شهوتها للكمال، فهي مُحبّةٌ للكمال ومشتهية له وملتذة به لذاته، لا لمعنى آخر وراء الكمال. فكلُّ موجود يحبُّ ذاته وكمال ذاتِه، ومبغضٌ للهلاك الذي هو عدمُ ذاته أو عدمُ صفات الكمال من ذاته. وإنّما الكمال بعد أن لم يسلمِ التفرّدُ بالوجود، هو في الاستيلاء - أي السيطرة - على كل الموجودات، فإن أكمل الكمال أن يكون وجود غيرك منك، فإن لم يكن منك، فهو في أن تكون مستولياً عليه، فصار الاستيلاء على الكل محبوباً بالطبع لأنه نوعُ كمالٍ.

وكل موجود بعرف ذاته، فإنه يحبُّ ذاته ويحبُّ كمال ذاته ويلتذُّ بها، إلاّ أن الاستيلاء على الشيء، بالقدرةِ على التأثير فيه وعلى تغييره بحسبِ الإرادة وكونه مسخّراً لك تتصرف فيه كيف تشاء، فأحبَّ

الإنسانُ أن يكونَ له الاستيلاء على الأشياء الموجودة معه، إلاّ أن الموجودات منقسمة إلى ما لا يقبل التغيّر في نفسه ـ كذات الله وصفاته ـ وإلى ما يقبل التغيّر ولكن لا تستولي عليها قدرةُ الخلق ـ كالأفلاك والكواكب وملكوت السماوات ونفوس الملائكة والجنّ والشياطين، وكالجبال والبحار وما تحت الجبال والبحار ـ وإلى ما يقبل التغيّر بقدرة العبد ـ كالأرض وأجزائها وما عليها من المعادن والنبات والحيوان، ومن جملتها قلوب الناس، فإنها قابلة للتأثر والتغيّر، مثل أجسادهم وأجساد الحيوانات.

فإذا انقسمت الموجودات إلى ما يقدر الإنسان على التصرف فيه كالأرضيات، وإلى ما لا يقدر، كذات الله تعالى والملائكة والسماوات، أحبَّ الإنسان أن يستولي على **السماويات** بالعلم والإحاطةِ والاطلاع على أسرارها، فإن ذلك نوعُ استيلاءٍ، إذ المعلومُ المحاطُ به، كالداخل تحت القدرة، والعالمُ، كالمستولي عليه. فلذلك أحبَّ أن يعرفَ الله والملائكة والأفلاك والكواكب وجميع عجائب السماوات وعجائب البحار والجبال وغيرها، لأنّ ذلك نوعُ استيلاءٍ عليها، والاستيلاءُ نوع كمالٍ. وهذا يضاهي اشتياقَ من عجزَ عن صنعةٍ عجيبة، إلى معرفةِ طريق الصنعة فيها.. فهو متألم بنقص العجز، ومتلذذ بكمال العلم إن علمه.

وأما القسمُ الثاني، وهو الأرضيات التي يقدر الإنسان عليها، فإنه يحبُّ بالطبع أن يستولي عليها بالقدرة على التصرف فيها كيف شاء. وهي قسمان: أجسادٌ وأرواح. والأجسادُ الدراهمُ والدنانيرُ والأمتعة، فيحبُّ أن يكون قادراً عليها، يفعل ما يشاء فيها، من الرفع والوضع، والتسليم والمنعِ، فإن ذلك قدرة، والقدرة كمال، والكمال من صفات الربوبية، والربوبية محبوبة بالطبع. فلذلك أحبَّ الأموال،

وإن كان لا يحتاج إليها في ملبسه ومطعمه، وفي شهوات نفسه. ولذلك طلب استرقاق العبيد واستعباد الأشخاص الأحرار ولو بالقهر والغلبة، حتى يتصرّف في أجسادهم وأشخاصهم، عن طريق تسخيرهم وإن لم يملك قلوبهم، فإنها ربّما لم تعتقد كماله حتى يصير محبوباً لها، فيقوم القهر منزلته ـ أي الحب بدافع من مشاهدة الكمال ـ فيها، أي القلوب، فإنّ الحشمة القهرية أيضاً لذيذة لما فيها من القدرة.

القسم الثالث نفوسُ الآدميين وقلوبُهم، وهي أَنفَسُ ما على وجه الأرض، فهو يحبُّ أن يكون له استيلاء وقدرة عليها، لتكون مسخّرة له، متصرِّفةً تحت إشارته وإرادته، لما في ذلك من كمالِ الاستيلاء والتشبّه بالصفات الربوبية. والقلوبُ إنما تتسخّر بالحبّ، ولا تحبُّ إلاّ باعتقاد الكمال، فإنّ كلَّ كمالٍ محبوب، لأن الكمال من صفات الإلهية، والصفات الإلهية كلُّها محبوبة بالطبع، للمعنى الربّاني من جملةِ معاني الإنسان ـ وهو الذي لا يُبليه الموتُ فيُعدمُه ولا يتسلّط عليه التراب فيأكله ـ لأنه محلُّ الإيمان والمعرفة، وهو الواصلُ إلى لقاء الله والساعي إليه.

فإذاً معنى الجاه هو تَسخُّرُ القلوب، ومن تسخرت القلوب له، كانت له قدرةٌ واستيلاءٌ عليها، والقدرة والاستيلاء كمالٌ، وهو من أوصاف الربوبية. فإذاً محبوب القلب بطبعه هو الكمال بالعلم والقدرة، والمال والجاه من أسباب القدرة، ولا نهاية للمعلومات، ولا نهاية للمقدورات. وما دام يبقى معلومٌ أو مقدور، فالشوق لا يسكن، والنقصان لا يزول، فلذلك قال ﷺ: «منهومان لا يشبعان. . .».

فإذاً مطلوبُ القلبِ الكمال، والكمال بالعلم والقدرة، وتفاوت

الدرجات فيه غير محصور، فسرور كلِّ إنسانٍ ولذتُه بقدر ما يدركه من الكمال، وهذا هو السبب في كون العلم والمال والجاه محبوباً، وهو أمر وراء كونه محبوباً لأجل التوصل به إلى قضاء الشهوات، فإنّ هذه العلة قد تبقى مع سقوط الشهوات، بل يحبُّ الإنسان من العلوم ما لا يصلحُ للتوصل به إلى الأغراض والمقاصد، بل ربما تفوتُ عليه جملة من الأغراض والشهوات، ولكنّ الطبعَ يتطلّبُ طلبَ العلم في جميع العجائب والمشكلات، لأنّ في العلم استيلاءً على المعلوم، وهو نوعٌ من الكمال الذي هو من صفات الربوبية، وهو محبوب بالطبع، إلاّ أنّ في حبِّ كمال العلم والقدرة أخطاء ومغالطات لا بد من بيانها.

٤ ـ الكمال الحقيقي والكمال الوهمي

قد عرفت أنه لا كمال بعد فوات التفرد بالوجود، إلاّ في العلم والقدرة، ولكن الكمال الحقيقي فيه ملتبِسٌ بالكمال الوهميّ. وبيانُه أنّ كمال العلم هو لله تعالى وذلك بثلاثة اعتبارات:

أحدها، باعتبار كثرة المعلومات وسعتها، فإنه محيط بجميع المعلومات فلذلك كلّما كانت علوم العبد أكثر كان أقرب إلى الله تعالى.

والثاني، باعتبار تعلّق العلم بالمعلوم على ما هو عليه، وكونُ المعلوم مكشوفاً به كشفاً تاماً، فإنَ المعلومات مكشوفة لله سبحانه بأتمّ أنواع الكشف على ما هي عليها، ولذلك كلما كان علمُ العبد أوضح وأتقنَ وأصدقَ وأوفق للمعلوم في تفاصيل صفات المعلوم، كان أقرب إلى الله تعالى.

الثالث، باعتبار بقاء العلم أبَدَ الآباد، بحيث لا يتغير ولا يزول. فإن علم الله تعالى باقٍ، لا يُتصور أن يتغير ويزول، وكذلك

كلما كان علم العبد بمعلوماتٍ لا تقبلُ التغيّر والانقلاب، كان أقربَ إلى الله تعالى.

والمعلومات قسمان: متغيّرات وأزليات. أما المتغيرات، فمثالها العلم بكون زيد في الدار، فإنه علمٌ له معلومٌ، ولكنَّهُ يُتصور أن يخرجَ زيد من الدار، ويبقى اعتقاد كونه في الدار كما كان، فينقلبُ جهلاً، فيكون نقصاناً لا كمالاً. فكلُّ ما اعتقدته اعتقاداً موافقاً، وتُصُوِّرَ أن ينقلب المعتقدُ فيه عما اعتقدته، كنت بصدد أن ينقلِبَ كمالُك نقصاً، ويعودَ علمُك جهلاً. ويلحق بهذا المثال جميعُ متغيرات العالم، كعلمك مثلاً بارتفاع جبلٍ ومساحةِ أرضٍ، وبعدد البلاد وتباعدِ ما بينها من الأميال والفراسخ، وسائر ما يذكر في المسالك والممالك، وكذلك العلمُ باللغات التي هي اصطلاحات تتغير بتغير الأعصار والأمم والعادات. فهذه علوم معلوماتُها مثل الزئبق، يتغيّر من حالٍ إلى حال، فليس فيها كمال إلاّ في الحال، ولا تبقى كمالاً في القلب.

والقسم الثاني هو المعلومات الأزلية، وهو جوازُ الجائزات، ووجوب الواجبات، واستحالة المستحيلات، فإن هذه معلومات أزلية أبدية، إذ لا يستحيلُ الواجب قطُّ جائزاً، ولا الجائز محالاً، ولا المحال واجباً؛ وكلُّ هذه الأقسام داخلة في معرفة الله تعالى، وما يجب له وما يستحيل في صفاته، ويجوز في أفعاله. فالعلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله، وحكمته في ملكوت السماء والأرض، وترتيب الدنيا والآخرة وما يتعلق به ـ أي بهذا الترتيب ـ هو الكمال الحقيقي الذي يقرّب من يتصف به من الله تعالى، وهو الذي يبقى كمالاً للنفس بعد الموت، وتكون هذه المعرفةُ نوراً للعارفين بعد الموت، يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا، أي تكون هذه المعرفة

رأس مالٍ يوصلُ إلى كشفِ ما لم ينكشف في الدنيا، تماماً كمثل من معه سراج خفيّ، فإنه يجوز أن يصير ذلك سبباً لزيادة النور بسراجٍ آخر يقتبس منه، فيكمُلُ النور بذلك النور الخفيّ على سبيل الاستتمام، ومن ليس معه أصلُ السراج فلا مطمعَ له في ذلك.

فمن ليس معه أصلُ معرفة الله سبحانه، لم يكن له مطمع في هذا النور، فيبقى كمن مثله في الظلمات ليس بخارجٍ منها، بل كظلماتٍ في بحرٍ لجّيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحابٌ، ظلمات بعضها فوق بعضٍ.

فإذاً لا سعادة إلاّ في معرفة الله تعالى، وأمّا ما عدا ذلك من المعارف، فمنها ما لا فائدة منه أصلاً، كمعرفة الشعر وأنساب العرب وغيرها، ومنها ما له منفعة في الإعانةِ على معرفةِ الله، كمعرفة لغة العرب والتفسير والفقه والأخبار، فإن معرفة لغة العرب تعين على معرفة تفسير القرآن، ومعرفة التفسير تعين على معرفة ما في القرآن من كيفية العبادات والأعمال التي تفيدُ تزكية النفس، ومعرفة طريق تزكية النفس تفيدُ استعداد النفس لقبول الهداية إلى معرفة الله تعالى، كما قال الله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝﴾[1] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾[2]. فتكون جملة هذه المعارف كالوسائل لنيل معرفة الله تعالى، وإنما الكمال في معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله، وينطوي فيه جميع المعارف المحيطة بالموجودات، إذ الموجودات كلُّها من أفعاله، فمن عرفها من حيث هي فعلُ الله ومن حيث ارتباطها بالقدرة والإرادة والحكمة، فهي من تكملة معرفة الله تعالى؛ وهذا

---

(١) سورة الشمس، الآية: ٩.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

حكمُ كمال العلم ذكرناه وإن لم يكن لائقاً بأحكام الجاه والرياء، ولكن أوردناه لاستيفاء أقسام الكمال.

وأمّا القدرة فليس فيها كمال حقيقي للعبد، بل للعبدِ علم حقيقي وليس له قدرة حقيقية، وإنما القدرة الحقيقية لله تعالى، وما يحدث من الأشياء عقيب إرادة العبد وقدرته وحركته، فهي حادثةٌ بإحداث الله كما قررناه في كتاب الصبر والشكر وكتاب التوكل وفي مواضع شتى. . فكمال العلم يبقى معه بعد الموت ويوصله إلى الله تعالى، وأمّا كمال القدرة فلا.

نعم، له كمال ـ أي للإنسان ـ من جهة القدرة بالإضافة إلى الحال ـ أي بلحاظ ما يؤدي إليه وجود القدرة في بدنه ووجوده ـ وهي وسيلة له إلى كمال العلم، كسلامة أطرافه وقوّة يده للبطش ورجله للمشي وحواسه للإدراك، فإن هذه القوى آلة للوصول بها إلى حقيقة كمال العلم. وقد يُحتاج في استيفاء هذه القوى إلى القدرة بالمال والجاه، لتحصيل المطعم والملبس والمسكن، وذلك إلى قدَرٍ معلوم، فإن لم يستعملها للوصول بها إلى معرفة الله، فلا خير فيها مطلقاً إلاّ من حيث اللذة الحالية التي تنقضي سريعاً، ومن ظنَّ ذلك كمالاً فقد جهل. فالخلق كلهم هالكون في غمرة هذا الجهل، فإنهم يظنون أن القدرة على الأجسادِ بقهرِ الحشمةِ[1]، وعلى أعيانِ الأموالِ بسعةِ الغنى، وعلى تعظيم القلوبِ بسعة الجاه، هي كمال. فلما اعتقدوا ذلك أحبوه، ولمّا أحبوه طلبوه، ولما طَلبوه شُغلوا به وتهالكوا عليه، فنسوا الكمال الحقيقيّ الذي يوجبُ القربَ من الله وملائكته، وهو العلم والحريّة.

أما العلم فما ذكرناه من معرفة الله، وأمّا الحرية فالخلاص من أسر الشهوات وغموم الدنيا والاستيلاء عليها بالقهر، تشبّهاً بالملائكة

---

(١) قهر الحشمة: قوة الغضب.

الذين لا تستفزهم الشهوة ولا يستهويهم الغضب. فإذاً دفع آثار الغضب والشهوة عن النفس هو من الكمال، الذي هو من صفات الملائكة.

ومن صفات الكمال لله تعالى، استحالة التغيّر والتأثر عليه، فمن كان عن التغيّر والتأثر بالعوارض أبعدَ، كان إلى الله تعالى أقرب وبالملائكة أشبه، ومنزلته عند الله أعظم. وهذا كمال ثالث بالاضافة إلى كمال العلم والقدرة، وإنما لم نورده في أقسام الكمال لأنّ حقيقته ترجعُ إلى عدمٍ ونقصان.

فإذاً الكمالات ثلاثة إن اعتبرنا عدم التغير بالشهوات وعدم الانقياد لها كمالاً، ككمال العلم وكمال الحرية، وأعني به عدم العبودية للشهوات وإرادة الأسباب الدنيويّة. وكمال القدرة للعبدِ طريقٌ إلى اكتساب كمال العلم وكمال الحرية، ولا طريق له إلى اكتساب كمال القدرة الباقية بعد موته، إذ قدرته على أعيان الأموال وعلى تسخير القلوب والأبدان تنقطع بالموت، ومعرفته وحريته لا تنعدمان بالموت، بل تبقيان كمالاً فيه، وسيلةً إلى القرب من الله سبحانه.

فانظر كيف انقلب الجاهلون وانكبوا على وجوههم انكباب العميان، فأقبلوا على طلب كمال القدرة بالمال والجاه، وهو الكمال الذي لايسلم، وإن سلمَ فلا بقاء له، وأعرضوا عن كمال الحرية والعلم الذي إذا حصل كان أبدياً لا انقطاع له، وهؤلاء همُ الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فلا جرمَ لا يُخفّفُ عنهم العذاب ولا هم ينصرون. وهم الذين لم يفهموا قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾[1]. فالعلم والحرية هي

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٦.

الباقيات الصالحات التي تبقى كمالاً في النفس، والمال والجاه هو الذي ينقضي سريعاً؛ وهو كما مثّل الله تعالى حيث قال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ الآية[1]، وكلُّ ما تذروه الرياح بالموت، فهو زهرة الحياة الدنيا، وكلُّ ما لا يقطعه الموت فهو من الباقيات الصالحات؛ فعرفتَ بهذا أن كمال القدرة بالمال والجاه كمال ظنّي لا أصلَ له، وأنّ من قصّر الوقت على طلبه وظنّه مقصوداً، فهو جاهل إلاّ قدر البُلغة منها إلى الكمال الحقيقيّ.

٥ ـ المحمودُ والمذموم من حبّ الجاه

إذا عرفتَ أن معنى الجاه ملكُ القلوب والقدرة عليها، فحكمُه حكمُ ملكِ الأموال، فإنه عَرضٌ من أعراض الحياة الدنيا، وينقطع بالموت كالمال. والدنيا مزرعةُ الآخرة، فكلُّ ما خلقَ الله من الدنيا فيمكن أن يُتزوّدَ منه إلى الآخرة، وكما أنه لا بدّ من حد أدنى من المال لضرورة المطعم والملبس، فلا بد من حدٍّ أدنى من الجاه لضرورة المعيشة مع الخلق. والإنسان كما لا يستغني عن طعام يتناولُهُ فيجوزُ له أن يحبّ الطعامَ أو المالَ الذي يبتاعُ به الطعام، كذلك لا يخلو عن الحاجة إلى خادمٍ يخدمه، ورفيقٍ يعينه، وأستاذٍ يرشده، وسلطانٍ يحرسه ويدفع عنه ظُلمَ الأشرار. فإذا أحبَّ أن يكون له في قلب خادمه من المكانة التي تدعو الخادم إلى الخدمة، فذلك ليس بمذموم. وإذا أحبّ أن يكون له في قلب رفيقه من المكانة التي تدعو الرفيق إلى حسن المرافقة، فذلك ليس بمذموم. وإذا أحب أن يكون له في قلب أستاذه من المكانة ما يدفع الأستاذ إلى أن يُحسنَ إرشاده وتعليمه والعناية به، فذلك ليس بمذموم أيضاً. وحبُّه لأن يكون له من

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.

المكانة في قلب سلطانه ما يحث السلطان على دفع الشر عنه هو أيضاً غير مذموم، فإن الجاه وسيلة إلى الأغراض كالمال، فلا فرق بينهما.

غير أن التحقيق في حقيقة هذا الأمر، يفضي إلى أن لا يكون المال والجاه في أعيانهما محبوبين، بل ينزلان منزلة حبِّ الإنسان أن يكون في داره بيتُ ماءٍ [دورة مياه] لأنه يُضطر إليه من أجل قضاء حاجته، ويتمنى لو أنه يستغني عن قضاء الحاجة حتى يستغني عن بيت الماء؛ فمثل هذا الشخص ليس محباً في الواقع لبيت الماء..

وتدركُ التفرقة في المسألة أيضاً بمثال آخر، وهو أنّ الرجل قد يحبُّ زوجته من حيث إنه يدفعُ بها الشهوة.. ولو كُفي مؤونة الشهوة لكان يهجر زوجته.. وقد يحبُّ زوجته لذاتها حبَّ العشاق، ولو كُفي الشهوة لبقي مستصحباً لنكاحها؛ فهذا هو الحبُّ دون الأول. وكذلك الجاهُ والمال قد يحبُّ كل واحدٍ منهما على هذين الوجهين ـ أي بالنحوين المشار إليهما في الأمثلة ـ فحبّهما لأجل التوصّل إلى الحاجات الضرورية للبدن غير مذموم، وحبّهما لأعيانهما بما يزيد عن الحاجات الضرورية للبدن مذموم، ولكنه لا يؤدي إلى اتصاف صاحبه بالفسق والعصيان ما لم يحمله الحبُّ على مباشرة معصية، وما لم يُتوصل بالحب إلى اكتساب المال بكذبٍ وخداع وارتكاب محظور، وما لم يتوصل إلى اكتساب المال بعبادة، فإن التوصل إلى المال والجاه بالعبادة، جناية على الدين، وهو حرام، وإليه يرجعُ معنى الرياء المحظور كما سيأتي.

ولسائل أن يسأل: هل يعد طلبُ الجاه والمنزلة في قلبِ أستاذه وخادمه ورفيقه وسلطانه ومن يرتبط به أمره، شأناً مباحاً بنحو مطلق وكيفما كان؟ أم أنه شأن مباحٌ إلى حدٍّ مخصوص أو على وجه مخصوص؟

والجواب أن ذلك يُطلب على ثلاثة أوجُه: وجهان منها مباحٌ، ووجه منها محظور. أمّا المحظور فهو أن يطلب قيام المنزلةِ في قلوبهم باعتقادهم فيه صفةً وهي ليست فيه، كالعلم والورع والنسب، فيُظهرُ لهم أنه علويٌّ أو عالم أو ورع، وهو ليس كذلك؛ فهذا حرام لأنه تلبيس وكذبٌ إمّا بالقول وإمّا بالفعل.

وأمّا أحد المباحين فهو أن يطلب المنزلةُ بصفةٍ هو متصف بها، كقول يوسف عليه السلام: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[(١)]، فإنه طلب المنزلة في قلبه بكونه حفيظاً عليماً، وكان محتاجاً إليه ـ أي إلى الطلب ـ وكان صادقاً فيه، أي فيما قاله عن نفسه.

وثاني المباحين هو أن يطلبَ إخفاء عيبٍ من عيوبه، ومعصيةٍ من معاصيه حتى لا يُعلم، ولا تزول منزلته بسببه. فهذا أيضاً مباحٌ لأنّ حفظ الستر على القبائح جائز، ولا يجوز هتكُ الستر وإظهار القبيح. فهذا ليس فيه تلبيس، بل هو سدٌّ لطريق العلم بما لا فائدة في العلمِ به، كالذي يخفي عن السلطان أنه يشرب الخمر ولا يلقي إليه ـ أي يدعي أمامه ـ أنه ورع، فإن قوله: إنّي ورعٌ تلبيسٌ، وعدمُ إقراره بالشرب لا يوجبُ اعتقاده الورع، بل يمنعُ العلم بالشرب. ومن جملة المحظورات تحسينُ الصلاة بين يديه ليحسُن اعتقاده فيه، فإنّ ذلك رياءٌ، وهو ملبّس، إذ يُخيّل إليه أنه من المخلصين الخاشعين لله، وهو مراءٍ بما يفعله، فكيف يكون مخلصاً؟! فطلبُ الجاه بهذا الطريق حرامٌ، وكذا بكل معصية، وهو يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق. وكما لا يجوز له أن يتملّك مال غيره بتلبيسٍ في عِوضٍ أو في غيره، فلا يجوز له أن

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٥.

يتملّك قلبَهُ بتزوير وخداع فإنّ ملكَ القلوب أعظمُ من ملكِ الأموال.

٦ ـ ذمُّ الشهرة وانتشار الصيت

إعلم أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار، وهو مذموم. بل المحمود هو الخمولُ إلاّ من شهّره الله لنشر دينه من غير تكلُّفِ طلبِ الشهرة منه. قال أنس: قال رسول الله ﷺ: «حسب امرىء من الشر أن يشير إليه بالأصابع إلاّ من عصمَهُ الله»(١). وقال جابر بن عبد اللَّه: قال رسول الله ﷺ: «بحسب المرء من الشر إلاّ من عصمه الله من السوء أن يُشير الناسُ إليه بالأصابع في دينه ودنياه. إن الله لا ينظرُ إلى صوركم ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وإلى أعمالكم»(٢). ولقد ذكرَ الحسنُ للحديث تأويلاً لا بأس به، إذ روى هذا الحديث فقيل له: يا أبا سعيد، إن الناس إذا رأوك أشاروا إليك بالأصابع، فقال: إنه لم يعنِ هذا وإنما عنى به المبتدع في دينه والفاسق في دنياه.

وقال علي عليه السلام: «تبذَّلْ ولا تشتهر، ولا ترفع شخصك لتُذكر وتُعلم، واكتم واصمُت تسْلَم، تسرُّ الأبرار وتغيظُ الفجّار»(٣).

٧ ـ فضيلةُ الخمول

قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط بسندٍ فيه عبد العزيز بن حُصين، وهو ضعيف كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٩٦. وأخرجه البيهقي في الشعب كما في مشكاة المصابيح ص ٤٥٥، وفي المصابيح للبغوي ج ٢ ص ١٨١ بأدنى اختلاف.

(٢) قال العراقي: هو غير معروف من حديث جابر، إنما هو معروف من حديث أبي هريرة. رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب بسندٍ فيه ضعف مقتصرين على أوله، ورواه مسلم مقتصراً على الزيادة التي في آخره.

(٣) لم يذكر مصدر هذا الحديث في المتن الأصلي [المعدّ].

أقسم على الله لأبرّه، منهم البراءُ بن مالك»(١). وقال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ ذي طمرين لا يؤبَهُ له، لو أقسم على الله لأبرَّهُ، لو قال: اللهمَّ إني أسألك الجنّة لأعطاه الجنّة ولم يُعطه من الدنيا شيئاً»(٢). وقال ﷺ: «ألا أدلُّكم على أهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسمَ على الله لأبرّه، وأهل النار كل متكبّر جوّاظ»(٣). وعنه ﷺ: «إن أهل الجنّة كلُّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، الذين إذا استأذنوا على الأُمراء لم يؤذن لهم، وإذا خطبوا النساء لم يُنكحوا، وإذا قالوا لم يُنصت لقولهم، حوائج أحدهم تتلجلج في صدره، لو قُسِّمَ نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم»(٤).

وقال ﷺ: «إنّ من أمتي من لو أتى أحدَكم يسألُه ديناراً لم يعطه إياه، ولو سأله درهماً لم يعطه إياه، ولو سأله فِلساً لم يُعطه إياه، ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاه إياها، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها، وما منعها إياه إلاّ لهوانها عليه، ذو طمرين لا يؤبه له، لو أقسمَ على

---

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٣٦ و ١٥٤ من حديث أبي هريرة «ربَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه» وللحاكم «ربَّ أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنهُ أعين الناس لو أقسم على الله لأبرّه»، وقال: صحيح الإسناد. ولأبي نعيم في الحلية من حديث أنس بسندٍ ضعيف «ربّ ذي طمرين لا يؤبهُ له لو أقسمَ على الله لأبرّه، منهم البراء بن مالك» وهو عند الحاكم نحوه، بهذه الزيادة، وقال: صحيح الإسناد. وقال العراقي في المغني: بل ضعيفه. والأشعث: هو ذو الشعر المتلبد الأغبر. وذو الطمرين: الطِّمر، الثوب البالي أو الذي لا يملك شيئاً.

(٢) راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٦٤، وقال العراقي: أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسندٍ ضعيف.

(٣) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٥٤ من حديث حارثة بن وهب، ورواه الطبراني في الأوسط عن شيخه عبد اللّٰه بن محمد بن أبي مريم، وهو ضعيف. والجوّاظ هو: المختالُ المتكبّر في مشيه.

(٤) تقدم صدره، وما عثرتُ على ذيله في أي أصل. وتتلجلج: تتردد.

الله لأبرّه»[1]. وعنه ﷺ: «إنّ اليسير من الرياء شرك، وإنّ الله يحبُّ الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يُفقدوا وإذا حضروا لم يُعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، ينجون من كلِّ غبراء مُظلِمة»[2].

وقال محمد بن سويد: قحط أهل المدينة[3]، وكان بها رجلٌ صالحٌ لا يؤبه له لازمٌ لمسجد رسول الله ﷺ، فبينا هُم في دعائهم إذ جاءهم رجل عليه طِمران خلقان، فصلّى ركعتين آوجز فيهما، ثم بسطَ يديه فقال: يا ربِّ أقسمتُ عليك إلاّ أمطرتَ علينا الساعة، فلم يردَّ يديه ولم يقطع دعاءه حتى تغشّت السماء بالغيم، وأُمطروا حتى صاح أهل المدينة من خوف الغرق، فقال: يا ربِّ إن كنت تعلمُ أنهم قد اكتفوا، فارفع عنهم، فسكن. وتبعَ محمد بن سويد صاحبَ المطر حتى عرف منزله، ثم بكّر عليه[4]، فخرج إليه، فقال: إني أتيتك في حاجة، فقال: ما هي؟ قال: تخصني بدعوة، قال: سبحان الله، أنت أنت وتسألني أن أخصك بدعوة، ثم قال: ما الذي بلّغَكَ ما رأيت؟ قال: أطعتُ الله فيما أمرني ونهاني فسألتُ الله فأعطاني.

وقال ابن مسعود: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سُرُج الليل، جُددَ القلوب، خلقان الثياب، تُعرفونَ في أهل السماء وتَخفَونَ في أهل الأرض. وقال أبو أُمامة: قال رسول

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط، ورجالُه رجال الحديث الصحيح، كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٦٤.

(٢) أخرجه الطبراني والحاكم واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه ابن ماجة تحت رقم ٣٩٨٩، وفي إسناده عبد اللّه بن لهيعة وهو ضعيف. والغبراء: مؤنث الأغبر، وهو ما لونه الغبرة؛ والظاهر أنها هنا كناية عن المصيبة والفتنة.

(٣) قحطَ أهل المدينة: أي أصابهم قحطٌ وهو الجفاف واحتباس المطر.

(٤) بكّر عليه: أي جاءه باكراً.

الله ﷺ: «إنّ أغبط أوليائي[1] عبدٌ مؤمن خفيف الحاذّ[2]، ذو حظٍّ من صلاة، أحسنَ عبادة ربّه، وأطاعه في السرّ [والعلانية]، وكان غامضاً في الناس، لا يُشار إليه بالأصابع، وصبرَ على ذلك، قال: ثم نقر رسول الله ﷺ بيده[3] فقال: عُجّلت منيّتُه وقلّ تراثُه[4] وقلّت بواكيه»[5].

وقال الفضيل: بلغني أن الله تعالى يقول في بعضِ ما يمنُّ به على عبده: ألم أُنعِم عليك؟ ألم أسترْكَ؟ ألم أُخمِل[6] ذكرك؟ وكان الخليل بن أحمد يقول: اللهمّ اجعلني عندك من أرفع خلقك، واجعلني عند نفسي من أوضع خلقك، واجعلني عند الناس من أوسط خلقك.

فهذه الأخبار والآثار تُعرِّفُكَ مذمّة الشهرة وفضيلة الخمول، وإنما المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلوب، وحبُّ الجاه هو منشأ كلِّ فساد. لكن قد يعترض معترض بأنه أي شهرةٍ تزيدُ على شهرة الأنبياء عليهم السلام وأئمة العلماء، فكيف فاتتهم فضيلةُ الخمول؟ وجواب ذلك أن المذموم طلبُ الشهرة، وأمّا وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلّفٍ من العبد فليس بمذموم. نعم، فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء، وهو كالغريق الضعيف، إذا كان معه جماعةٌ من الغرقى، فالأولى به أن لا يعرفَهُ أحد منهم، فإنهم يتعلقون

(١) أغبط أوليائي: أي أكثرهم غبطة، والغبطة هي المسرّةُ وحسنُ الحال.

(٢) خفيف الحاذّ: قليل المال.

(٣) نقر بيده: ضربَ بيده.

(٤) التراث: ما يخلفه الميت لورثته.

(٥) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٤١١٧. ورواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ١٤١ تحت رقم ٦ باختلافٍ فيه.

(٦) أُخمل ذكرك: أي ألم أجعل ذكرك خاملاً، أي خفياً وضعيفاً.

به فيضعُف عنهم، فيهلكُ معهم. وأمّا القوي فالأولى أن يعرفَهُ الغرقى ليتعلقوا به، فينجيهم، ويثابُ على ذلك.

٨ ـ ذمُّ حبِّ الجاه

قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾[١] جمعَ بين إرادة الفساد والعلوّ، وبين أن الدار الآخرة للخالي عن الإرادتين معاً. وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[٢]؛ وهذا أيضاً يتناول بعمومه حبَّ الجاه، فإنه أعظمُ لذة من لذات الحياة الدنيا، وأكثر زينة من زينتها.

وقال ﷺ: «حبُّ الجاه والمال يُنبتان النفاق في القلب كما ينبتُ الماءُ البقل»[٣]. وقال ﷺ: «ما ذئبان ضاريان أُرسِلاَ في زريبةِ غنم بأكثر فساداً من حبِّ الجاه والمال والشرف في دين الرجلِ المسلم»[٤]. وقال ﷺ لعلي عليه السلام: «إنما هلك الناس باتباع الهوى وحبِّ الثناء»[٥].

ومن طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن عبد اللّه بن مسكان قال: سمعتُ أبا عبد اللّه عليه السلام يقلو: «إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون. فوالله ما خفقت النعال خلف رجل إلاّ هلَّكَ وأهلك»[٦].

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣.

(٢) سورة هود، الآيتان: ١٥ ـ ١٦.

(٣) تقدم أول المجلد السادس من الكتاب ص ٤٠.

(٤) تقدم ص ٤١. ورواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٢٩٧.

(٥) قال العراقي: لم أره بهذا اللفظ.

(٦) الكافي ج ٢ ص ٢٩٧. وخفق الأرض بنعله، ضربَ، وكلُّ ضربٍ بشيءٍ عريض خَفقٌ، ويُقال لمن ارتكب أمراً عظيماً: هلَّكتَ ـ من باب التفعيل ـ وأهلكت.

وعنه عليه السلام قال: «ملعون من ترأس، ملعونٌ من همَّ بها، ملعون من حدّث بها نفسه»[1]. وعنه عليه السلام: «من أراد الرئاسة هلك»[2].

وعن أبي الربيع الشامي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال لي: ويحكَ يا أبا الربيع! لا تطلبنَّ الرئاسة، ولا تكن ذئباً، ولا تأكل بنا الناس فيُفقركَ الله، ولا تقل فينا ما لا نقول في أنفسنا، فإنك موقوف ومسؤول لا محالة، فإن كنت صادقاً صدّقناك وإن كنتَ كاذباً كذّبناك»[3].

وعن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: «أتراني لا أعرفُ خياركم من شراركم؟ بلى والله، وإن شراركم من أحبَّ أن يوطّأ عَقِبُه. إنه لا بدّ من كذّاب أو عاجز الرأي»[4].

وفي الحديث الصحيح عن معمر بن خلاّد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه ذكر رجلاً، فقال له: إنّه يحبُّ الرئاسة، فقال: «ما ذئبان ضاريان في غنمٍ قد تفرق رعاؤها بأضرَّ في دين المسلم من الرئاسة»[5].

٩ ـ علاجُ حبِّ الجاه

إعلم أنّ من غلبَ على قلبه حبُّ الجاه، صار مقصور الهمِّ على مراعاة الخلق، مشغوفاً بالتودد إليهم والمراءاة لأجلهم، ولا يزال في

---

(١) (٢) (٣) الكافي ج ٢ ص ٢٩٨.

(٤) الكافي ج ٢ ص ٢٩٩. وقال المؤلف في الوافي: أي من أحبَّ أن يوطأ عقبه لا بدَّ أن يكون كذاباً أو عاجز الرأي لأنه لا يعلمُ جميعَ ما يُسأل عنه، فإن أجاب عن كلِّ ما سُئل فلا بدَّ من الكذب، وإن لم يجب عما لا يعلم فهو عاجز الرأي، أو المعنى أنه لا بدَّ في الأرض من كذّاب يطلب الرئاسة ومن عاجزٍ يتبعه. ووطأ العقب يعني المشي في الأثر أي من أحبَّ أن يمشى في أثره لا بدّ أن..

(٥) أخرجه الكَشّي. راجع رجاله ص ٣١٣.

أقواله وأفعاله وأعماله ملتفتاً إلى ما يعظّم منزلته عندهم، وذلك بَذرُ النفاق وأصلُ الفساد، ويجرُّ ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات والمراءاة بها، وإلى اقتحام المحظورات للتوصّل إلى اقتناص القلوب. ولذلك شبّه رسول الله ﷺ حبَّ الشرفِ والمال وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين، وقال: «إنه ينبتُ النفاق كما يُنبت الماءُ البقل» إذ النفاقُ هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل، وكلُّ من طلب المنزلة في قلوب الناس، يضطر إلى النفاق معهم، وإلى التظاهر بخصال حميدة هو خالٍ عنها، وذلك هو عين النفاق.

فحبُّ الجاه إذاً من المهلكات، ويجب علاجُه وإزالتُه عن القلب، فإنه طبعٌ جُبِلَ عليه القلبُ كما جُبل على حبّ المال، وعلاجُه مركّب من علم وعمل.

٩: أ ـ العلاج العلمي

أما العلاج العلمي فهو أن يعلمَ السب الذي لأجله أحبَّ الجاه، وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم. وقد بيّنا أن ذلك إن صفا وسلِمَ فآخرهُ الموت، وليس من الباقيات الصالحات، بل لو سجدَ لك كلُّ مَن على وجه الأرض من المشرق إلى المغرب، وإلى خمسين سنة، لا يبقى الساجد ولا المسجودُ له، وتكون حالُك كحالِ من مات قبلك من ذوي الجاه مع المتواضعين له. فهذا لا ينبغي أن يترك لأجله الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها، ومن فهِمَ الكمال الحقيقيّ والكمال الوهميّ ـ كما سبق ـ صغُرَ الجاهُ في عينه، إلاّ أن ذلك إنما يصغُرُ في عينِ من يَنظرُ إلى الآخرة كأنه يُشاهدها، ويَستحقرُ العاجلةَ، ويكونُ الموتُ كالحاصل عنده؛ وأبصار أكثر الخلقِ ضعيفة مقصورة على العاجلة لا

يمتدُّ نورها إلى مشاهدة العواقب، ولذلك قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[1] وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾[2] إلى غيرها من الآيات.

فمن كانت حاله كذلك، ينبغي أن يعالجَ قلبَهُ المحبَّ للجاه بالعلم بالآفات العاجلة، وهو أن يتفكّر في الأخطار التي تستهدفُ أرباب الجاه في الدنيا، فإنّ كلَّ ذي جاه محسود ومقصود بالإيذاء، وخائف على الدوام على جاهه، ومحترزٌ من أن تتغير منزلته في القلوب، والقلوب أشدُّ تغيراً من القِدرِ في غليانها، وهي مترددة بين الإقبال والإعراض؛ فكلُّ ما يُبنى على قلوبِ الخلق يضاهي ما يبنى على أمواج البحر، فإنه لا ثبات له. والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنعُ أذى الأعداء، اشتغال عن الله، وتعرّضٌ لمقته في العاجل والآجل، كلُّ ذلك غموم عاجلة مكدِّرة للذة الجاه، ولا يفي مرجوُّها في الدنيا بمخوفها، فضلاً عمّا يفوت في الآخرة. فبهذا ينبغي أن تعالجَ البصيرة الضعيفة، وأمّا من نفذت بصيرتُه وقوي إيمانُه، لم يلتفت إلى الدنيا؛ فهذا هو العلاجُ من حيث العلم.

٩: ب ـ العلاجُ العملي

وأمّا دواءُ العمل فهو بإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعالٍ يُلام عليها حتى يسقط من أعينِ الخلق، وتفارقَه لذةُ القبول، ويأنسَ بالخمول، ويردّ الخلق ويقنع بالقبول من الخالق؛ وهذا هو منهاج «المَلامَتيّة» إذا اقتحموا الفواحشَ في صورتها ليُسقطوا أنفسهم

---

(١) سورة الأعلى، الآيتان: ١٦ و ١٧.

(٢) سورة القيامة، الآيتان: ٢٠ و ٢١.

من أعين الناس، فيسلموا من آفة الجاه. وهذا غير جائز لمن يقتدى به، فإنه يوهن الدين في قلوب المسلمين.

وأمّا الإنسانُ الذي لا يُقتدى به، فلا يجوز له أن يقدم على محظور لأجلِ إزالة حب الجاه من قلبه، بل له أن يفعل من المباحات ما يُسقط قدرهُ عند الناس، كما روي أنّ بعض الملوك قصد أحد الزهاد، فلما علم الزاهدُ بقربه منه، استدعى طعاماً وبقلاً، وأخذَ يأكلُ بشَرَهٍ، ويعظّم اللُّقم - أي يكبّر حجم اللقمة - فلما نظر إليه الملك سقطَ من عينه وانصرف، فقال الزاهد: الحمد لله الذي صرفك عني، ومنهم من شربَ شراباً حلالاً من قدحٍ لونه لون الخمر حتى يُظنَّ به أنه يشربُ الخمر، فيسقط من الأعين.

وهذا في جوازه نظرٌ من حيث الفقه، إلاّ أنّ أرباب الأحوال ربما يعالجون أنفسهم بما لا يُفتي به الفقيه كلّما رأوا إصلاح قلوبهم، ثم يتداركون ما فرط منهم - أي ما ارتكبوه - فيه - أي في الإصلاح - من صورة التقصير، كما فعلَ بعضُهم، فإنّه عُرفَ بالزهد وأقبلَ الناسُ عليه، فدخل حماماً ولبسَ ثوب غيره، وخرج ووقف في الطريق حتى عرفوه، فأخذوه وضربوه واستردوا منه الثياب، وقالوا: إنّه طرّار[1]، وهجروه.

وأقوى الطرق في قطعِ الجاه، الاعتزال عن الناس والهجرة إلى موضع الخمُول، فإن المعتزلَ في بيته في البلدة التي هو بها مشهور لا يخلو عن حبِّ المنزلة التي تُرسَّخُ له في القلوب بسبب عزلته. فربما يظنُّ أنَّهُ ليس محباً لذلك الجاه، لكنه مغرور، فإنما سكنت نفسه لأنها

---

(١) الطرّار: هو النشّال الذي يطرُّ الثياب - أي يشقها ويقطعها - ليسلب ما فيها.

قد ظفرت بمقصودها، ولو تغيّر الناس عما اعتقدوا فيه وذمُّوه أو نسبوه إلى أمرٍ غير لائق به، لجزعت نفسه وتألّمت، وربما عمدت إلى الاعتذار عن ذلك ـ عما سبب موقف الناس منه ـ وإلى إماطة ذلك الغبار عن قلوبهم، بل ربما يحتاج في إزالةِ ذلك عن قلوبهم إلى كذبٍ وتلبيس فلا يبالي، وبذلك يتبين بعدُ أنه محبٌّ للجاه والمنزلة، ومن أحبَّ الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال، بل هو شرٌّ منه، فإن فتنة الجاه أعظم. ولا يمكنه أن لا يحبَّ المنزلة في قلوب الناس ما دام يطمعُ في الناس، فإذا أحرزَ قوتَهُ من كسبه أو من جهةٍ أُخرى، وقطعَ طمعَهُ عن الناس رأساً، أصبح الناسُ كُلُّهم عندهُ كالأراذل، فلا يبالي أكانت له منزلةٌ في قلوبهم أو لم تكن، تماماً كما لا يبالي بوجود المنزلةِ في قلوب الذين هم إلى أقصى الشرق منه، حيث لا يراهم ولا يطمعُ فيهم... ولا يقطعُ الطمعَ عن الناس إلاّ بالقناعة، فمن قنع استغنى عن الناس، وإذا استغنى لم يشتغل قلبُه بالناس، ولم يكن لقيام منزلتهِ في القلوب عندهُ وزن، ولا يتمُّ ترك الجاه إلاّ بالقناعة وقطعِ الطمع.

ويستعين الإنسانُ على جميع ذلك بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخمول والذلّ، كقولهم: «المؤمن لا يخلو من ذلَّةٍ أو علّة أو قِلّة»[1] وينظرُ في أحوال السلف وإيثارهم الذلّ على العزّ، ورغبتهم في ثواب الآخرة.

١٠ ـ سببُ حبِّ المدح والثناء

إعلم أنّ لحب المدح والتذاذ القلب به أربعة أسباب: شعور

(١) لم يذكر مصدر هذا الحديث.

النفس بالكمال، وملكية الممدوح لقلب المادح، وأن المدح سببٌ لاصطياد قلب السامع، ودلالة المدح على حشمةِ الممدوح.

السبب الأول: شعور النفس بالكمال

وهو السبب الأقوى، فإنّا بيّنّا أن الكمال محبوب، وكلُّ محبوبٍ فإدراكُه لذيذ. فكلّما شعرتِ النفسُ بكمالها ارتاحت واهتزت ـ أي نشطت وابتهجت ـ وتلذذت، والمدح يُشعر نفسَ الممدوح بكمالها، فإن الوصف الذي به مدحٌ لا يخلو إمّا أن يكون جليّاً ظاهراً أو يكون مشكوكاً فيه.

فإن كان جلياً ظاهراً محسوساً، كانت اللّذة فيه أقلّ، ولكنه لا يخلو عن لذة، كثنائه عليه أن طويل القامة أبيض اللّون، فإنّ هذا نوعُ كمالٍ، ولكن النفسَ تغفلُ عنهُ فتخلو عن لذته، فإذا استشعرت به لم يخلُ حدوث الشعور عن حدوث اللذة.

وإن كان ذلك الوصفُ مما يتطرق إليه الشك، فاللذةُ فيه أعظم، كالثناء عليه بكمال العلم أو كمال الورع أو بالحُسن المطلق، فإنّ الإنسان ربما يكون شاكّاً في كمال حُسنه وفي كمال علمه وكمال ورعه، ويكون مشتاقاً إلى زوال هذا الشك بأن يصير مستيقناً بكونه عديم النظير في هذه الأمور، إذ تطمئن نفسُه إلى هذا، فإذا ذكَرهُ غيرهُ أورثَ ذلك طمأنينة وسكوناً وثقةً باستشعار ذلك الكمال، فتعظُم لذته، وإنما تعظُم اللذة بهذه العلّة ـ أي السبب ـ كلما صدر الثناء من بصيرٍ بهذه الصفات، خبيرٍ بها، لايجازفُ في القول إلاّ عن معرفة مؤكدة، وذلك كفرحِ التلميذ بثناء أستاذه عليه بالكياسة والذكاء وغزارة الفضل، فإنه في غاية اللذة، فإن صدرَ ممن يجازفُ في الكلام أو لا يكون بصيراً في ذلك الوصف، ضعفت اللذة؛ وبهذه العلة يبغضُ الذم أيضاً

ويكرهه لأنه يُشعره بنقصانٍ في نفسه، والنقصان ضدُّ الكمال المحبوب، فهو ممقوت، والشعور به مؤلم، ولذلك يعظمُ الألم إذا صدر الذمُّ من بصيرٍ موثوق به في ذلك، كما ذكرناه في المدح.

السبب الثاني: ملكية الممدوح لقلب المادح

فالمدح يدلُّ على أنّ قلبَ المادح مملوك للممدوح، وأنّه مريدٌ له ومعتقد فيه ومسخَّر تحت مشيّته، وملكُ القلوب محبوب، والشعور بحصوله لذيذٌ، وبهذا السبب تعظمُ اللذة كلّما صدر الثناء ممن تتسع قدرتُه ويُنتفع باقتناص قلبه، كالملوك والأكابر، ويضعفُ كلّما كان المادح ممن لا يؤبه له ولا يقدرُ على شيء، فإنّ القدرة عليه بملكِ قلبه قدرةٌ على أمرٍ حقير، فلا يدل المدحُ إلاّ على قدرة قاصرة؛ وبهذا السبب أيضاً يكرهُ الذم، ويتألم منه القلب، وإذ كان من الأكابر كانت نكايته[1] أعظم، لأنّ الفائت به أعظم.

السبب الثالث: المدحُ سبب اصطياد قلب السامع

إن مدح المادح سبب لاصطياد قلبِ كلِّ من يسمَعُه، لا سيما إذا كان ذلك ممن يُلتفتُ إلى قوله ويُعتدُّ بثنائه. وهذا يختص بثناءٍ يقعُ على الملأ، فلا جرمَ كلّما كان الجمعُ أكثر والمادحُ أجدرُ بأن يُلتفت إلى قوله، كان المدحُ ألذَّ، والذمُّ أشدَّ على النفس.

السبب الرابع: دلالةُ المدح على حشمةِ الممدوح

إنّ المدح يدلُّ على حشمةِ الممدوح واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء عليه، إمّا عن طوعٍ وإمّا عن قهرٍ، فإنّ الحشمة أيضاً لذيذة لما فيها من القهر والقدرة، وهذه اللذة تحصلُ وإن كان

---

(١) النكاية: القهر والغلبة.

المادح لا يعتقد في الباطن بما مَدحَ به، ولكن كونُه مضطراً إلى ذكره نوعُ قهرٍ واستيلاءٍ عليه، فلا جرم تكون لذّته بقدر تمنُّع المادحِ وقوّته، وتكون لذّة ثناءِ القويِّ الممتنعِ عن التواضعِ بالثناءِ أَشدَّ.

فهذه الأسباب الأربعة قد تجتمع في مدح مادحٍ واحدٍ فيعظُمُ به الالتذاذ، وقد تفترقُ فتنقصُ اللذة لذلك. أمّا العلّةُ الأولى، وهي استشعار الكمال، فتندفعُ بأن يعلمَ الممدوح أنه غير صادق في مدحه، كما إذا مُدح بأنه نسيب[1] أو سخي أو عالمٌ بعلم أو متورعٌ عن المحظورات، وهو يعلمُ من نفسه ضدَّ ذلك، فتزول اللذة التي سببها استشعار الكمال، وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه ولسانه وبقية اللذات.

فإن كان يعلمُ أن المادح ليس يعتقد ما يقوله ويعلمُ بخلوّه عن هذه الصفة بطُلَتِ اللذة الثانية، وهي لذة الاستيلاء على قلبه، وبقيت لذة الاستيلاء والحشمة على اضطرار لسانه إلى النطق بالثناء. فإن لم يكن ذلك عن خوفٍ بل كان بطريق اللعب، بطُلت اللذات كُلّها، فلم يكن في النفس أصلاً لذةٌ لفوات الأسباب الثلاثة.

هذا ما يكشف الغطاء عن علة التذاذ النفس بالمدح وتألمها بسبب الذمّ، وإنما ذكرناه ليُعرف طريق العلاج لحب الجاه، وحبّ المحمدة وخوف المذمة فإنّ ما لا يعرف سببُه، لا يمكن معالجتُه إذ العلاجُ عبارة عن حلِّ أسباب المرض.

١١ ـ اختلافُ أحوال الناس في المدح والذم

إعلم أنّ للناس أربع أحوالٍ بالإضافة إلى الذّامِّ والمادح، أي في موقفهم وردة فعلهم تجاههم:

---

(١) نسيب: ذو نسب.

الحالةُ الأولى: أن يفرح بالمدح ويشكُرَ المادح، ويغضب من الذمِّ ويحقد على الذامّ ويكافئه ويجازيه، أو يحب مجازاته. وهذه حال أكثر الخلق: وهو أقصى درجات المعصية في هذا الباب.

الحالة الثانية: أن يتبغّض في الباطن على الذامّ، ولكن يمسكُ لسانه وجوارحه عن مكافأته، وأن يفرح باطنه ويرتاح للمادح، ولكن يحفظُ ظاهره عن إبراز السرور؛ وهذا من النقصان، إلاّ أنه بالقياس إلى ما قبلهُ كمالٌ.

الحالة الثالثة: وهي أول درجات الكمال، بأن يستوي عنده ذامُّه ومادحُه، فلا تغمّه المذمّة، ولا تسرّهُ المدحة. وهذا ما قد يظنُّه بعضُ العبّاد ويكون مغروراً إن لم يمتحن نفسَهُ بعلاماته، وعلاماتُه أن لايجد في نفسِهِ استثقالاً للذامِّ عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجدهُ في المادح، وأن لا يجدَ في نفسِهِ زيادة هِزَّةٍ[1] ونشاطاً في قضاء حوائج المادحِ فوق ما يجدهُ في قضاء حاجةِ الذام، وأن لايكون انقطاع الذامِّ عن مجلسِهِ أهون عليه من انقطاع المادح، وأن لا يكون موتُ المادح المطري له ـ أي المثني عليه بالمدح ـ أشدَّ نكايةً في قلبه من موت الذامّ، وأن لا يكون غمُّه بمصيبة المادح وما ينالُهُ من أعدائه أكثر مما يكون بمصيبة الذام، وأن لا تكونَ زلّةُ المادحِ أخفَّ على قلبه وفي عينه من زلة الذام.

فكلّما خفَّ الذامُّ على قلبِه كما خفَّ المادحُ واستويا من كلِّ وجهٍ، فقد نالَ هذه الرتبة؛ وما أبعد ذلك وما أشدّه على القلوب، وأكثر العبادِ فرحهم بمدح الناس لهم مستبطنٌ في قلوبهم وهم لا يشعرون، حيث لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات.

---

(١) الهزّة: النشاط والارتياح.

وربما يشعرُ العابد بميل قلبِه إلى المادحِ دون الذامّ، والشيطانُ يحسِّنُ له ذلك، ويقول له: الذامُّ قد عصى الله بمذمتك، والمادحُ قد أطاع الله بمدحك، فكيف تسوّي بينهما، فإنما استثقالُكَ للذامِّ من الدِّين المحض. وهذا محض التلبيس ـ أي الغش والخداع ـ فإن العابد لو تفكّر لعلِمَ أنّ في الناس من ارتكب من كبائر المعاصي أكثر مما ارتكبَهُ الذامُّ في مذمته، وهو لا يستثقلهُم ولا ينفرُ عنهم. ويعلمُ أن المادحَ الذي مدحَهُ لا يخلو عن مذمّةِ غيره ـ أي غير الممدوح ـ ومع ذلك لا يجد ـ الممدوح ـ في نفسه نفرةً عن المادح، معَ عِلمه بأنّه يذمُّ غيره، كما يجد من النفرة لمذمّة نفسه؛ فالمذمة من حيث إنها معصية لا تختلف بأن يكون هو المذموم أو غيره.

فإذاً العابدُ المغرور، لنفسِه يغضب، ولهواهُ يبغض، ثم الشيطانُ يُخيِّلُ إليه أنه من الدين حتى يغترّه على اللَّهِ بهواه، فيزيده على ذلك بُعداً من الله. ومَن لم يطّلع على مكائد الشيطان وآفات النفوس، فأكثرُ عباداته تعبٌ ضائعٌ يُفوتُ عليه الدنيا ويخسرهُ في الآخرة، وفيهم قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾(١).

الحالة الرابعة: وهي الصدقُ في العبادة، بأن يكره المدحَ ويمقتَ المادح، حيث يعلم أنه فتنةٌ عليه، قاصمةٌ للظهر، مُضرٌّ له في الدين. ويحبُّ الذامَّ إذ يعلمُ أنه مُهدٍ إليه عيوبه، ومُرشِد له إلى مُهِمِّه، ومُهدٍ إليه حسناته. وقد قالﷺ: «رأس التواضُع أن تكرهَ أن تُذكر بالبرِّ والتقوى»(٢). وقد روي في بعض الأخبارِ ما هو قاصمٌ لظهور

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣ و ١٠٤.
(٢) قال العراقي: لم أجد له أصلاً.

أمثالنا إن صحَّ، حيث روي أنه ﷺ قال: «ويل للصائم وويل للقائم، وويل لصاحب الصوف إلاّ مَن... فقيل: يا رسول الله إلاّ مَن؟ فقال: إلاّ مَن تنزهتْ نفسُهُ عن الدنيا وأبغضَ المدحةَ واستحبَّ المذمَّة»[1]؛ وهذا شديدٌ جداً، وأقصى آمال أمثالنا الطمعُ في الحالة الثانية، وهو أن يضمر الفرح والكراهة على الذامِّ والمادح ولا يظهرَهُ بالقول والعمل.

وأمّا الحالة الثالثة، وهي التسوية بين المادح والذام، فلسنا نطمعُ فيها، ثم إن طالبنا نَفسَنَا بعلامةِ الحالة الثانية ما وَفَتْ بها، لأننا لا بدَّ وأن نتسارع إلى إكرام المادح وقضاء حاجاته. ونتثاقل عن إكرام الذامّ والثناء عليه وقضاء حوائجه، ولا نقدر على أن نسوّي بينهما في الفعل الظاهر، كما لا نقدر عليه في سريرة القلب. ومن قدِرَ على التسوية بين المادح والذامّ في ظاهر الفعل، فهو جدير بأن يُتّخذَ قدوةَ في هذا الزمان إن وجد، فهو الكبريتُ الأحمر يُتحدّث به ولا يُرى، فكيف بما بعده من المرتبتين؛ وكلُّ واحدةٍ من هذه الرُّتَب فيها درجات.

أمّا الدرجاتُ في المدح، فهو أنّ مِن الناس مَن تمنّى المدحة والثناء وانتشار الصيت، فيتوصَّلُ إلى نيلها بكلِّ ممكنٍ، حتى يرائيَ بالعبادات، ولا يباليَ بمقارفةِ المحظورات لاستمالة قلوب الناس واستنطاق ألسنتهم بالمدح؛ وهذا من الهالكين.

ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات، ولا يطلبه بالعبادات، ولا يباشرُ المحظورات؛ وهذا على شفا جُرُفٍ هارٍ فٱنهارَ به. فإنّ

(١) قال العراقي: لم أجدهُ هكذا، وذكرهُ صاحبُ الفردوس من حديث أنس «ويلٌ لمن لبس الصوف فخالفَ فعلُه قولَهُ» ولم يخرجه ولدُهُ في مسنَدِهِ.

حدود الكلام الذي يستميلُ به القلوب، وحدود الأعمال، لا يمكنه أن يضبطها، فيوشك أن يقعَ فيما لا يحلُّ له، ليتوصّل إلى نيلِ الحمد، فهو قريبٌ من الهالكين جداً.

ومنهم من لا يريدُ المدحةَ ولا يسعى لطلبها، ولكن إذا مُدحَ سبقَ السرور إلى قلبه، فإذا لم يُقابِل ذلك بالمجاهدة ولم يتكلّفِ الكراهية، فهو قريبٌ من أن يجرّهُ فرطُ السرور إلى الرتبة التي قبلها. وإن جاهد نفسه في ذلك، وكلّف قلبه الكراهية، وبغّضَ السرور إليه بالتفكر في آفات المدح، فهو في خطر المجاهدة، فتارة تكون اليدُ له، وتارة تكون عليه.

ومنهم من إذا سمعَ المدحَ لم يُسرَّ به، وإذا سمعَ الذمَّ لم يغتمَّ ولم يؤثّر فيه؛ وهذا على خير، وإن كان قد بقي عليه بقيَّةٌ من الإخلاص.

ومنهم من يكرهُ المدحَ إذا سمِعَهُ، ولكن لا ينتهي به إلى أن يغضبَ على المادح ويُنكِرَ عليه.

وأقصى درجاتِه أن يكره المدح، ويغضبَ ويُظهرَ الغضب صادقاً في غضبه، لا أن يُظهر الغضبَ، وقلبُه محبٌّ له ـ أي للمدح ـ فإنّ ذلك عين النفاق، لأنه يريدُ أن يُظهر من نفسِهِ الإخلاص والصدقَ، وهو مفلس من ذلك.

كذلك، تتفاوتُ الأحوال في حقِّ الذامّ، وأول درجاته إظهار الغضب وآخرها إظهار الفرح، خلافاً للحال في حقِّ المادح، ولا يكون الفرحُ وإظهارهُ إلاّ ممن في قلبِهِ حنَقٌ وحقدٌ على نفسِه لتمرُّدها عليه، ولكثرة عيوبها ومواعيدها الكاذبة، وتلبيساتها الخبيثة، فيبغضها بُغض العدو.

والإنسانُ يفرحُ ممن يذمُّ عدوه، وهذا شخصٌ عدوّهُ نفسُه فيفرحُ إذا سمِعَ ذمَّها ويشكرُ الذامَّ على ذلك، ويعتقد فطنتَه وذكاءه ـ أي للذامّ ـ لاستطاعته الوقوف على عيوبها، فيكونُ ذلك كالتّشفي له من نفسه، ويعتبره غنيمة له، حيث صار بالمذمّةِ أَوضعَ في أعين الناس فلايُبتلى بفتنتهم، وإذا سيقتْ إليه حسناتٌ، لم يكدح فيها، فعساه أن يكون جبراً لعيوبه التي هو عاجزٌ عن إماطتها؛ ولو جاهد المريدُ نفسه طول عمره في هذه الخصلة الواحدة ـ وهو أن يستوي عنده ذامّه ومادحُه ـ لكان له شغلٌ شاغلٌ في ذلك، لا يتفرّغُ معهُ لغيره، وبينه وبين السعادة عقباتٌ كثيرة هذه إحداها، ولا ينفع شيء منها إلاّ بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل.

١٢ ـ علاجُ حبِّ المدح

إعلم أن أكثرَ الخلق إنما هلكوا بخوفِ مذمّةِ الناس وحبِّ مدحهم، فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس، رجاءً للمدح وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات، فيجبُ معالجته، وطريقهُ ـ أي طريق العلاج ـ ملاحظةُ الأسباب التي لأجلها يحبُّ المدحَ ويكرهُ الذم.

أمّا السبب الأول، فهو استشعار الكمال بسبب قول المادح. وطريقك في علاجه أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك: هذه الصفة التي يمدحك بها، أنت متصفٌ بها أم لا؟ فإن كنت متصفاً بها، فهي إما صفةٌ تستحق بها المدح ـ كالعلم ـ وإما صفةٌ لا تستحق بها المدح، كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية. فإن كانت من الأعراض الدنيوية، فالفرحُ بها كالفرح بنبات الأرض الذي يصيرُ عما قريب هشيماً تذروه الرياح؛ وهذا من قلة العقل، بل العاقل يقول:

أشدُّ الغمِّ عندي في سرورٍ   تيقّنَ عنه صاحبُه ارتحالاً

فلا ينبغي أن يفرح الإنسان بعَرضِ الدنيا، وإن فرِحَ فلا ينبغي أن يفرحَ بمدح المادح بها، بل بوجودها، والمدحُ ليس هو سبب وجودها.

وإن كانت الصفة مما تستحق الفرح بها ـ كالعلم والورع ـ فينبغي أن لا يفرحَ بها، لأن الخاتمة غير معلومة، وهذا ـ أي وجود هذه الصفة ـ إنما يقتضي الفرح لأنه يقرّبُ عندَ الله زلفى، وخطرُ الخاتمةِ باقٍ. ففي الخوفِ من سوء الخاتمة شغلٌ عن الفرح بكلِّ ما في الدنيا، بل الدنيا دار أحزانٍ وغموم، لا دار فرحٍ وسرور، ثم إن كنت تفرحُ بها رجاءَ حُسنِ الخاتمة، فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى، لا من المدح والمدحُ تابعٌ له، فلا ينبغي أن تفرحَ بالمدحِ والمدحُ لا يزيدك فضلاً، وإن كانت الصفة التي مُدحت بها أنتَ خالٍ عنها، ففرحكَ بالمدحِ غاية الجهل، ومثالُكَ مثالُ من يهزأ به إنسانٌ ويقول له: سبحان الله ما أكثر العطر الذي في أحشائه، وما أطيب الروائح التي تفوحُ منه إذا قضى حاجتَهُ! وهو يعلمُ ما تشتمِلُ عليه أمعاؤه من الأقذار والأنتان، ثم يفرح بذلك!

فكذلك إذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحتَ به، والله مطّلعٌ على خبائث باطنك وغوائل سريرتك وأقذار صفاتك، كان ذلك من غايةِ الجهل. فإذاً، المادح إن صدقَ، فليكن فرحك بصفاتك التي هي من فضل الله عليك. وإن كذبَ، فينبغي أن يغمّك ذلك ولا تفرحَ به.

وأمّا السبب الثاني، وهو دلالة المدح على خضوع قلب المادح. وصيرورته (أي المدح) سبباً لتسخير قلبِ آخر، يرجعُ إلى حبِّ الجاه والمنزلة في القلوب، وقد سبق وجه معالجته، وذلك بقطع

الطمع عن الناس، وطلبِ المنزلةِ عند الله، وبأن تعلمَ أن طلبك المنزلة في قلوب الناس وفرحَكَ بها يُسقطُ منزلتكَ عند الله، فكيف تفرح بذلك؟!

وأما السبب الثالث، وهو حشمة اضطرت المادحَ إلى المدح، فهو أيضاً يرجعُ إلى قدرةٍ عارضة ـ أي طارئة ـ لا ثبات لها ولا تستحقُّ الفرح بها، بل ينبغي أن يغمّك مدحُ المادح وتكرهه، وتغضب بسببه ـ كما نُقل ذلك عن السلف ـ لأنّ آفة المدح على الممدوح عظيمة، كما ذكرناه في كتاب آفة اللسان.

قال بعضُ السلف: من فرح بمدحٍ فقد أمكنَ الشيطانَ من أن يدخُلَ في قلبه. وقال بعضهم: إذا قيل لَكَ: نِعمَ الرجلُ أنت؛ فكان أحبَّ إليك من أن يُقال لك: بئسَ الرجلُ أنت، فأنت والله بئسَ الرجل.

ورُوي في بعض الأخبار ما لو صحَّ فهو قاصمٌ للظهور: إن رجلاً أثنى على رجلٍ خيراً عند رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «لو كان صاحبك حاضراً فرضيَ بالذي قلت، فمات على ذلك، دخل النار»[1]. وقال ﷺ مرةً للمادح: «ويحك، قطعت ظهره، ولو سمعك ما أفلح إلى يوم القيامة»[2].

وقال ﷺ: «ألا لا تمادحوا، وإذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب»[3] فلهذا كان الصحابة على وجلٍ عظيم من المدح

---

(١) قال العراقي: لم أجد له أصلاً.

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢٢٧، والبخاري ج ٨ ص ٢٢ بألفاظ مختلفة؛ وقد تقدم.

(٣) أخرجه أحمد في المسند، والطبراني في الكبير دون قوله: «ألا لا تمادحوا» ورجالُهُ رجال الحديث الصحيح، من حديث ابن عُمر، وقد تقدم.

وفتنته، وما يدخلُ على القلبِ من السرور به، وإنما كرهوا المدح خيفةً من أن يفرحوا بمدح الخلق وهم ممقوتون عند الخالق، وكان اشتغالُ قلوبهم بأحوالهم عند الله يبغّضُ إليهم مدحَ الخلق، لأن الممدوح في الحقيقة هو المقرّب إلى الله، والمذموم بالحقيقة هو المبعَدُ عن الله، الملقى في النار مع الأشرار.

فهذا الممدوح إن كان عند الله من أهل النار، فما أعظم جهله إذا فرحَ بمدح غيره، وإن كان من أهل الجنة فلا ينبغي أن يفرح إلاّ بفضل الله وثنائه عليه، إذ ليس أمره بيد الخلق. وطالما علم أن الآجال والأرزاق بيد الله تعالى، يقل التفاتُه إلى مدح الخلقِ وذمّهم، ويسقط من قلبه حب المدح، ويشتغل بما يهمّه من أمر دينه.

١٣ ـ علاج كراهة الذم

قد سبق أن العلة في كراهة الذم هي ضدُّ العلة في حب المدح، وعلاجه أيضاً يفهم من ذلك. والقول الوجيز فيه أنّ من ذمّكَ لا يخلو من ثلاثة أحوال: إمّا أن يكون قد صدقَ فيما قال، وقصدُهُ النصح والشفقة. وإما أن يكون صادقاً ولكن قصده الإيذاء والتعنّت. وإمّا أن يكون كاذباً.

فإن كان صادقاً وقصدهُ النصح، فلا ينبغي أن تذمّه وتغضبَ عليه وتحقد بسببه، بل ينبغي أن تتقلد منّته، فإنّ من أهدى إليك عيوبك، فقد أرشدك إلى مهلكك حتى تتقيه، فينبغي أن تفرحَ به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسِكَ إن قدرتَ عليها. وأمّا اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمُّكَ إياه، فهو غاية الجهل.

وإن كان قصده التعنّت[1]، فأنتَ قد انتفعت بقوله، إذ أرشدك

---

(١) التعنّت: طلبُ الزلّة والمشقة للآخر.

إلى عيبك إن كنت جاهلاً به، أو ذكّرك عيبك إن كنت غافلاً عنه، أو قبّحه في عينك لينبعث حرصُكَ على إزالته إن كنتَ قد استحسنته. وكلٌّ ذلك أسباب سعادتك، وقد استفدته منه، فاشتغل بطلب السعادة، فقد أتيحت لك أسبابها بسبب ما سمعتَهُ من المذمّة.

فلو قصدت الدخولَ على مَلِكٍ وثوبك ملوّثٌ بالعذرة وأنت لا تدري ـ ولو دخلتَ عليه كذلك لخفتَ أن يجزَّ رقبتك لتلويثك مجلسه بالعذرَة ـ فقال لك قائل: أيها الملوث بالعذرةِ طهّر نفسك، ينبغي أن تفرحَ به، لأنّ تنبُّهَكَ بقوله غنيمة. وجميعُ مساوىء الأخلاق مُهلكةٌ في الآخرة، والإنسانُ إنما يعرفها من قولِ أعدائه، فينبغي أن تغتنم ذلك. وأمّا قصدُ العدو التعنتَ، فجناية منه على دينِ نفسه، ونعمةٌ منه عليك، فلم تغضب عليه بقولٍ انتفعت أنت به، وتضرر هو به؟!

الحالة الثالثة هي أن يفتري عليك بما أنت بريء منه عند الله، فينبغي أن لا تكره ذلك، ولا تشتغل بذمّه، بل أن تتفكر في ثلاثة أمور: أحدها، أنك إن خلوتَ من ذلك العيب، فلا تخلو عن أمثاله وأخواته. وما سترَ اللَّهُ من عيوبك أكثر، فاشكرِ الله إذ لم يُطلعه على عيوبك، ودفَعهُ عنكَ بذكر ما أنت بريء منه.

والثاني، أن ذلك كفارات لبقية مساوئكَ وذنوبك، وكأنه رماكَ بعيبٍ أنتَ بريءٌ منه وطهرك من ذنوب أنت ملوّثٌ بها، وكلٌّ من اغتابك فقد أهدى إليكَ حسناته، وكلٌّ من مدحكَ فقد قطعَ ظهرك، فما بالك تفرح بقطعِ الظهر، وتحزنُ لهدايا الحسنات التي تُقرِّبُكَ إلى الله، وأنت تزعمُ أنك تحبُّ القربَ من الله.

وأما الثالث، فهو أن المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله جلَّ وعزّ، وأهلك نفسَهُ بافترائه وتعرّضَ لعقابه الأليم، فلا

ينبغي أن تغضب عليه مع غضبِ الله عليه، فتُشمِتَ به الشيطان، وتقولَ: «اللهم أهلكه» بل ينبغي أن تقول: «اللهمَّ أَصلحه، اللهم تُب عليه، اللهمَّ ٱرحمه»، كما قالﷺ إذ قال: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1] لمّا أن ضربوه... ومما يهوّن عليك كراهة المذمّة، قطعُ الطمع، فإنّ من استغنيت عنه مهما ذمّكَ لم يعظُم أثر ذلك في قلبِكَ. وأصل الدين القناعة، وبها ينقطع الطمعُ عن الجاه والمال، وما دام الطمعُ قائماً، كان حبُّ الجاه والمدح في قلبِ من طمعتَ فيه غالباً، وكانت همّتُكَ منصرفةً نحو تحصيل المنزلة في قلبه، ولا يُنال ذلك إلاَّ بهدمِ الدين، فلا ينبغي أن يَطمعَ طالبُ المال والجاه ومحبُّ المدح ومبغضُ الذمِّ في سلامة دينه، فإنّ ذلك بعيد جداً.

وله الحمد أولاً وآخراً

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، والحديث في الصحيح أنهﷺ قال حكاية عن نبي من الأنبياء حين ضربَهُ قومه. (المغني).

آفة الرياء

١ ـ مدخل

لقد جمع المؤلف (رحمه الله) الجاه والرياء في كتاب واحد من سِفرهِ القيّم هذا، وقسّمه إلى شطرين: شطر يتعلق ببحث آفة الجاه، وقد تقدم الكلام عنها، وشطر يتعلق ببحث آفة الرياء، ذلك أن هناكَ ارتباطاً بين هاتين الآفتين. أما نحن فقد فصلناهما كآفتين مستقلتين انطلاقاً من الأهداف التي نتوخاها من وراء إعادة تنظيم هذا السفر الجليل ووضعه في متناول القارىء العزيز؛ وعليه، فليس لهذا الشطر مدخل مستقل. وهو يحوي الموضوعات التالية: بيان ذم الرياء، وبيان حقيقة الرياء وما يراءى به، وبيان درجات الرياء، وبيان الرياء الخفي، وبيانُ ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط، وبيان دواء الرياء وعلاجُه، وبيان الرخصة في إظهار الطاعات، وبيان الرخصة في كتمان الذنوب، وبيان ترك الطاعات خوفاً من الرياء والآفات، وبيانُ ما يصحُ من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق، وبيانُ ما يجبُ على المريد أن يلزمَهُ قلبُه قبل الطاعة وبعدها؛ وهي أحد عشر فصلاً، أعدنا ترتيبها على الشكل الآتي.

٢ ـ حقيقة الرياء

إعلم أن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعةُ مشتقة من السماع. وإنما الرياء أصلهُ طلب المنزلة في قلوب الناس بإظهار خصال الخير، إلاّ أن الجاه والمنزلة تطلبُ في القلب بأعمالٍ غير العبادات، كما تطلبُ بالعبادات أيضاً. واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلب بواسطة العبادات وإظهارها.

فحدُّ الرياء هو إرادة المنزلة بطاعة الله تعالى. فالمرائي هو العابد، والمراءى هم الناس المطلوبُ رؤيتُهم، من أجل طلب المنزلة في قلوبهم، والمراءى به هي الخصالُ التي قصدَ المرائي إظهارها، والرياءُ هو قصدُه ـ أي المرائي ـ إظهار ذلك.

٣ ـ أقسام ما يراءى به

المراءى به أمور كثيرة تجمعها خمسة أقسام هي أهم الأمور التي يتزين بها العبد للناس: البدنُ والزيُّ والقول والعمل والأتباع والأشياء الخارجة. وأهل الدنيا يراؤون بهذه الأسباب الخمسة أيضاً، إلاّ أنّ طلب الجاه وقصدَ الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات، هو أهون من الرياء بالطاعات.

القسم الأول: البدن

هو الرياء في الدين من جهة البدن، وذلك بإظهار النحول والصفار ـ أي لون الصفرة على الوجه ـ ليُوهم بذلك شدة الاجتهاد وعِظَمُ الحزن على أمر الدين، وغلبةِ خوف الآخرة، وليدلّ بالنحول على قلة الأكل، وبالصفار على سهر الليل وكثرة الاجتهاد وعظمَ الحزن على الدين. وكذلك يرائي بتشعيث الشعر ليدل به على استغراق الهم ـ أي على شدة الاهتمام ـ بالدين، وعدمِ التفرّغ لتسريح الشعر.

وهذه الأسباب كلما ظهرت، استدل الناس بها على هذه الأمور، فترتاح النفس لمعرفتهم، ولذلك تدعو النفسُ إلى إظهارها لنيل تلك الراحة. ويقرب من هذا خفضُ الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين، ليُستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم، وأن وقار الشرع هو الذي خفّض من صوته، أو أن ضعف الجوع هو الذي ضعّف قوته. وعن هذا قال عيسى عليه السلام: إذا صام أحدكم فليدهن رأسه، ويرجّل[1] شعره، ويكحل عينيه؛ وذلك كله لما يُخاف عليه من نزغ الشيطان بالرياء.. فهذه مراءاة أهل الدين في البدن. وأمّا أهل الدنيا فيُراؤون بإظهار السَّمَنْ[2] وصفاء اللون، واعتدال القامة وحسن الوجه، ونظافة البدن، وقوة الأعضاء وتناسبها.

القسم الثاني: الزيّ والهيئة

أما الهيئة، فبتشعيثِ شعر الرأس وحلق الشارب، وإطراق الرأس في المشي، والهدوء في الحركة، وإبقاء أثر السجود على الوجه وغلظِ الثياب ولبس الصوف، وتشميرها إلى قريبٍ من نصف الساق، وتقصير الأكمام، وترك تنظيف الثوب وتركه مخرقاً، كلُّ ذلك يرائي به ليُظهر من نفسه أنه متَّبِعٌ للسنّة فيه، ومقتدٍ فيه بعباد الله الصالحين.

ومنه لبسُ المرقّع، والصلاة على السجادة، ولبسُ الثياب الزرق تشبُّهاً بالصوفية مع الإفلاس عن حقائق الصوفية في الباطن. ومنه التقنّع بالإزار فوق العمامة ليُريَ به أنه انتهى تقشُّفُهُ إلى الحذر من غبار الطريق، ولتنصرفَ إليه الأعين بسبب تميّزه بتلك العلامة. ومنه

---

(١) يُرجّل: يسرّح.

(٢) السَّمَن: كثرةُ الشحمِ والدسم.

الدّراعة[1] والطيلسان[2] يلبَسُه، وهو خالٍ من العلم، ليُوهم أنه من أهل العلم.

والمراؤون بالزيّ على طبقات: منهم من يطلبُ المنزلة عند أهل الصلاح بإظهار الزهد، فيلبس الثياب المخرّقة[3] الوسخة القصيرة الغليظة، ليُرائي بغلظها وقِصَرها ووسخها وتخرّقها. ولو كُلّفَ أن يلبس ثوباً وسطاً نظيفاً مما كان السلفُ يلبسه، لكان عنده بمنزلة الذّبح، وذلك لخوفه أن يقول الناس: قد بدا له في الزهد ـ أي يبدو أنه قد غيّر رأيه ورغبته في الزهد ـ ورجعَ عن تلك الطريقة، ورغبَ في الدنيا.

وطبقة أخرى يطلبون القبول عند أهل الصلاح وعند أهل الدنيا من الملوك والتجار، ولو لبسوا الثياب الفاخرة ردّهم القُرّاء[4]، ولو لبسوا الثياب المخرّقة النازلة[5]، ازدرتهم[6] أعين الملوك والأغنياء، فهم يريدون الجمعَ بين قبول أهل الدين والدنيا، فلذلك يطلبون الأصواف الدقيقة والأكسية[7] الرقيقة والمرقّعات[8] المصبوغة والفوط[9] الرفيعة، فيلبسونها. ولعل قيمة أثوابهم قيمة ثياب الأغنياء،

---

(١) الدرّاعة: جمعها دراريع وهي الجبّة المشقوقة المقدَّم.

(٢) الطيلسان: كساءٌ أخصر يلبَسُه الخواصُ من المشايخ والعلماء، وهو من لباس العجم.

(٣) المخرّقة: الممزقة.

(٤) القُرَّاء: جمعها قُرّاؤون وقَرارىء: وهو الناسك المتعبد.

(٥) النازلة: ذات القيمة والشأنية المتدنية.

(٦) ازدرى: احتقر واستخفّ به.

(٧) الأكسية: جمع كساء وهي الثياب.

(٨) المرقعات: الثياب المرقّعة.

(٩) الفُوَط: جمع فوطة، وهي ما يأتزر به الخدم. قيل إن اللفظة سنديّة وقيل إنها تركيّة، ومعناها مئزر.

وهيئته ولونه لونُ ثياب الصلحاء، فيلتمسون القبول عند الفريقين.

وهؤلاء لو كلفوا لبسَ ثوبٍ خشنٍ أو وسخ لكان عندهم كالذبح خوفاً من السقوط من أعين الملوك والأغنياء، ولو كُلّفوا لبسَ ثوبِ الديبقيّ[(١)] والكتّان الرقيق الأبيض أو المقصَّب المعلّم ـ وإن كانت قيمته دون قيمة ثيابهم ـ لعظُمَ عليهم خوفاً من أن يقول أهل الصلاح: قد رغبوا في زيِّ أهل الدنيا.

وكلُّ طبقةٍ منهم رأت منزلتها في زيّ مخصوص، فيثقُلُ عليها الانتقال إلى ما دونه أو ما فوقه ـ وإن كان مباحاً ـ خيفةً من المذمة. وأمّا أهل الدنيا فمراءاتهم بالثياب النفيسة والمراكب الرفيعة، وأنواعِ التوسّع والتجمّل في الملبس والمسكن وأثاث البيت وفَرَهِ[(٢)] الخيل، وبالثياب المصبّغة الملونة والطيالسة النفيسة؛ وذلك ظاهر يبرزونه للناس فقط، فإنّهم يلبسون في بيوتهم الثياب الخشنة، ويشتدُّ عليهم لو برزوا إلى الناس على تلك الثياب، ما لم يبالغوا في الزينة.

القسم الثالث: القول

رياءُ أهل الدين بالقول هو بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة، وحفظ الأخبار والآثار لأجل الاستعمال في المحاورة، إظهاراً لغزارة العلم، ودلالةً على شدّة العناية بأحوال السَّلف الصالحين، وبتحريكِ الشفتين بالذكر في محضر الناس، وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق ـ أي أمامهم وفي حضورهم ـ وإظهارِ الغضبِ للمنكرات، وإظهار الأسف على مقارفة[(٣)] الناس المعاصي، وبتضعيف

---

(١) الديبقيّ: يظهر أنه نوع من القماش.

(٢) فره: الملاحة والحسن والنشاط والخفة.

(٣) مقارفة: ارتكاب وفعل.

الصوت في الكلام وترقيق الصوت بقراءة القرآن، ليدلَّ بذلك على الحُزن والخوف، وبادعاء حفظ الحديث ولقاء الشيوخ، وبالدقِّ ـ أي بالتدقيق ـ على من يروي الحديث ببيان خللٍ في لفظه ليُعرفَ أنَّهُ بصيرٌ بالأحاديث، وبالمبادرة إلى إظهار أنَّ الحديثَ صحيحٌ أو غير صحيح لإبراز الفضل بذلك، وبالمجادلة بقصدِ إفحام الخَصم ليُظهر للناس قوّته في علم الدين.

والرياء بالقول كثير، وأنواعه لا تنحصر. وأمّا أهل الدنيا فمراءاتهم بالقول بحفظ الأشعار والأمثال والتفاصح في العبارات وحفظِ النحو الغريب من أجل الإغراب[1] على أهل الفَضل، وإظهارِ التودد إلى الناس لاستمالة القلوب.

القسم الرابع: العمل

الرياء بالعمل كمراءاة المصلّي بطول القيام ومدِّ الظهر، وتطويلِ السجود والركوع. وإطراق الرأس وترك الالتفات، وإظهار الهدوء والسكون، وتسويةِ القدمين واليدين. وكذلك بالصوم والغزو والحج، وبالصدقة وإطعام الطعام، وبالإخبات[2] في المشي عند اللقاء، كإرخاء الجفون وتنكيس الرأس والوقار في الكلام، حتى أنّ المرائي قد يسرعُ في المشي إلى حاجته، فإذا اطلع عليه أَحدٌ من أهل الدين، رجعَ إلى الوقار وإطراق الرأس، خوفاً من أن ينسبَهُ إلى العجلة وقلة الوقار، فإن غاب الرجل عاد إلى عجلته، فإذا رآه عاد إلى خشوعه، ولم يحضرهُ ذكرُ اللهِ فيُجددَ الخشوعُ له لا للخلق، بل هو ـ أي الخشوع ـ لاطلاع إنسانٍ عليه يخشى أن لا يعتقد فيه أنّه من العبّاد والصُّلحاء.

---

(١) الإغراب: الإتيان بالشيء الغريب، الإفصاح والقول بالغرائب.

(٢) الإخبات: التخشّع.

ومنهم مَن إذا سمعَ هذا الكلام استحيى مِن أن تُخالف مشيتُه في الخلوةِ مشيَتَهُ بمرأى من الناس، فيكلّفُ نفسَهُ المشية الحسنة في الخلوة حتى إذا رآه الناس لم يفتقر إلى التغيير، ويظنُّ أنه يتخلّصُ به من الرياء، في حين قد تضاعفَ رياؤه، حيث صار في خلوته أيضاً مرائياً، فإنه إنّما يُحسّنُ مشيتَهُ في الخلوة ليكون كذلك في الملأ، لا لخوفٍ من الله وحياءٍ منه.

وأما أهل الدنيا فمراءاتهم بالتبختر(١) والاختيال(٢)، وتحريك اليدين وتقريب الخُطى، والأخذِ بأطراف الذيل - ذيل الثوب - وإدارة العِطفين(٣)، ليدلوا بذلك على الجاه والحشمة.

القسمُ الخامس: الأصحاب والزائرون والمخالطون

وهو كالذي يتكلّفُ دعوةَ عالمٍ لزيارته، ليُقال: إنّ فلاناً قد زار فلاناً، أو دعوةَ عابدٍ لزيارته ليُقالَ: إنّ أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون إليه، أو دعوةَ ملكٍ من الملوك أو عاملٍ من عمّال السلطان ليُقال: إنهم يتبركون به لعِظَمِ رتبته في الدين.

وكالذي يكثرُ ذكر الشيوخ ليُريَ أنّه لقي شيوخاً كثيرةً واستفاد منهم، فيباهي بشيوخه. ومباهاتُه ومراءاتُه تترشح منه عند مخاصمته، فيقول لغيره: ومَن لقيتَ من الشيوخ؟ وأنا قد لقيتُ فلاناً وفلاناً، ودُرتُ البلاد وخدمتُ الشيوخ، وغير هذا من الكلام.

فهذه أهم الأمور التي يرائي بها المراؤون، وكُلُّهم يطلبون بهِ

---

(١) التبختر: المشي مشية المتكبّر المعجَب بنفسه.
(٢) الاختيال: التبختر والتكبر.
(٣) العِطفُ: الإبط، والعطفُ من كلِّ شيء جانبه.

الجاه والمنزلة في قلوب العباد، ومنهم من يقنعُ بحُسن الاعتقادات فيه. فكم راهب انزوى إلى ديره سنين كثيرة، وكم من عابد اعتزل إلى قُلّة جبلٍ مدة مديدة، وإنما كانت خَبْأَتُه ـ أي اختباؤه ولجوؤه ـ لعلمه بقيام جاهه في قلوب الخلق، ولو عرفَ أنّهم نسبوه إلى جريمة في ديره أو صومعته لتشوَّشَ قلبُه، ولم يقنع بعلم الله ببراءة ساحته، بل يشتد لذلك غمّه ويسعى بكل حيلةٍ في إزالة ذلك من قلوبهم، مع أنه قطع طمَعَهُ من أموالهم، ولكنّه يحبُّ مجرد الجاه، فإنه لذيذ كما ذكرناه آنفاً من أنه نوع قدرة واستيلاء وكمالٍ في الحال ـ أي آنياً ـ وإن كان سريعَ الزوال لا يغترُّ به إلاَّ الجهَّال، غير أنّ أكثر الناس جهّال.

ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته ـ أي بحدوث جاهٍ له في القلوب ـ بل يلتمس مع ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد. ومنهم من يريدُ انتشار الصيت في البلاد لتكثُرَ الرحلةُ إليهم، ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتُقبلَ شفاعتُه وتُنجز الحوائجَ على يديه، فيقوم له جاه عند العامة.

ومنهم من يقصدُ التوصل بذلك إلى جمعِ حطامٍ وكسبِ مالٍ، ولو من الأوقاف وأموال اليتامى وغير ذلك من الحرام؛ وهؤلاء شرُّ طبقات المرائين الذين يراؤون بالأسباب التي ذكرناها؛ فهذه حقيقة الرياء وما به يقعُ الرياء.

٤ ـ حكمُ الرياء

قد يسأل سائل: هل أن الرياء حرام أو مكروه أو في حكمِه تفصيل؟ والجواب أنّ في حكمِهِ تفصيل، فإنّ الرياء هو طلبُ الجاه، وهو إمّا أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات، فإن كان بغير العبادات فهو كطلب المال، لا يحرمُ من حيث إنه طلبُ منزلةٍ في قلوب العباد،

ولكن كما يمكن كسبُ المال بتلبيسات وأسباب محظورة، فكذلك الجاه. وكما أنّ كسب قليلٍ من المال وهو ما يحتاجُ إليه الإنسان محمودٌ، فكسبُ قليل من الجاه ـ وهو ما يسلمُ به عن الآفات ـ محمود، وهو الذي طلبهُ يوسفعليه السلام حيث قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

وكما أنّ المال فيه سُمٌّ ناقع وترياقٌ نافع، فكذلك الجاه. وكما أن كثير المال يُلهي ويُطغي وينسي ذكر الله والدار الآخرة، فكذلك كثير الجاه، بل أشدُّ. وفتنة الجاه أعظم من فتنة المال. وكما أنّا لا نقول: تملُّكُ المال الكثير حرامٌ، فلا نقول أيضاً: تملُّكُ القلوبِ الكثيرة حرام، إلاّ إذا حملتهُ كثرةُ المال وكثرةُ الجاه على مباشرة ما لا يجوز. نعم، انصرافُ الهمِّ إلى سعةِ الجاه مبدأُ الشرور، كانصرافِ الهمِّ إلى كثرة المال، ولا يقدرُ محبُّ الجاه والمال على ترك معاصي القلب واللسان وغيرها.

وأمّا سعة الجاه من غير حرصٍ منك على طلبهِ، ومن غير اغتمامٍ بزواله إن زال، فلا ضرر فيه، فلا جاه أوسعَ من جاه رسول اللهﷺ ومَن بعده من علماء الدين، ولكنّ انصراف الهمِّ إلى طلب الجاه نقصانٌ في الدين، ولا يوصفُ بالتحريم. فعلى هذا، إن تحسين الثوب الذي يلبَسه الإنسان عند الخروج إلى الناس مراءاة، وليس بحرام، لأنه ليس رياءً بالعبادة بل بالدنيا؛ وقِسْ على هذا كلَّ تجمُّلٍ للناس وتزيّنٍ لهم.

والدليل عليه ما روي عن عائشة أن رسول اللهﷺ أراد يوماً أن يخرُجَ على أصحابه، فكان ينظرُ في حبٍّ[1] من الماء ويسوي عمامته

(١) حبّ: الجرّة الكبيرة أو الخابية.

وشعره، فقالت: أوَ تفعلُ ذلك يا رسول الله؟ فقال: نعم «إن الله يحبُّ من العبد أن يتزين لإخوانه إذا خرجَ إليهم»[١]. نعم، هذا كان من رسول الله ﷺ عبادة لأنه كان مأموراً بدعوةِ الخلق وترغيبهم في الاتباع واستمالةِ قلوبهم، ولو سقط من أعينهم لم يرغبوا في اتباعه، فكان يجبُ عليه أن يُظهر لهم محاسن أحواله لكيلا تزدريه أعينهم، فإنَّ أعينَ عوام الخلق تمتدُّ إلى الظواهر دون السرائر، فكانَ ذلك قصدُ رسول الله ﷺ، ولكن لو قصدَ قاصدٌ به أن يُحسِّنَ نفسَه في أعينهم حذراً من ذمِّهِمْ ولومهم، وطلباً للراحة جراء توقيرهم واحترامهم، كان قد قصدَ أمراً مباحاً، إذ للإنسان أن يحترز من ألمِ المذمّة ويطلبَ راحةَ الأُنسِ بالإخوان، حيث كلما استثقلوه واستقذروه لم يأنس بهم.

فإذاً المراءاة بما ليس من العبادات قد تكون أمراً مباحاً، وقد تكون طاعة، وقد تكون مذمومة، وذلك بحسب الغرضِ المطلوب بها؛ ولذلك إنَّ الرجلَ إذا أنفق ماله على جماعة من الأغنياء لا في معرضِ العبادة والصدقة، ولكن ليعتقد الناس أنه سخيّ، فهذا مراءاة ليست بحرام، وكذلك أمثاله.

أمّا العبادات كالصدقة والصلاة والغزو والحج، فللمرائي فيه حالتان: إحداهما أن لا يكون له قصدٌ إلاّ الرياء المحض دون الأجر، وهذا يُبطل عبادته، لأنّ الأعمال بالنيات، وهذا العمل ليس بقصد العبادة. ثم إنه لا يقتصر على إحباط عبادته حتى نقول: صار كما كان قبل العبادة، بل إنه يعصي بريائه ذلك ويأثم، لما دلّت عليه الأخبار والآيات، والمعنيُّ فيه أمران: أحدهما يتعلق بالعبادة وهو التلبيس والمكر، لأنه خيَّلَ ـ أي أوحى ـ إليهم أنه مخلص مطيعٌ لله وأنه من

(١) قال العراقي: أخرجه ابن عدي في الكامل من حديث عائشة.

أهل الدين، في حين أنه ليس كذلك، إضافة إلى أن التلبيس في أمر الدنيا أيضاً حرام، فلو حتى أنه قضى دينَ جماعة وخَيّلَ إلى الناس أنه متبرّع عليهم ليعتقدوا سخاوته أثِمَ بذلك، لما فيه من التلبيس وتملّك القلوب بالخداع والمكر. والأمر الثاني يتعلق بالله، وهو أنّه كلّما قصد بعبادة الله خلْقَ الله فهو مستهزىء بالله، ولذلك قال قتادة: إذا راءاى العبد قال الله تعالى لملائكته: انظروا إليه كيف يستهزىء بي. ومثالهُ أن تمثُلَ بين يدي ملكٍ من الملوك طول النهار، كما جرت عادة الخدم، في حين أنّ وقوفك هو لملاحظتك جارية من جواري الملك أو غلاماً من غلمانه، فإنّ هذا استهزاء بالملك إذا لم تقصد التقرب إلى الملك بخدمته بل قصدت عبداً من عبيده؛ فأي استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله مراءاة عبد ضعيف لا يملك له ضراً ولا نفعاً؟! وهل ذلك إلاّ أنه ظنَّ أن ذلك العبد أقدرُ على تحصيل أغراضه من الله؟! وأنه أولى بالتقرّب إليه من الله، إذ آثره على ملكِ الملوك فجعله مقصود عبادته؟! وأي استهزاءٍ يزيد على رفع العبد فوق المولى؟! فهذا من كبائر المهلكات، ولهذا سمّاه رسول الله ﷺ: «الشرك الأصغر»[1]. نعم، بعض درجات الرياء أشدُّ من بعضٍ كما سيأتي بيانه في درجات الرياء، ولا يخلو شيء منه عن إثم غليظ أو خفيف بحسب ما به المراءاة.

ولو لم يكن في الرياء إلاّ أنه يسجدُ ويركعُ لغير الله لكان فيه كفاية، فإنه إذا لم يقصد التقرب إلى الله فقد قصدَ غير الله، ولعمري لو قصد غير الله بالسجود لكفرَ كفراً جلياً، إلاّ أن الرياء هو الكفرُ الخفيّ، لأن المرائي عظَّمَ في قلبه الناس، فاقتضت تلك العظمة أن

(١) أخرجه أحمد في مسنده ج ٥ ص ٤٢٥ من حديث محمود بن لبيد؛ وقد تقدم.

يسجد ويركع لهم، فكان الناس هم المعظَّمون بالسجود من وجه، وكلما زال قصدُ تعظيم الله بالسجود وبقي تعظيم الخلق، كان ذلك قريباً من الشرك، إلاّ أنه قصدَ تعظيمَ نفسه في قلبِ من عَظُمَ عندَهُ بإظهاره من نفسه صورة التعظيم لله، ولهذا كان شركاً خفياً لا شركاً جلياً؛ وذلك هو غاية الجهل، ولا يقدمُ عليه إلاّ من خدَعهُ الشيطان وأوهمه أن العباد يملكون من نفعه وضرّه ورزقه وأجله، ومصالح حاله ومآله، أكثر مما يملكه الله تعالى. فلذلك عدل بوجهه عن الله تعالى إليهم، وأقبلَ بقلبه عليهم مستميلاً لقلوبهم، ولو وكله الله إليهم في الدنيا والآخرة لكان ذلك أقلَّ جزاء على صنيعه، فإنّ العباد كُلُّهُم عاجزون عن أنفسهم، لا يملكون لها ضراً ولا نفعاً، فكيف لغيرهم؟! وهذا في الدنيا، فكيف يوم لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً؟! بل يومٌ يقول الأنبياء فيه: نفسي نفسي! فكيف يستبدلُ الجاهل ثواب الآخرة ونيل القرب عند الله بما يرتقبه بطمعهِ الكاذب في الدنيا من الناس؟! فلا ينبغي أن نشكَّ في أن المرائي بطاعة الله في سخطِ الله على ضوء ما ورد في النقل وما يحكم به العقل؛ هذا إذا لم يقصد الأجر.

وأمّا إذا قصد الأجر والحمد جميعاً في صدقته أو صلاته، فهو الشرك الذي يناقضُ الإخلاص. وقد ذكرنا حكمَهُ في كتاب الإخلاص، ويدل ما سننقله في الآثار ههنا ـ أي في هذا الكتاب ـ على أنه لا أجر فيه أصلاً.

٥ ـ ذم الرياء

إعلم أنَّ الرياء حرام، والمرائي عند الله ممقوت. وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار.

أمّا الآيات، فقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[2]، قال مجاهد: هم أهل الرياء.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[3] فمدح المخلصين بنفي كل إرادةٍ سوى وجه الله، والرياء هو ضده. وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[4]، نزل ذلك في من يطلبُ الأجر والحمدَ بعباداته وأعماله وغير ذلك.

وأما الأخبار، فقد قالﷺ حين سأله رجلٌ فقال: يا رسول الله: فيمَ النجاة؟ فقال: «ألاّ يعملَ العبد بطاعة الله يريد بها الناس»[5]. وفي حديث الثلاثة ـ المقتول في سبيل الله، والمتصدق

---

(١) سورة الماعون، الآيات: ٤ ـ ٧.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٠. و «يبور» أي يكسد ويفسد ويهلك.

(٣) سورة الإنسان، الآية: ٩.

(٤) سورة الكهف، الآية: ١١٠. وهو حديث أخرجه عبد الرزاق، وابن أبي الدنيا في الإخلاص، وابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم ج ٤ ص ٣٣٠ عن طاؤوس، والبيهقي في شعب الإيمان موصولاً عن طاؤوس عن ابن عباس. راجع الدرّ المنثور ج ٤ ص ٢٥٥.

(٥) لم أجد له أصلاً إلاّ ما رواه الصدوق (ره) في أماليه عن رسول اللهﷺ: «أنه سُئل فيم النجاة غداً؟ فقال: إنما النجاةُ في أن لا تخادعوا الله فيخدعكم، فإنه من يخادع الله يخدعه ويخلع منه الإيمان، ونفسَهُ يخدع لو يشعر، فقيل له: وكيف يخادع الله؟ قال: يعملُ بما أمر اللّهُ به ثم يريدُ غيره، فاتقوا الله واجتنبوا الرياء فإنه شرك بالله، إن المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا كافرُ، يا فاجرُ، يا غادرُ، يا خاسرُ، حبطَ عملك وبَطُلَ أجرُك، ولا خلاق لك اليوم، فالتمس أجركَ ممن كنتَ تعمل له» انتهى.

بماله، والقارىء لكتابه، كما أوردناه في كتاب الإخلاص ـ فإن الله تعالى يقول لكلِّ واحدٍ منهم: «كذبتَ، بل أردت أن يُقال: فلان شجاع. كذبتَ، بل أردت أن يقال: فلانٌ جواد، كذبتَ، بل أردت أن يقال: فلان قارىء» فأخبر رسول الله ﷺ أنهم لم يُثابوا، وأنّ رياءهم هو الذي أحبط أعمالهم[1].

وعنه ﷺ: «من راءى، راءى الله به، ومنَ سمّع، سمّع الله به»[2]. وفي حديث آخر طويل: «إن الله تعالى يقول للملائكة: إنّ هذا لم يُردني بعمله فاجعلوه في سجين»[3]. وقال ﷺ: «إنّ أخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم: إذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء»[4]. وقال ﷺ: «استعيذوا بالله من حبّ الحزن، قيل: وما هو يا رسول الله، قال: وادٍ في جهنم أعدَّ للقراء المرائين»[5]. وقال ﷺ: «يقول الله تعالى: من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو له كلّه وأنا منه بريء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك»[6].

وقال عيسى (صلوات الله عليه): «إذا كان يوم صومه أحدِكم

---

(١) أخرجه مسلم، والنّسائي، والترمذي ج ٩ ص ٢٣٠ وحسَّنَهُ، وابن حبّان في صحيحه. راجع الترغيب ج ١ ص ٥٢.

(٢) أخرجه البخاري ج ٨ ص ١٣٠ من حديث جندب، وفيه «يرائي».

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد، ومن طريقه ابن أبي الدنيا في الإخلاص، وأبو الشيخ في كتاب العظمة من رواية حمزة بن حبيب مرسلاً (المغني) ورواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٢٩٤ تحت رقم ٧ كما يأتي مع بيان له.

(٤) أخرجه أحمد ج ٥ ص ٤٢٨ من حديث محمود بن لبيد.

(٥) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٣٠ وقال: هذا حديث حسنٌ غريب.

(٦) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٤٢٠٣ من حديث أبي سعيد الخدري.

فليدهَن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنّه صائم، وإذا أعطى بيمينه فليُخفِ عن شماله، وإذا صلّى فليُرخ ستر بابه، فإنّ الله يقسمُ الثناء كما يقسمُ الرزق». . وقال نبيناﷺ: «لا يقبلُ الله عملاً فيه مقدار ذرّةٍ من رياء»(١). وعنهﷺ: «أدنى الرياء شرك»(٢). وقالﷺ: «أخوفُ ما أخافُ عليكم الرياء والشهوة الخفية»(٣) وهي أيضاً ترجعُ إلى خفايا الرياء ودقائقه. وقالﷺ: «إنّ في ظل العرش يوم لا ظلّ إلاّ ظله رجلاً تصدّق بيمينه فكاد يخفيها عن شماله»(٤) ولذلك ورد: «أن فضلَ عمل السرّ على عمل الجهر بسبعين ضعفاً»(٥). وقال رسول اللهﷺ: «إن المرائي ينادى عليه يوم القيامة: يا فاجر، يا غادر، يا مرائي، ضلّ عملك وحبِطَ أجرُك، إذهب فخذ أجرك ممن كنت تعملُ له»(٦). وقال شدّاد بن أوس: رأيت رسول اللهﷺ يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: «إني تخوّفتُ على أمتي الشرك. أمَا إنهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمراً ولا حجراً، ولكنّهم يراؤون بأعمالهم»(٧).

وقال رسول اللهﷺ: «لمّا خلقَ اللّهُ الأرض مادت بأهلها، فخلقَ الجبال فصيّرها أوتاد الأرض، فقالت الملائكة: ما خلقَ ربنا

---

(١) قال العراقي: لم أجد له أصلاً.

(٢) أخرجه الحاكم ج ٣ ص ٢٧٠ وصحّحه. ورواه البيهقي في الشعب عن معاذ بن جبلٍ قال: سمعت النبيﷺ يقول في حديث له: «إن يسيراً من الرياء شرك. . الحديث» راجع الدرّ المنثور ج ٤ ص ٢٥٧.

(٣) أخرجه ابن ماجة وقد تقدم أول الكتاب.

(٤) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٩٣ في حديث عن أبي هريرة.

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء باختلافٍ ومضمونه واحد.

(٦) قال العراقي: أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية جبلة اليحصبي عن صحابي لم يسمّ، وزاد «يا كافر، يا خاسر» ولم يقل «يا مرائي» وإسناده ضعيف انتهى. أقول: وقد مرّ مضمونه في الهامش آنفاً.

(٧) أخرجهُ الحاكمُ ج ٤ ص ٣٣٠ باختلاف، وابن ماجة تحت رقم ٤٢٠٥ بنحوه.

خلقاً هو أشدُّ من الجبال، فخلق الله الحديد فقطعَ الجبَل، ثم خلق النار فأذاب الحديد، ثم أمر الله تعالى الماءَ بإطفاء النار، وأمرَ الريح فكدّرت الماء، فاختلفت الملائكة فقالت: نسأل الله تعالى، فقالوا: يا ربِّ ما أشدُّ ما خلقتَ من خلقك؟ قال الله تعالى: لم أخلق شيئاً هو أشدُّ من [قلب] ابن آدم حين يتصدق بيمينه بصدقة، فيخفيها عن شماله، فهذا أشدُّ خلقٍ خلقتُه»[1].

وروى عبد اللَّه بن المبارك بإسنادهِ عن رجلٍ أنّه قال لمعاذ: حدِّثني حديثاً سمعتَهُ من رسول الله ﷺ، قال: فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت، ثم سكت، ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ، قال لي: يا معاذ، قلتُ: لبيك، بأبي أنت وأمّي، قال: إني محدثك حديثاً إن أنتَ حفظتَهُ نفعَك، وإن أنتَ ضيّعته ولم تحفظه، انقطعت حجتك عند الله يوم القيامة، يا معاذ إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السماوات والأرض، ثم خلق السماوات فجعل لكل سماءٍ من السبعة مَلكاً بوّاباً عليها، قد جلّلها عِظَماً، فتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبد من حين أصبح إلى أن أمسى، له نورٌ كنور الشمس، حتى إذا صعدَت به إلى السماء الدنيا زكّتْهُ فكثّرتهُ، فيقول المَلكُ للحفظة: اضربوا بهذا العمل وجهَ صاحبه، أنا صاحبُ الغِيبة، أمرني ربّي أن لا أدعَ عملَ من اغتاب الناس يجاوزني إلى غيري، قال: ثم تأتي الحفظة بعملٍ صالحٍ من أعمال العبد، فتمرُّ فتزكيه وتكثّره حتى تبلُغَ به إلى السماء الثانيةِ، فيقول لهم المَلكُ الموكّلُ بالسماء الثانية: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، إنه أراد بعملِهِ هذا عرَضَ الدنيا، أمرني ربّي أن

---

(١) أخرجه الترمذي ج ١٢ ص ٢٦٣ بأدنى اختلاف، وقال: غريبٌ لا نعرفُه إلاّ من هذا الوجه.

لا أدعَ عملَهُ يجاوزني إلى غيري، إنه كان يفتخر به على الناس في مجالسهم، قال: وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبد يبتهج نوراً من صدقةٍ وصيام وصلاة، قد أَعجبَ الحفظةَ، فيجاوزون به إلى السماء الثالثة، فيقول لهم الملَكُ الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، أنا ملَكُ الكِبْر، أمرني ربّي أن لا أدعَ عمله يجاوزني إلى غيري. إنه كان يتكبّر على الناس في مجالسهم، قال: وتصعد الحفظةُ بعمل العبد يزهر كما يُزهرُ الكوكب الدريُّ، له دويٌّ من تسبيحٍ وصلاةٍ وحجٍّ وعمرة حتى يجاوزوا به إلى السماء الرابعة، فيقول لهم الملَكُ الموكّلُ بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجهَ صاحبه، إضربوا به ظهره وبطنه، أنا صاحبُ العُجب، أمرني ربّي أن لا أدعَ عملَهُ يجاوزني إلى غيري، إنه كان إذا عمل عملاً أدخلَ العُجبَ في عمله، قال: وتصعدُ الحفظةُ بعمل العبد يجاوزوا[1] به إلى السماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة إلى بعلها، فيقول لهمُ الملكُ الموكّلُ بها، قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه، أنا ملَكُ الحسدِ، إنه كان يحسدُ الناس، من يتعلّم ويَعمل بمثل عملِهِ، وكلّ من كان يأخذ فضلاً من العبادة يَحسُدُهم ويقعُ فيهم، أمرني ربّي أن لا أدعَ عمَلَهُ يجاوزني إلى غيري، قال: وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبدِ من صلاةٍ وزكاةٍ وحجٍّ وعمرةٍ وصيام، فيجاوزون به إلى السماء السادسة، فيقول لهمُ الملكُ الموكّل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، إنه كان لا يرحمُ إنساناً قطُّ من عباد الله أصابَهُ بلاءٌ أو ضرٌّ، بل كان يشمتُ به، أنا ملَكُ الرحمة أمرني ربي أن لا أدع عمَلهُ يجاوزني إلى غيري، قال: وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبد إلى السماء السابعة من صومٍ وصلاة ونفقةٍ

(١) هكذا وردت في متن الرواية، ولوجود وجه لها لغة، لم نصححها [المعدّ].

وزكاةٍ واجتهاد وورعٍ له دَويٌّ كدويِّ الرعد، وضوءٌ كضوء الشمس، معه ثلاثة آلاف ملك، فيجاوزون به إلى السماء السابعة، فيقول لهم الملَكُ الموكّلُ بها: قفوا واضربوا بهذا العملِ وجهَ صاحبه، إضربوا به جوارحه وأقفلوا على قلبه، إنّي أحجبُ عن ربّي كلَّ عملٍ لم يُرَدْ به وجهُ ربّي، إنه أرادَ بعملهِ غير الله تعالى، إنه أراد رفعةً عند الفقهاء، وذِكراً عند العُلماء، وصيتاً في المدائن، أمرني ربّي أن لا أدع عملَه يجاوزني إلى غيري، وكلُّ عملٍ لم يكن لله خالصاً فهو رياء ولا يقبلُ الله عملَ المرائي، قال: وتصعدُ الحفظةُ بعملِ العبد من صلاةٍ وزكاة وصيام وحجٍ وعمرة وخُلُقٍ حسنٍ وصمتٍ وذكرِ اللّهِ، وتُشيّعُهُ ملائكة السماوات حتى يقطعوا به الحجُب كلَّها إلى الله تعالى، فيقفون بين يديه، ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله، قال: فيقول الله لهم: أنتم الحفظةُ على عمل عبدي، وأنا الرقيبُ على نفسه، إنه لم يُردني بهذا العملِ وأراد به غيري، فعليه لعنتي، فتقول الملائكة كلُّهم: عليه لعنتك ولعنتنا، وتقول السماوات كلُّها: عليه لعنة الله ولعنتنا، وتلعنُه السماوات السبع ومَن فيهنّ. قال معاذ: يا رسول الله، أنت رسول الله وأنا معاذ، قال: اقتدِ بي وإن كان في عملكَ تقصير، يا معاذ حافظ على لسانك من الوقيعة[1] في إخوانِكَ من حملة القرآن، واحمل ذنوبك عليكَ ولا تحملها عليهم، ولا تُزكِّ نفسك بذمِّهم، ولا ترفع نفسك عليهم ولا تُدخل عمل الدنيا في عملِ الآخرة، ولا تتكبّر في مجلسك لكي يحذرَ الناسُ من سوء خُلقك، ولا تناجِ رجلاً وعندك آخر، ولا تتعظم على الناس فينقطع عنك خيرُ الدنيا، ولا تُمزِّقِ الناس فتمزِّقَك كلابُ النار يوم القيامة في النار، قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ

(١) الوقيعة: هنا بمعنى اغتياب الإخوان.

نَشْطًا ﴿٢﴾[1] تدري من هُنَّ يا معاذ؟ قلتُ: ما هُنَّ بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: كلابٌ في النار تنشطُ[2] اللحم والعظم، قلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فمن يُطيق هذه الخصال، ومن ينجو منها؟ قال: يا معاذ، إنه ليسيرٌ على من يسّرَهُ الله عليه، قال: فما رأيتُ أحداً أكثر تلاوة للقرآن من معاذ، للحذر مما في هذا الحديث»[3].

وقال علي عليه السلام: «للمرائي ثلاثُ علامات: يكسلُ إذا كان وحدَهُ، وينشط إذا كان في الناس، ويزيدُ في العملِ إذا أثني عليه، ويُنقص إذا ذُمَّ»[4].

ومن طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام قال: «قال الله تعالى: أنا خير شريك من أشرك معي غيري في عمل عمله لم أقبله إلا ما كان لي خالصاً»[5]. وعنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: سيأتي زمان على الناس تخبث فيه سرائرهم، وتحسنُ فيه علانيتهم طمعاً في الدنيا، لا يريدون به ما عند ربهم، يكون دينهم رياء، لا يخالطهم خوف، يَعمُّهم الله بعقاب فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجيب لهم»[6].

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٢.
(٢) تنشطُ: تعضُّ وتنهش.
(٣) أخرجه بطوله ابنُ المبارك في الزهد عن رجلٍ لم يسمِّه عن معاذ، ورواه ابن حبّان في غير الصحيح، والحاكم، وغيرهما، ونقلَه المنذري في الترغيب ج ١ ص ٦، وقال: آثار الوضع ظاهرةٌ عليهِ في جميعِ طُرُقِهِ وبجميع ألفاظه، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات أيضاً.
(٤) رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٢٩٥، وفيه: «ويحبُّ أن يُحمدَ في جميع أموره» بدل قوله: «ويُنقِصُ إذا ذُمَّ»؛ وسيأتي عن قريب.
(٥) الكافي ج ٢ ص ٢٩٥ تحت رقم ٩.
(٦) الكافي ج ٢ ص ٢٩٦ تحت رقم ١٤.

وعنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الملَك ليصعَدُ بعمل العبد مبتهجاً به، فإذا صعد بحسناته يقول الله تعالى: اجعلوها في سجين، إنه ليس إياي أراد بها»[1]. وبإسناده قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ثلاث علامات للمرائي: ينشط إذا رأى الناس، ويكسلُ إذا كان وحده، ويحبُّ أن يُحمدَ في جميع أموره»[2] وعنه عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: اخشوا الله خشيةً ليست بتعذير، واعملوا لله في غير رياء ولا سُمعة، فإنه مَن عمِلَ لغير الله وَكَلَهُ الله إلى عمله»[3].

وعن أبيه الباقر عليه السلام قال: «الإبقاءُ على العمل أشدُّ من العمل، قيل: وما الإبقاء على العمل؟ قال: يصِلُ الرجل بصلةٍ[4]، ويُنفق نفقةً لله وحده لا شريك له، فكُتبت له سراً، ثم يذكرها فتمحى فتكتبْ له علانية[5]، ثم يذكرها فتمحى وتكتب له رياء»[6]. وعن الصادق عليه السلام أنه قال لعبّاد بن كثير البصري في المسجد: «ويلك يا عبّاد إياك والرياء فإنه من عمل لغير الله وكَله الله إلى من عمل له»[7]. وعنه عليه السلام: «اجعلوا

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٩٥ تحت رقم ٧، والابتهاج: السرور. وقوله: «يصعدُ بعملِ العبد» أي يشرع في الصعود. وقوله: «فإذا صعد» أي بعد صعوده ووصوله إلى موضعٍ تعرضُ فيه الأعمال على الله تعالى. وقولُه: «بحسناته» من قبيل وضع المُظهَر موضِعَ المُضمَر، تصريحاً بأن العمل من جنس الحسنات. وقوله: «اجعلوها في سجين» أي أثبتوا تلك الأعمال أو التي تزعمون أنها حسنات في ديوان الفجّار الذي هو في سجين، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾.

(٢) الكافي ج ٢ ص ٢٩٥ تحت رقم ٨.

(٣) الكافي ج ٢ ص ٢٩٧ تحت رقم ١٧.

(٤) الصِّلَة: هي الهدية والصدقة والعطية يقدّمها الرجلُ لأخيه.

(٥) أي يصير ثوابه أخف، لأن ثواب صدقة السرّ أكثر وأشد.

(٦) الكافي ج ٢ ص ٢٩٦ تحت رقم ١٦.

(٧) الكافي ج ٢ ص ٢٩٣ تحت رقم ١.

أمركم هذا لله ولا تجعلوه للناس فإنه ما كان لله فهو لله وما كان للناس فلا يصعدُ إلى الله»[1]. وعنه عليه السلام: «كل رياء شرك، إنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس ومن عمِلَ لله كان ثوابه على الله»[2].

وعنه عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ قال: «الرجلُ يعمل شيئاً من الثواب لا يطلبُ به وجه الله إنما يطلبُ تزكية الناس، يشتهي أن يسمع به الناس، فهذا الذي أشرك بعبادة ربّه، ثم قال: ما من عبدٍ أسرَّ خيراً فذهبت الأيام أبداً حتى يُظهر الله له خيراً، وما من عبدٍ يسرُّ شراً فذهبت الأيام حتى يُظهر الله له شراً»[3].

وعنه عليه السلام قال: «ما يصنعُ أحدُكم أن يُظهِرَ حَسَناً ويُسرَّ سيّئاً؟ أليس يرجع إلى نفسه فيعلم أن ذلك ليس كذلك، والله تعالى يقول: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾﴾ إنّ السريرة إذا صحّت قويت العلانية»[4]. وعنه عليه السلام قال: «مَن أراد الله بالقليل من عمله أظهره الله له أكثر مما أراد، ومن أراد الناس بالكثير من عمله في تعبٍ من بدنه وسهرٍ من ليله، أبى الله إلاّ أن يقلّله في عين من سمِعه»[5].

وعن الرضا عليه السلام قال لمحمد بن عرفة: «ويحك يا بن عرفة، اعملوا لغير رياءٍ ولا سمعة، فإنه من عمل لغير الله وكلَهُ اللّهُ إلى ما عمل، ويحك ما عمل أحد عملاً إلاّ ردّاه الله به، إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ»[6].

---

(١) (٢) الكافي ج ٢ ص ٢٩٣ تحت رقم ٢ و ٣.
(٣) الكافي ج ٢ ص ٢٩٣ تحت رقم ٤.
(٤) الكافي ج ٢ ص ٢٩٥ تحت رقم ١١.
(٥) الكافي ج ٢ ص ٢٩٦ تحت رقم ١٣.
(٦) الكافي ج ٢ ص ٢٩٤ تحت رقم ٥. وقولهُ عليه السلام: «ردّاه» أي ألبسهُ الرداء يعني يلبسهُ الله تعالى ذلك العمل كالرداء.

وأما الآثار، فنقل أبو حامد: رأى أبو أُمامة رجلاً في المسجد يبكي في سجوده، فقال: أنت أنت لو كان هذا في بيتك. وقال رجل لعبادة بن الصامت. أُقاتل بسيفي في سبيل الله، أريدُ وجه الله ومحمدة الناس؟ قال: لا شيء لك، فسأله ثلاث مرات، كلُّ ذلك يقول: لا شيء لك، ثم قال في الثالثة: إن الله يقول: «أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ـ الحديث».

وقال الحسن: لقد صحبتُ أقواماً إن كان أحدهم لَتُعرضُ له الحكمة لو نطق بها لنفعته ونفعت أصحابه، وما يمنعُه منها إلاّ مخافة الشهرة، وإن كان أحدُهم ليمرُّ ويرى الأذى في الطريق، فما منعهُ أن ينحّيه إلاّ مخافة الشهرة، ويقال: إنّ المرائى ينادى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا غادر، يا فاجرُ، يا خاسرُ، إذهب فخذ أجركَ ممن عملت له، فلا أجر لك عندنا.

وقال الفضيل: كانوا يراؤون بما يعملون، وصاروا اليوم يراؤون بما لا يعملون. وقال عكرمة: إنّ الله يعطي العبد على نيّته ما لا يعطيه على عمله، لأن النية لا رياء فيها. وقال الحسن: المرائي يريد أن يغلبَ قدَر الله تعالى، وهو رجل سوءٍ يريد أن يقول الناس: هو صالح.. وقال قتادة: إذا راءى العبد يقول الله تعالى: انظروا إلى عبدي يستهزىء بي. وقال مالك بن دينار: القرّاء ثلاثة: قرّاء الدنيا وقرّاء الملوك وقرّاء الرحمن..

٦ ـ درجاتُ الرياء

إعلم أنَّ بعضَ أبواب الرّياء أشدُّ وأغلظ من بعض، واختلافه باختلاف أركانه وتفاوتِ الدرجات فيه. وأركانه ثلاثة: المراءى به، والمراءى لأجله، ونفسُ قصد الرياء.

الركنُ الأول: قصدُ الرياء

وهـذا لا يـخـلـو إمّـا أن يـكـون مـجـرداً دون إرادة عـبـادة الله والثواب، وإمّا أن يكون مع إرادة الثواب. فإن كان كذلك ـ أي مع إرادة الثواب ـ فإما أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العباد؛ فتكون الدرجات أربع:

الدرجة الأولى: وهي أغلظها، بأن لا يكون مراده الثواب أصلاً، كالذي يصلّي بين أظهرِ الناس، ولو انفرد لم يكن ليصلي، بل ربما يصلّي من غير طهارة مع الناس. فهذا قد جرّدَ قصده إلى الرياء، فهو الممقوت عند الله. وكذلك من يُخرج الصدقة خوفاً من مذمة الناس وهو لا يقصدُ الثواب، ولو خلا بنفسه لما أداها؛ فهذه من الدرجات العليا من الرياء.

الدرجة الثانية: أن يكون له قصدُ الثواب أيضاً، ولكنّ قصده هذا يكون ضعيفاً، بحيث لو كان في الخلوة لم يكن ليفعله ـ أي العمل ـ ولم يكن ليحمله ذلك القصد على العمل ـ لضعفه ـ بل لو لم يكن قصدُ الثواب موجوداً في نفسه لحمله قصدُ الرياء على العمل. فهذا قريب مما قبله، وما فيه من شائبةِ قصدِ الثواب ليس كافياً في حمله على العمل، ولا ينفي عنه المقتَ والإثم.

الدرجة الثالثة: أن يكونَ قصدُ الثواب وقصدُ الرياء متساويين بحيثُ لو كان كل واحد من القصدين خالياً عن الآخر، لم يبعثه على العمل، فلمّا اجتمعا انبعثت الرغبة. أو بحيث لو انفرد كلٌّ واحدٍ من القصدين لبعثه على العمل إلاّ أن تساويهما جعل رياءَه يفسدُ عمله بالكامل، فهذا نرجو له أن يسلمَ رأساً برأس، لا له ولا عليه، أو أن يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب؛ وظواهر الأخبار تدل

على أنه لا يسلم، وقد تكلمنا عليه في كتاب الإخلاص.

الدرجة الرابعة: أن يكون اطلاع الناس مرجِّحاً ومقوياً لنشاطه، ولو لم يكن ـ أي الاطّلاع ـ لكان لا يتركُ العبادة، ولو وجد في نفسه قصد الرياء فقط لم يكن ليُقدم عليه. والذي نظنّه ـ والعلم عند الله ـ أنّه لا يحبطُ أصل الثواب، ولكنه يُنقص منه أو يعاقبُ على مقدار قصدِ الرياء، ويثابُ على مقدار قصد الثواب. وأمّا قوله ﷺ: «يقول الله تعالى: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك»(١) فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصدُ الرياء أرجح.

الركن الثاني: المراءى به

وهو الطاعات، وذلك ينقسمُ إلى الرياء بأصول العبادات، وإلى الرياء بأوصافها.

القسم الأول: الرياء بأصول العبادات

وهو الأغلظ، وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: الرياء بأصل الإيمان.

وهو أغلظ أبواب الرياء، وصاحبه مخلَّدٌ في النار، وهو الذي يُظهر كلمتي الشهادة وباطنُه مشحون بالتكذيب، ولكنه يرائي بظاهر الإسلام، وهو الذي ذكرهُ الله تعالى في كتابه في مواضع شتّى، كقوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾(٢). أي في دلالتهم

---

(١) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٤٢٠٥، وقد تقدم. وأخرجه أحمد ورجاله رجال الحديث الصحيح.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ١.

بقولهم على ما في ضمائرهم. وقال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية[1]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3]؛ والآيات منهم كثيرة.

وكان النفاق في بداية أمر الإسلام يكثرُ بين الناس، ممن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداءً لأجل غرضٍ، وهو مما يقلُّ في زماننا. ولكن يكثر نفاقُ من ينسلُّ من الدين باطناً فيجحدُ الجنة والنار والدار الآخرة، ميلاً إلى قول الملحدة، أو يعتقد طيّ بساط الشرع والأحكام، ميلاً إلى أهل الإباحة، أو يعتقدُ كُفراً أو بدعة وهو يُظهر خلافه. فهؤلاء من المنافقين والمرائين المخلَّدين في النار، وليس وراء هذا الرياء رياءٌ، وحال هؤلاء هو أشدُّ من حال الكفّار المجاهرين، لأنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر.

الدرجة الثانية: الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين.

وهذا أيضاً عظيم عند الله ولكنّه دونَ الأول بكثير، ومثالهُ أن يكون مال الرجل في يد غيره، فيأمره بإخراج الزكاة خوفاً من ذمّه، واللهُ يعلمُ منه أنه لو كان في يده لما أخرجها. أو يدخلُ وقت الصلاة وهو في جمعٍ فيصلي معهم وعادتُه ترك الصلاة حينما يكون وحيداً، وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهي خلوة من الخلق ليُفطر، وكذلك يحضرُ الجمعة ولولا خوف المذمّة لكان لا يحضرها، أو يصلُ رحِمَهُ

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٩.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

ويبَرُّ والديه لا عن رغبة في الثواب ولكن خوفاً من الناس، أو يغزو أو يحج كذلك.

فهذا المرائي معهُ أصل الإيمان بالله، يعتقد أنه لا معبود سواه، ولو كُلِّفَ أن يعبدَ غير الله أو يسجد لغير الله لم يفعل، ولكنه يترك العبادات للكسل، وينشطَ عند اطلاع الناس، فتكون منزلتُه عند الخلق أحبّ إليه من منزلته عند الخالق، وخوفُهُ من مذمّة الناس أعظمَ من خوفه من عقاب الله، ورغبتُه في محمدتهم أشدّ من رغبته في ثواب الله؛ وهذه غاية الجهل، وما أجدر صاحبَهُ بالمقت، وإن كان غير منسلٍّ عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد.

الدرجة الثالثة: أن لا يرائي بالإيمان ولا بالفرائض، ولكنه يرائي بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصي، ولكنّه يكسلُ عنها في الخلوة لفتور رغبته في ثوابها ولإيثار لذة الكسل على ما يُرجى من الثواب، ثم يبعثه الرياء على فعلها، وذلك كحضور الجماعة في الصلاة، وعيادة المريض، واتباع الجنازة وغسلُ الميت، وكالتهجد بالليل، وصيام يوم عرفة ونحو ذلك. فقد يفعلُ المرائي جملةَ ذلكَ خوفاً من المذمّة أو طلباً للمحمدة، ويعلمُ اللَّهُ تعالى أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض.

فهذا أيضاً عظيم، ولكنه دون ما قبله، فإنّ الذي قبلَه آثَرَ حمد الخلق على حمد الخالق، وهذا أيضاً قد فعلَ ذلك واتقى ذمّ الخلق دون ذم الخالق، فكأنّ ذم الخلق أعظم عنده من عقاب الله تعالى. وأمّا هذا فلم يفعل ذلك لأنه لم يخف عقاباً على ترك النافلة لو تركها، وكأنه على النصف من الأول وعقابه نصف عقابه؛ فهذا هو الرياء بأصول العبادات.

القسم الثاني: الرياء بأوصاف العبادات

وهي أيضاً على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن يرائي بفعلٍ ما في تركه نقصانُ العبادة، كالذي غرضُه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطوّل القراءة، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وتركَ الالتفات وتمَّمَ القعود بين السجدتين، وقد قال ابن مسعود: مَن فعلَ ذلك، فهو استهانة يستهينُ بها ربّه، أي أنه ليس يبالي باطلاع الله عليه في الخلوة، فإذا اطلع آدميّ عليه أحسنَ الصلاة. ومن جلسَ بين يدي إنسانٍ متربعاً أو متكئاً فدخل غلامُه فاستوى وأحسن الجلسة، كان ذلك تقديماً للغلام على السيد، واستهانة بالسيد لا محالة. وهذا حال المرائي بتحسين الصلاة في الملأ دون الخلوة، وكذلك الذي يعتادُ إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحَبِّ الرديء، فإذا اطّلع عليه غيره، أخرجها من الجيد خوفاً من مذمّته. وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرّفث ـ أي مقاربة النساء ـ لأجل الخلق، لا إكمالاً لعبادة الصوم خوفاً من المذمّة؛ فهذا أيضاً من الرياء المحظور، لأنّ فيه تقديماً للمخلوق على الخالق، ولكنه دون الرياء بأصول التطوعات.

ولو قال المرائي: إنني إنما فعلتُ ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة، حيث إنهم إذا رأوا تخفيف الركوع والسجود، وكثرةَ الالتفات، أطلقوا اللسان بالذم والغيبة، وقد قصدتُ صيانتهم عن هذه المعصية، قيلَ له: إنّ هذه مكيدةٌ للشيطان، وتلبيس، وليس الأمر كما تدعي، فإن ضررك من نقصان صلاتك ـ وهي خدمة منك لمولاك ـ أعظمُ من ضررِكَ من غيبة غيرك لك. فلو كان باعثُكَ الدّين، لكانت شفقتك على نفسك أكثر، وما أنتَ في هذا إلاّ كمن يهدي وصيفة إلى ملكٍ

لينال منه ولاية يتقلّدها، فيهديها إليه وهي عوراء قبيحة مقطوعة الأطراف، ولا يبالي به - أي بالملك - إذا كان وحده. وإذا كان عنده بعضُ غلمانه، امتنع خوفاً من مذمة غلامه وذلك محالٌ، بل من يراعي جانب غلام الملك، ينبغي أن تكون مراقبتُه للملكِ أكثر.

نعم، للمرائي فيه - أي في عمله من صلاة وغيره - حالتان: إحداهما، أن يطلب بذلك المنزلةَ والمحمدةَ عند الناس، وذلك حرام قطعاً. والثانية، أن يقول: ليس يحضرني الإخلاصُ في تحسين الركوع والسجود، ولو خفّفت، كانت صلاتي عند الله ناقصة وآذاني الناسُ بذمهم وغيبتهم، وأستفيد بتحسين الهيئة دفعَ مذمتهم، ولا أرجو عليه ثواباً. فهو خيرٌ من أن أترك تحسين الصلاة، فيفوت الثواب وتحصل المذمّة.

وهذا فيه نظرٌ، والصحيح أنَّ الواجبَ عليه أن يُحسِّنَ ويخلص، فإن لم تحضره النية - أي نية الإخلاص - فينبغي أن يستمر على عادته في الخلوة، وليس له أن يدفع الذم بالمراءاة بطاعة الله، فإن ذلك استهزاء كما سبق.

الدرجة الثانية: أن يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه، ولكن فعله في حُكم التكملة والتتمة لعبادته، كالتطويل في الركوع والسجود، ومدِّ القيام، وتحسين الهيئة، ورفع اليدين، والمبادرة إلى التكبيرة الأولى، وتحسين الاعتدال، والزيادة في القراءة على السورة المعتادة، وكذلك كثرةِ الخلوة في شهر رمضان، وطولِ الصمت، وكاختيار الأجود على الجيّد في الزكاة، واعتاق الرقبة الغالية في الكفارة؛ وكلُّ ذلك ممّا لو خُلّيَ ونفسَهُ، لكان لا يُقدمُ عليه.

الدرجة الثالثة: أن يرائي بزيادات خارجةٍ عن نفس النوافل،

كحضوره الجماعة قبل القوم، وقصدِه الصف الأول، وتوجهه إلى يمين الإمام، وما يجري مجراه، وكلُّ ذلك مما يَعلمُ الله منه أنه لو خلا بنفسه، لكان لا يبالي أينَ وقفَ، ومتى يُحرم بالصلاة.

فهذه درجات الرياء فيما يتعلق بما يراءى به، وبعضُه أشدُّ من بعض، والكلُّ مذموم.

الركن الثالث: المراءى لأجله

فإن للمرائي مقصوداً لا محالة، فإنما يرائي لإدراك مالٍ أو غرضٍ من الأغراض لا محالة. وله أيضاً ثلاثُ درجات:

الدرجة الأولى: وهي أشدها وأعظمها، بأن يكون مقصدُهُ التمكُّنُ من معصيةٍ، كالذي يرائي بعباداته ويُظهر التقوى والورع بكثرة النوافل، والامتناعِ من أكلِ الشبهات، وغرضُه أن يُعرفَ بالأمانة، فيولَّى القضاءَ والأوقاف أو الوصايا أو مال الأيتام فيأخذها، أو تسلَّمَ إليه تفرقةُ الزكوات أو الصدقات ليستأثر بما يقدرُ عليه منها، أو يودعَ الودائع فيأخذَها ويجحدَها، أو تُسلَّمَ إليه الأموالُ التي تنفقُ في طريق الحج فيختزلَ بعضَها أو كلَّها، أو يتوصلَ بها إلى اللحاق بالحجيج ويتوصل بقوتهم إلى مقاصده الفاسدة في المعاصي.

وقد يُظهر بعضُهم زيَّ التصوف وهيئة الخشوع وكلام الحكمة على سبيل الوعظ والتذكير، وإنما قصدُهُ التحبب إلى امرأة أو غلامٍ لأجل الفجور، وقد يحضرون في مجالس العلم والتذكير وحَلَقِ ـ أي حلقات ـ القرآن، يُظهرون الرغبة في سماع العلم والقرآن، وغرضُهم ملاحظة النسوان والصبيان، أو يخرجُ إلى الحج ومقصوده الظفر بمن في الرفقة ـ أي بمن يصاحبه في الطريق ـ من غلامٍ أو امرأة؛ وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى، لأنهم جعلوا طاعةَ ربِّهم سُلَّماً إلى

معصيته، واتخذوه آلة ومتجراً وبضاعة لهم في فسقهم.

ويقربُ من هؤلاء ـ وإن كان دونهم ـ من هو مقترفٌ بجريمة اتُّهِمَ بها وهو مصرٌّ عليها، ويريدُ أن ينفي التهمة عن نفسِهِ، فيُظهر التقوى لنفي التهمة، كالذي جحدَ وديعة ـ أي أنكر وجودها لديه ـ واتهمه الناسُ بها، فيتصدّق بالمال ليُقال: إنه يتصدق بمال نفسه، فكيف يستحلُّ مال غيره؟! وكذلك من يُنسبُ إلى فجورٍ بامرأة أو غلام، فيدفعُ التهمة عن نفسِهِ بالخشوع وإظهار التقوى.

الدرجة الثانية: أن يكون غرضُه نيلَ حظٍّ مباحٍ من حظوظه الدنيا، من مالٍ أو نكاح آمرأة جميلةٍ أو شريفة، كالذي يُظهر الحزن والبكاء ويشتغل بالوعظ والتذكير لتُبذلَ له الأموال، وترغبَ في نكاحه النساء، فيقصدُ إما آمرأة بعينها لينكحها، أو آمرأةً شريفةً عموماً، وكالذي يرغبُ في أن يتزوج بنت عالم أو عابدٍ فيُظهِرُ له العلم والعبادةَ ليرغبَ في تزويجه ابنته؛ فهذا رياء محظور، لأنه طلبَ بطاعة الله متاعَ الدنيا، ولكنه دون الأول، فإن المطلوب بهذا مباحٌ في نفسه.

الدرجة الثالثة: أن يقصدَ نيلَ حظٍّ وإدراكَ مالٍ أو نكاحٍ، ولكن يُظهر عبادته خيفة من أن يُنظرَ إليه بعين النقص، ولا يعد من الخاصة والزهاد، ويُعتَقد أنه من جملة العامة، كالذي يمشي مستعجلاً فيطّلع عليه الناس، فيُحسِّنُ المشي ويتركُ العجلة كيلا يقال: إنه من أهل اللهو والسهو، لا من أهل الوقار. وكذلك يسبِقُ إلى الضحك أو يبدرُ منه المزاح فيخافُ أن يُنظر إليه بعين الاحتقار، فيتبعُ ذلك بالاستغفار وتنفُّسِ الصعداء وإظهار الحزنِ، ويقول: ما أعظمَ غفَلة الآدميّ عن نفسه، والله يعلمُ منه أنّه لو كان في خلوةٍ لما كان يثقلُ عليه ذلك، وإنّما يخافُ أن يُنظرَ إليه بعين الاحتقار لا بعينِ التوقير، وكالذي يرى

جماعة يصلون النوافل ويتهجّدون، أو يصومون التطوع، أو يتصدقون فيوافقهم ـ أي يعمل مثلهم ـ خيفة أن يُنسب إلى الكسل ويُلحقَ بالعوام، ولو خلا بنفسه لكان لا يفعلُ شيئاً منه. وكالذي يعطشُ في اليوم الذي يُصام فيه تطوعاً، فلا يشربُ خوفاً من أن يعلمَ الناس أنه غير صائم، فإذا ظنّوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجلهم، أو يدعى إلى طعام فيمتنعُ ليُظَنَّ أنه صائم. وقد لا يصرّح بأنه صائم، ولكن يقول: لي عذرٌ. وهو جمعٌ بين خبثين، فإنه يُري أنه صائم، ثم يُري أنه مُخلصٌ ليس بمراءٍ، وأنّه يحترزُ عن أن يذكر عبادته للناس فيكونَ مرائياً، فريدُ أن يُقال: إنه ساترٌ لعباداته. ثم إن اضطرَّ إلى شربٍ، لم يصبر عن أن يذكُرَ لنفسهِ فيه عذراً، تصريحاً أو تلميحاً، بأن يتعلل بمرض يقتضي فرط العطش ويمنعُ من الصوم، أو يقول أفطرت تطييباً لقلب فلان، ثم قد لا يذكر ذلك متّصلاً بشربه ـ أي بعد شربه أمامهم فوراً ـ كيلا يُظنَّ به أنه يعتذر رياء، ولكنه يصبر، ثم يذكر عذره في معرضِ حكاية عرَضاً، مثل أن يقول: إنّ فلاناً محبٌّ للإخوان، شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه، وقد ألحّ عليّ اليوم ولم أجد بُدّاً من تطييب قلبه، ومثل أن يقول: إنَّ أمي ضعيفة القلب مشفقة عليَّ تظنُّ أني لو صمت يوماً مرضتُ، فلا تدعني أصوم.

فهذا وما يجري مجراه علامات الرياء، فلا تسبقُ إلى اللسان إلاّ لرسوخ عرق الرياء في الباطن، وأمّا المخلِص فإنه لا يُبالي كيف نظرَ الخلق إليه، فإن لم يكن له رغبة في الصوم وقد علم الله ذلك منه، فلا يريدُ ـ أي المخلص ـ أن يعتقد غيره من الناس فيه، ما يخالفُ علم الله فيه، فيكونَ ملبّساً. وإن كانت له رغبة في الصوم لله قنعَ بعلمِ الله ولم يشرك فيه غيره؛ وقد يخطرُ له أنّ في إظهاره ـ أي الصوم ـ اقتداءُ غيره به وتحريكُ رغبة الناس فيه، وفيه ـ أي لهذا الخاطر ـ

مكيدة وغرور، وسيأتي شرح ذلك وشروطه.

فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين، وجميعهم تحت مقتِ الله وغضبه، وهو من أشدّ المهلكات، وإنّ من شدَّته أنّ فيه شوائب هي أخفى من دبيب النملة، كما ورد به الخبر[1]، يزلُّ فيه فحول العلماء فضلاً عن العبّاد الجهّال بآفات النفوس وغوائل القلوب.

٧ ـ الرياءُ الخفيّ

إعلم أن الرياء جليّ وخفيّ، فالجليُّ هو الذي يبعث على العمل ويحملُ عليه حتى مع عدم قصدِ الثواب ـ وهو أجلى أنواعه ـ وأخفى منه قليلاً هو ما لا يحمل على العمل بمجرده، إلاّ أنه يخفف العمل الذي أُريد به وجه الله، كالذي يعتادُ التهجد كلَّ ليلةٍ ويثقُل عليه، فإذا دخل عليه الضيوف، نشط له وخفَّ عليه، وإن كان لولا رجاء الثواب لم يكن ليصلّي لمجرد رياء الضيوف.

وأخفى من ذلك ما لا يؤثّر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً، ولكنه مع ذلك مستبطنٌ في القلب، وطالما لم يؤثر في الدعاء إلى العمل، لم يمكن أن يعرفَ إلاّ بالعلامات، وأجلى علاماته أن يُسرَّ باطلاع الناس على طاعته، فرُبَّ عبدٍ مخلصٍ في عملِهِ لا يعتقدُ الرياء بل يكرهه ويردُّهُ ـ أي يرفضه ـ ويُتمّمُ العمل كذلك، ولكن إذا اطّلع عليه الناس، سرَّهُ ذلك وارتاح له، وروّحَ ذلك عن قلبه شدة العبادة. وهذا السرور يدلُّ على رياء خفيٍّ منه يترشّحُ السرور، ولولا

(١) رواه البزار من حديث عائشة، والطبراني من حديث أبي موسى، وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي بكر. راجع المغني، ومجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٢٣.

التفات القلب إلى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس. فلقد كان الرياء مستكنّاً في القلب ـ أي مستبطناً ومختفياً ـ استكنانَ النار في الحجر، فأظهرَ اطلاعُ الخلق أثر الفرح والسرور منه. ثمَّ إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع، ولم يقابل ذلك بكراهية، صار ذلك قُوتاً وغذاءً للعِرق الخفيّ من الرياء، حتى يتحرّك على نفسه ـ أي حتى يتحرك العرق في نفسه ـ حركة خفيّة، فيتقاضى تقاضياً خفياً ـ أي يدفع نحو أمرٍ ما بشكل خفي ـ بأن يتكلّفَ سبباً ـ أي أمراً ـ يُطّلعُ عليه بالتلميح وإلقاء الكلام بنحو غير مباشر، وإن كان لا يدعو ـ أي هذا العرق ـ إلى التصريح.

وقد يخفى فلا يدعو إلى الإظهار بالنطق ـ تلميحاً وتصريحاً ـ ولكن بالشمائل، كإظهار النحول والصفار وخفضِ الصوت ويبسِ الشفتين وجفاف الريق وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد.

وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع (على أعماله) ولا يُسرُّ بظهور طاعته، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحبَّ أن يبدأوه بالسلام، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وأن يثنوا عليه، وأن ينشطوا في قضاء حوائجه، وأن يسامحوه في البيع والشراء، وأن يوسعوا له في المكان، وإن قصّرَ في ذلك مقصّرٌ ثَقُلَ على قلبه، ووجد لذلك استبعاداً في نفسه، كأن نفسَهُ تتقاضى الاحترام على الطاعة التي أخفاها، مع أنّه لم يُطَّلع عليها. ولو لم تكن قد سبقت منه تلك الطاعة لما كان يستبعدُ تقصير الناس في حقّه، وطالما لم يكن وجود العبادة كعدمها فيما يتعلق بالخلق، لم يكن مثل هذا الإنسان قد قنِعَ بعلم الله تعالى، ولم يخلُ عن شوبٍ خفيٍّ من الرياء أخفى من دبيب النمل، وكلُّ ذلك يوشكُ أن يُحبطَ الأجر، ولا يسلمُ منه إلاّ

الصديقون. وقد روي عن علي عليه السلام أنه قال: «إنَّ الله عز وجلَّ يقولُ للقراء يوم القيامة[1]: ألم يكن يرخّصُ عليكم السعر؟ ألم تكونوا تبتدئون بالسلام؟ ألم تكن تُقضى لكم الحوائج» وفي الحديث الآخر ـ «لا أجر لكم، قد استوفيتم أجوركم».

فلم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفيّ، يجتهدون لذلك في مخادعة الناس عن أعمالهم الصالحة ـ أي يحتالون كي لا يعرف الناس أعمالهم الصالحة ـ يحرصون على إخفائها أعظمَ مما يحرصُ الناسُ على إخفاء فواحشهم، كلُّ ذلك رجاء أن تخلُصَ أعمالهم، فيجازيهم الله في القيامة بإخلاصهم على ملأٍ من الخلق، إذ علموا أن الله لا يقبلُ في القيامة إلاّ الخالص، وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم في القيامة، وأنه يومٌ لاينفعَ فيه مال ولا بنون، ولا يجزي والد عن ولده، ويشتغل ـ أي ينشغل ـ الصديقون بأنفسهم فيقول كلُّ واحد: نفسي نفسي، فضلاً عن غيرهم، فكانوا كزوار بيت الله إذا توجهوا إلى مكة، فإنهم يستصحبون الذهب المغربي الخالص لعلمهم بأنّ أرباب البوادي لا يروّج عندهمُ الزائف، والحاجة تشتدُ في البادية، ولا وطنَ يُفزعُ إليه، ولا حميمٌ يتمسَّكُ به، فلا يُنجي إلاّ الخالصُ من النقد، فهكذا يُشاهدُ أرباب القلوب يوم القيامة، والزادُ الذي يتزودونه له التقوى.

فإذن شوائب الرياء الخفيّ كثيرة لا تنحصر، وكلما أدركت النفسُ تفرقةً بين أن يطلعَ على عبادتها إنسان أو تطلع بهيمةٌ، ففيها شعبة من الرياء، فإنها لمّا قطعت طمعها عن البهائم، لم تُبالِ حضرها البهائم أو الصبيان الرُّضَّع، أو غابوا. اطّلعوا على حركتها أو لم

---

(١) في بعض النسخ [للفقراء يوم القيامة].

يطلعوا. ولو كان مخلصاً قانعاً بعلم الله، لاستحقرَ عقلاء العباد، كما استحقر صبيانهم ومجانينهم، وعلم أنَّ العقلاء لا يقدرون له على رزق ولا أجَلٍ، وزيادةِ ثوابٍ ونقصانِ عقاب، كما لا تقدر عليه البهائم والصبيان والمجانين؛ فإذا لم يجد ذلك ففيه شوبُ رياء خفيّ، ولكن ليس كلّ شوبٍ محبطاً للأجر ومفسداً للعمل، بل فيه تفصيل.

وهنا يُسأل: إننا لا نجد أحداً ينفكُّ عن السرور إذا عُرفتْ طاعاته، فهل كل السرور مذموم أم أنّ بعضَهُ محمود؟ والجواب أنّ كل سرور ليس بمذموم، بل ينقسم السرور إلى محمود ومذموم. وأما المحمود فأربعة أقسام:

الأول: أن يكون قصدُه إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لمّا اطلع عليه الخلق علمَ أن الله أطلعهم عليه، وأظهرَ الجميل من أحواله، فيستدلُّ به على حسن صنيع الله به ونظره له وألطافِهِ به، فإنه سبحانه يستر الطاعة والمعصية، لكنه هنا قد ستر عليه المعصية وأظهر الطاعة، فلا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل، فيكونُ فرحهُ بجميل نظر الله له، لا بحمد الناس وقيام المنزلةِ في قلوبهم. وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾[1] وكأنه ظهر له أنّه عند الله مقبول، ففرح به.

الثاني: أن يستدلَّ بإظهار الله الجميلَ وستره القبيح عليه في الدنيا، أنه كذلك يفعلُ به في الآخرة، إذ قال رسول الله ﷺ: «ما سترَ اللَّهُ على عبدٍ ذنباً في الدنيا إلا ستر عليه في الآخرة»[2]، فيكونُ الأول

(١) سورة يونس، الآية: ٥٨.
(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢١ من حديث أبي هريرة.

(المشار إليه أعلاه) فَرحاً بالقبول في الحال من غير ملاحظة المستقبل، وهذا التفاتٌ إلى المستقبل.

الثالث: أن يظنَّ رغبةَ المطّلعين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعفَ بذلك أجرهُ، فيكون لهُ أجرُ العلانية بما ظهر آخراً، وأجرُ السرِّ بما قصدهُ أولاً؛ ومن اقتدى به في طاعة فله أجرُ أعمال المقتدين به من غير أن يَنقصَ من أجورهم شيء، وتوقّعُ ذلك جديرٌ بأن يكون سبب السّرور، فإنّ ظهور مخائل[1] الربح لذيذ، وموجبٌ للسرور لا محالة.

الرابع: أن يحمَدهُ المطّلعون على طاعته فيفرحَ بطاعتهم لله في مدحتهم له وبِحبِّهم للمطيع، وبميلِ قلوبهم إلى الطاعة، إذ من أهل الإيمان من يرى أهل الطاعة فيمقتُه ويحسدُهُ، أو يذمُّهُ ويهزأ به، أو ينسبُهُ إلى الرياء ولا يحمَدُه عليه، أي على الإيمان. فهذا فرِحٌ بحُسنِ إيمان عباد الله، وعلامةُ الإخلاص في هذا النوع أن يكونَ فرحُهُ بحمدهم غيرَهُ مثل فرحه بحمدهم إياه.

وأما المذموم فهو الخامس، وهو أن يكونَ فرحهُ لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظّموه ويقوموا بقضاء حوائجه، ويقابلوه بالإكرام في ذهابه وإيابه، فهذا مكروه، أي مذموم.

٨ ـ الرياءُ المحبِطُ وغير المحبِط

إذا عقدَ العبدُ العبادة على الإخلاص ثم ورد وارد الرياء، فلا يخلو إمّا أن يرد بعدَ فراغِهِ من العمل أو قبل الفراغ.

---

(١) مخائل: مفردها مَخِيلة، والمخايل من السُّحب المنذرة بالمطر، فالمراد هو مظانُّ الربح.

فإن ورد بعد الفراغ سرور ظهر لوحده دون إظهار من المرء، فهذا لا يُحبط العمل إذ قد تمَّ على نعت الإخلاص، سالماً من الرياء، فما يطرأ بعده نرجو أن لا ينعطف أثره عليه، لا سيما إذا لم يتكلف هو إظهارهُ والتحدُّثَ به، ولم يتمنَّ ذكره وإظهاره، ولكن اتفق ظهوره بإظهار الله إياه، ولم يكن منه إلاّ ما دخلَ من السرور والارتياح على قلبه.

ويدلُّ على هذا ما رواه في الكافي عن أبي جعفرعليه السلام: «أنه سُئل عن الرجل يعملُ الشيء من الخير فيراهُ إنسانٌ فيسّرهُ ذلك؟ قال: لا بأس، ما من أحدٍ إلاّ وهو يحبُّ أن يُظهر الله له في الناس الخير إذا لم يكن صنع ذلك لذلك»(١).

وقد روي أن رجلاً قال لرسول اللهﷺ: «يا رسول الله أُسِرُّ العمل لا أحبُّ أن يطلع عليه أحدٌ فيُطّلع عليه فيسرني؟ قال: لك أجران: أجر السرّ وأجر العلانية»(٢)؛ رواه أبو حامد في موضع آخر، وقال ههنا: نعم، لو تمّ العمل على الإخلاص - أي بإخلاص - من غير عقد رياءٍ، ولكن ظهرت له بعده رغبةٌ في الإظهار فتحدّث به وأظهره، فهذا مَخوفٌ، أي يخاف أن تكون فيه شائبة الرياء، وفي الآثار والأخبار ما يدلُّ على أنه محبط، فقد روي عن ابن مسعود أنه سمع رجلاً يقول: قرأتُ البارحة سورة البقرة، قال: ذلك حظّهُ منها.

وروي عن رسول اللهﷺ أنه قال لرجلٍ قال له: صمتُ الدهر يا

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٩٧ تحت رقم ١٨.

(٢) قال العراقي: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود. وروى الترمذي ج ٩ ص ٢٣١ من حديث أبي هريرة، قال رجل: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيسره، فإذا اطّلع عليه أعجبه ذلك؟ قال رسول اللهﷺ: «له أجران: أجر السر وأجرُ العلانية»، وقال: هذا حديث حسنٌ غريب.

رسول الله، فقال له: «ما صمتَ ولا أفطرت»[1]. فقال بعضهم إنما قال ﷺ ذلك لأنه أظهره، وقيل: هو إشارةٌ إلى كراهة صوم الدهر. وكيفما كان، فيُحتمل أن يكونَ ذلك من رسول الله ﷺ ومن ابن مسعود استدلالاً على أنّ قلبَهُ عند العبادة لم يخلُ عن عقدِ الرياء، وقد قصده، لما تحدث عن عمله، إذ يبعد أن يكون ما يطرأ بعد العمل مبطلاً للثواب، بل الأصح أن يقال: إنه مثاب على عمله الذي مضى ومعاقب على مراءاته بطاعة الله بعد الفراغ منها، بخلاف ما لو تغيّر عقدُه إلى الرياء قبل الفراغ، فإن ذلك مبطل.

وأمّا إذا ورد وارد الرياء قبلَ الفراغ من الصلاة مثلاً، وكان قد عقدَ - أي عزم - على الإخلاص، ولكن ورد في أثنائها وارد الرياء، فلا يخلو الحال إما أن يكون مجرّد سرور لا يؤثر في العمل، وإما أن يكون رياءً باعثاً على العمل. فإن كان باعثاً على العمل وخُتم العملُ به، حبط أجره. ومثاله أن يكون في تطوّعٍ - أي عبادة مستحبة أو مباحة تطوع بها - فتجدَّدت له نظّارة - أي حضره نظّارٌ من الناس - أو حضر ملك من الملوك، وهو - أي العابد - يشتهي أن ينظرَ إليه، أو يذكر شيئاً نسيهُ من ماله وهو يريدُ أن يطلبَهُ، ولولا الناس لقطع الصلاة، لكنه أتمّها خوفاً من مذمّة الناس، فقد حبط أجرهُ، وعليه الإعادة إن كان في فريضة وقد قال ﷺ: «العملُ كالوعاء إذا طاب آخرهُ طاب أوّلُه»[2]، أي النظرُ إلى خاتمته.

---

(١) أخرجه الترمذي ج ٣ ص ٢٩٧ عن أبي قتادة قال: قيل: يا رسول الله، كيف بمن صام الدهر؟ قال: لا صام ولا أفطر، أو لم يصم ولم يُفطر. وقال العراقي: لم أجده بلفظ الخطاب.

(٢) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٤١٩٩ من حديث معاوية بن أبي سفيان بلفظه وسنده. ضعيف كما في الجامع الصغير ج ١ ص ١٠٢.

وروي «من راءى بعمله ساعة حبط عملهُ الذي كان قبله»(١)، وهذا الحديث منزّل على الصلاة في هذه الصورة، لا على الصدقة ولا على القراءة، فإن كلّ جزءٍ منها منفرد فما يطرأ يُفسِدُ الباقي دون الماضي؛ والصوم والحج من قبيل الصلاة.

وأمّا إذا كان وارد الرياء بحيثُ لا يمنعه من قصدِ الإتمام لأجل الثواب كما لو حضر جماعةٌ في أثناء صلاته ففرحَ بحضورهم، وعقدَ الرياء وقصدَ تحسين الصلاة لأجلهم، وكان لولا حضورهم لأتمّها أيضاً، فهذا رياء قد أثّر في العمل وبعث على الحركات، فإن غلبَ حتى انمحقَ معه الإحساس بقصد العبادة والثواب، وصار قصدُ العبادة مغموراً، فهذا أيضاً ينبغي أن يُفسد العبادة كلما مضى ركن من أركانها على هذا الوجه، لأنا نكتفي بالنية السابقة عند الإحرام بشرط أن لا يطرأ عليها ما يغلبُها ويظهرها؛ ويُحتمل أن يُقال: لا يفسدُ العبادة نظراً إلى حالةِ العقد وإلى بقاء أصلِ قصدِ الثواب، وإن ضَعُفَ بهجوم قصدٍ هو أغلب منه.

والأصح أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل، بل بقي العملُ صادراً عن باعث الدين، وإنما انضاف إليه سرور بالاطّلاع، فلا يفسدُ العمل لأنه لم ينعدم به أصلُ نيّته، وبقيت تلك النية باعثة على العمل وحاملة على الإتمام؛ وقد أسلفنا ما يدل على ذلك من النص.

أمّا الأخبار التي وردت في الرياء فهي محمولة على ما إذا لم

---

(١) قال العراقي: لم أجده بهذا اللفظ، وللشيخين من حديث جندَب «من سمّع سمّع الله به ومن راءى راءى الله به» رواه مسلم من حديث ابن عباس، وقد تقدم. والمراد من «ساعة» في بعض معانيها الآن من الزمن والبرهة منه.

يُرد به إلاّ الخلق، وأمّا ما ورد في الشركة ـ أي إشراك الخلق في العمل الذي ينبغي أن يكون لله وحده ـ فهو محمول على ما إذا كان قصدُ الرياء مساوياً لقصد الثواب أو أغلب منه، وأمّا إذا كان ضعيفاً بالإضافة إليه، فلا يُحبط بالكلية ثواب الصدقة وسائر الأعمال، ولا ينبغي أن يُفسد الصلاة. ولا يبعُدُ أن يُقال أيضاً: إن الذي أوجبَ عليه صلاة خالصة لوجه الله، والخالص ما لا يشوبه شيء، فلا يكون مؤدياً للواجب مع هذا الشوب، والعلمُ عند الله فيه؛ وقد ذكرنا في «كتاب الإخلاص» كلاماً أوفى مما أوردناه الآن فليُرجع إليه. فهذا حكم الرياء الطارىء بعد عقد العبادة، إما قبل الفراغِ أو بعده.

القسم الثالث الذي يقارنُ حال العقد على العبادة، بأن يبتدىء الصلاة على قصدِ الرياء، فإن تمَّ عليه حتى يسلِّمَ في صلاته، فلا خلافَ في أنه يعصي ولا يُعتدُّ بصلاته، وإن ندِمَ عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام، ففيما يلزمُ ويترتب على هذا ثلاثة أوجه:

قالت فرقة: لم تنعقد صلاته مع قصد الرياء، فليستأنف ـ أي فليُعد ـ وقالت فرقة: تلزمه إعادة الأفعال كالركوع والسجود، إذ يفسدُ الرياء أفعَالَهُ دون تحريمة الصلاة ـ أي قصد الإحرام للصلاة ـ لأنّ الإحرام عقدٌ، والرياءُ خاطرٌ في قلبه لا يُخرج الإحرام عن كونه عقداً. وقالت فرقة: لا يلزمهُ إعادة شيء بل يستغفرُ الله بقلبه، ويُتمُّ العبادة بإخلاص، والنظرُ إلى خاتمة العبادة، كما لو أنه ابتدأها بالإخلاص وخَتمَ بالرياء، لكان يُفسدُ عمَله.

وشبّهوا ذلك بثوبٍ أبيض لُطِّخ بنجاسةٍ عارضة، فإذا أُزيل العارض عاد إلى الأصل، فقالوا: إن الصلاة والركوع والسجود لا تكون إلاّ لله، ولو سجدَ لغير الله لكان كافراً، ولكن قد اقترنَ به

عارضُ الرياء، ثم إن زال بالندم والتوبة وصار إلى حالةٍ لا يبالي بحمد الناس وذمِّهِمْ، فتصحُّ صلاتُه. ومذهبُ الفريقين الآخرين خارجُ عن مذاق الفقه وأسسه جداً، خصوصاً من قال: يلزمُهُ إعادةُ الركوع والسجود دون الافتتاح، لأن الركوع والسجود إن لم يصحّا، صارا أفعالاً زائدة في الصلاة، فتبطُلُ الصلاة. وكذلك قولُ من يقول: لو ختمَ بالإخلاص صحَّ نظراً إلى الآخِر، أي نظراً إلى أنّ ما يُعتبر هو خاتمة العمل - فهو ضعيف، لأن الرّياءَ يقدحُ في النية، وأولى الأوقات بمراعاة الأحكام، النية حال الافتتاح.

فالذي يستقيم مع مذاق الفقه وأسسه هو أن يُقال: إن كان باعثه هو مجرد الرياء في ابتداء العقد دونَ طلبِ الثواب وامتثال الأمر، لم ينعقد افتتاحه ولم يصح ما بعده. ومثاله من إذا خلا بنفسه لم يصلِّ، لكن لما رآه الناس أحرمَ بالصلاة، وكان بحيث لو كان ثوبه نجساً أيضاً، لصلّى لأجل الناس. فهذه صلاةٌ لا نية فيها، إذ النية عبارة عن إجابة باعث الدّين، وههنا لا باعث ولا إجابة.

وأمّا إذا كان بحيث لولا الناس أيضاً لصلى، إلاّ أنه ظهرت له الرغبةُ في المحمدة أيضاً، فاجتمعَ الباعثان، فهذا إمّا أن يكون في صدقةٍ أو قراءة وما ليس فيه تحليل وتحريم، أو يكون في عقد صلاةٍ وحج. فإن كان في صدقةٍ فقد عصى بإجابة باعث الرياء، وأطاعَ بإجابة باعث الثواب ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ فله ثواب بقدر قصده الصحيح، وعقابٌ بقدر قصدهِ الفاسد، ولا يحبط أحدهما الآخر. وإن كان في صلاةٍ تقبل الفساد بتطرق خللٍ إلى النية، فلا يخلو إمّا أن تكون نفلاً أو فرضاً.

فإن كانت نفلاً فحكمها أيضاً حكمُ الصدقة، فقد عصى من وجهٍ وأطاع من وجه إذا اجتمع في قلبه الباعثان، وأمّا إذا كان في فرضٍ واجتمع الباعثان وكان كلٌّ واحدٍ منهما لا يستقلٌّ بمفرده في تحقيق الانبعاث، وإنما يحصل الانبعاث بمجموعهما، فهذا لا يُسقطُ الواجبَ عنه، لأنّ الإيجاب لم يكن باعثاً لوحده وبشكل مستقل. وإن كان كلٌّ منهما باعثاً مستقلاً بحيث لو لم يكن باعثُ الرياء لانبعث لآداء الفرض، وبحيث لو لم يكن باعث الفرض لأنشأ صلاةً تطوّعاً بدافعٍ من قصد الرياء، فهذا فيه نظر، وهو محتملٌ جداً، فيمكن أن يقالَ بشأنه: إن الواجب صلاة خالصة لوجه الله ولم يؤدِّ الواجب الخالص، ويُحتمل أن يُقال: الواجبُ امتثالُ الأمرِ بباعثٍ مستقل بنفسهِ وقد وُجِد، فاقتران غيره به لا يمنع سقوط الفرض عنه، كما لو صلى في دار مغصوبة، فإنه وإن كان عاصياً بإيقاع الصلاة في الدار المغصوبة، فإنه مطيع بأصلِ الصلاة ومسقطٌ للفرضِ عن نفسه، وتعارضُ الاحتمال، في تعارض البواعث في أصل الصلاة.

وأمّا إذا كان الرياء في المبادرة مثلاً دون أصل الصلاة، كأن يبادر بالصلاة في أول الوقت لحضور جماعة، ولو خلا لأخّرها إلى وسطِ الوقت، ولولا الفرض لكان لا يبتدىء صلاة لأجل الرياء، فهذا مما يُقطعُ بصحة صلاته وسقوطِ الفرضِ به، لأنّ باعث أصل الصلاة من حيث إنها صلاة لم يعارضهُ غيره، بل من جهة تعيين الوقت؛ فهذا أبعدُ عن القدح في النيَّة.

هذا في رياءٍ يكون باعثاً على العمل وحاملاً عليه، وأمّا مجرد السرور باطلاع الناس عليه، إذا لم يبلغ أثره إلى حيث يؤثر في العمل، فبعيدٌ أن يُفسدَ الصلاة؛ وهو ما نراه لائقاً بقانون الفقه. والمسألة غامضة من حيث إنّ الفقهاء لم يتعرضوا لها في فنّ الفقه،

والذين خاضوا فيها وتصرّفوا لم يلاحظوا قوانين الفقه ومقتضى فتاوى الفقهاء في صحة الصلاة وفسادها، بل حملَهُم الحرصُ على تصفية القلوب وطلبِ الإخلاص، على إفسادِ العبادات بأدنى الخواطر؛ وما ذكرناه هو الأقصد بحسب ما نراه، والعلمُ عند الله تعالى فيه.

٩ ـ علاج القلب من الرياء

عرفتَ مما سبق أنّ الرياء محبط للأعمال وسبب للمقت عند الله، وأنه من كبائر المهلكات، وما هذا وصفُهُ فجدير بالتشمير عن ساق الجدّ في إزالته، ولو بالمجاهدة وتحمّل المشاقّ، إلّا شفاء إلاّ في شُربِ الأدوية المرّة البشعة، وهذه مجاهدة يُضطر إليها العبادُ كُلُّهم، إذ الصبيُّ يُخلقُ ضعيفَ العقل والتمييز، ممتدَّ العينِ إلى الخلق، كثيرَ الطمعِ فيهم، فيرى الناسَ يتصنّعُ بعضُهم لبعضٍ، فيغلبُ عليه حبُّ التصنع بالضرورة ويترسخ ذلك في نفسه. وإنما يشعرُ بكون ذلك مهلكاً بعدَ كمالِ عقله، وقد انغرس الرياءُ في قلبه وترسّخَ فيه، فلا يقدر على قمعِهِ إلاّ بمجاهدة شديدة، ومكابدة[1] لقوة الشهوات، فلا ينفكُّ أحدٌ عن الحاجة إلى هذه المجاهدة، ولكنّها تشقُّ ـ أي تصعبُ ـ أولاً وتخفُّ آخراً. وفي علاجه مقامان: أحدهما، قطعُ عروقه وأصوله التي منها انشعابُه. والثاني، دفع ما يخطرُ منه في الحال.

٩: أ ـ قطعُ عروقِ الرّياء واستئصالُ أصوله

أصول الرياء: حبُّ المنزلةِ والجاه، وإذا فُصِّلَ ذلك رجعَ إلى ثلاثة أصولٍ هي: حب لذة المحمدة، والفرار من ألمِ المذمّة، والطمعُ

---

(١) مكابدة: المقاساة وتحمّل المشقة.

لما في أيدي الناس. ويشهدُ للرياء بهذه الأسباب وأنها الباعثة للمُرائي، ما روى أبو موسى أن أعرابياً سأل رسول اللهﷺ فقال: يا رسولَ الله، إن الرجلَ يقاتلُ حمية ـ ومعناه أنه يأنفُ أن يُقهر أو يذمَّ بأنه مقهور مغلوب ـ [وقال: والرجلُ يقاتلُ ليُري مكانه ـ وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر في القلوب ـ والرجلُ يقاتلُ للذكر ـ وهذا هو الحمدُ باللسان] ـ فقال رسول اللهﷺ: «مَن قاتلَ لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1].

وقال ابن مسعود: إذا التقى الصفّان نزلتِ الملائكةُ فكتبوا الناسَ على مراتبهم، فلان يُقاتلُ للذِّكر، وفلان يقاتلُ للمُلك. والقتال للملك إشارة إلى الطمع في الدنيا. وقالﷺ: «من غزا لا يبغي إلاّ عقالاً فله ما نوى»[2]، فهذه إشارة إلى الطمع وقد لا يشتهي الحمدَ ولا يطمعُ فيه، ولكن يحذر من ألمِ الذمّ، كالبخيل بين الأسخياء، وهم يتصدقون بالمال الكثير فإنه يتصدقُ بالقليل كيلا يُبخّل ـ أي يوصفَ بالبخل ـ وهو لا يطمع في الحمد وقد سبقَهُ غيرُهُ. وكالجبان بين الشجعان لا يفرُّ من الزحف خوفاً من الذم وهو لا يطمعُ في الحمد، وقد هجمَ غيرهُ على صفِّ القتال، ولكن إذا يئس من الحمد كرهَ الذم. وكالرجل بين قوم يصلّون جميع الليل، فيصلّي ركعاتٍ معدودة كيلا يُذمَّ بالكسل وهو لاَ يطمعُ في الحمد، وقد يقدرُ الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبرِ على ألمِ الذمّ، وكذلك قد يترك السؤال

---

(١) أخرجه مسلم ج ٦ ص ٤٦ هكذا «أن رجلاً سأل رسول اللهﷺ عن القتال في سبيل الله عز وجل فقال: الرجلُ يقاتلُ غضباً ويقاتلُ حمية، قال: فرفع رأسه إليه وما رفع رأسه إليه إلاّ أنه كان قائماً فقال: من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله».

(٢) أخرجه النسائي ج ٦ ص ٢٤ من حديث عبادة بن الصامت.

عن علم ما هو محتاجٌ إليه خيفةً من أن يُذَمَّ بالجهل، ويفتي بغير علمٍ ويدعي العلم بالحديث وهو به جاهل، وكلُّ ذلكَ حذراً من الذم. فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرِّكُ المرائي إلى الرياء، وعلاجُه ما ذكرناه في الشطر الأول من الكتاب على الجملة. ولكنّا نذكرُ الآن ما يخصُّ الرياء، وليس يخفى أنّ الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنّه أنه خير له، ونافع ولذيذٌ إمّا في الحال وإمّا في المآل.

فإن علمَ أنه لذيذ في الحال ولكنه ضارٌّ في المآل سهُلَ عليه قطع الرغبةِ عنه، كمن يعلمُ أنّ العسلَ لذيذٌ، ولكن إذا بانَ ـ أي ظهر ـ له أنّ فيه سُمّاً أعرضَ عنه، فكذلك طريق قطعِ هذه الرغبة أن يعلمَ ما فيها من المضرّة. فكلّما عرف العبدُ مضرة الرياء وما يفوتُه من صلاحِ قلبه، وما يُحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلَة عند الله، وما يتعرّضُ له من العقاب العظيم والمقت الشديد والخزي الظاهر، حيث ينادى به على رؤوس العباد: يا فاجرُ، يا غادرُ، يا مرائي، أما استحييت إذا اشتريت بطاعة الله عرَضَ الدنيا، راقبتَ قلوب العباد واستهزأت بنظرِ الله تعالى، وتحبّبت إلى العباد بالتبغّضِ إلى الله، وتزيّنت لهم بالشين عند الله، وتقرّبت إليهم بالبعدِ من الله، وتحمّدتَ إليهم بالتذمُّم عند الله، وطلبتَ رضاهم بالتعرُّضِ لسخطِ الله، أما كان أحدٌ أهونَ عليك من الله! فكلّما تفكّر العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصلُ له من العباد والتزيُّنِ لهم في الدنيا بما يفوته من الآخرة، وما يحبَطُ عليه من ثواب الأعمال، مع أنَّ العملَ الواحد ربما كان يترجّح به ميزان حسناته لو خَلُصَ، فإذا فسَدَ بالرياء ـ أي العمل ـ حُوِّلَ إلى كفّةِ السيئات فترجّحُ به ويهوي إلى النار.

فلو لم يكن في الرياء إلاّ إحباطُ عبادةٍ واحدة لكان ذلك كافياً في معرفةِ ضرره، وإن كانت مع ذلك سائر حسناته راجحة، فقد كان

ينالُ بهذه الحسنةِ علوَّ الرتبةِ عند الله في زمرة النبيّين والصدِّيقين، وقد حُطَّ عنهم بسبب الرياءِ، ورُدَّ إلى صفِّ النعال من مراتب الأولياء [كناية عن دنوِّ المرتبة]، هذا مع ما يتعرضُ له في الدنيا من تشتّتِ الهم بسبب ملاحظةِ قلوبِ الخلق، فإنّ رضا الناس غايةٌ لا تُدرك، فكلُّ ما يرضى به فريق يسخط به فريق، ورضا بعضهم في سخطِ بعضهم، ومن طلبَ رضاهم في سخَطِ الله، سخِطَ الله عليه وأسخطَهُم أيضاً عليه! ثم أيُّ غرضٍ له في مدحهم وإيثار ذمِّ الله لأجل حمدهم، ولا يزيده حمدهم رزقاً ولا أجلاً، ولا ينفعهُ يوم فقره وفاقته، وهو يوم القيامة!

وأمّا الطمعُ بما في أيديهم فبأن يعلمَ أنّ الله تعالى هو المسخِّرُ للقلوب بالمنع والإعطاء، وأنّ الخلقَ مضطرّون فيه، ولا رازق إلاّ الله، ومن طمِعَ في الخلق لم يخلُ من الذلِّ والخيبة، وإن وصلَ إلى المراد لم يخلُ عن المنّة والمهانة، فكيف يتركُ ما عندَ الله برجاءٍ كاذب ووهمٍ فاسدٍ، قد يصيب ويخطىء، وإذا أصاب فلا تفي لذَّتُه بألم منّته ومذلّته؟!

وأما ذمُّهم فلمَ يحذرُ منه، ولا يزيده ذمُّهُم شيئاً ما لم يكتُبه الله عليه، ولا يُعجِّلُ أجلَهُ، ولا يؤخّرُ رزقه، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنّة، ولا يبغّضهُ إلى الله إن كان محموداً عند الله، ولا يزيدهُ مقتاً إن كان ممقوتاً عند الله، فالعباد كُلُّهم عجزة ـ أي عاجزون ـ لا يملكون لأنفُسهم ضرّاً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

فإذا كتب على لوح قلبه آفة هذه الأسباب وضررها، فترت رغبته وأقبلَ على اللّهِ قلبهُ، فإنّ العاقل لا يرغبُ فيما يكثرُ ضرره ويقلُّ

نفعُه، ويكفيه أن الناس لو علموا ما في باطنه من قصد الرياء وإظهار الإخلاص ـ أي التظاهر به للناس ـ لمقتوه، وسيكشف الله عن سرّه حتى يبغّضَهُ إلى الناسِ ويعرِّفهم أنه مُراءٍ وممقوت عند الله. ولو أخلصَ لله لكشف الله لهم إخلاصه وحبّبه إليهم وسخّرهم له وأطلق ألسنتهم بحمده والثناء عليه، مع أنه لا كمال في مدحهم ولا نقصانَ في ذمّهم، كما قال شاعرٌ من بني تميم: إنّ مدحي زينٌ وإن ذمّي شينٌ، فقال له رسول اللهﷺ: «كذبتَ، ذلكَ الله الذي لا إله إلاّ هو»[1] إذ لا زينَ إلاّ في مدحِهِ ولا شينَ إلاّ في ذمّه، فأيّ خير لك في مدح الناس وأنت عند الله مذمومٌ ومن أهل النار؟! وأيُّ شرٍّ لكَ من ذمِّ الناس وأنت عند الله محمودٌ وفي زمرة المقرّبين؟! فمن أحضر في قلبِهِ الآخرة ونعيمَها المؤبد، والمنازلَ الرفيعة عند الله تعالى، استحقرَ ما يتعلّق بالخلقِ أيام الحياة، مع ما فيه من الكدورات والمنّة والمنغّصات، واجتمع همه ـ أي توحدت همته ـ وانصرفَ إلى الله قلبُه، وتخلّصَ من مذلة الرياء ومقاساة قلوب الخلق، وانعطف من إخلاصِهِ أنوار على قلبه ينشرحُ بها صدرهُ، وينفتحُ له بها من لطائف المكاشفات ما يزيدُ به أُنسُهُ بالله ووحشتُه من الخلق، واستحقارهُ للدنيا، واستعظامُهُ للآخرة، وسقطَ محلُّ الخلق من قلبِه، وأنحلَّ عنه داعية الرياء، وتذلّل له منهج الإخلاص؛ فهذا وما قدّمناهُ في الشطر الأول هي الأدوية العلميةُ القالعةُ جذورَ الرياء.

---

(١) أخرجه أحمد ج ٣ ص ٤٨٨ من حديث الأقرعِ بن حابس، وهو قائل ذلك القول. وقال العراقي: رجالهُ ثقات إلاّ أنه رواه عن الأقرع، أبو سلمة بن عبد الرّحمن، ولا أعرفُ له سماعاً عن الأقرع. ورواه الترمذي من حديث البراء وحسّنَه بلفظ «فقال رجل: إنّ حمدي».

وأمّا الدواء العملي فهو أن يعوِّدَ نفسَهُ إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلقُ الأبواب دون الفواحش حتى يقنعَ قلبُه بعلم اللَّهِ واطّلاعهِ على عبادته، ولا تنازعهُ النفسُ إلى طلبِ علمِ غير الله به. وقد روي أنّ بعض أصحاب أبي حفصٍ الحداد ذمَّ الدنيا وأهلها، فقال له أبو حفص: أظهرت ما كان سبيلك أن تخفيه، لا تجالسنا بعد هذا. فلم يُرخّص في إظهار هذا القدر، لأنّ في ضمن ذم الدنيا بعضُ دعوى الزهد فيها، فلا دواء للرياء مثل الإخفاء، وذلك يشقُّ في بداية المجاهدة، وإذا صبرَ عليه مدة بالتكلّف، سقطَ عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطافِ الله وما يمدُّ به عباده من حُسنِ التوفيق والتأييد، ولكنّ الله لا يُغيّر ما بقومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم؛ فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية، ومن العبد قرع الباب ومن الله فتح الباب، والله لا يضيعُ أجر المحسنين، فإن تكُ حسنةً يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً.

٩: ب ـ دفعُ العارضِ منه في أثناء العبادة

وذلك لا بدَّ من تعلّمه أيضاً، فإنّ من جاهد نفسَهُ وقلعَ جذور الرياء من قلبِه بالقناعة وقطعَ الطمع وأسقطَ نفسه من أعينِ المخلوقين واستحقر مدحهم وذمّهم، لا يتركُه الشيطان في أثناء العبادة، بل يعارضُه بخطرات الرياء، ولا تنقطع عنه نزغاتُه، وهوى النفس وميلها لا ينمحي بالكلية، فلا بدَّ وأن يشمر عن ساعد الهمة لدفع ما يعرضُ لهُ من خاطر الرياء.

وخواطرُ الرياء ثلاثة قد تخطرُ دفعةً واحدة كالخاطر الواحد، وقد تترادف بالتدريج. فالأول، العلمُ باطلاع الخلق ورجاءُ اطلاعهم، ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حمدهم وحصولِ المنزلةِ عندهم،

ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له ـ أي للحمد وحصول المنزلة ـ والركون إليه وعقد الضمير على تحقيقه. فالأول معرفةٌ، والثاني حالة تسمّى الشهوة والرغبة، والثالث فعلٌ يسمّى العزمُ وتصميم العقد.

وإنما كمالُ القوّة في دفعِ الخاطرِ الأول وردِّه قبل أن يتلوه الثاني، فإذا خطر له معرفةُ اطلاعَ الخلق أو رجاءُ اطلاعهم، دفعَ ذلك بأن قال لنفسه: ما لك وللخلق، علموا أو لم يعلموا؟ واللَّهُ عالمٌ بحالكَ، فأيُّ فائدةٍ في علم غيره؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد، تذكّر ما رسخَ في قلبِهِ من قبل بشأن آفة الرياء وتعرُّضه للمقت عند الله تعالى في القيامة، وخيبتِه في أحوجِ أوقاتِه إلى أعمالِه. فكما أنّ معرفة اطلاع الناس تثير شهوة ورغبةً في الرياء، فمعرفة آفة الرياء أيضاً تثير كراهة لهُ، تقابلُ تلك الشهوة، إذ يتفكّر في تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم. فالشهوة تدعوه إلى القبول، والكراهةُ تدعوهُ إلى الإباء، والنفسُ تطاوعُ لا محالة أقواهما وأغلبهما.

فإذن لا بدّ في ردِّ الرياء من ثلاثة أمور: المعرفة، والكراهة، والإباء. وقد يشرعُ العبدُ في العبادة بنية مخلصة ثم يرد خاطرُ الرياء فيقبَلُهُ، ولا تحضرهُ المعرفة ولا الكراهة التي كان الضمير منطوياً عليها، وإنما سبب ذلك امتلاءُ القلب بخوف الذم وحبِّ الحمد، واستيلاء الحرص عليه، بحيث لا يبقى في القلب متّسعٌ لغيره، فتعزبُ المعرفة ـ أي تغيب ـ السابقة بآفات الرياء وشؤم عاقبته عن القلب، إذ لم يبق موضع في القلب خالٍ عن شهوة الحمد أو خوف الذم، وهو كالذي يحدِّث نفسهُ بالحلم وذمِّ الغضب ويعزمُ على التحلم عند وقوع أسباب الغضب، ثم يحدث من الأسباب ما يشتدُّ به غضبُه فينسى سابقَ عزمه، ويمتلىء قلبُه غيظاً، فيمنعُ ذلك من تذكّر آفة الغضب

ويشغل القلب عنه. وكذلك حلاوة الشهوة، تملأُ القلبَ وتدفعُ نور المعرفةِ تماماً كمرارة الغضب؛ وإليه أشار جابر بقوله: «بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على أن لا نفرّ، ولم نبايعه على الموت، فأُنسيناها يوم حُنين حتى نُودي يا أصحابَ الشجرة، فرجعنا»[(١)] وذلك لأن القلوب امتلأت بالخوف فنسيت العهد السابق حتى ذُكّروا، وأكثرُ الشهوات التي تهجمُ فجأة هكذا تكون، إذ تُنسى معرفة مضرتها التي تصيب عقد الإيمان، وكلما نسيت المعرفة لم تظهر الكراهة، فإن الكراهة ـ للآفات ومضارها ـ ثمرة المعرفة. وقد يتذكّر فيعلمُ أنّ الذي خطرَ له هو خاطر الرياء الذي يعرّضه لسخط الله، ولكن يستمرُّ عليه لشدة شهوته فيغلبُ هواه عقلَهُ ولا يقدرُ على ترك لذّةِ الحال، فيسوِّفُ بالتوبة أو يتشاغل عن التفكّر في ذلك لشدة الشهوة. وكم من عالمٍ يحضرُه كلامٌ ـ أي يرغبُ بكلام ـ لا يدعوه إلى ذكره إلاّ رياءُ الخلقِ وهو يعلمُ ذلك، ولكنه يستمرُّ علَيه، فتكون عليه الحجة أوكَد، إذ قبِلَ داعي الرياء مع علمهِ بغائلته[(٢)] وكونهِ مذموماً عند الله، ولا تنفعهُ معرفته، إذ خلتِ المعرفةُ من الكراهة. وقد تحضرُ المعرفةُ والكراهةُ ولكن مع ذلك يقبلُ داعي الرياء ويعملُ به، لكون الكراهة ضعيفة بالإضافةِ إلى قوّةِ الشهوة؛ وهذا أيضاً لا يُنتفع بكراهته، إذ الغرضُ من الكراهة أن تصرِفَ عن الفعل.

فإذن لا فائدة إلاّ في اجتماع الثلاث، وهي المعرفة والكراهة والإباء. فالإباء ثمرةُ الكراهة، والكراهةُ ثمرةُ المعرفة، وقوة المعرفةِ بحسبِ قوة الإيمان ونور العلم، وضعفُ المعرفةِ بحسبِ الغفلة،

---

(١) أخرجه النسائي ج ٧ ص ١٤٠ دون قوله: «فأُنسيناه يوم حنين الخ» فرواه مُسلم ج ٥ ص ١٦٧.

(٢) الغائلة: الشرّ.

وحبِّ الدنيا، ونسيانِ الآخرةِ، وقلّة التفكّر فيما عند الله، وقلّةِ التأمّل في آفات الحياة الدنيا، وفي عظيم نعيم الآخرة؛ وبعضُ ذلكَ يُنتجُ بعضاً ويثمرُهُ، وأصل ذلكَ كلّه حبُّ الدنيا وغلبةُ الشهوة، وهو رأس كلِّ خطيئة ومنبع كلِّ ذنب، لأن حلاوةَ حبِّ الجاه والمنزلة ونعيم الدنيا هي التي تغمرُ القلبَ وتُميلهُ، وتَحولُ بينه وبين التفكّر في العاقبة، وبين الاستضاءةِ بنور الكتاب والسنة وأنوار العلوم.

وقد يسأل السائلُ أنّ من صادفَ من نفسِه كراهةَ الرياء، وحملته الكراهةُ على الإباء، ولكنه مع ذلكَ غير خالٍ عن ميل الطبعِ إليه ـ أي للرياء ـ وحبّه له ومنازعتِه إياه، إلاّ أنه كاره لحبّه ولميلهِ إليه، وهو غير محبب إليه، فهل يكون في زمرة المرائين؟

والجواب: إعلم أنّ الله تعالى لم يكلّف العبدَ إلاّ ما يُطيق، وليسَ في طاقة العبدِ منعُ الشيطانِ عن نزغاته(١)، ولا قمعُ الطمعِ حتى لا يميل إلى الشهوات ولا ينزعَ إليها، وإنما غايته ـ أي أقصى ما يمكن للعبدِ فعلُه ـ أن يقابلَ شهوتَهُ بكراهةِ استثارها من معرفةِ العواقب، وعلمِ الدين، وأصولِ الإيمان بالله واليوم الآخر. فإذا فعلَ ذلك فهو الغايةُ في أداء ما كُلِّفَ به. ويدلُّ على ذلكَ من الأخبار، ما روي أن أصحاب رسول الله ﷺ شكوا إليه وقالوا: تعرِضُ لقلوبنا أشياءُ، لأَن نخرَّ من السماء فتخطفنا الطيرُ أو تهوي بنا الريح في مكانٍ سحيق أحبُّ إلينا من أن نتكلم بها، فقال: أو قد وجدتموها؟ قالوا: نعم، قال: ذلك صريحُ الإيمانِ(٢). سألهم: هل تجدون هذه الأمور

(١) النزغ: الإفساد والحث على المعصية.

(٢) أخرجه مسلم ج ١ ص ٨٣ مختصراً من حديث ابن مسعود، ورواه أحمد ج ٦ ص ١٠٦ أيضاً من حديث عائشة، ورواه أبو يعلى البزاز ورجاله ثقات، كما في مجمع الزوائد ج ١ ص ٣٤ و ٣٥.

والحالات في أنفسكم، فلما أجابوه بالإيجاب اعتبر وجودها علامةً على وجود الإيمان الخالص؛ ولم يجدوا هم إلاّ الوسواس والكراهةَ له. ولا يمكنُ أن يقال: أراد بصريح الإيمان الوسوسة، فلم يتبق إلاّ حمل الحديث على الكراهةِ المساوقة للوسوسة، أي أن كراهتهم لوجود الوسوسة هو العلامة على وجود الإيمان الخالص. فالرياء وإن كان عظيماً، فهو دون الوسوسة في حقِّ الله تعالى، فإذا اندفعَ ضررُ الأعظمِ بالكراهة فاندفاع ضرر الأصغر بها أولى. وكذلك يروى عن النبيﷺ في حديث ابن عباس أنه قال: «الحمد لله الذي ردَّ كيدَ الشيطان إلى الوسوسة»[1].

فإذن وسوسةُ الشيطان ومنازعة النفس لا تضركَ طالما رددت مرادهما بالإباء والكراهة. والخواطرُ التي هي العلومُ والتذكّرات والتخيّلات للأسباب المهيّجة للرياء، هي من الشيطان، والرغبةُ والميلُ بعدَ تلك الخواطر، هي من النفس، والكراهة من الإيمان ومن آثار العقل، إلاّ أن للشيطان ههنا مكيدة، وهي أنّه إذا عجز عن حملهِ على قبول الرياء، خَيَّلَ إليه ـ أي أوهمه ـ أنّ صلاحَ قلبِهِ في الاشتغال بمجادلةِ الشيطان ومطاولته ـ أي التطويل معه ـ في الرد والجدال حتى يسلبهُ ثواب الإخلاصِ وحضورَ القلب، لأن الاشتغال بمجادلةِ الشيطان ومدافعتِه، انصرافٌ عن سرِّ المناجاة مع الله عز وجل، فيوجبُ ذلك نقصاناً في منزلته عند الله.

والمتخلصون عن الرياء ـ أي الساعون في الخلاصِ منه ـ في دفعهم لخواطر الرياء على أربعِ مراتب:

---

(١) أخرجه أحمد ج ١ ص ٢٣٥ من حديث ابن عباس، وأيضاً أبو داود ج ٢ ص ٦٢٣ في حديث.

الأولى: أن يرُدّهُ - أي خاطر الرياء - على الشيطان فيكذّبهُ ولا يقتصر على ذلك بل يشتغلُ بمجادلته ويطيلُ الجدال معه، لظنّه أنّ ذلك أسلمُ للقلب. وهو بحسب الصواب نقصانٌ، لأنه اشتغل عن مناجاة الله وعن الخير الذي هو بصدده، وانصرفَ إلى قتال قُطّاع الطريق، والتعريج على قتالِ قطّاع الطريق نقصانٌ في السلوك.

الثانية: أن يعرف أنّ القتالَ والجدال نقصانٌ في السلوك، فيقتصرَ على تكذيبه ودفعه، ولا يشتغلَ بمجادلته.

الثالثة: أن لا يشتغل بتكذيبه أيضاً، لأن ذلك وقفةٌ وإن قَلَّتْ، بل يكون قد قرّر في عقدِ ضميره كراهةَ الرياء وكذبَ الشيطان، فيستمر على ما كان عليه، مستصحباً للكراهة، غيرَ مشتغلٍ بالتكذيب ولا بالمخاصمة.

الرابعة: أن يكونَ قد علِمَ أنَّ الشيطان سيحسدهُ عند وقوع أسباب الرياء، فيكونُ قد عزمَ على أنه كلّما نزغَ الشيطان، زاد هو من إخلاصه، واشتغل بالله عز وجل، وأخفى الصدقة والعبادة إغاظة للشيطان؛ وذلك هو الذي يغيظ الشيطان ويقمعهُ ويوجبُ يأسَهُ وقنوطَهُ حتى لا يرجع..

وضرب الحارث المحاسبيُّ[1] لهذه الأربعة مثالاً أحسن فيه، فقال: مثالهم كأربعةٍ قصدوا مجلساً من العلم والحديث لينالوا منه فائدةً وهدايةً ورشداً، فحسدهُم على ذلك ضالٌّ مبتدع، وخافَ أن يعرفوا الحق، فتقدم إلى واحدٍ منهم فمنعه وصرفه عنه - أي عن

---

(١) هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبيّ صاحب كتاب «الرعاية لحقوق الله» وهذا الكتاب طبعَ بليدن، وهذا الكلام فيه ص ١٠٩، فليراجع.

المجلس ـ ودعاه إلى مجلس ضلال، فأبى، فلمّا عرفَ إباءه شغَلهُ بالمجادلةِ فاشتغلَ معهُ ليردَّ ضلالهُ وهو يظنُّ أنّ ذلكَ مصلحةٌ له، وهو ـ أي المجادلة ـ غرضُ الضالّ ليفوّتَ عليه بقدر تأخره.

فلمّا مرّ الثاني عليه، نهاهُ الضالّ واستوقفَهُ فوقف، فدفعَ في نحر الضال ـ أي أغاظه وأفشل ما أراده ـ ولم يشتغل بالقتال واستعجل، ففرِحَ منه الضال بقدر توقفه للدفعِ فيه.

ومرَّ به الثالث فلم يلتفت إليه ولم يشتغل بدفعه ولا بقتاله، بل استمرّ على ما كان، فخاب رجاءُ الضال منه بالكلية.

ومرّ الرابع فلم يتوقف له ـ أي للضال ـ فأراد أن يغيظهُ فزادَ في عجلتِه وترك التأنّي في المشي، فيُوشكُ إن عادوا ومرّوا عليه مرة أخرى أن يعاود الجميع إلاّ هذا الأخير (الرابع) فإنه لا يعاودهُ خيفةً من أن يزداد فائدة باستعجاله.

لكن إذا كانت نزغاتُ الشيطان لا تؤمن، فهل يجبُ الترصدُ لهُ قبل حضوره للحذر منه، انتظاراً لوروده، أم يجبُ التوكّلُ على الله ليكون هو الدافع له، أو يجبُ الاشتغال بالعبادة والغفلةِ عنه؟

والصحيحُ أن الناس قد اختلفوا في ذلك على ثلاثةِ أوجُه: فذهبت فرقة من أهل البصرة إلى أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر من الشيطان، لأنهم انقطعوا إلى الله واشتغلوا بحبّه، واعتزلهم الشيطان فآيس منهم وخنسَ[1] عنهم كما آيسَ من ضعفاء العباد في الدعوة إلى الخمرِ والزّنى، فصارت ملاذُّ الدنيا ـ وإن كانت مباحة ـ كالخمر والخنزير عندهم، ولمّا قد خلوا من حبّها بالكلّية، لم يبق للشيطان إليهم سبيل، فلا حاجةَ بهم إلى الحذر.

---

(١) خَنَسَ: تأخّر وانقبض وتخلّف جانباً.

وذهبت فرقة من أهل الشام إلى أن الترصُّدَ للحذر منه إنما يحتاجُ إليه من قلَّ يقينه ونقُصَ توكّله. فمن أيقن بأن لا شريك لله في تدبيره، فلا يحذرُ غيرهُ، ويعلمُ أنّ الشيطانَ ذليلٌ، مخلوقٌ ليس له أمر، ولا يكونُ إلاّ ما أراده الله تعالى، فهو الضارُّ والنافع، والعارفُ بالله يستحيي منه أن يحذرَ غيرهُ، فاليقين بالوحدانية يغنيه عن الحذر.

وقالت فرقة من أهل العلم: لا بدّ من الحذر من الشيطان، وما ذكره البصريون من أن الأقوياء قد استغنوا عن الحذر وخلَتْ قلوبهم من حبِّ الدنيا بالكلية ـ وهو وسيلة للشيطان ـ يكادُ يكونُ غروراً، إذ الأنبياء عليهم السلام لم يتخلّصوا من وساوس الشيطان ونزغاته[1] فكيف يتخلّصُ غيرهُم وليسَ كلُّ وسواس الشيطان من الشهوات وحبّ الدنيا، بل يقع في صفات الله وأسمائه، وفي تحسين البدع والضلال وغير ذلك، ولا ينجو أحدٌ من الخطر فيه، والقرآن من أوله إلى آخره تحذيرٌ من الشيطان، فكيف يُدَّعى الأمنُ منه، وأخذُ الحذرِ منه حيثُ أمرَ اللَّهُ تعالى به، لا يُنافي الاشتغالَ بحبِّ الله تعالى، فإنّ من الحبِّ له امتثالُ أمره، وقد أمرنا بالحذرِ من العدو كما أمرنا بالحذر من الكفّار، فقال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[3]. فإذا لزمِكَ بأمر اللَّهِ الحذرُ من العدو الكافر وأنت تراهُم، فإن يلزمكَ الحذر من عدو يراكَ ولا تراهُ أولى؛ ولذلك قيل: صيدٌ تراهُ ولا يراك يُوشكُ أن تظفرَ به، وصيدٌ يراك ولا تراه يوشك أن يظفر بك؛ وأشار إلى الشيطان. فكيف وليسَ في الغفلةِ من عداوة الكافر إلاّ قتلٌ هو

---

(١) لولا عصمهم الله سبحانه.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٢.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

شهادةٌ، وفي إهمال الحذر من الشيطانِ التعرّضُ للنار والعقاب الأليم؟! فليس من الاشتغال بالله الإعراضُ عمّا حذّر الله عنه، وبذلك يبطلُ مذهب الفرقة الثانية في ظنّهم أنّ ذلكَ قادحٌ في التوكّل، فإن أخذَ الترس والسلاح، وجمعَ الجنود وحفرَ الخندق لم يقدح في توكُّلِ رسول الله ﷺ، فكيف يقدحُ في التوكّل الخوفُ ممّا خوّف الله به، والحذرُ مما أمرَ بالحذرِ منهُ؛ وقد ذكرنا في كتاب التوكل ما يُبيّن غلطَ من ظنَّ أن معنى التوكل، النزوعُ عن الأسباب بالكلية. وقولهُ تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ لا يناقضُ امتثالُه التوكّل طالما اعتقد القلبُ أن الضارّ النافعَ والمحيي والمميت، هو الله، فكذلك يحذرُ الشيطانُ ويعتقدُ أن المضلَّ والهادي هو الله، ويرى الأسباب وسائط مسخّرةً، كما ذكرناه في كتاب التوكل؛ وهذا ما اختارهُ المحاسبي، وهو الصحيح الذي يشهدُ له نور العلم، وما قبلَهُ يشبهُ أن يكون من كلام العبّاد الذين لم يغزر علمهم، ويظنون أنّ ما يهجمُ عليهم من الأحوال في بعض الأوقات من الاستغراقِ بالله، يستمرُّ على الدوام ـ أي دائماً؛ وهو بعيد.

واختلفت هذه الفرقةُ على ثلاثةِ أوجهٍ في كيفية الحذر من الشيطان، فقال قوم: إذا حذّرنا الله تعالى العدوَّ فلا ينبغي أن يكون شيءٌ أغلبَ على قلوبنا من ذكره والحذر منه والترصّد له، فإنّا إن غفلنا عنه لحظة، يوشك أن يُهلكنا. وقال قوم: إنّ ذلك يؤدي إلى خلوّ القلب من ذكر الله واشتغال الهمِّ كلّه بالشيطان، وذلكَ مرادُ الشيطان منّا، بل نشتغلُ بذكر الله تعالى ولا ننسى الشيطانَ وعداوتَهُ والحاجةَ إلى الحذر منه، فنجمعُ بين الأمرين، فإنّا إن نسيناهُ ربما عرضَ من حيث لا نحتسب، وإن تفرغنا لذكره كنّا قد أهملنا ذكرَ الله تعالى، فالجمعُ أولى.

وقال العلماءُ المحققون: غلّطَ الفريقان. أما الأول، فقد تجرّد لذكر الشيطان ونسي ذكرَ الله تعالى فلا يخفى غلطُه، وإنما أُمرنا بالحذرِ من الشيطان كيلا يصدّنا عن الذكر، فكيف نجعلُ ذكرهُ أغلبَ الأشياء على قلوبنا وهو منتهى ضرر العدو؟! ثم يؤدي ذلك إلى خلوّ القلبِ عن نور ذكرِ الله تعالى، فإذا قصدَ الشيطانُ مثل هذا القلب، وليسَ فيه نور ذكر الله وقوةِ الاشتغال به، يوشكُ أن يظفر به ولا يُقوى على دفعه، فلم يأمرنا بانتظار الشيطان ولا بإدمان ذكره.

وأمّا الفرقة الثانية فقد شاركت الأولى إذ جمعتْ بين ذكر الله والشيطان، وبقدر ما يشتغلُ بذكر الشيطان، ينقص من ذكر الله، وقد أمرَ اللَّهُ الخلقَ بذكره ونسيان ما عداه ـ إبليس وغيره ـ فالحقُّ أن يُلزِمَ العبدُ قلبَهُ الحذرَ من الشيطان ويكتبَ على لوح نفسِهِ عداوتَهُ، فإذا اعتقد بذلك وصدّق به، وسكنَ الحذر فيه، فليشتغل بذكر الله وينكبَّ عليه بكل همته، ولا يخطرنَّ ببالِهِ أمرُ الشيطان، فإنه إذا اشتغل بذلك بعد معرفةِ عداوتِهِ ثم خطرَ الشيطان له، تنبّه لهُ، وعند التنبّه يشتغلُ بدفعهِ، والاشتغالُ بذكر الله لا يمنعُ من التيقّظ عندَ نزغةِ الشيطان، بل الرجل ينامُ وهو خائف على أن يفوتهُ مهمٌّ عند طلوعِ الصبح، فيُلزِمُ نفسهُ الحذرَ، وينامُ على أن يتنبّه في ذلك الوقت، فينتبهُ في الليل مراتٍ قبل أَوانهِ، لما اختفى في قلبه من الحذر، مع أنه بالنوم غافلٌ عنه، فاشتغالهُ بذكرِ الله كيف يمنعُ تنبهه؟! ومثل هذا القلب هو الذي يقوى على دفعِ العدو، وإذا كان اشتغالُهُ بمجرّدِ ذكر الله تعالى قد أمات منه الهوى وأحيى فيه نور العقل والعلم، وأماطَ عنه ظُلمة الشهوات، فأهلُ البصيرة أشعروا قلوبهم عداوة الشيطان وترصّدهُ، وألزموها الحذر ثم لم يشتغلوا بذكره ـ أي العدو ـ بل بذكر الله، ودفعوا بالذكرِ شر العدو، واستضاؤوا بنور الذكر حتى أبصروا خواطر العدوّ.

فمثال القلبِ مثالُ بئرٍ أريد تطهيرها من الماء القذر ليتفجّر منها الماء الصافي، فالمشتغل بذكر الشيطان قد ترك فيها الماء القذر، والذي جمعَ بين ذكر الشيطان وبين ذكر الله، قد نزح الماء القذر من جانب ولكنه تركه جارياً إليها من جانبٍ آخر، فيطولُ تعبُهُ ولا تجفُّ البئر من الماء القذر، والبصيرُ هو الذي جعل لمجرى الماء القذر سدّاً، وملأها بالماء الصافي، فإذا جاء الماء القذر دفعهُ بالتسكير والسدِّ من غير كلفةٍ ومؤونة وزيادة تعب.

١٠ ـ الرخصةُ في إظهار الطاعات

إعلم أنَّ في الإسرار للأعمال ـ أي في إخفائها ـ فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء، وفي الإظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس في الخير، ولكنّ فيه آفة الرياء. قال بعضُ السلف: قد علمَ المسلمونَ أنّ السرَّ أحرزُ العملين ولكنَّ في الإظهار أيضاً فائدة، ولذلك أثنى الله تعالى على السرّ والعلانية، فقال: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾[1]. والإظهار قسمان: أحدهما، في نفس العمل، والآخر في التحدث بما عمل.

١٠ : أ ـ الإظهار في نفس العمل

إظهارُ نفسِ العمل كالصدقةِ في الملأ لترغيب الناس فيها، كما روي عن الأنصاري الذي جاءَ بالصرّة فتتابع الناسُ بالعطية لما رأوه، فقال النبيﷺ: «من سنَّ سنةً حسنة فعُمل بها، كان له أجرها وأجر من اتبعه»[2]، ثم تجري سائر الأعمال هذا المجرى، من الصلاة والصيام والحجِّ والغزو وغيره، ولكنّ الاقتداء على الطباع في الصدقةِ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧١.
(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٦١ من حديث جرير بن عبد اللّه.

أغلب. نعم، الغازي إذا همَّ بالخروج فاستعدَّ وشدَّ الرحل قبلَ القومِ تحريضاً لهم على الحركة فذلك أفضلُ له، لأنّ الغزو في أصله من أعمال العلانية لا يمكنُ إسرارهُ، فالمبادرة إليه ليست من الإعلان بل هي تحريضٌ مجرّد، وكذلك قد يرفعُ الرجل صوتهُ في صلاة الليل لينبّه جيرانه وأهله فيُقتدى به. فكلُّ عمل لا يمكن إسرارهُ كالحج والجهاد والجمعة فالأفضل المبادرة إليه وإظهار الرغبة فيه للتحريض، بشرط أن لا تكون فيه شوائب الرياء. وأمّا ما يمكنُ إسرارهُ كالصدقة والصلاة، فإن كان إظهار الصدقة يؤذي المتصدَّقَ عليه ويرغّب الناس في الصدقة، فالسرُّ أفضل لأنّ الإيذاء حرام، فإن لم يكن فيه إيذاء فقد اختلفَ الناس في الأفضل - أي اختلفوا هل أن الإسرار أم الإخفاء أفضل - فقال قوم: السرُّ أفضلُ من العلانية وإن كان في العلانية قدوة. وقال قوم: السرُّ أفضلُ من علانيةٍ لا قدوة فيها.

أمّا العلانيةُ للقدوة - أي لاقتداء الآخرين بالعمل - فهي أفضلُ من السرّ، ويدلُّ على ذلك أنّ الله تعالى أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء، وخصّهم بمنصب النبوة، ولا يجوز أن يُظَنَّ بهم أنهم حُرموا أفضل العملين. ويدلُّ عليه قوله ﷺ: «أجرها وأجرُ من عملَ بها» وقد روي في بعضِ الحديث: «إنّ عمل السرّ يضاعف على عمل العلانية بسبعين ضعفاً، ويضاعفُ عمل العلانية إذا استُنَّ بعامله على عمل السرّ سبعين ضعفاً»(١) وهذا لا وجه للخلافِ فيه، فإنّه كُلَّما انفكَّ

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء مقتصراً على الشطر الأول بنحوه، وقال: هذا من افراد بقية عن شيوخه المجهولين، وقد تقدم، وله من حديث ابن عمر «عملُ السر أفضلُ من عملِ العلانية، والعلانية أفضلُ لمن أراد الاقتداء» وقال: قد تفرّد به بقية عن عبد الملكِ بن مهران. وله من حديث عائشة «يفضلُ أو يضاعفُ الذكر الخفيّ الذي لا يسمعهُ الحفظةُ على الذي تسمعهُ بسبعين ضعفاً» وقال: تفرّد به معاوية بن يحيى الصدفي، وهو ضعيف (المغني).

القلبُ عن شوائب الرياء وتمَّ الإخلاصُ على وجهٍ واحد في الحالتين، فما يُقتدى به أفضلُ لا محالة، وإنما يُخافُ من ظهور الرياء، وكلّما حصلت شائبةُ الرياء لم ينفعهُ اقتداءُ غيره، وهلكَ به، فلا خلافَ في أنّ السرّ أفضلُ منه.

ولكن على من يُظهر العمل وظيفتان: إحداهما، أن يُظهره حيث يعلمُ أنه يقتدى به، أو يظنُّ ذلك ظنًّا، وربَّ رجلٍ يقتدي به أهلهُ دون جيرانه، وربما يقتدي به جيرانُه دون أهل السوق، وربما يقتدي به أهل محلّته، وإنما العالِمُ المعروفُ هو الذي يقتدي به الناسُ كافة، فغيرُ العالمِ إذا أظهر بعض الطاعات ربّما نُسِبَ إلى الرياء والنفاقِ وذمّوه ولم يقتدوا به، فليسَ له الإظهار من غير فائدة، فإنما يصحُّ الإظهار بنية القدوة ممّن هو في محل القدوة على من هو في محلّ الاقتداء به.

والثانية، أن يُراقبَ قلبَهُ، فإنه ربما يكونُ فيه حبُّ الرياء الخفي، فيدعوهُ إلى الإظهار بعذر الاقتداء، وإنّما شهوة النفسِ التجمّلُ بالعملِ وبكونه مقتدًى به، وهذه حالُ كلٍّ من يُظهر أعمالهُ إلاّ الأقوياءَ المخلصين، وقليلٌ ما هم، فلا ينبغي أن يخدعَ الضعيفُ نفسَهُ بذلك، فيهلكَ وهو لا يشعرُ، فإنّ الضعيفَ مثالُهُ مثال الغريق الذي يُحسنُ سباحةً ضعيفة، فنظر إلى جماعة من الغرقى فرحمهم فأقبلَ عليهم حتى تشبّثوا به فهلكوا وهلك؛ والغرقُ بالماء في الدنيا ألمهُ ساعة، وليت كان الهلاكُ بالرياء مثله، لا بل عذابُهُ مدّةٌ مديدة. وهذه مزلّةُ أقدامِ العُبّاد والعلماء، فإنهم يتشبّهونَ بالأقوياء في الإظهار، ولا تقوى قلوبهم على الإخلاص فتحبط أجورهم بالرياء، والتفطّنُ لذلك غامضٌ، ومحكُّ ذلك أن يعرض على نفسِهِ أنه لو قيل له: إَخفِ العملَ حتى يقتدي الناسُ بعابدٍ آخر من أقرانك، ويكونَ لك في السر مثل أجر الإعلان، فإن مال قلبُه إلى أن يكونَ هو المقتدى به وهو

المُظهِرُ للعمل، فباعثُه الرياء دون طلبِ الأجر واقتداءِ الناسِ به ورغبتهم في الخير، فإنهم قد رغبوا في الخيرِ بالنظرِ إلى غيرهِ، وأجرُهُ قد توفَّرَ عليه مع إسراره، فما بال قلبه يميل إلى الإظهار، لولا ملاحظته لأعين الخلقِ ومراءاتهم؟! فليحذر العبدُ خدعَ النفس، فإنّ النفسَ خدوعة والشيطانُ مترصّد وحبُّ الجاه على القلب غالب، وقلّما تسلمُ الأعمال الظاهرةُ عن الآفات، فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئاً ـ أي لا ينبغي أن يساوي بها شيئاً ـ والسلامةُ في الإخفاء، وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالُنا، فالحذرُ من الإظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء.

١٠ : ب ـ الإظهار في التحدث بما عمل

وهو أن يتَحدث بما فعلَهُ بعد الفراغ، وحكمُه حكمُ إظهار العمل نفسِه، والخطر في هذا أشدّ، لأنّ مؤونة النطق خفيفة على اللسان، وقد تجري في الحكاية زيادةٌ ومبالغة. وللنفسِ لذّةٌ عظيمة في التظاهر، إلاّ أنّه لو تطرّق إليه الرياء ثم أثّر في إفساد العبادة الماضية بعدَ الفراغِ منها، فهو من هذا الوجهِ أهون.

فالحكمُ فيه أنَّ من قويَ قلبُه وتمَّ إخلاصُه، وصغُرَ الناس في عينه، واستوى عنده مدحهم وذمهم، وذكر ذلك ـ أي العمل ـ عند من يرجو الاقتداء به والرغبةَ في الخير بسببه، فهو جائز بل مستحبٌّ إن صَفت النية وسلمت من جميع الآفات، لأنه ترغيبٌ في الخير، والترغيبُ في الخير خيرٌ، وقد نُقلَ مثلُ ذلك عن جماعةٍ من السلفِ الأقوياء. فلا ينبغي أن يُسدَّ باب إظهار الأعمال، والطباعُ مجبولةٌ على التشبّه والاقتداء، بل إظهار المرائي للعبادة إذا لم يعلم الناسُ أنه رياءٌ، فيه خير كثيرٌ للناس، ولكنه شرٌّ للمرائي. فكم من مخلصٍ كان سببُ إخلاصه الاقتداء بمن هو مراءٍ عند الله تعالى. وقد روي أنه كان

الإنسانُ يجتاز في سكك البصرة عند الصبح فيسمعُ أصوات المصلّين بالقرآن من البيوت، فصنّفَ بعضهم كتاباً في دقائق الرياء، فتركوا ذلك، وتركَ الناسُ الرغبةَ فيه، وكانوا يقولون: ليت ذلك الكتاب لم يصنّف. فإظهار المرائي فيه خيرٌ كثيرٌ لغيره إذا لم يعرف رياؤه، وإنّ الله يؤيّد هذا الدين بالرجل الفاجر، وبأقوامٍ لا خلاق لهم، كما ورد في الأخبار(١) وبعض المرائين ممن يُقتدى به منهم.

١١ ـ الرخصة في كتمان الذنوب

إعلم أنّ الأصل في الإخلاص استواءُ السريرة والعلانية، كما قال بعضُهم: عليكَ بعمل العلانية، قيل: وما عمل العلانية؟ قال: ما إذا اطُّلِعَ عليك لم تستحِ منه. وقال آخر: ما عملتُ عملاً أبالي أن يطّلع الناسُ عليه إلاّ إتيَاني أهلي (الجماع) والبول والغائط. إلاّ أنّ هذه درجة عظيمة لا ينالها كلُّ أحد، ولا يخلو الإنسان عن ذنوبٍ بقلبه أو بجوارحه وهو يخفيها ويكرهُ اطلاع الناسِ عليها، لا سيما ما تختلج به الخواطر من الشهوات والأماني، والله مطّلع على كل ذلك.

فإرادة العبد لإخفائه عن العبيد، ربما يُظنُّ أنه رياء محظور، وليس كذلك، بل المحظور أن يسترَ ذلكَ ليرى الناسُ أنّه ورعٌ، وأنه خائف من الله، مع أنه في الواقع ليس كذلك؛ فهذا هو سترُ المرائي.

أمّا الصادقُ الذي لا يرائي فيجوز له سترُ المعاصي، ويصحُّ قصدهُ فيه، أي تصحُّ نيته في ذلك ـ ويصحُّ اغتمامه باطلاع الناس على معاصيه، من ثمانية أوجه:

---

(١) أخرجه البخاري ج ٨ ص ١٥٥، وأبو عوانة ج ١ ص ٤٦ من مسنده، وأحمد في مسنده ج ٢ ص ٣٠٩، والدارمي ج ٢ ص ٢٤٠.

الأول: أن يفرحَ بسترِ الله عليه، وإذا افتَضح اغتمَّ بهتك الله سترهُ، وخاف أن يُهتك سترهُ في القيامة، إذ ورد في الخبر «أنّ من سترَ اللَّهُ عليه في الدنيا ذنباً، سترَ عليه في الآخرة»[1]؛ وهذا غمٌّ ينشأُ من قوة الإيمان.

الثاني: إنه قد علمَ أنّ الله تعالى يكرهُ ظهور المعاصي ويحبُّ سترها، كما قالﷺ: «من ارتكبَ شيئاً من هذه القاذورات فليستره بستر الله تعالى»[2]، فهو وإن عصى الله بالذنب، لم يخلُ قلبُه من محبّة ما أحبّه الله، وهذا ينشأ من قوة الإيمان لكراهة الله لظهور المعاصي؛ وأثرُ الصدقِ فيه أن يكرهَ ظهور الذنب من غيره أيضاً ويغتمَّ بسببه.

الثالث: أن يكرهَ ذمَّ الناسِ له بسبب معاصيه، من جهة أن ذلك يغمُّهُ، ويشتغلُ قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى، فإن الطبعَ يتأذى بالذمّ، وينازعُ العقلَ، ويشتغلُ هو عن الطاعة. وبهذه العلة ينبغي أيضاً أن يكرهَ الحمدَ الذي يشغله عن الله تعالى ويستغرق قلبهُ ويصرفهُ عن الذكر؛ وهذا أيضاً من قوة الإيمان، إذ صدقُ الرغبةِ في فراغ القلب لأجل الطاعة، هو من الإيمان.

الرابع: أن يكونَ سترهُ، ورغبته في الستر، لكراهتِهِ لذمِّ الناس، من جهة أنّ طبعهُ يتأذى بالذمّ، فهو مؤلم للقلب كما أنّ الضربَ مؤلم للبدن. وتألّمُ القلب بالذنب ليس بحرام، ولا الإنسان به عاصٍ، وإنما يعصي إذا جزعت نفسُهُ من ذم الناس ودعتهُ إلى ما لا يجوز حذراً من

---

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢١، وقد تقدّم.

(٢) أخرجه الحاكم بلفظٍ آخر في المستدرك ج ٤ ص ٢٤٤، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ذمّهم. وليس يجب على الإنسان أنْ لا يغتمّ بذمِّ الخلق ولا يتألم به. نعم، كمال الصدق في أن تزول عنه رؤيته للخلق، فيستوي عنده ذامُّه ومادحُه، لعلمه أن الضارّ والنافع هو الله وأنّ العباد كلّهم عاجزون؛ وهؤلاء قليلون جداً.

وأكثر الطباع تتألم بالذمّ لما فيه من الشعور بالنقصان، وربَّ تألم بالذمِّ محمود إذا كان الذامُّ من أهل البصيرة في الدين، فإنهم شهداءُ اللهِ، وذمُّهم يدلُّ على ذمِّ الله تعالى، وعلى نقصانٍ في الدين، فكيفَ لا يُغتمُّ به! نعم، الغمُّ المذموم هو أنْ يغتمَّ لفوات الحمد بالتورّع ـ أي حمد الناس له بالورع ـ، كأنه يُحبُّ أن يُحمدَ بالورع، ولا يجوز أن يُحبَّ أن يحمدَ بطاعة الله فيكون قد طلب بطاعة الله ثواباً من غيره، فإن وجدَ ذلك في نفسِه وجبَ عليه أن يقابلهُ بالكراهةِ والرد. وأمّا كراهةُ الذم بالمعصية من جهة الطبع فليس بمذموم، فله التستر حذراً من ذلك ويُتصوّرُ أن يكون العبد بحيث لا يحبُ الحمدَ ولا يكرهُ الذمّ، وإنما مرادهُ أن يتركهُ الناس حمداً وذمّاً، فكم من صابرٍ عن لذة الحمد لايصبر على ألم الذم، إذ الحمدُ لا يؤلمُ على كل حال وأمّا الذم فإنه مؤلم. فحبُّ الحمد على الطاعات طلبُ ثواب الطاعةِ في الحال، وأمّا كراهةُ الذم على المعصية فلا محذور فيه إلاّ أمر واحد، وهو أن يشغله غمُّهُ باطلاع الخلق على ذنبه عن اطلاع الله، فإن ذلك غاية النقصان في الدين، بل ينبغي أن يكون غمه باطلاع الله وذمّه له أكثر. وقد يكرهُ الذمّ من جهة أن الذامّ قد عصى الله تعالى به، وهذا من الإيمان. وعلامته أن يكره ذمَّ الذامِّ لغيره أيضاً، وليس له فقط، فهذا التوجّعُ لا يفرّقُ بينه وبين غيره بخلاف التوجع من جهة الطبع.

الخامس: أن يسترَ ذلك كيلا يُقصد بشرٍّ إذا عرفَ ذنبَهُ، وهذا

غير ألم الذمّ، فإن الذم مؤلم من حيث يشعرُ القلبُ بنقصانه وخسّته، وإن كان ممن يؤمَنُ شرّهُ، وقد يخافُ شرَّ من يطلعُ على ذنبه بسبب من الأسباب، فله أن يستر ذلك حذراً منه.

السادس: مجرّدُ الحياء، فإنه نوع ألمِ غير ألمِ الذمِّ والقصدِ بالشرّ. والحياءُ خلُقٌ كريمٌ يحدث في أول الصِّبا بقدرِ ما يُشرق عليه نور العقل، فيستحي من القبائح إذا شوهدت منه، وهو وصف محمود، إذ قال رسول الله ﷺ: «الحياءُ خير كلّه»[1]، وقال: «الحياءُ شعبةٌ من الإيمان»[2]، وقال: «الحياءُ لا يأتي إلاّ بالخير»[3]، وقال: «إنّ الله يحبُّ الحييَّ الحليم»[4]. فالذي يفسقُ ولا يبالي بأن يُظهر فسقَهُ للناس، قد جمع إلى الفسقِ التهتكَ والوقاحةَ وفقدَ الحياء، فهو أشدّ حالاً ممن يفسقُ فيسترهُ ـ أي فسقه ـ ويستحي، إلاّ أن الحياء ممتزجٌ بالرياء يُشتبهُ به اشتباهاً عظيماً، وقلَّ من يتفطّن له، ويدّعي كل مراءٍ أنه مستحي وأن سبب تحسينه للعبادات هو الحياء من الناس، وذلك كذبٌ، بل الحياءُ خُلقٌ ينبعثُ من الطبع الكريم ويهيجُ من بعده داعية الرياء وداعية الإخلاص، ويتصوّر أن يُخلَصَ معهُ ويتصوّرُ أن يرائي معه.

وبيانُهُ أن الرجل يطلبُ من صديقه قرضاً ونفسهُ لا تسخو (من السخاء) بإقراضه، إلاّ أنه يستحي من ردّه، ويعلمُ أنه لو راسلَهُ على لسان غيره لكان لا يستحي ـ أي لو طلب صديقه القرض بواسطة

---

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ٤٧ من حديث عمران بن حُصين.

(٢) أخرجه البخاري ج ١ ص ٩ من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه مسلم ج ١ ص ٤٦ من حديث عمران بن حصين، والبخاري ج ٨ ص ٣٥ من حديث عمران أيضاً.

(٤) قال العراقي: أخرجهُ الطبراني من حديث فاطمة ؏.

شخصٍ آخر لما استحيى هو من رده ـ ولا يقرضُ، لا رياءً ولا لطلب ثواب، فله عند ذلك أحوال:

أحدها، أن يشافه ـ أي يتلفظ ـ بالردِّ الصريح ولا يبالي، فينسب إلى قلّة الحياء، وهذا فعل من لا حياء له، فإن المستحي إمّا أن يتعلّل أو يُقرض. فإن أعطى، يُتصوّرُ له ثلاثةُ أحوال:

أحدها، أن يمزجَ الرياء بالحياء، بأن يهيجَ الحياءَ فيقبُح عنده الرد ـ ردُّ طالب القرض ـ ويهيج أيضاً خاطرُ الرياء فيقول في نفسه: ينبغي أن تعطي حتى يثنيَ عليك ويحمدَك وينشرَ اسمكَ بالسخاء، أو ينبغي أن تُعطي حتى لا يذمّك ولا ينسبكَ إلى البخل، فإذا أعطى لهذا الداعي فقد أعطى رياءً، وكان المحركُ للرياء هو هيجان الحياء.

الثاني، أن يتعذّر عليه الرد بالحياء، ويبقى في نفسِهِ البخلُ فيتعذّرُ الإعطاء، ويهيج باعث الإخلاص فيقول له: إن الصدقة بواحدة، والقرض بثمانية عشر، ففيه أجرٌ عظيم، وإدخالُ السرور على قلبِ صديقٍ، وذلك محمودٌ عند الله، فتسخو النفسُ بالإعطاء لذلك؛ فهذا مخلصٌ يهيجُ الحياءُ في نفسه بالإخلاص الموجود فيها.

الثالث، أن لا يكون له رغبة في الثواب، ولا خوفٌ من مذمّته، ولا حبٌّ لمحمدته، لأنه لو طلبه مراسلةً لكان لا يعطيه، فأعطاه لمحض الرياء، وهو ما يجدهُ في قلبِهِ من ألم الحياء، ولولا الحياء لردّه، ولو جاءه من لا يستحي منه من الأجانب ـ الذين لا رابطة بينه وبينهم ـ أو الأراذل لكانَ يردّهُ وإن كثرَ الحمدُ والثواب فيه. فهذا مجرد الحياء، ولا يكون هذا إلاّ في القبائح، كالبخل ومقارفةِ الذنوب، والمرائي يستحي من المباحات أيضاً، حتى أنه يُرى مستعجلاً في المشي فيعود إلى الهدوّ ـ أي الهدوء في المشي ـ أو

ضاحكاً فيرجعُ إلى الانقباض، ويزعمُ أنّ ذلك حياء، وهو عين الرياء. وقد قيل: إنّ بعض الحياء ضعفٌ، وهو صحيح، والمرادُ به هو الحياءُ مما ليس بقبيح، كالحياءِ من وعظِ الناس وإمامة الصلاة، وهو في الصبيان والنساءِ محمود، وفي العقلاءِ غير محمودٍ، فقد يُشاهد معصيةً من شيخٍ، فيستحي من شيبته أن ينكر عليه لأنّ «من إجلالِ الله إجلالُ ذي الشيبة المسلم»، وهذا الحياءُ حسنٌ، وأحسنُ منه أن يستحي من الله فلا يضيّع الأمر بالمعروف، والقويُّ يؤثرُ الحياءَ من الله على الحياءِ من الناس، والضعيفُ قد لا يقدرُ عليه؛ فهذه هي الأسباب التي يجوز لأجلها سترُ القبائح والذنوب.

السابع: أن يخافَ من إظهار ذنبه سقوط خوف النفس من المعاصي، وازدياد جرأتها عليها، فإنّ النفس متى ما ألفت الذنوب، زاد إنهماكها، واسترسلت في شهواتها.

الثامن: أن يخافَ من ظهور ذنبه، أن يتجرأ غيره على فعله ويقتدي به، وهذه هي العلّة الواحدة - أي الوحيدة - الجارية في - أي التي يصحُّ بسببها - إظهار الطاعة، وهي علة الاقتداء. ويختص ذلك بالأئمة أو بمن يُقتدى به. وبهذه العلة ينبغي أن يخفي العاصي أيضاً معصيته عن أهله وولده، لأنّهم يتعلمون منه.

ففي ستر الذنوب هذه الأعذار الثمانية، وليسَ في إظهار الطاعة عذرٌ إلاّ هذا العذرُ الواحد، وكلّما قصد بستر المعصية أن يوهم الناس أنه ورعٌ، كان مرائياً، تماماً كما لو قصدَ ذلك بإظهار الطاعة.

وقد يسألُ سائلٌ أنه هل يجوزُ للعبد أن يحبَّ حمدَ الناسِ له بالصلاح، وأن يحبَّ حبَّهُم إياه بسبب صلاحه، إذ قال رجل للنبيﷺ: «دلّني على ما يحبّني الله عليه، ويحبّني الناس، قال: «إزهد

في الدنيا يحبك الله وانبذ[1] إليهم هذا الحطام يحبّوك»[2]؟

والجواب أنَّ حبك لحب الناس لك قد يكون مباحاً، وقد يكونُ محموداً، وقد يكون مذموماً. فالمحمود أن تحب ذلك لتعرف به حبَّ الله لك، فإنه تعالى إذا أحبَّ عبداً حبّبه في قلوب عباده. والمذموم أن تحبَّ حبَّهم وحمدهم على حجّك وغزوكَ وصلاتك وعلى طاعةٍ بعينها، فإنّ ذلك طلبُ عوضٍ على طاعة الله عاجلاً، ليس هو ثوابَهُ تعالى. والمباح أن تحبَّ أن يحبّوك لصفاتٍ محمودة غير الطاعات المحمودة المعيّنة، فحبُّكَ ذلك كحبِّك المال، لأنّ ملكَ القلوب وسيلة إلى الأغراض والمقاصد كملك الأموال، فلا فرق بينهما.

١٢ ـ تركُ الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات

إعلم أنّ من الناس من يتركُ العمل خوفاً من أن يكون مرائياً به، وذلك غلطٌ وموافقةٌ للشيطان، بل الحقُّ فيما يُتركُ من الأعمال وما لا يترك خوفاً من الآفات هو ما سنذكره:

إنّ الطاعات تنقسم إلى ما لا لذةَ في عينها، كالصلاة والصوم والحج والغزو، فإنها مقاساة ومجاهدات، وتصيرُ لذيذة من حيث إنّها توصلُ إلى حمدِ الناس، وحمدُ الناس هو اللذيذ إذا ما اطلعوا عليه. وإلى ما هو لذيذ وهو أكثرُ ما لا يقتصرُ على البدن، بل يتعلّق بالخَلق، كالخلافة والقضاء والولايات والحسبةِ وإمامةِ الصلاة والتذكير

---

(١) أنبذ: اطرح الشيء وأرمِ به لقلة الاعتداد به.

(٢) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٤١٠٢ من حديث سهل بن سعد، وفي إسناده خالد بن عمرو. اتفقوا على ضعفه، واتُّهِمَ بالوضع، إلاّ أن النووي قال: رواه ابن ماجة وغيره بأسانيد حسنة.

والتدريسِ وإنفاقِ المال على الخلقِ وغير ذلك مما تعظمُ الآفةُ فيه، لتعلّقِه بالخلق ولما فيه من اللذة.

١٢: أ ـ الطاعات التي لا لذة في عينها

خطرات الرياء فيها ثلاث:

إحداها، ما يدخل قبل العمل فيبعثُ على الابتداء بها لرؤية الناس، وليس معه باعثُ الدين ـ أي لا دافع دينياً لها ـ، فهذا مما ينبغي أن يُترك لأنه معصية لا طاعة فيه، فإنه تذرّع[1] بصورة الطاعة إلى طلب المنزلة. فإن قدر الإنسانُ على أن يدفعَ عن نفسِهِ باعث الرياء ويدعو النفس للسخاء بالعمل لله، ويقول لها: ألا تستحين من مولاكِ، لا تسخينَ بالعمل لأجله، وتسخين لأجل عباده! كي يندفعَ باعث الرياء وتسخو النفس بالعمل لله تعالى، عقوبةً للنفس على خاطر الرياء وكفّارةً عليه، ليشتغل بالعمل.

الثانية، أن ينبعث لأجل الله، ولكن يعترضُ الرياءَ مع العزم على العبادة وأوّلها، فلا ينبغي أن يتركَ العمل لأنه وجد باعثاً دينياً، فليشرع بالعمل وليجاهد نفسَهُ في دفع الرياء وتحصيل الإخلاص بالمعالجة التي ذكرناها، من إلزامِ النفسِ كراهة الرياء، والإباءِ عن القبول.

الثالثة، أن يعزم على العمل مخلصاً ثم يطرأ الرياءُ ودواعيه. فينبغي أن يجاهد في الدفع، ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقدِ الإخلاص ويردَّ نفسَهُ قهراً إليه، حتى يتمَّ العمل، لأن الشيطان يدعوك أولاً إلى ترك العمل، فإذا لم تجبهُ واشتغلت به، دعاك إلى الرياء،

---

(١) تذرّع بذريعة، أي توسّل بوسيلة. وربما يُقرأُ في بعض النسخ [تدرّع] بالدال المهملة، ودرَعَ الرجلُ في السير أي تقدّم، وبالمعجمة أنسب.

فإذا لم تجب ودفعته، بقيَ يقول لك: هذا العملُ ليس بخالص وأنتَ مراءٍ وتعبُك ضائع فأيُّ فائدة لك في عملٍ لا إخلاصَ فيه، حتى يحملكَ بذلك على ترك العمل، فإذا تركته ـ أي العمل ـ فقد حصّلتَ غرض الشيطان.

ومثال من يتركِ العمل لخوفه أن يكون مرائياً كمن سلّمَ إليه مولاه حنطةً فيها تراب، وقال له: خلّصها من التراب ونَقِّها تنقيةً بالغة، فيترك أصل العمل ويقول: أخافُ إن اشتغلتُ به لم تَخلُص ـ أي الحنطة ـ خلاصاً صافياً نقياً. فتركُ العملِ من أصلهِ هو ترك الإخلاص مع أصل العمل، فلا معنى له. ومن هذا القبيل أن يترك العملَ خوفاً على الناس أن يقولوا له: إنه مراءٍ فيعصونَ الله به، فهذا من مكائد الشيطان، لأنه أولاً قد أساء الظنَّ بالمسلمين ولم يكن من حقّه أن يظنَّ بهم ذلك، ثم إن كان ـ أي إن حدثَ وقالوا ما خاف منه ـ فلا يضرّهُ قولهم ولا يفوتُه ثواب العبادة، وتركُ العبادة خوفاً من قولِهم «إنه مُراءٍ» هو عين الرياء، فلولا حبّه لمحمدتهم وخوفه من ذمّهم، ما كان له ولقولهم؟! سواء قالوا: إنه مراءٍ، أو قالوا: إنه مخلصٌ. وأيُّ فرقٍ بين أن يتركَ العملَ خوفاً من أن يُقال: إنه مراءٍ، وبين أن يحسّن العمل خوفاً من أن يُقال: إنه غافل مقصِّر؟! بل ترك العمل أشدُّ من ذلك.

فهذه كلُّها مكائدُ الشيطان على العبّاد الجهّال، ثم كيف يطمعُ في أن يتخلّصَ من الشيطان بأن يترك العمل؛ والشيطانُ لا يخلّيه؟! بل يقولُ له الآن: يقولُ الناسُ، إنك تركتَ العمل ليُقال إنَّك مخلِصٌ لا تشتهي الشهرة، فيُضطرُّكَ بذلك إلى أن تهربَ، فإن هربتَ ودخلتَ سرباً، تحت الأرض، ألقى في قلبك حلاوة معرفة الناس، لزهدكَ وهربكَ منهم، وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك، فكيف تتخلّص؟! بل

لا نجاةَ منه إلاّ أن تُلزِمَ قلبَك معرفةَ آفة الرياء، وهي أنه ضرر في الآخرة، ولا نفعَ فيه في الدنيا، لتُلزم الكراهةَ والإباءَ قلبَكَ، وتستمرَ مع ذلك على العمل ولا تبالي.. وتركُ العملِ لأجلِ ذلك يجرُّ إلى البطالة وتركِ الخيرات، فما دمت تجدُ باعثاً دينياً على العمل فلا تترك العمل، وجاهد خاطرَ الرياء، وألزم قلبكَ الحياء من الله إذا دعتك نفسُك إلى أن تستبدل بحمده حمدَ المخلوقين، وهو مطّلع على قلبك، ولو اطلع الخلق على قلبكَ وأنت تريدُ حمدهم لمقتوك، بل إن قدرتَ على أن تزيد في العملِ حياءً من ربّك وعقوبةً لنفسِكَ فافعل، وإن قال لك الشيطان: أنت مراءٍ، فاعلم كذبَهُ لما تصادفُ في قلبكَ من كراهة الرياء وإبائه وخوفِكَ منهُ وحيائكِ من الله.

فإن لم تجد في قلبك كراهية له وخوفاً منه، ولم يبقَ باعث دينيٌّ بل باعثُ الرياء فقط، فاترك العمل عند ذلك؛ وهو أمر بعيد الحصول. فمَن شرع في العمل لله تعالى، فإنّه لا بدَّ وأن يبقى معه أصلُ قصدِ الثواب..

١٢: ب ـ الطاعات التي تتعلق بالخلق

وهي طاعات تعظمُ فيها الآفات والأخطار، وأعظمها الخلافةُ ثم القضاءُ ثم التذكير والتدريسُ والفتوى، ثم إنفاق المال.

١٢: ب: ١ ـ الخلافة

أمّا الخلافةُ والإمارة فهي من أفضل العبادات إذا كانت مع العدل والإخلاص، وقد قالﷺ: «لَيومٌ من إمام عادلٍ خيرٌ من عبادة الرجل وحدهُ ستين عاماً»(١) فأعظِمْ بعبادةٍ يوازي يومٌ منها عبادة ستين

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط، وإسناد الكبير حسنٌ. كما في الترغيب والترهيب للمنذري ج ٣ ص ١٦٧.

سنة. وقالﷺ: «أول من يدخل الجنة ثلاثة، الإمامُ المقسطُ أحدُهم»[1] وقالﷺ: «ثلاثة لا تردُّ دعوتهم، الإمام العادلُ منهم»[2]. وقالﷺ: «أقربُ الناس مني مجلساً يوم القيامةِ إمامٌ عادل»[3]. لكن لما كانت الخلافةُ عندنا إنما تكون منصوصةً من الله عز وجل، مخصوصةً بالإمام المعصوم المطهّر من الرجز وشوائب النفس التي يهيجُ الرياء منها، ولا يدّعيها بعدهُ إلاّ المشركُ الذي أحبطَ بشركه جميع أعمال برِّه رأساً، فلا حاجةَ بنا إلى الكلام فيها من جهة تطرّق الرياء إليها، فلنطوه؛ وقد نقل أبو حامد عن شيخيه في هذا المقام من القول والفعل ما نقل.

١٢: ب: ٢ ـ القضاء

إنه وإن كان القضاءُ دون الخلافة والإمارة، لكنه في معناها، فإنّ كلَّ ذي ولايةٍ أميرٌ، أي له أمر نافذ، والإمارة محبوبة بالطبع، والثوابُ في القضاء عظيم مع اتباع الحق، والعقابُ فيه أيضاً عظيم مع العدول عن الحق.

وقد قالﷺ: «القضاة ثلاثة، واحد في الجنة واثنان في النار»[4]

---

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٥٩ من حديث عياض بن حمّار المجاشعي في حديث طويل هكذا «وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسطٍ متصدّقٍ موفّق، ورجلٌ رحيم رقيق القلب لكلِّ ذي قربى ومسلم، وعفيفٌ متعففٌ ذو عيال. . الحديث».

(٢) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ١٧٥٢ «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائمُ حتى يُفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة. . الحديث».

(٣) أخرجَهُ الترمذي ج ٦ ص ٧٠ من حديث أبي سعيد الخدري هكذا: «إن أحبَّ الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً إمام عادل، وأبغض الناس. . الحديث».

(٤) أخرجه أبو داوُد من حديث ابن بريدة ج ٢ ص ٢٦٨، وقال: هذا أصحُّ شيء فيه ـ يعني حديث ابن بريدة «القضاة ثلاثة». ورواه ابن ماجة تحت رقم ٢٣١٥.

وقال ﷺ: «من استقضى فقد ذبحَ بغير سكين»[1]، فحكمهُ حكمُ الإمارة، ينبغي أن يتركَهُ الضعفاء وكُلُّ من للدنيا ولذّاتِها وزنٌ في عينه، وليتقلّده الأقوياء الذين لا تأخذهم في الله لومةُ لائم.

وكلّما كانت السلاطين ظلمةً ولم يقدر القاضي على القضاء إلاّ بمداهنتهم وإهمال بعض الحقوق لأجلهم ولأجلِ المتعلقين بهم، حيث يعلمُ أنه لو حكمَ عليهم بالحق لعزلوه أو لم يطيعوه، فليس له أن يتقلد القضاء. وإن تقلّدهُ فعليه أن يطالبهم بالحقوق، ولا يكون خوفُ العزلِ عذراً مرخّصاً له في الإهمال أصلاً، بل إذا عُزلَ سقطت العهدة ـ أي المسؤولية ـ عنه، فينبغي أن يفرح بالعزل إن كان يقضي لله، فإنْ لم تسمح نفسُه بذلك، فهو إذن يقضي لاتباع الهوى والشيطان، فكيف يرتقبُ عليه ثواباً؟! وهو مع الظَّلمةِ في الدّرَك الأسفلِ من النار.

ومن طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام قال: «اتقوا الحكومة إنما هي للإمام العالم بالقضاء العادلِ في المسلمين لنبيٍّ أو وصيّ نبيّ»[2] وعنه عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام لشريح: يا شريح، قد جلستَ مجلساً لايجلسُهُ إلاّ نبيّ أو وصيٌّ نبيّ أو شقيّ»[3]. وعنه عليه السلام قال: «القضاة أربعة، ثلاثة في النار وواحد في

---

(١) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٢٣٠٨ وفيه «من جعلَ قاضياً بين الناس فقد ذبحَ بغير سكين» من حديث أبي هريرة، وأخرجَهُ أبو داوُد ج ٢ ص ٢٦٨.

(٢) الكافي ج ٧ ص ٤٠٦، وقال العلامة المجلسي ـ رحمه الله ـ: لا يخفى أن هذه الأخبار تدلُّ بظواهرها على عدم جواز القضاء لغير المعصوم عليه السلام ولا ريب أنهم عليهم السلام يبعثون القضاة إلى البلاد، فلا بدَّ من حملها على أن القضاء بالأصالة لهم ولا يجوز لغيرهم تصدي ذلك إلاّ بإذنهم، وكذا في قوله في الخبر الآتي: «لا يجلسهُ إلاّ نبي» أي إلاّ بالأصالة، والحاصل أنّ الحصر إضافي بالنسبة إلى مَن جلسَ فيها بغير إذنهم ونَصْبهم عليهم السلام.

(٣) الكافي ج ٧ ص ٤٠٦. وقال العلامة المجلسي ـ رحمه الله ـ: يُحتمل أن يكونَ=

الجنّة: رجلٌ قضى بجورٍ وهو يعلم فهو في النار، ورجل قضى بجور وهو لا يعلم فهو في النار، ورجل قضى بالحق وهو لا يعلم فهو في النار، ورجل قضى بالحق وهو يعلم فهو في الجنة»[1].

١٢: ب: ٣ ـ التذكير والتدريسُ والفتوى

أمّا الوعظ والفتوى والتدريس ورواية الحديث وجمعُ الأسانيد العالية، وكلُّ ما يتّسع بسببه الجاه ويعظمُ به القدر، فآفتُه أيضاً عظيمة مثل آفة الولاية، وقد كان الخائفون من السلف يتدافعون الفتوى ما وجدوا إليه سبيلاً وكانوا يقولون: «حدَّثَنا» باب من أبواب الدنيا. من قال: «حدَّثَنا» فقد قال: أوسعوا لي؛ وقد أسلفنا كلاماً عن مولانا الصادقعليه السلام في الفتوى في كتاب العلم.

والواعظُ يجدُ في وعظه وتأثّر قلوبِ الناس به وتلاحقِ بكائهم وزعقاتِهم[2] وإقبالهم عليه لذة لا توازيها لذة، فإذا غلبَ ذلكَ على قلبه مال طبعُهُ إلى كلِّ كلامٍ مزخرف، ويروّجُ به عند العوام وإن كان باطلاً، ويفرُّ عن كلِّ كلامٍ يستثقله العوام وإن كان حقاً، ويصيرُ مصروف الهمّة بالكلية إلى ما يحرِّكُ قلوبَ العوام ويعظّم منزلته في قلوبهم، فلا يسمعُ حديثاً وحكمةً إلاّ ويكونُ فرحهُ به من حيث إنه يصلحُ لأن يذكرَهُ على رأس المنبر، في حين كان ينبغي أن يكونَ فرحُهُ به من جهة أنه عرفَ طريق السعادة وطريق سلوكِ سبيل الدين ليعملَ به

= الغرضُ بيانُ صعوبةِ القضاء، وأنه لغير المعصوم غالباً يستلزم الشقاء، أو بيان أنّه من زمن النبيصلى الله عليه وآله إلى هذا الزمان ما جلسَ فيه إلاّ هذه الثلاثة الأصناف، ويؤيده ما في كتاب «من لا يحضره الفقيه»: «ما جلسَهُ».

(١) الكافي ج ٧ ص ٤٠٧، باب أصناف القضاة.

(٢) الزعقة: الصيحة.

أوّلاً، ثم يقول: إذا أنعمَ الله عليَّ بهذه النعمة ونفعني بهذه الحكمة فأفيضها ليشاركني في نفعها إخواني المسلمون، فهذا مما يعظم فيه الخوفُ والفتنة، وحكمُه حكم الولايات، فمن لا باعث له إلاّ طلبُ الجاه والمنزلة والأكل بالدين، والتفاخرُ والتكاثر، فينبغي أن يتركهُ ويُخالفَ الهوى فيه إلى أن ترتاضَ نفسُهُ، وتقوى في الدين. . ويأمنَ على نفسه الفتنة، فعند ذلك يعود إليه فإن سأل سائل: أليس كلما حُكِمَ على أهل العلم بذلك، تعطّلت العلوم واندرست، وعمَّ الجهل كافةَ الخلق؟ كان الجواب أنّ رسول الله ﷺ نهى عن طلبِ الإمارة وتوعّدَ عليها[1] حتى قال: «إنكم تحرصون على الإمارة وإنها حسرةٌ وندامةٌ يوم القيامة إلاّ من أخذها بحقّها، وقال: نعُمَت المرضعة وبَئِست الفاطمة»[2]، ومعلومٌ أنّ السلطنة والإمارة لو تعطّلت، لبطُلَ الدين والدنيا جميعاً، وثار القتالُ بين الخلقِ وزال الأمنُ وخرُبتِ البلاد وتعطّلت المعايش، فلم نهى عنها مع ذلك؟!

وأمّا قول القائل إن النهي عن ذلك يؤدي إلى اندراس العلم، فهو غلط، إذ نهيُ رسول الله ﷺ عن القضاء لم يؤدِّ إلى تعطيل القضاء[3] بل الرئاسةُ وحبُّها يضطرُّ الخلقَ إلى طلبِها، وكذلك حبُّ الرئاسة لا يتركُ العلومَ تندرسُ، بل لو حُبس الناس وقيدوا بالسلاسل والأغلال عن طلبِ العلوم التي فيها القبول والرئاسة، لأفلتوا من

---

(١) أخرجه مسلم والبخاري ج ٩ ص ٧٩ بإسنادهما عن عبد الرحمن بن سمرة، قال: قال النبي ﷺ: «يا عبدَ الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتَها عن مسألة وُكِلْتَ إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألةٍ أعنت عليها. . الحديث».

(٢) أخرجَهُ البخاري أيضاً ج ٩ ص ٧٩ هكذا من حديث أبي هريرة «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة».

(٣) نهيه ﷺ عن القضاء أخرجه مُسلم ج ٦ ص ٧ من حديث أبي ذر «لا تأمرن على اثنين ولا تولين مالَ يتيم».

الحبسِ، وقطعوا السلاسل وطلبوها، وقد وعدَ الله تعالى أن يؤيد هذا الدين بأقوامٍ لا خلاقَ لهم، فلا تشغل قلبَكَ بأمرِ الناس، فإنّ الله لا يضيعهم، وانظر لنفسك.. ثم الواعظُ هو الذي يرغّبُ في الآخرة ويزهِّدُ في الدنيا بكلامه وبظاهر سيرته، وأمّا ما أحدثه الوعاظ في هذه الأعصار من الكلمات المزخرفة والألفاظ المسجّعة المقرونة بالأشعار مما ليس فيه تعظيم لأمر الدين ولا تخويفٌ للمسلمين، بل فيه الترجية (من الرجاء) والتجرئة (من التجرّي) على المعاصي.. فيجبُ إخلاء البلاد منهُم، فإنهم نوّابُ الدجّال وخلفاءُ الشيطان، وإنما كلامنا في واعظٍ حَسَنِ الوعظ جميل الظاهر، يُبطنُ في نفسِهِ حبَّ القبول ولا يقصدُ غيره؛ وفيما أوردناه في كتاب العلم من الوعيد الوارد في حقِّ علماء السوء ما يبيّن لزوم الحذر من فِتنِ العلمِ وغوائله.

ولقد قال عيسى عليه السلام: «يا علماءُ السوء، تصومون وتُصلّون وتتصدقون، ولا تفعلون ما تؤمرون، وتدرسون ما لا تعملون، فيا سوء ما تحكمون، تتوبون بالقول والأماني، وتعملون بالهوى وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة، بحقٍ أقول لكم: لا تكونوا كالمنخل يخرجُ منه الدقيق الطيبّ وتبقى فيه النخالة كذلك أنتم تُخرجون الحكم من أفواهكم ويبقى الغلّ في صدوركم، يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرةَ من لا تنقضي من الدنيا شهوتُه، ولا تنقطع منها رغبتُه، بحقٍ أقول لكم: إن قلوبكم تبكي من أعمالكم، جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعملَ تحت أقدامكم، بحقٍ أقول لكم: أفسدتم آخرتكم، فصلاحُ الدنيا أحبُّ إليكم من صلاح الآخرة، فأيُّ الناسِ أخسُّ منكم لو تعلمون، ويلكم حتى متى تصفون الطريقَ للمدلِجين[1]

(١) المُدلِج: من الإدلاج، وهو سيرُ الليل كلّه أو في آخره.

وتقيمون في محلة المتحيرين؟ كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم، مهلاً مهلاً، ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراجُ فوق ظهره، وجوفُهُ وحشٌ مظلم، كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم، وأجوافكم منه وحشة معطلة، يا عبيد الدنيا، لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام، توشك الدنيا أن تقلعكم عن أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم تكبّكم على مناخركم، ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم، يدفعكم العلمُ من خلفكم ثم يسلمكم إلى الملكِ الديّان حفاة عراة فرادى، فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أفعالكم، وقد روى الحارث المحاسبيّ هذا الحديث في بعض كتبه[1]، ثم قال: هؤلاء علماء السوء، شياطينُ الإنس، وفتنةٌ على الناس، رغبوا في عرض الدنيا ورفعتها، وآثروها على الآخرة وأذلّوا الدين للدنيا، فهم في العاجلِ عارٌ وشينٌ[2]، وفي الآخرة هم الخاسرون.

١٣ ـ العلمُ وآفة الرياء

قد تكون هذه الآفات التي سبقت الإشارة إليها ظاهرة، ولكن ورد في العلم والوعظ رغائب ـ أي ترغيب ـ كثيرة، حتى قال رسول الله ﷺ: «لأن يهدي الله بك رجلاً خيرٌ لك من الدنيا وما فيها»[3].

---

(١) قد مرَّ أنه رواهُ الحسنُ بن علي بن شعبة الحرّاني في «تحف العقول» بأدنى اختلاف، ولم أجدهُ في كتاب الرعاية لحقوق الله، والظاهر أنه منقول من كتابٍ آخر له ـ رحمه الله ـ.

(٢) شين: عيب.

(٣) أخرجه البخاري ج ٦ ص ٢٣ من حديث سهل بن سعد، ذيل حديث إعطائه ﷺ الراية لعلي عليه السلام، وساق الحديث إلى أن قال: «فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: أُنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم أدعُهُم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكون لك حمر النعم».

وقال ﷺ: «أيّما داعٍ دعا إلى هدى واتُّبعَ عليه، كان له أجرهُ وأجرُ من اتبعه»[1]، إلى غير ذلك من فضائل العلم، فهل ينبغي تركه مخافة الآفة؟

إنّ ما ينبغي أن يقال للعالم هو: اشتغل بالعلم واترك مراءاة الخلق، كما يُقال لمن خالجه الرياء في الصلاة: لا تترك العمل ولكن أتمم العمل وجاهد نفسك. واعلم أن فضلَ العلم كبير، وخطره عظيم، كفضل الخلافةِ والإمارة، ولا نقول لأحدٍ من عباد الله: اترك العلم، إذ ليس في نفس العلم آفة، وإنما الآفة في إظهاره للتصدي بالوعظ والتدريس ورواية الأحاديث، ولا نقول له أيضاً: اتركهُ ما دام يجدُ من نفسِهِ باعثاً دينياً ممزوجاً بباعث الرياء، وأمّا إذا لم يحرّكه إلاّ الرياء، فتركُ الإظهار له أنفع وأسلم، وكذلك نوافل الصلوات إذا تمحّض فيها باعث الرياء وجبَ تركُها، أمّا إذا خطرت له وساوس الرياء في أثناء الصلاة، وهو لها كاره، فلا يتركِ الصلاة، لأنّ آفة الرياء في العبادات ضعيفة، وإنما تعظمُ في الولايات، وفي التصدي للمناصب الكبيرة كالعلم. وبالجملة فالمراتب ثلاث:

الأولى: الولايات

والآفات فيها عظيمة، وقد تركها جماعةٌ من السلفِ خوفاً من الآفة.

الثانية: الصلاة والصوم والحج والصدقة

وقد تعرض لها أقوياء السلف وضعفاؤهم، ولم يؤثر عنهم الترك لخوف الآفة، وذلك لضعف الآفة الداخلة فيها، والقدرة على نفيها مع إتمام العمل لله، بأدنى قوة.

---

(١) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٢٠٥ بزيادة في أوله، ولمُسلم نحوه مختصراً.

الثالثة: التصدي لمنصب الوعظِ والفتوى والرواية والتدريس

وهي متوسطة بين الرتبتين، والآفات فيها أقلّ مما في الولايات وأكثر مما في الصلاة، والصلاةُ ينبغي أن لا يتركها الضعيف والقوي، ولكن ينبغي أن يدفعَ خاطرَ الرياء. والولايات ينبغي أن يتركها الضعفاءُ رأساً دون الأقوياء، ومناصبُ العلمِ بينهما، ومن جرب آفات منصب العلم علمَ أنها بالولايات أشبه، وأنّ الحذر منها في حقِّ الضعيف أسلم؛ والله أعلم.

وههنا مرتبة رابعة، وهي جمعُ المالِ وأخذهُ للتفرقة على المستحقين، فإنَّ في الإنفاق وإظهار السخاء استجلاباً للثناء، وفي إدخال السرور على قلوبِ الناس لذة للنفسِ، فالآفات فيها كثيرة أيضاً.

وقد اختلفَ العلماء فقال قوم: إذا طلبَ الدنيا من الحلال وسلم منه ـ أي من الطلب ـ وتصدَّق به، فهو أفضل من أن يشتغل بالعبادات والنوافل لأنه خيرٌ متعدد كالنكاح. وقال قوم: الجلوسُ في دوام ذكر الله أفضل، والأخذ والإعطاء يَشغَلُ عن ذكر الله؛ وقد قال عيسى عليه السلام: «يا طالب الدنيا لتَبَرَّ بها، تركك لها أبرّ». وقال قوم: أقلُّ ما فيه أن يشغله إصلاحُه عن ذكر الله، وذكرُ الله أفضل وأكبر؛ وهذا فيمن سلمَ من الآفات، وأمّا من يتعرّضُ لآفات الرياء، فتركه لها أبرّ، والاشتغال بالذكر لا خلافَ في أنه أفضل.

وبالجملة، ما يتعلق بالخَلق، وللنفسِ فيه لذة، فهو مثار الآفات، والأحبُّ أن يعمل ويدفعَ الآفات، فإن عجز فلينظر وليجتهد وليستفتِ قلبَهُ وليَزن ما فيه من الخير بما فيه من الشر، وليفعل ما يدلُّ عليه نور العلم دون ما يميل إليه الطبع.

وبالجملة، ما يجدهُ أخفَّ على قلبه فهو في الأكثر أضرُّ عليه، لأن النفس لا تستلذُّ إلاّ بالشرّ، وقلّما تستلذُّ الخيرَ وتميلُ إليه، وإن كان لا يبعد ذلك أيضاً في بعض الأحوال، وهذه أمور لا يمكنُ الحكمُ على تفاصيلها بنفيٍ وإثبات، وهو موكول إلى اجتهاد القلب لينظُرَ فيه لدينه، ويدعَ ما يريبُهُ إلى ما لا يريبُهُ.

وقد يقعُ مما ذكرناه غرور للجاهل، فيمسكُ المالَ ولا ينفقه خيفة من الآفة، وهو عين البخل، ولا خلافَ في أنّ تفرقة المال في المباحات فضلاً عن الصدقات، أفضل من إمساكه، وإنما الخلافُ فيمن يحتاجُ إلى الكسبِ، أنَّ الأفضل تركُ الكسبِ والإنفاق أو التفرّغ للذكر، أو الكسبُ من الحلال وإنفاقُه في الخيرات، وذلك لما في الكسب من الآفات، وأمّا المال الحاصلُ الحلال فتفرقتُهُ أفضل من إمساكه في كل حال.

لكن بأي علامةٍ يعرفُ العالمُ والواعظُ أنه صادق مخلصٌ في وعظهِ غيرَ مريدٍ رئاء الناس؟ والجواب أنّ لذلك علاماتٍ: إحداها، أنه لو ظهر من هو أحسنُ منه وعظاً، وأغزر منه علماً، والناسُ له أشدُّ قبولاً، فرح به ولم يحسدهُ. نعم، لا بأس بالغبطة، وهي أن يتمنى لنفسِهِ مثلَ علمهِ. والأخرى، أنّ الأكابر إذا حضروا مجلسَهُ لم يتغيّر كلامُهُ، بل يبقى كما كان عليه، فينظر إلى الخلقِ بعين واحدة. والأخرى، أن لا يُحبّ اتباع الناس له في الطريق والمشي خلفَهُ في الأسواق؛ ولذلك علامات كثيرة يطول إحصاؤها.

١٤ ـ الصحيح وغير الصحيح من النشاط للعبادة

اعلم أنّ الرجلَ قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون للتهجد أو يقوم بعضُهم فيصلون الليل كلّه أو بعضه، وهو ممن يقومُ في بيته ساعة

قريبة - أي حوالى الساعة في كل ليلة، أو بعضاً من الليل لا كلّه - فإذا رآهم انبعث نشاطُه للموافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده أو يصلّي مع أنه كان لا يعتادها أصلاً. وكذلك، قد يقعُ في موضعٍ يصوم فيه أهل الموضع، فينبعث له نشاطٌ في الصوم، ولولاهم لما انبعث هذا النشاط. فهذا ربّما يُظنُّ أنه رياء وأنّ الواجبَ ترك الموافقة (لهذا النشاط المنبعث)، وليس كذلك على الاطلاق - أي في كل الحالات - بل له تفصيل، لأنّ كلّ مؤمن راغبٌ في عبادة الله وفي قيام الليل وصيام النهار، ولكن قد تعوقه العوائق وتمنعهُ الأشغال، ويغلِبُه التمكنُ من الشهوات - أي حصوله عليها - أو تستهويه الغفلة، فتكون مشاهدة الغير ربّما سبباً لزوال الغفلة، أو أنّ العوائق والأشغال تندفع في بعض المواضع فينبعث له النشاط. فقد يكونُ الرجلُ في منزله فتقطعهُ الأسباب عن التهجد، كتمكنه من النوم على فراشٍ وثير[1]، أو تمكّنِه من التمتع بزوجته، أو المحادثةِ مع أهله وأقاربه والاشتغالِ بأولاده، أو مطالعةِ حسابٍ له مع معامليه، فإذا نزلَ في منزلٍ غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التي تفتّر[2] رغبته عن الخير، وحصلتْ له أسبابٌ باعثة على الخير لمشاهدته إياهم وقد أقبلوا على الله عز وجل، وأعرضوا عن الدنيا، فإنه ينظرُ إليهم فينافسُهم، ويشقُّ عليه أن يسبقوه بطاعةٍ، فتتحرك داعيته - أي رغبته - للدين - أي بسببه - لا للرياء، أو ربما يفارقُه النوم لاستنكاره الموضع أو لسبب آخر، فيغتنم زوال النوم بينما قد يغلبُه النوم في منزله. وربما يضاف إلى ذلك أنه في منزله على الدوام، والنفسُ لا تسمحُ بالتهجد دائماً، وإنما تسمحُ

(١) وثير: ليّن قابلٌ للوطء.

(٢) تُفتّر: تضعف وتدفع إلى التقصير.

بالتهجد وقتاً قليلاً، فيكونُ ذلكَ سبب هذا النشاط مع اندفاع سائر العوائق.

وقد يعسرُ عليه الصوم في منزله ومعه أطائب الأطعمة ويشقُّ عليه الصبر عنها، فإذا أعوزتهُ[1] تلك الأطعمة، لم يشقّ عليه الصوم، فينبعث داعية الدين للصوم، لأن الشهوات الحاضرة عوائق ودوافع تغلب باعث الدين، فإذا سلِمَ منها قوي الباعث؛ فهذا وأمثالُه من الأسباب يتصوّرُ وقوعه، ويكونُ السببُ فيه مشاهدة الناس والتواجدُ معهم.

والشيطانُ عند ذلك ربما يصدُّ عن العمل ويقول: لا تعمل، فإنّك تكون مرائياً حيث كنت لا تعمل في بيتك هذا العمل، ولا تزد على صلاتِكَ المعتادة.

وقد تكون رغبتُه في الزيادة رياءً وإظهاراً للعمل أمامهم، وخوفاً من ذمّهم ونسبتهم إياه إلى الكسل، لا سيما إذا كانوا يظنون به أنه يقوم الليل، فإنَّ نفسَهُ لا تسمحُ بأن تسقُطَ من أعينهم، فيريد أن يحفظ منزلته. وعند ذلك قد يقول الشيطان: صلِّ فإنك مخلص، ولست تصلّي لأجلهم بل لله، وإنما كنت لا تصلّي في كل ليلة لكثرة العوائق، وإنما رغبتك في العمل لزوال العوائق الآن، لا لاطلاعهم؛ وهذا أمر مشتبهٌ إلاّ على ذوي البصائر. فإذا عرفَ أن المحرك هو الرياء فلا ينبغي أن يزيدَ على ما كان يعتاده ولا ركعةً واحدة، لأنه يعصي الله بطلب محمدة الناس بواسطة طاعة الله تعالى.

وإن كان انبعاثُهُ لدفع العوائق وتحرّكِ الغبطةِ والمنافسةِ بسبب عبادتهم، فليوافق على النهوض والعمل معهم. وعلامة ذلك أن

(١) أعوزهُ المطلوب: أعجزهُ وصَعُبَ عليه نيله.

يعرضَ على نفسِهِ، أنه لو رأى هؤلاء يصلّون بحيث كانوا لا يرونه، وكان بينه وبينهم حجاب، وهو في ذلك الموضع عينه، فهل كانت نفسهُ تسخو بالصلاة وهم لا يرونه؟ فإن سخت نفسهُ بها فليُصلِّ فإنَّ باعثَهُ الحق، وإن كان ذلك يثقلُ على نفسه، فيما لو غاب عن أعينهم، فليترك، فإن باعثه الرياء.

وكذلك قد يحضرُ الإنسان يومَ الجمعة في الجامع من نشاط الصلاة ما لا يحضره كلّ يوم، ويمكن أن يكون ذلك لحبِّ حمدهم، ويمكنُ أن يكونَ سببُ تحرّك نشاطه بسبب نشاطهم، وزوالُ غفلتِه بسبب إقبالهم على الله تعالى. وقد يتحرك بذلك باعث الدِّين ويقارنُه نزوعُ النفسِ إلى حبِّ الحمد، فكلّما عَلمَ أن الغالب على قلبِهِ إرادة الدِّين، فلا ينبغي أن يتركَ العمل لما يجدهُ من حبِّ الحمد، بل ينبغي أن يردَّ ذلك على نفسِهِ بالكراهة ويشتغل بالعبادة.

وكذلك قد تبكي جماعة فينظرُ إليهم، فيحضرهُ البكاء خوفاً من الله لا من الرياء، ولو سمعَ ذلك الكلام وحده لما بكى ولكنَّ بكاء الناس يؤثر في ترقيق القلب. وقد لا يحضرهُ البكاء فيتباكى تارة للرياء وتارة مع الصدق، إذ يخشى على نفسِهِ قساوة القلبِ حين يبكون، فلا تدمَعُ عينُه، فيتباكى تكلّفاً؛ وذلك محمود. وعلامةُ الصدق فيه أن يعرضَ على نفسِه، أنه لو سمع بكاءهم بحيث كانوا لا يرونه، هل كان يخافُ على نفسِهِ القساوة فيتباكى أم لا؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير اختفائه عن أعينهم، كان خوفهُ من أن يُقال: إنه قاسي القلب، فينبغي حينها أن يترك التباكي.

قال لقمان عليه السلام لابنه: لا تُري الناس أنّك تخشى الله ليكرموك، وقلبُكَ فاجرٌ.

وكذلك الصيحة والتنفس والأنين عند القرآن أو الذِّكر أو بعض

مجاري الأحوال ـ أي عند تجلي بعض الأحوال على قلب السالك ـ كلُّها قد تكون تارة مع الصدق والحزنِ والخوفِ والندم والتأسّف، وتارة قد تكون بسبب مشاهدة حزن غيره وقساوة قلبه، فيتكلّفُ التنفسَ والأنين، ويتحازن؛ وذلك محمود. وقد تقترن به ـ أي بالصيحة والتنفس والأنين ـ رغبةٌ بأن يُعرفَ بهذه الأعمال، إذ لها دلالة على أنه كثير الحزن، فإن تمحّضت رغبتهُ في ذلك فهي الرياء، وإن اقترنت بما دعاه إلى الحزن، فإن أباها ولم يقبلها وكرهها، سَلُمَ بكاؤه وتباكيه وإن قَبِلَ الرغبة تلك وركن إليها بقلبه، حبطَ أجرهُ وضاعَ سعيُهُ، وتعرّض لسخطِ الله بسبب ذلك.

وقد يكون أصل الأنين من الحزن، ولكن يمدُّه، ويزيدُ في رفع الصوت، فتلك الزيادةُ من الرياء، وهو عملٌ محظور، لأنه في حكم الابتداء لمجرّد الرياء. فقد يهيج من الخوفِ ما لا يملكُ العبدُ معَهُ نفسَهُ، ولكن يسبقُه خاطرُ الرياء فيقبَلُهُ، فيدعوه الخاطرُ إلى زيادة تحزينِ للصوت أو رفعِ له، أو إلى حفظِ الدمعةِ على الوجه حتى تُبصَرَ بعد أن استرسلت لخشيَة الله، ولكن يحفظُ أثرها على الوجهِ لأجلِ الرياء.

وكذلك قد يسمعُ الذِّكرَ فتضعفُ قواهُ من الخوفِ فيسقطُ، ثم يستحيي أن يُقال له: إنّه سقطَ من غير زوال عقلٍ وحالةٍ شديدة، فيزعق ويتواجد ـ أي يدعي الوجد(١) ـ تكلّفاً، ليُريَ أنّه سقطَ لكونه مغشياً عليه. وقد يكون ابتداءُ السقوط عن صدقٍ، وقد يزول عقلُهُ فيسقط، ولكن يفيق سريعاً، فتجزعُ نفسُهُ أن يُقال: لم تكن غشيتُه صحيحة، ولو كانت لدامَ ضعفُهُ، فيستديم إظهار الضعف والأنين، فيتّكىء على غيره حالة المشي ليُريَ أنه يضعُفُ عن القيام، ويتمايلُ في

(١) الوجد: الفرح أو المحبة أو الحزن.

المشي ويقرّبُ الخُطى ليَظهر أنّه ضَعُفَ عن سرعة المشي؛ فهذه كلها مكيدة الشيطان ونزغات النفس.

فإذا خطرت، فعلاجُها أن يتذكّر أن الناس لو عرفوا نفاقه في الباطن، واطلعوا على ضميره لمقتوه، وإنّ الله مطّلعٌ على ضميره وهو أشدُّ مقتاً له.. وقد جاء في الخبر «تعوّذوا بالله من خشوع النفاق»[1]، وإنما خشوع النفاق أن تخشع الجوارح والقلبُ غير خاشع.

ومن ذلكَ الاستغفار والاستعاذة بالله من عذابه وغضبه، فإن ذلك قد يكون لخاطرِ خوفٍ وتذكّر ذنبٍ وتندُّمٍ عليه، وقد يكون للمراءات. فهذه خواطرُ تردُ على القلب متضادة مترادفة متقاربة، وهي مع تقاربها متشابهة. فراقب قلبك في كلِّ ما يخطرُ لك، وانظر ما هو، ومن أينَ هو؟ فإن كان لله فأَمضِهِ ـ أي نفّذه وقم به ـ، واحذر مع ذلك أن يكونَ قد خفي عليكَ شيء من الرياء الذي هو كدبيب النمل، وكُن على وجلٍ من عبادتك، أهي مقبولةٌ أم لا، لخوفكَ على الإخلاصِ فيها، واحذر أن يتجدد لك خاطرُ الركونِ إلى حمدهم بعد الشروع بالعمل مخلِصاً، فإنَّ ذلك مما يكثرُ جداً. فإذا خطرَ لك، فتفكّر في اطلاع الله عليك ومقتِهِ لك، وتذكّر ما قاله أحدُ الأشخاص الثلاثة الذين حاجّوا أيوب عليه السلام إذ قالوا: يا أيّوب! أمَا علمتَ أنّ العبدَ تضلُّ عنه علانيته التي كان يخادع بها عن نفسهِ ويُجزى بسريرته، وقول بعضهم: أعوذ بك أن يرى الناس أنّي أخشاك وأنت لي ماقت[2]. وكان من دعاء علي بن الحسين عليهما السلام: «اللهم إنِّي أعوذُ بكَ أن تحسُنَ

(١) قال العراقي: أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي بكر، وفيه الحارث بن عبيد الأيادي، ضعّفه أحمد وابن معين.
(٢) المقت: شدة البغض.

في لامعةِ العيون علانيتي، وتقبح لك فيما أخلو سريرتي، محافظاً على رئاء الناس من نفسي، ومضيّعاً لما أنتَ مطّلعٌ عليه مني، أبدي للناس أحسنَ أمري، وأفضي إليكَ بأسوأ عملي، تقرّباً إلى الناس بحسناتي، وفراراً منهم إليك بسيئاتي، فيحلُّ بي مقتُك، ويجب عليَّ غضبك، أعذني من ذلك يا ربَّ العالمين».

وقد قال أحد الأشخاص الثلاثة لأيوب عليه السلام: يا أيوب! ألم تعلَمْ أنّ الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم عند طلبِ الحاجات إلى الرحمن تسودُّ وجوههم بالردّ؟!

فهذه جملةُ آفات الرياء، فليراقب العبد قلبَهُ ليقفَ عليها، وفي الخبر «أنّ للرياء سبعين باباً»[1]، وقد عرفت أن بعضه أخفى من بعض، حتى أنَّ بعضه مثل دبيب النمل، وبعضه أخفى من دبيب النمل. وكيف يُدركُ ما هو أخفى من دبيب النمل إلاّ بشدة المراقبة والتفقد؟! وليس يدركُ إلاّ بعد بذلِ المجهود[2]، فكيف يُطمعُ في إدراكه من غير تفقّدٍ للقلب وامتحان للنفس وتفتيش عن خدعها؟!

١٥ ـ الإلزاماتُ لقلبِ المريد

إعلم أنّ أَولى ما يُلزمُ المريدُ قلبَهُ في سائر أوقاته، القناعةُ بعلمِ

---

(١) قال العراقي: هكذا ذكرَ المصنّف هذا الحديث هنا، وكأنه تُصُحّفَ عليه أو على من نقله من كلامه أنه «الرياء» ـ بالمثنّاة ـ وإنما هو «الربا» بالموحدة، والمرسوم كتابته بالواو، والحديث رواه ابن ماجة من حديث أبي هريرة بلفظ «الربا سبعونَ حوباً أيسرها أن ينكح الرجلُ أمّه»، وفي إسناده أبو معشر، واسمه نجيح، مختَلفٌ فيه. وروى ابن ماجة أيضاً من حديث ابن مسعود بلفظ «الربا بضعٌ وسبعون باباً والشركُ مثلُ ذلك» وهذه الزيادة قدْ يُستدلُّ بها على أنه «الرياء» ـ بالمثناة ـ لاقترانه مع الشرك. والله أعلم.

(٢) في «الإحياء»: «وليته أدرك بعد بذل المجهود».

الله في جميع طاعاته، ولا يقنعُ بعلمِ الله إلاّ من لا يخافُ إلاّ الله ولا يرجو إلاّ الله. وأمّا من خافَ غيرهُ وارتجاه، اشتهى اطلاعهُ على محاسنِ أحواله، فإن كان المريدُ في هذه الرتبة، فليُلزم قلبَهُ كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان ـ أي بعقله وقلبه ـ، لما فيه من خطر التعرُّضِ للمقتِ، وليُراقب قلبَهُ عند الطاعات العظيمة الشاقة التي لا يقدرُ عليها غيرُه، فإن النفس عند ذلك تكادُ تغلي حرصاً على الإفشاء، وتقول: مثلُ هذا العملِ العظيم أو الخوفِ العظيم أو البكاء العظيم لو عرفَهُ الخلقُ لسجدوا لك، فما في الخلقِ من يقدرُ على مثله، فكيف ترضى بإخفائه، فيجهلَ الناسُ محلك، وينكرون قدرك، ويحرمونَ الاقتداء بك؟ ففي مثل هذا الأمر ينبغي أن يثبت قدمَهُ، ويتذكّرَ في مقابل عِظَمِ عَملهِ عِظَمَ مُلكِ الآخرة ونعيم الجنّة، ودوامها أبد الآباد وعِظَمَ غضبِ الله، ودوامَهَا أبد الآباد، وعِظَمَ غضب الله ومقتِهِ على من طلبَ بطاعته ثواباً من عباده، ويعلمُ أنّ إظهاره لغيره محبّبٌ إليه، وسقوطٌ عند اللهِ وإحباطٌ للعملِ العظيم، فيقول: وكيف أبيعُ هذا العملَ بحمدِ الخلقِ وهم عاجزون لا يقدرون لي على رزقٍ ولا أجلٍ، فيُلزم ذلك قلبَهُ، ولا ينبغي أن ييأسَ عنه، فيقول: إنما يقدرُ على الإخلاص الأقوياء وأمّا المخلّطون[1] فليس ذلك من شأنهم، فيترك المجاهدة في الإخلاص، فالمخلّط أحوج إلى ذلك من المتّقي، لأن المتقي إن فسدت نوافله بقيت فرائضه كاملة تامة، والمخلط لا تخلو فرائضه عن النقصان وعن الحاجة إلى الجبران بالنوافل، فإن لم تسلم صار مأخوذاً ـ أي محاسباً ـ بالفرائض، وهلك به، فالمخلّطُ إلى الإخلاص أحوج. وقد روى تميم الدّاريّ عن النبيﷺ أنه قال:

---

(١) مرادهُ من المخلطين الذين خلطوا بين الإخلاص وغيره في العمل.

«يحاسبُ العبدُ يوم القيامة فإن نقصَ فرضُه، قيل: انظروا هل له من تطوُّعٍ، فإن كان له تطوّعٌ أُكمِلَ به فرضه، وإن لم يكن له تطوّعٌ أخذ بطرفَيه فألقي في النار»[1] فيأتي المخلّط يوم القيامة وفرضهُ ناقص وعليه ذنوب كثيرة، فاجتهادُه في جبرِ الفرائض وتكفيرِ السيئات، ولا يمكنُ ذلك إلاّ بخلوص النوافل، وأمّا المتقي فجهده في زيادة الدرجات فإنْ حبِطَ تطوّعه، بقي من حسناته ما يترجّح به على سيئاته، فيدخلُ الجنّةَ.

فإذن ينبغي أن يُلزم قلبَهُ خوفَ اطلاع غير الله عليه لتصحّ نوافله، ثمَّ يلزم قلبَهُ ذلك بعد الفراغ حتى لا يتحدّث به ولا يُظهره، فإذا فعل جميع ذلك فينبغي أن يكون وجلاً من عملهِ خائفاً أنه ربّما داخَلَهُ من الرياء الخفي ما لم يقف عليه، فيكون شاكاً في قبوله ـ أي العمل ـ وفي احتمال ردِّه، مجوّزاً أن يكون الله قد أحصى عليه من نيّته الخفية ما مقتَهُ بها، وردَّ عمَلَهُ بسببها، ويكونُ هذا الشكُّ والخوف في دوام عمله ـ أي خلال كامل مدة إنجاز العمل ـ وبعده، إلاّ في ابتداء انعقاد نيته عليه، إذ ينبغي أن يكون متيقناً في الابتداء أنه مخلصٌ، لا يريد بعمله إلاّ الله حتى يصحَّ عملُهُ، فإذا شرع ومضت لحظةٌ يمكنُ فيها الغفلةُ والنسيان، كان الخوفُ من الغفلة بسبب شائبة خفيةٍ أحبطت عمله من رياءٍ أو عُجبٍ أولى به، لكن ينبغي أن يكون رجاؤه أغلبَ من خوفه، لأنه اَستيقن أنه دخل في العمل مخلصاً، وشكَّ في أنّه هل أفسده برياء؟ فيكونُ رجاء القبولِ أغلب، وبذلكَ تعظُمُ لذّتُه في المناجاة والطاعات. فالإخلاص يقين، والرياء شكٌّ، وخوفُهُ لأجل ذلك الشك أجدر بأن يكفِّرَ خاطر الرياء، إن كان قد سبق وهو غافل عنه.

---

(١) أخرجه أبو داوُد ج ١ ص ٢٠٠، وابن ماجة تحت رقم ١٤٢٥ مع اختلاف يسير.

والذي يتقرّب إلى الله بالسعي في حوائج الناس وإفادةِ العلم، ينبغي أن يُلزمَ نفسَهُ رجاءَ الثواب على دخول السرور على قلبِ من قضى حاجتَهُ فقط، ورجاءَ الثواب على عمل المتعلّم بعلمِهِ فقط، دون شكرٍ ومكافأةٍ وحمدٍ وثناءٍ من المتعلِّم والمنعَم عليه، فإنّ ذلك يحبطُ الأجر. فكلّما توقّع من المتعلِّم مساعدةً في شغلٍ وخدمة، أو مرافقةٍ في المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه ـ أي ليباهي بكثرة من يتبعُهُ ـ أو تردداً منه في حاجته ـ أي إقبالاً من المتعلِّم على قضاء حاجاته ـ فقد أخذَ أجرَهُ، فلا ثواب له غيره. نعم، إن لم يتوقّع هو ولم يقصد إلاّ الثواب على عمله، بعلمه الذي علّمه، ليكون له مثل أجره، ولكن خدمَهُ التلميذ بنفسهِ فقبِلَ خدمتَه، نرجو أن لا يحبطَ ذلك أجرَهُ، إذا كان هو لا ينتظره ولا يريده منه ولا يستبعُده منه إن هو قطعه ـ أي لا يستغربُ ذلك إن لم يقُم التلميذ بذلك.

ومع هذا، فقد كان العلماء يحذرون ذلك حتّى أنّ بعضَهم وقعَ في بئر، فجاءَ قومٌ وأدلوا حبلاً ليرفعوه، فحلفَ عليهم أن لا يقف معهم من قرأ عليه آيةً من كتاب الله أو سمِعَ منهُ حديثاً خيفةً من أن يحبِطَ ذلك أجرهُ.

فإذن يجبُ على العالم أن يُلزم قلبَهُ فقط طلبَ الثواب من الله في اهتداء الناس به، ويجبُ على المتعلّم أن يُلزمَ قلبَهُ طلبَ حمد الله تعالى وثوابَهُ ونيلَ المنزلةِ عنده، لا عند المعلم وعند الخلق.

وربما يظنُّ المتعلمُ أنّ له أن يرائي بطاعته لينال عند المعلم رتبة فيتعلّمَ منه، وهو خطأ، لأنّ إرادته غير الله بطاعتِهِ خسرانٌ في الحال، والعلم ربّما يفيده وربّما لا يفيده، فكيف يخسرُ في الحال عملاً نقداً لمجرد توهّمِ علمٍ، فذلك غير جائز، بل ينبغي أن يتعلم لله تعالى،

ويعبُدَ لله تعالى، ويخدمَ المعلّم لله، لا يكون له في قلبِهِ منزلةٌ، إن كان يريدُ أن يكون تعلُّمه طاعة، فإنّ العبادَ أُمروا بأن لا يعبدوا إلاّ الله ولا يريدوا بطاعتهم غيره.

وكذلك كلُّ من يخدمُ أبويه لا ينبغي أن يخدمهما لطلبِ المنزلةِ عندهما إلاّ من حيث رضا الله في رضا الوالدين، ولا يجوز له أن يرائي بطاعته لينال بها منزلة عند الوالدين، فإن ذلك معصية في الحال، وسيكشف الله تعالى عن ريائه، وتسقطُ منزلتُه من قلوب الوالدين أيضاً.

وأمّا الزاهدُ المعتزلُ عن الناس فينبغي له أن يُلزمَ قلبَه ذكرَ الله والقناعةَ بعلمه، ولا يخطر في قلبه معرفة الناس زهدَهُ واستعظامهم محلّه، فإنّ ذلك يغرس الرياء في صدره حتى تتيسّر عليه العبادات في خلوته به، وإنما سكونُه لمعرفة الناسِ اعتزالَهُ ولاستعظامهم محلَّه، وهو لا يدري أنّه المخفِّفُ وطأةَ العملِ عليه.

وقال إبراهيم بن أدهم[1]: تعلمتُ المعرفةَ من راهبٍ يقال له سَمعان. دخلت عليه في صومعته فقلت: يا سمعان، منذ كم أنت في صومعتك هذه؟ فقال: منذ سبعين سنة. فقلت: فما طعامُكَ؟ فقال: يا حنيفيّ، وما دعاك إلى هذا؟ قلت: أحببتُ أن أعلم. قال: في كلِّ ليلةٍ حُمّصَة. قلت: فما الذي يهيج في قلبكَ حتى تكفيك هذه الحمّصة؟ قال: ترى الدير الذي بحذائك[2]؟ قلت: نعم. قال: إنهم يأتونني في كلِّ سنةٍ يوماً واحداً فيزينون صومعتي ويطوفون حولها ويعظمونني، فكلّما تثاقلت نفسي عن العبادة، ذكّرتها عزَّ تلك الساعة،

---

(١) أحد الصوفية.

(٢) بحذائك: بإزائك.

فأنا أحتملُ جهدَ سنةٍ لعزِّ ساعة، فاحتمل يا حنيفيُّ جهدَ ساعةٍ لعزِّ الأبد، فوقر[1] في قلبي المعرفة. فقال: حسبُكَ أو أزيدك؟ فقلت: بلى. قال: إنزل عن الصومعة، فنزلت، فأدلى لي ركوة[2] فيها عشرون حمّصة، فقال لي: أُدخل إلى الدير، فقد رأوا ما أدليت[3] إليك، فلمّا دخلتُ الدير اجتمعت النصارى عليّ، فقالوا: يا حنيفيّ، ما الذي أدلى إليكَ الشيخ. قلت: من قُوته. قالوا: وما تصنعُ به ونحن أحقُّ به، ثم قالوا: ساوم، قلتُ: عشرون ديناراً، فأعطوني عشرون ديناراً، فرجعتُ إلى الشيخ، فقال: يا حنيفيُّ، ما الذي صنعت؟ قلت: بعتُه منهم. قال: بكم؟ قلتُ: بعشرين ديناراً. قال: أخطأت، لو ساومتهم بعشرين ألف دينارٍ لأعطوك، هذا عزُّ من لا تعبدهُ، فانظر كيف يكون عزُّ من تعبدهُ؟ يا حنيفيُّ أقبلْ على ربّك، ودعِ الذهاب والجيئة.

والمقصودُ هو أنّ استشعار النفسِ عزَّ العظمةِ في قلوب الناس يكون باعثاً في الخلوة، وقد لا يشعر العبدُ به، فينبغي أن يلزمَ الحذرَ منه، وعلامةُ سلامته ـ أي القلب ـ أن يكون نظرُ الخلق عنده والبهائم بمثابةٍ واحدة، فإن غيّروا اعتقادهم فيه لم يجزع ولم يضِق به ذرعاً، إلاّ كراهية ضعيفة إن وجدها في قلبِهِ فيردُّها في الحال بعقلِهِ وإيمانه، فإنه لو كان في عبادةٍ فاطّلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعاً، ولم يداخله سرورٌ بسبب اطلاعهم عليه، فإن دخل سرور يسير فهو دليل ضعفه، ولكن إذا قدِرَ على ردّه بكراهة العقل والإيمان، وبادر إلى ذلك، ولم يقبل ذلك السرور بالركون إليه، يُرجى له أن لا يخيبَ سعيُهُ، إلاّ أن يزيد في الخشوع والانقباض عند مشاهدتهم، من أجلِ

(١) وقر: وضع وثبّت.
(٢) ركوة: إناءٌ صغيرٌ من جلد يشربُ فيه الماء.
(٣) أدلى (إليه): دفعَهُ إليه.

أن لا ينبسطوا إليه ـ أي يقبلوا عليه ـ فذلك لا بأس به، ولكن فيه غرورٌ، إذ النفسُ قد تكون شهوتها الخفية إظهارَ الخشوع، وتتعلّل بطلبِ الانقباض، فليُطالبها في دعواها قصدَ الانقباض بموثقٍ من الله غليظٍ، وهو أنه لو علمَ أنّ انقباضَهُم عنه إنما يحصلُ بأن يعدو كثيراً أو يضحك كثيراً أو يأكل كثيراً فتسمحُ نفسهُ بذلك. فإن لم تسمح بذلك وسمحت بالعبادة، فيشبهُ أن يكونَ مرادها المنزلةَ عندهم، ولا ينجو من ذلك إلاّ من رسخ في قلبه أنه ليسَ في الوجود أحدٌ سوى الله تعالى، فيعملُ عملَ مَن لو كان على وجه الأرض وحدَهُ لكان يعمله، فلا يلتفتُ قلبُه إلى الخلق، إلاّ خطراتٌ ضعيفة لا يشقُّ عليه إزالتها، فإذا كان كذلك لم يتغيّر بمشاهدة الخلق.

ومن علامات الصدقِ فيه أنّه لو كان له صاحبان، أحدهما غنيٌّ والآخر فقير، فلا يجدُ عند إقبال الغنيّ زيادةَ هزّةٍ في نفسه من أجل إكرامه، إلاّ إذا كان في الغني زيادةُ علمٍ أو زيادةُ ورعٍ، فيكون مكرِماً له لذلك الوصف لا للغنى. فمن كان سروره وراحته لمشاهدة الأغنياء أكثر، فهو مراءٍ أو طمّاع، وإلاّ فالنظر إلى الفقراء يزيدُ في رغبةِ الآخرة، ويحبّبُ إلى القلبِ المسكنة؛ والنظرُ إلى الأغنياء بخلافه، فكيف آنس بالغنيّ أكثر مما آنسُ بالفقير؟!

نعم، لكَ زيادةُ إكرامَ الغنيّ إذا كان أقربُ إليك أو كان بينك وبينه حقٌّ وصداقةٌ سابقة، ولكن يكون بحيث لو وُجدت تلك العلاقة في فقيرٍ، لكنتَ لا تقدّم الغنيّ عليه في إكرامٍ وتوقيرٍ أبداً، فإنّ الفقير أكرم على الله من الغنيّ، فإيثارك له لا يكونُ إلاّ طمعاً في غناه ورياءً له، ثمَّ إذا سوّيتَ بينهما في المجالسة، فيخشى عليك أن تُظهر الحكمةَ والخشوع للغنيِّ أكثر مما تُظهره للفقير، وإنما ذلك لرياء خفيٍّ أو طمع خفيّ. . . ومكائد النفسِ وخفاياها في هذا الفنّ لا تنحصر،

ولا ينجيكَ منها إلاّ بأن تُخرجَ ما سوى الله من قلبِكَ، وتتجرّد بالشفقة على نفسِكَ بقية عمرك، ولا ترضى لها بالنار بسببِ شهواتٍ منغّصةٍ في أيامٍ متقاربةٍ منقضية، وتكونُ في الدنيا كملكٍ من ملوك الدنيا قد أمكنته الشهوات وساعدته اللذات، ولكن في بدنه سقمٌ وهو يخافُ الهلاك على نفسهِ في كلِّ ساعة لو اتّسع في الشهوات ـ أي في التمتع بها وتلبيتها ـ وعَلمَ أنه لو احتمى وجاهد شهوتَهُ عاشَ ودامَ ملكُه، فلمّا عرفَ ذلك جالسَ الأطباء وحارف[1] الصيادلة، وعوّدَ نفسهُ شُربَ الأدوية المرّة، فصبر على بشاعتها[2]، وهجرَ جميع اللذات وصبرَ على مفارقتها، فبدنهُ يزداد كلَّ يومٍ نحولاً لقلّةِ أكله، ولكنَّ سقمَهُ يزداد كلَّ يومٍ نقصاناً لكثرةِ احتمائه[3]. فكلما نازعتهُ نفسُهُ إلى شهوةٍ، تفكّر في توالي الآلام والأوجاع عليه، وما يؤديه ذلك إلى الموت المفرّقِ بينه وبين مملكته، الموجبِ لشماتة أعدائه به. وكلّما اشتدَّ عليه شربُ دواءٍ، تفكّر فيما يستفيده منه من الشفاء الذي هو سبب التمتع بملكه ونعيمه، في عيشٍ هنيءٍ وبدنٍ صحيح وقلبٍ رخيٍّ وأمرٍ نافذٍ، فتخف عليه وطأة هجرة اللذات والصبرِ على المكروهات.

فكذلك المؤمن المريدُ لمُلكِ الآخرة، احتمى عن كلِّ مهلكٍ له في آخرته، وهي لذات الدنيا وزهرتُها، واجتزى[4] منها بالقليل، واختار الذبول والنحول والوحشة والحزن والخوف، وترك المؤانسة بالخلقِ جميعاً خوفاً من أن يحلَّ عليه غضبٌ من الله فيهلك، ورجاءَ أن ينجو من عذابه، فخفَّ ذلك كلُّه عليه عند شدّةِ يقينه وإيمانه بعاقبةِ

---

(١) حارف: شارك في الحِرفة.

(٢) بشاعتها: مرارتها.

(٣) احتمائه: من الحمية وهي الامتناع عن الطعام والشراب.

(٤) اجتزى: اكتفى.

أمره، وبما أُعدَّ له من النعيم المقيم في رضوان الله أبدَ الآباد، ثم علمَ أن الله رحيم لم يزل بعباده المريدين لمرضاته عوناً وبهم رؤوفاً وعليهم عطوفاً، ولو شاء لأغناهم عن التعبِ والنَّصب، ولكن أراد أن يبلوهم ويعرفَ صدقَ إرادتهم، حكمةً منه وعدلاً، ثم إذا تحمّلَ التعب في البداية، أقبل الله عليه بالمعونةِ والتيسير، وحطَّ عنه الإعياء، وسهّل عليه الصبر، وحبّبَ إليه الطاعة، ورزقه فيها من لذة المناجاة ما يلهيه ذلك عن سائر اللذات ويقوّيه على إماتة الشهوات، ويتولى سياسته وتقويته، ويُمدُّه بمعونته فإنّ الكريم لا يضيّعُ سعي الراجي ولا يخيّبُ أملَ المحبّ، وهو الذي يقول: «من تقرّب إليّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً» ويقول: «لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وإني إلى لقائهم لأشد شوقاً». فليُظهر العبدُ في البداية جِدَّه وصدقَه وإخلاصه، فلا يعوزه[1] من الله تعالى سريعاً ما يليق بجوده وكرمِهِ ورأفتِهِ ورحمته، ولله الحمد والمنّة.

هذا آخر كتاب ذمِّ الجاه والرياء. من المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب ذمِّ الكبر والعجب، والحمد لله أولاً وآخراً.

---

(١) يعوزهُ: ينقصه.

آفة الكبر

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ مدخل

الحمد لله الخالقِ البارىء المصوّر العزيز الكبير الجبّار المتكبّر العليّ الذي لا يضعهُ عن مجده واضع، الجبّارِ الذي كلُّ جبارٍ له ذليلٌ خاضع، وكلُّ متكبر في جناب عزّه مسكين متواضع، فهو القاهر الذي لا يدفه عن مراده دافع، الغنيِّ الذي ليس له في ملكه شريكٌ ولا منازع، القادرِ الذي بهر[1] أبصارَ الخلائقِ جلالُه وبهاؤه، وقهرَ العرشَ المجيد استواؤه واستعلاؤه واستيلاؤه، وحصرَ ألسُنَ النبيّين وصفُه وثناؤُه، وارتفع عن حدِّ قدرتهم إحصاؤه واستقصاؤه، فاعترفَ بالعجز عن صفةِ كنهِ جلاله ملائكتُه وأنبياؤه، وكسرَ ظهورَ الأكاسرةِ عزُّهُ وعلاؤه وقصّرَ أيدي القياصرةِ عظمتُه وكبرياؤه، فالعظمةُ إزارهُ والكبرياءُ رداؤه، ومن نازعه فيهما، قصَمهُ[2] بداءِ الموت فأعجزهُ داؤه، جلَّ جلالُه وتقدَّست أسماؤه.

والصلاة على محمدٍ الذي أنزل معه النور المنتشرَ ضياؤه، حتى

---

(١) بهرَ: غلبَ وفاقَ وفَضُلَ.

(٢) قصمَ: أهلك، كسر.

أشرقت بنوره أكناف العالم أرجاؤه، وعلى آله وأصحابه الذين هم أحباءُ اللَّهِ وأولياؤه، وخيرتُه وأصفياؤه، وسلّمَ تسليماً كثيراً.

أمّا بعد، فقد قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: العظمةُ إزاري والكبراء ردائي فمن نازعني فيهما قصمتُه»[1]. وقال ﷺ: «ثلاثٌ مهلكات: شحٌّ مطاع، وهوًى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه»[2]، فالكبرُ والعجبُ داءان مهلكان، والمتكبّر والمعَجبُ سقيمان مريضان وهما عند الله ممقوتان بغيضان[3].

وإذا كان القصدُ في هذا الرُّبع من الكتاب شرحُ المهلِكات، وجبَ إيضاح الكبر والعُجب، فإنهما من قبائح المرديات، ونحن نستقصي بيانهما من الكتاب في شطرين. شطر في الكِبر، وشطرٌ في العُجب إن شاء الله تعالى. [وقد قسمناهما إلى فصلين مستقلين التزاماً بغرض هذا الكتاب. المعدّ].

الشطر الأول من الكتاب في الكبر، وفيه: بيانُ ذمِّ الكبر، وبيانُ ذمِّ الاختيال، وبيان فضيلة التواضع، وبيان حقيقة التكبّر وآفته، وبيان من يتكبّر عليه، ودرجاتُ الكِبر، وبيانُ ما به الكِبر، وبيان البواعث على التكبر، وبيان امتحان النفس في خُلق الكبر، وبيان المحمود من خلق التواضع والمذموم منه. [وقد أعدنا ترتيب هذه الفصول بما يتوافقُ مع أغراض هذا الكتاب. المعدّ].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ج١ ص٦١ دون ذكر «العظمة»، وقال: صحيح على شرطِ مسلم.

(٢) تقدم مرات عدة.

(٣) البغيض: الشديد البغض، تقول: «ما أبغضه إليّ» تخبر أنّه مبغَضٌ عندك، يعني صار عند الله مبغوضاً.

٢ ـ حقيقة الكِبر وآفتُه

إعلم أن الكبرَ ينقسمُ إلى ظاهر وباطن، والباطن هو خُلُقٍ في النفس، والظاهرُ هو أعمال تصدر من الجوارح. واسمُ الكِبر بالخُلُق الباطن أحقّ، وأمّا الأعمال فإنها ثمراتٌ لذلك الخُلُق، وخلُقُ الكِبر موجبٌ للأعمال، ولذلك إذا ظهر على الجوارح، يقال: تكبّرَ، وإذا لم يظهر، يُقال: في نفسِهِ كبرٌ. فالأصلُ هو الخلُق الذي في النفس، وهو الاستراحة والركون إلى رؤية النفس فوقَ المتكبَّرِ عليه، فإنّ الكبرَ يستدعي متكبَّراً عليه ومتكبَّراً به، وبه ينفصلُ الكبرُ عن العجب كما سيأتي، فإن العجبَ لا يستدعي غير المعجَب، بل لو لم يُخلق الإنسان إلاّ وحدَهُ، تُصوِّرَ أن يكون معجَباً، ولا يُتصوَّر أن يكون متكبّراً إلاّ أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفاتِ الكمال، فعندَ ذلك يكون متكبّراً. ولا يكفي أن يستعظم نفسه ليكون متكبّراً، فإنه قد يستعظم نفسه ولكن يرى غيره أعظَمَ من نفسِهِ أو مثلَ نفسِهِ فلا يتكبّر عليه، ولا يكفي أن يستحقر غيره فإنه مع ذلك لو رأى نفسَهُ أحقر لم يتكبّر، ولو رأى غيرهُ مثلَ نفسِهِ لم يتكبّرَ بل ينبغي أن يرى لنفسه مرتبةً ولغيره مرتبة، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره[١]. فعندَ هذه الاعتقادات الثلاثة يحصلُ فيه خُلُقُ الكِبر، لا أنَّ هذه الرؤية هي الكبر، بل هذه الرؤية وهذه العقيدة تنفخُ فيه، فيحصلَ في قلبه اعتدادٌ[٢] وهزَّة[٣] وفرحٌ وركونٌ إلى ما اعتقده، وعزٌ في نفسه ـ أي شعر بالعزة في نفسه ـ بسبب ذلك، فتلك العِزَّة والهزَّة والركون إلى

(١) فيه نظر، لأنه يُنافي ما قال الصادقعليه السلام: «ما من رجلٍ تكبّر أو تجبّر إلاّ لذلّةٍ وجدها في نفسه».

(٢) الاعتداد: الاعتماد على النفس.

(٣) هزّة: الارتياح والنشاط.

المعتقد هو خُلُق الكِبر. ولذلك قال النبي ﷺ: «أعوذُ بك من نفخة الكبرياء»[1]، ولذلك قال بعض خلفاءِ النبي ﷺ: أخشى أن تنتفخ حتى تبلغَ الثريا، للذي استأذنه أن يعظَ بعد صلاة الصبح. وكأن الإنسان كلما رأى نفسَهُ بهذه العين ـ وهو الاستعظام ـ كبُرَ وانتفخَ وتعزّزَ.

فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلةِ في النفسِ من هذه الاعتقادات، وتسمّى أيضاً عِزَّةً وتعظّماً، ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ﴾[2]، فقال: عظمةٌ لم يبلغوها، ففسَّرَ الكِبَر بتلك العظمة. ثم هذه العزّة تقتضي أعمالاً في الظاهر والباطن هي ثمراتُه، ويسمّى ذلك تكبّراً، فإنه كُلّما عظُمَ عندَه قدرُ نفسِهِ بالمقارنة إلى غيره حقَّر مَنْ دونَهُ وازدراه[3]، وأقصاه عن نفسِهِ وأبعده، وترفّع عن مجالسته ومواكلته ـ أي الأكل معه ـ ورأى أن حقّه أن يقوم ماثلاً بين يديه ـ أي ذلك الشخص ـ إن اشتدَّ كبرهُ، فإن كان كبرُهُ أشدَّ من ذلك، استنكف عن استخدامه، ولم يجعله أهلاً للقيام بين يديه ولا لخدمته. فإنْ كان كبرُه دونَ ذلك، يأنفُ من مساواته، ويتقدّمُ عليه في مضائقِ الطرق، وارتفعَ عليه في المحافل ـ أي جلسَ في مواضعَ تمنحه العزة والأفضلية عليه في المجالس ـ وانتظر أن يبدأه بالسلام، واستبعدَ ـ أي استغرب ـ إن قصّرَ في قضاء حوائجه وتعجّب منه، وإن حاجَّ (من المحاججة) أو ناظَرَ أنِفَ أن يردَّ عليه، وإن وُعِظَ استنكف من القبول، وإن وَعَظَ عنَّفَ في النُّصح، وإن رُدَّ عليه شيءٌ من قوله غضِبَ، وإن علّمَ لم يرفق بالمتعلّمين واستذلَّهم وانتهرهم وامتنَّ عليهم واستخدمَهُم، وينظرُ

---

(١) تقدم سابقاً.

(٢) سورة المؤمن، الآية: ٥٦.

(٣) إزدراه: احتقره واستخف به.

إلى العامة كأنه ينظرُ إلى الحمير استجهالاً لهم واستحقاراً؛ والأعمال الصادرة عن خُلُق الكبر كثيرة، وهي أكثر من أن تحصى، فلا حاجة إلى تعدادها، فإنها مشهورة. فهذا هو الكِبر، وآفته عظيمة وغائلتُه[1] هائلة، وفيه يهلكُ الخواص من الخَلق، وقلّما ينفكُّ عنه العبّاد والزهّاد والعلماء فضلاً عن عوامّ الناس، وكيف لا تعظم آفته وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنَّةَ مَن كان في قلبِه مثقالُ ذرَّةٍ من كِبر»[2] وإنما صار حجاباً عن الجنّة لأنه يحولُ بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلّها، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنّة، والكبرُ وعزُّ النفسِ يغلقُ تلك الأبوابَ كلَّها، لأنه لا يقدرُ على أن يُحبَّ للمؤمنين ما يحبُّ لنفسِهِ، طالما أنّ فيه شيئاً من العز، ولا يقدرُ على التواضع وهو رأسُ أخلاق المتقين وفيه العزّ، ولا يقدرُ على كظمِ الغيظ وفيه العزّ، ولا يقدرُ على تركِ الحقد وفيه العزّ، ولا يقدرُ أن يدومَ على الصدقِ وفيه العزّ، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العزّ، ولا يقدرُ على تركِ الغضب وفيه العزّ، ولا يقدرُ على النّصح اللطيف وفيه العزّ، ولا يقدرُ على قبول النّصح وفيه العز، ولا يسلَمُ من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العزّ؛ ولا معنى للتطويل. فما من خُلُقٍ ذميم إلاّ وصاحبُ العزِّ والكبر مضطر إليه ليحفظ به عزّه، وما من خُلُقٍ محمودٍ إلاّ وهو عاجزٌ عنه خوفاً من أن يفوتَهُ عزُّه ولهذا لم يدخل الجنة مَن في قلبِه مثقال ذرَّةٍ منه.

والأخلاق الذميمة متلازمة، والبعضُ منها داعٍ إلى البعض لا محالة، وشرُّ أنواعِ الكِبر ما يمنعُ من استفادة العلْمِ وقبولِ الحق والانقيادِ له، وفيه وردت الآيات التي فيها ذمُّ المتكبرين. قال الله

(١) الغائلة: الشرّ.

(٢) رواه الطبراني بإسنادٍ حسنٍ، والأصبهاني، كما في الترغيب والترهيب ج٣ ص٥٦٦.

تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[1] - ثم قال: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[2]، ثم أخبرَ أن أشدّ أهل النار عذاباً أشدّهم عتيّاً على الله، فقال: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾[3]. وقال: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[4]. وقال: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[5]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[6]. وقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[7]، قيل في التفسر: سأرفعُ فهمَ القرآن عن قلوبهم، وفي بعض التفاسير: سأحجب قلوبهم عن الملكوت، وقال ابن جريج: سأصرفُهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها، ولذلك قال عيسى عليه السلام: «إنّ الزرعَ ينبتُ في السهل ولا ينبت على الصفا[8]، كذلك الحكمةُ تعمرُ[9] في قلب المتواضع ولا تعمرُ في قلب المتكبّر، ألا ترونَ أنّه

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٢٩. وظاهر قوله «ثم قال» إنها في سياق الآية السابقة، لكن ليس كذلك، وفي سورة النحل هكذا ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ - الآية»؛ وهكذا فيما يلي.

(٣) سورة مريم، الآية: ٦٩. والعتيّ ههنا مصدرٌ كالعتوّ، وهو التمرّد والعصيان (المجمع).

(٤) سورة النحل، الآية: ٢٢.

(٥) سورة سبأ، الآية ٣١.

(٦) سورة المؤمن، الآية: ٦٠ وفي «القاموس»، دخرَ: صَغُرَ وذلّ.

(٧) سورة الأعراف، الآية ١٤٦.

(٨) الصفا: مفردها صَفاة، وهي الحجر الصلدُ الضخم.

(٩) تعمرُ: تسكنُ.

من يتشمَّخُ[1] برأسه إلى السقف شجه[2]، ومن يطأطِىء أظلّه وأكنّه[3]»[4]. فهذا مثَلٌ ضربهُ للمتكبّرين وأنّهم كيف يحرمون الحكمة ولذلك ذكر رسول الله ﷺ جحودَ الحقِّ في حدِّ الكبر وحقيقته، فقال: «من سفّه[5] الحق وغمص[6] الناس»[7].

٣ ـ البواعث على التكبّر وأسبابُه المهيّجة له

٣: أ ـ الباعث على الكبر

إعلم أنّ الكِبرَ خلقٌ باطن، وأمّا ما يظهرُ من الأخلاق والأفعال فهي ثمرتُها ونتيجتها، وينبغي أن تسمى تكبّراً، ويُخصَّ اسمُ الكبرِ بالمعنى الباطن الذي هو استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير.

وهذا الباطنُ له موجبٌ واحد وهو العجب الذي يتعلّقُ بالمتكبِّر، كما سيأتي معناه، فإنه إذا أُعجبَ بنفسهِ وبعلمِهِ وعمله أو بشيءٍ من أسبابه استعظم نفسَهُ وتكبّر.

٣: ب ـ الباعث على التكبّر

وأمّا الكبرُ الظاهرُ فأسبابهُ ثلاثة: سببٌ في المتكبِّر، وسببٌ في المتكبَّر عليه، وسبب يتعلق بغيرهما. أما السبب الذي في المتكبّر فهو

---

(١) يتشمّخ: يتكبّر.
(٢) شجّ: جرح وكسر.
(٣) أكنَّ: صان وستر.
(٤) لم يرد ذكر المصدر. المعدّ.
(٥) سفَّه: جعله سفيهاً أو نسبه إلى السَّفَه وهو الجهل وعدم الحلم.
(٦) غمصَ: ازدرى واستحقر
(٧) مر آنفاً.

العجب، والذي يتعلق بالمتكبَّر عليه هو الحقد والحسد، والذي يتعلق بغيرهما هو الرياء، فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة: العجب والحقد والحسدُ والرياء.

٣: ب: ١ ـ العجب

ذكرنا أن العجب يورث الكبرَ الباطن، والكبرُ الباطن يثمرُ التكبّر الظاهر في الأعمال والأقوال والأحوال.

٣: ب: ٢ ـ الحقد

قد يحملُ الحقدُ على التكبّر من غير عجبٍ، كالذي يتكبّر على من يرى أنَّه مثلَه أو فوقَه، ولكن قد غضبَ عليه بسببٍ قد سبقَ منه، فأورثه الغضبُ حقداً ورسخَ في قلبه بغضُه، فهو لذلك لا تطاوعُه نفسُه أنْ يتواضعَ له وإن كان عندهُ مستحقاً للتواضع. فكم من رذلٍ[1]. لا تطاوعه النفسُ على التواضع لواحدٍ من الأكابر لحقده عليه ولبغضهِ له، ويحملهُ ذلك على ردِّ الحقِّ إذا جاءه من جهته، وعلى الأنَفة من قبول نُصحه، وعلى أن يجتهد في التقدُّم عليه، وإن علمَ أنه لا يستحق ذلك، وعلى أن لا يستحلَّهُ ـ أن يتحلّل ويتسامَح منه ـ وإن ظلَمهُ، ولا يعتذرَ إليه وإن جنى عليه، ولا يسألهُ عما هو جاهل به.

٣: ب: ٣ ـ الحسد

يوجبُ الحسدُ البغضَ للمحسود، وإن لم يكن من جهةِ المحسود إيذاءٌ وسبب يقتضي الغضبَ والحقد. ويدعو الحسدُ أيضاً إلى جَحد الحقّ حتى يمنعَ من قبول النصح وتعلُّم العلم، فكم من جاهل يشتاق إلى العلم وقد بقي في رذيلةِ الجهل لاستنكافه ـ أي تَمنُّعه ـ أن يستفيد

---

(١) رُذلٍ: جمعها أرذال ومعناها المستحق الاحتقار.

من واحدٍ من أهل بلدهِ أو أقاربه حسداً وبغياً عليه، فهو يُعرضُ عنه ويتكبّرُ عليه، مع معرفتِه بأنه يستحقُّ التواضع لفضل علمِهِ، ولكنَّ الحسد يبعثُهُ على أن يعامِلَهُ بأخلاق المتكبرين، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسَهُ فوقَهُ.

٣: ب: ٤ ـ الرياء

يدعو الرياءُ أيضاً إلى أخلاق المتكبرين، حتى أنَّ الرجلَ ليُناظرُ من يعلم أنّه أَفضلُ منه، وليس بينه وبينه معرفة ولا محاسدة ولا حقد، ولكن يمتنعُ من قبول الحق منه، ولا يتواضعُ له في الاستفادة خيفةً من أن يقول الناس: إنّه أفضلُ منه، فيكون باعثه على التكبر عليه الرياءُ المجرد، ولو خلا معه بنفسهِ لكان لا يتكبّرُ عليه، بينما الذي يتكبّرُ بالعُجب أو الحسدِ أو الحقد يتكبّر أيضاً إذا خلا بالمتكبِّرِ عليه طالما لم يكن معهما ثالث. وكذلك قد ينتهي إلى نسبٍ شريفٍ كاذباً وهو يعلمُ أنه كاذب، ثم يتكبَّرُ به على من ليس ينتسب إلى ذلك النسب ويترفَّعُ عليه في المجالس، ويتقدم عليه في الطريق، ولا يرضى بمساواته في الكرامة والتوقير، وهو عالمٌ باطناً بأنه لا يستحقُّ ذلك، ولا كبرَ في باطنه لمعرفته بأنه كاذب في دعوى النّسَب، ولكن يحمِلهُ الرياء على أفعال المتكبرين؛ وإن كان اسمُ المتكبِّر إنما يُطلقُ في الأكثر على من يفعل هذه الأفعال عن كبرٍ في الباطن صادرٍ عن العجبِ والنظرِ إلى الغير بعين الاحتقار، وهذا إن سمّيَ متكبّراً فلأجل التشبّه بأفعالِ الكبر.

٤ ـ بيانُ ما به التكبُّر

إعلم أنّه لا يتكبّرُ إلاّ من استعظم نفسَهُ، ولا يستعظمها إلاّ وهو يعتقدُ لها صفةً من صفات الكمال، وهي ترجع إجمالاً إلى كمالٍ دينيٍّ

أو دنيوي. فالدينيُّ هو العلمُ والعمَل، والدنيويُّ هو النسبُ والجمال والقوة والمال وكثرةُ الأنصار؛ فهذه سبعة أسباب.

السبب الأول: العلم

وما أسرع الكبرَ إلى العلماء! ولذلك قالﷺ: «آفةُ العلم الخُيلاء[1]»[2]، فلا يلبثُ العالمُ أن يتعزّز بعزِّ العلم، ويستشعرَ في نفسه جمال العلمِ وكمالَهُ ويستعظمَ نفسه ويستحقِرَ الناس وينظرَ إليهم نظرةُ إلى البهائم، ويستجهلَهم ويتوقَّعَ أن يبدأوه بالسلام، فإن بدأ أحداً منهم بالسلام أو ردَّهُ عليه ببشرٍ أو قامَ له أو أجابَ له دعوة، رأى ذلكَ صنيعةً عندهُ ـ أي عند من فعل معه ذلك ـ ويداً عليه[3] يلزمُه أن يشكُرَها، واعتقدَ أنه أكرمهم وفعلَ بهم ما لا يستحقّون من مثله، وأنّه ينبغي أن يرقّوا له ويخدموه شكراً له على صنيعه، بل الغالبُ أنهم يبرُّونه فلا يَبرّهم، ويزورونه فلا يزورهم، ويعودونه فلا يعودُهم، ويستخدمُ من خالطهُ منهم ويستسخره في حوائجه، فإن قصّرَ فيها استنكر ذلك عليه، كأنهم عبيده أو أُجراؤه، وكأنّ تعليمَهُ العلم صنيعةٌ منه إليهم، ومعروفٌ لديهم، واستحقاقُ حقٍّ عليهم؛ هذا فيما يتعلّقُ بالدنيا.

وأمّا في أمر الآخرة فتكبّرهُ عليهم بأن يرى نفسَهُ عند الله أعلى،

---

(١) الخيلاء: العُجب والكبر.

(٢) قال العراقي: هكذا ذكرهُ المصنّف والمعروف «آفةُ العلم النسيان وآفة الجمال الخيلاء» هكذا رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث علي بسندٍ ضعيف. وروى عنه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس «آفة الجمالِ الخُيلاء» وفيه الحسنُ بن الحميد الكوفي، لا يُدرى من هو، حدّث عن أبيه بحديث موضوع قالهُ صاحبُ الميزان. انتهى.

(٣) يداً عليه: أي تفضلاً ونعمة.

وأفضلَ منهم، فيخافُه عليهم أكثر مما يخافه على نفسه ـ أي الله تعالى ـ ويرجو لنفسِهِ أكثرَ مما يرجو لهم. وهذا بأن يُسمّى جاهلاً أَولى من أن يُسمّى عالماً، بل العلم الحقيقيُّ هو الذي يعرفُ الإنسانُ به نفسَهُ وربَّهُ وخطرَ الخاتمةِ؛ وحجّةُ الله على العلماء، وعِظَمُ خطر العلم، هي في هذا العلم الحقيقي، كما سيأتي في طريق معالجةِ الكبرِ بالعلم. وهذه العلوم تزيد الإنسانَ خوفاً وتواضعاً وتخشّعاً، ويقتضي أن يرى أنّ كلَّ الناس خير منه، لعِظَم حجة الله تعالى عليه بالعلم، وتقصيره هو في القيام بشكرِ نعمةِ العلم. ولهذا قَال أبو الدرداء: مَن ازداد علماً ازداد خوفاً؛ وهو كما قال.

غير أن لسائل أن يسأل: ما بالُ بعض الناس يزداد بالعلم كبراً وأمناً؟ والجواب أنه: إعلم أن لذلك سببين: أحدهما، أن يكون اشتغالُهُ بما يسمّى علماً، وليس بالعلم الحقيقي، فإنما العلم الحقيقيُّ ما يعرفُ العبدُ به نفسَهُ وربّه وخطر أمرهِ في لقاء الله والاحتجاب عنه، وهذا يورثُ الخشيةَ والتواضعَ دون الكبر والأمن. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[(١)]. وأمّا ما وراء ذلك كعلمِ الطبِّ والحسابِ واللغةِ والشعرِ والنحو وفصلِ الخصوماتِ وطُرُقِ المجادلات، فإذا تجرّدَ ـ أي تفرّغ ـ الإنسان لها، حتى امتلأ علماً بها، امتلأ كبراً ونفاقاً. وهذه المعارف بأن تسمّى صناعاتٍ أَولى من أن تُسمّى علوماً، بل العلمُ هو معرفةُ العبودية والربوبية وطريقُ العبادة؛ وهذا يورث التواضعَ غالباً.

وثانيهما، أن يخوضَ العبدُ في العلم، وهو خبيث الباطن، رديءُ النفسِ سيّءُ الأخلاق، لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسِهِ وتزكية قلبه

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

بأنواعِ المجاهدات، ولم يرضَ نفسه في عبادة ربه ـ أي أن تمضي في طريق طاعته ـ فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم ـ أيَّ علم كان ـ صادفَ العلمُ من قلبِهِ منزلاً خبيثاً، فلم يطب ثمرهُ ولم يظهر في الخير أثرهُ. وقد ضرب وهب لهذا مثلاً، فقال: العلمُ كالغيث، ينزل من السماء حلواً صافياً فتشربُهُ الأشجار بعروقها، فتحوّلُهُ على قدر ثمارها، فيزداد المرُّ مرارة والحلو حلاوة. فكذلك العلمُ يحفظُه الرجال فيحولونه على قدر هممهم وأهوائهم، فيزيدُ المتكبِّرَ كِبْراً والمتواضع تواضعاً، وهذا لأنّ من كانت همته الكبر وهو جاهل، إذا حفظ العلمَ وجدَ ما يتكبّرُ به فازداد كبراً، وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله، فإنِ ازدادَ علماً، علمَ أنّ الحجّة قد تأكدت عليه، فيزدادُ خوفاً وإشفاقاً وتواضعاً، فالعلمُ من أعظمِ ما يُتكبَّرُ به، ومن أجل ذلك قال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[2]، ووصف أولياءهُ فقال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3]، ولذلك قال رسول الله ﷺ فيما رواه العبّاس: «يكون قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوزُ حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن فمَن أقرأُ منّا ومن أعلمُ منّا، ثم التفت إلى أصحابِهِ فقال: أولئك منكم أيّها الأمة، أولئك هم وقود النار»[4]، ولذلك قيل: «لا تكونوا جبابرة العلماء فلا يفي علمكم بجهلكم». وصلّى حذيفةُ بقومٍ فلمّا سلّمَ قال: لتلتمِسُنَّ إماماً غيري أو لتُصَلُّنَّ وحداناً، إني رأيتُ في نفسي أنه ليس في القوم أفضلُ منّي.

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق، كما في المغني.

فإذا كان مثله لا يسلم، فكيف يسلمُ الضعفاء من متأخّري هذه الأمّة؟! فما أعزَّ على بسيطِ الأرض عالمٌ يستحقُّ أن يقال بحقّه: إنه عالم، ثم إنه لا يحرّكُه عزُّ العلمِ وخيلاؤه! فإن وجد ذلك، فهو صدِّيقُ زمانه، فلا ينبغي أن يفارق، بل يكونُ النظرُ إليه عبادة، فضلاً عن الاستفادة من أنفاسهِ وأحواله.

لو عرفنا ذلك، ولو في أقصى الصين، لسعينا إليه رجاء أن تشملنا بركتُه، وتسريَ إلينا سيرتُه وسجيّتُهُ. وهيهات! فأنّى يسمحُ آخر الزمان بمثلهم، فهم أرباب الإقبال وأصحابُ الدول، وقد انقرضوا في القرن الأول ومن يليهم، بل يعزُّ في زماننا عالمٌ يختلج في نفسِهِ الأسف والحزنُ على فوات هذه الخصلة، فذلك أيضاً إمّا معدومٌ وإمّا عزيزٌ! ولولا بشارة رسول الله ﷺ بقوله: «سيأتي زمانٌ على الناس من تمسَّكَ بعُشرِ ما أنتم عليه نجا»[1] لكان جديراً بنا أن نقتحم ـ والعياذ بالله ـ ورطةَ اليأس والقنوط مع ما نحن عليه من سوء أعمالنا. ومن أين لنا أيضاً بالتمسُّكِ بعشرِ ما كانوا عليه؟ وليتنا تمسكنا بعُشر عشره! فنسأل الله تعالى أن يعاملنا بما هو أهلُه، وأن يستُرَ علينا قبائح أعمالنا كما يقتضيه فضلُهُ وكرمه.

السبب الثاني: العمل والعبادة

ليسَ يخلو الزهّاد والعبّادُ عن رذيلة العزّ والكبر واستمالةِ قلوب الناس، ويترشّحُ الكبرُ منهم في الدنيا والدين. أمّا الدنيا، فهو أنّهم يرونَ غيرهُم بزيارتهم أولى من أنفسهم بزيارة غيرهم، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم، والتوسع لهم في المجالس، وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ، إلى

(١) أخرجهُ أحمد في المسند ج٥ ص١٥٥ من حديث رجلٍ من أبي ذرّ.

جميع ما ذكرناه في حقّ العلماء، وكأنهم يرون عبادتهم منّة على الخلق.

وأمّا في الدين، فهو أن يرى الناسَ هالكين، ويرى نفسَهُ ناجياً، وهو الهالك حَتماً طالما رأى ذلك. قال النبيﷺ: «إذا سمعتم الرجلَ يقولُ هلكَ الناس فهو أهلكُهم»[1]، وإنما قال ذلك لأن هذا القول يدلُّ على أنه مزدرٍ (من الإزدراء) لخلق الله، مغترٌّ بالله، آمنٌ من مكرِهِ، غيرُ خائفٍ من سطوته. وكيف لا يخافُ ويكفيه شرّاً احتقارهُ لغيره! قال رسول اللهﷺ: «كفى بالمرء شرّاً أن يحقِّرَ أخاهُ المسلم». وكم من الفرق بينه وبين من يحبُّهُ ـ أي أخاه ـ لله ويُعظِّمهُ لعبادته ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجو لنفسه، فالخَلْقُ يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله فَهم يتقربون إلى الله بالدنو منه، وهو يتمقّت إلى الله بالتنزّه والتباعدِ منهم، كأنه مرتفع عن مجالستهم، فما أجدرهم إذ أحبوه لصلاحه أن ينقُلهم الله إلى درجته في العمل، وما أجدره إذا ازدرأهم بعينه أن ينقله الله إلى حدّ الإهمال كما روي من أن رجلاً في بني إسرائيل ـ يقالُ له: خليعُ بني إسرائيل لكثرة فساده ـ مر برجلٍ آخر ـ يقال له: عابدُ بني إسرائيل ـ وكانت على رأس العابد غمامة تظلّه، فلما مر الخليع به، قال الخليع في نفسه: أنا خليع بني إسرائيل وهذا عابد بني إسرائيل، فلو جلستُ إليه لعلّ الله يرحمني. فجلس إليه فقال العابد في نفسه: أنا عابدُ بني إسرائيل، وهذا خليع بني إسرائيل، كيف يجلس إليّ؟ فأنِفَ منه وقال له: قم عنّي. فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان، مُرهما ـ أي أؤمرهما ـ فليستأنفا العمل، فقد غفرت للخليع وأحبطتُ عملَ العابد؛ وفي حديث آخر، فتحولت الغمامة إلى رأس

---

(١) أخرجهُ مسلم ج٨ ص٣٦ من حديث أبي هريرة.

الخليع. وهذا يعرِّفُكَ أن الله تعالى إنما يريد من العبيد قلوبَهُم، فالجاهل العاصي إذا تواضعَ وذلَّ هيبةً لله وخوفاً منه، فقد أطاع الله بقلبه، وهو أطوعُ لله من العالم المتكبّر والعابدِ المعجَب.

وكذلك روي أنّ رجلاً في بني إسرائيل أتى عابداً من بني إسرائيل فوطىء على رقبته وهو ساجد، فقال له: إدفع، فوالله لا يغفر الله لك. فأوحى الله إليه: أيها المتآلي[1] عليّ، بل أنت لا يغفر الله لك، ولذلك قيل: وحتّى أنَّ صاحبَ الصوفِ أشدُّ كِبراً من المطرفِ[2] صاحبِ الخزّ، أيّ أنّ صاحب الخزّ يذلُّ لصاحب الصوف ويرى الفضل له، وصاحب الصوف يرى الفضل لنفسه. وهذه الآفة أيضاً قلّما ينفكُّ عنها العباد، وهي أنه لو استخفَّ به مستَخفٌ أو آذاه مؤذٍ، استبعدَ أن يغفر الله له، ولا يشكُّ في أنّه صار ممقوتاً عند الله، ولو آذى مسلماً آخر لم يستنكر ذلك الاستنكار، وذل لعظم قدر نفسه عنده، وهو جهلٌ وجمعٌ بين العجب والكبر والاغترار بالله. وقد ينتهي الحمقُ ـ أي الحماقة ـ والغباوة ببعضهم إلى أن يتحدّى ويقول: سترون ما يجري عليه، وإذا أصيب ـ المستخفَّ أو المؤذي ـ بنكبةٍ، زعمَ أنّ ذلك من كراماته، وأنّ الله ما أراد به إلاّ شفاء علّتِهِ والانتقام له منه، مع أنّه يرى طبقاتٍ من الكفار يسبّون الله ورسوله، وعرفَ جماعةً آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم ـ فمنهم من ضربهم ومنهم مَن قتَلهم ـ ثم إنّ الله أمهلَ أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا، بل ربما أسلم بعضُهم فلم يُصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة، ثمّ إن الجاهل المغرور يظنُّ أنه أكرمُ على الله من أنبيائه وأنّه قد انتقم له بما لا ينتقم لأنبيائه، ولعلّه في مقتِ الله نتيجة إعجابه وكِبره، وهو غافلٌ عن هلاك نفسه.

---

(١) المتآلي: من آلى إيلاءً وتألّى وائتلى بمعنى حَلَفَ.

(٢) المطرف: هو رداءٌ من خزّ ذو أعلامٍ.

فهذه عقيدة المغترّين، وأمّا الأكياس من العبّاد فيقولون ما كان عطاءُ السَّلَمي يقوله حين كانت تهبُّ ريحٌ أو تقع صاعقة: ما يصيبُ الناسَ ما يصيبُهم إلاّ بسببي، ولو مات عطاء لاستراحَ الناس. ويقولون ما قاله الآخر بعدَ انصرافه من عرفات: كنتُ أرجو الرحمةَ لجميعهم لولا كوني فيهم. فانظر إلى الفرق بين الرجلين، هذا يتقي الله ظاهراً وباطناً وهو وجِلٌ على نفسه، مزدَرٍ لعمله وسعيه. وذاك ربّما يضمرُ من الرياء والكِبرِ والحسدِ والغلّ ما هو ضحكة للشياطين به ـ أي أنها تضحك عليه لوجود هذه الأمور في نفسه وهو يظن نفسه من العبّاد الناجين ـ ثم إنه يمتنُّ على الله بعمله. ومن اعتقد جزماً أنه فوق أحدٍ من عباد الله فقد أحبط بجهله جميع عملهِ، فإن الجهل أفحش المعاصي وأعظمُ شيء يبعّدُ العبدَ عن الله، وحكمُهُ لنفسه بأنه خيرٌ من غيره جهلٌ محضٌ، وأمنٌ من مكر الله تعالى ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾. [الأعراف: ٩٩] ولذلك روي أنّ رجلاً ذُكر بخير للنبيﷺ فأقبلَ ذات يوم، فقالوا: يا رسول الله، هذا الذي ذكرناه لك، فقال: إني أرى في وجههِ سفعة»[١] من الشيطان. فسلّمَ ووقف على النبيﷺ وأصحابه، فقال النبيﷺ: «أسألك بالله، حدَّثتكَ نفسُك أن ليس في القوم أفضلُ منك؟ فقال: اللهمَّ نعم»[٢]. فرأى رسول اللهﷺ بنور النبوة ما استكنّ في قلبه سفعةً في وجهه؛ وهذه آفة لا ينفكُّ عنها أحدٌ من العبّاد، إلاّ من عصمةُ الله.

لكنّ العلماءَ والعبّاد في آفة الكِبر على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أنْ يكون الكِبرُ مستقرّاً في قلبِهِ، يرى نفسَهُ خيراً

---

(١) سفعةٌ: علامة.

(٢) أخرجه أحمد والبزار والدارقطني من حديث أنس كما في المغني.

من غيره، إلاّ أنه يجتهد ويتواضعُ ويفعلُ فعل من يرى غيره خيراً من نفسِهِ، وهذا قد رسُخَتْ في قلبهِ شجرة الكِبر، ولكنه قطع أغصانها بالكلية.

الدرجة الثانية: أن يظهر الكبرَ على أفعاله، بالترفُّع في المجالس، والتقدم على الأقران، وإظهار الإنكار على من يقصِّرُ في حقّه. وأدنى ذلك في العالِم أن يصعِّرَ خدّهُ للناس كأنه معرِضٌ عنهم، وفي العابد أن يعبِسَ وجهُه ويقطب جبينه كأنه متنزه عن الناس مستقذرٌ لهم أو غضبانٌ عليهم، وليس يعلمُ المسكين أن الورع ليس في الجبهَة حتّى يقطّبَها، ولا في الوجه حتى يعبس، ولا في الخدّ حتى يصعّر، ولا في الرقبة حتى يطأطأ، ولا في الذيل - ذيل الثوب - حتى يضمّ، وإنما الورع في القلوب. قال ﷺ: «التقوى ههنا»[1] وأشار إلى صدره، فقد كان رسول الله ﷺ أكرمَ الخلقِ وأتقاهم، وكان أوسعَهم خُلقاً وأكثرَهم بِشراً وتبسّماً وانبساطاً، ولذلك قال الحارثُ بن جزءٍ الزبيديّ صاحب رسول الله: يعجبني من القرّاء كلَّ طليقٍ[2] مضحاك، فأمّا الذي تلقاه ببشرٍ ويلقاك بعُبوس يمنُّ عليكَ بعملهِ، فلا أكثر اللَّهُ من المسلمين مثله، ولو كان الله يرضى ذلك لما قال لنبيّه ﷺ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾[3]. وهؤلاء الذين يُظهرون أثر الكبر على شمائلهم وأحوالهم، أخفُّ حالاً ممن هو في الرتبة الثالثة.

الدرجة الثالثة: وهو الذي يَظهرُ الكبرُ على لسانه حتى يدعوهُ إلى التظاهر والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس - أي ادعاء أنها مزكّاة -

---

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وقد تقدم.

(٢) طليق الوجه: ضاحكهُ.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

وحكاية الأحوال ـ أي وصف ما يعيشه من حالاتٍ معنوية ـ والمقامات، والتشميرِ لغلبةِ الغير في العلم والعمل. أمّا العابد فإنه يقول في معرضِ التفاخر لغيرهِ من العبّاد: من هو؟ وما عمله؟ ومِن أين زهده؟ فيطيلُ اللسانَ فيهم بالتنقّص ثم يُثني على نفسِهِ ويقول: إني لم أُفطر منذ كذا ولا أنامُ بالليل وأختمُ القرآن كلَّ يوم، وفلان ينام سحراً ولا يكثرُ القراءة، وما يجري مجرى ذلك من الكلام. وقد يزكّي نفسَهُ ضمناً فيقول: قصدني فلان بسوء فهلك ولدهُ وأُخذَ مالهُ أو مرض وغير ذلك من الكلام، مدعياً الكرامة لنفسه. وأمّا مباهاتُهُ فهو أنّه لو خالط قوماً يصلّون بالليل، قام وصلّى أكثر مما كان يصلّي، وإن كانوا يصبرون على الجوع فيكلّف نفسَهُ الصبر ليغلبهم ويُظهر لهم قوته وعجزهم، وكذلك يشتدُّ في العبادة خوفاً من أن يقال: غيرهُ أعبدُ منه وأقوى منه في دين الله.

وأمّا العالم فإنه يتفاخرُ ويقول: أنا متفنّنٌ في العلوم ومطّلعٌ على الحقائق، رأيتُ من الشيوخ فلاناً وفلاناً، ومن أنت؟ وما فضلكَ ومن لقيتَه؟ وما الذي سمعت من الحديث؟ كلُّ ذلك ليصغِّرهُ ويعظِّمَ نفسَه. وأمّا مباهاته فهو أنه يجتهدُ في المناظرةِ أن يَغلبَ ولا يُغلب، ويسهرُ طول الليل والنهار في تحصيل علومٍ يتجمّلُ بها في المحافل، كالمناظرة والجدل وتحسينِ العبارة وتسجيع الألفاظ وحفظِ العلوم الغريبة ليتميّز بها عن الأقران ويتعظَّمَ عليهم، ويحفظُ الأحاديث وألفاظها وأسانيدها حتى يردَّ على مَن أخطأ فيها، فيظهرَ فضلُه ونقصانُ أقرانه، ويفرحُ كلما أخطأ واحدٌ منهم ليردَّ عليه، ويستاءُ إذا أصابَ وأحسنَ خيفةً من أن يُرى أنه أحسنُ منه وأعظم.

فهذا كلّه أخلاق الكبر وآثارهُ التي يثمرها التعزز بالعلمِ والعمل، وأين من يخلو عن جميع ذلك أو عن بعضه؟! يا ليت

شعري، من عرف هذه الأخلاق من نفسهِ، وسمعَ قول رسول الله ﷺ: «لا يدخلُ الجنّة من كان في قلبِه مثقال حبّةٍ من خردل من كبر». كيف يستعظم نفسَهُ ويتكبر على غيره، ورسول الله ﷺ يقول: هو من أهل النار؟! وإنما العظيمُ مَن خلا عن هذا، ومَن خلا عنه لم يكن فيه تعَظُّمٌ وتكبُّر، والعالمُ هو الذي فهِمَ أنّ الله عز وجل قال له: إنّ لك عندنا قدراً ما لم تر لنفسِكَ قدراً، فإن رأيت لها قدراً فلا قدرَ لك عندنا، ومن لم يعلم هذا من الدِّين، فأسم العالمِ عليه كذبٌ، ومن عَلِمَهُ لزمَهُ أن لا يتكبر ولا يرى لنفسهِ قدراً؛ فهذا هو التكبّر بالعلمِ والعمل.

السبب الثالث: النّسب والحسب

من كان له نسبٌ شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب، وإن كان أرفعَ منه عملاً وعلماً. وقد يتكبّرُ بعضُهم فيرى أن الناس له مَوالٍ وعبيدٌ، ويأنف عن مُجالستهم ومخالطتهم، وثمرتُه على اللسان التفاخرُ به، فيقول لغيره: يا نبطيّ، ويا هنديّ، ويا روميّ! من أنت ومن أبوك؟! وأنا فلان بن فلان! وأنّى لمثلك أن يكلّمني أو ينظرَ إليّ! ومعَ مثلي تتكلم؟! وغير ذلك من الكلمات؛ وذلكَ عِرقٌ دفينٌ في النفسِ لا ينفكُّ عنه نسيب[1] وإن كان صالحاً أو عاقلاً، إلاّ أنه قد لا يترشّحُ عند اعتدالِ الأحوال، فإن غلبَهُ غضبٌ أطفأ ذلكَ نورَ بصيرتهِ، وترشّح منه، كما روي عن أبي ذرٍّ أنه قال: قاولتُ[2] رجلاً عند النبي ﷺ، فقلتُ له: يا بن السوداء، فقال النبي ﷺ: «يا أبا ذر، طف الصّاع، طف الصّاع. ليسَ لابن بيضاء على ابن سوداء فضل»، قال أبو ذر:

---

(١) نسيبٌ: ذو النسب.

(٢) قاولتُ: جادلتُ.

فاضطجعتُ وقلتُ للرجل: قم فطَأ على خدّي»[1]. فأنظر كيف نبهه رسول اللهﷺ أنه رأى نفسَهُ أفضل بكونه ابن بيضاء، وأنّ ذلك خطأ وجهل، وانظر كيف تاب وكيفَ قلعَ من نفسِهِ شجرة الكبر بأخمصِ قدمِ من تكبّر عليه، إذ عرف أن العزّ لا يقمعهُ إلاّ الذل.

ومن ذلك أيضاً ما روي أن رجلين تفاخرا عند رسول اللهﷺ فقال أحدهما للآخر: أنا فلان بن فلان، فمن أنت لا أُمَّ لك؟ فقال النبيﷺ: «افتخرَ رجلان عند موسىعليه السلام فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتى عدّ تسعةً، فأوحى الله إلى موسىعليه السلام قل للذي افتخر: كلُّ التسعةِ من أهل النار وأنتَ عاشرهم»[2]. وقالﷺ: «لَيَدَعنَّ قومٌ الفخرَ بآبائهم وقد صاروا فحماً في جهنّم أو ليكُونَنَّ أهونَ على الله من الجِعلان[3] التي تدرف[4] بآنافها[5] القذر»[6].

السبب الرابع: الجمال

يجري أكثر التفاخر بالجمال بين النساء، ويدعو ذلك إلى

(١) قال العراقي: أخرجه ابن المبارك في البرّ والصلة مع اختلافٍ، ولأحمدَ من حديثه أن النبيﷺ قال له: أنظر فإنك لست بخيرٍ من أحمر ولا أسود إلا تفضلُه بتقوى. راجع مجمع الزوائد ج٨ ص٨٤. ومراده من طفّ الصاع أي أطفىء ما اشتعل في وسط صدرك من الحميّة. والصاع: وسط الجؤجؤ أو الصدر.

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المُسند من حديث أبيّ بن كعب بسندٍ موثق كما في مجمع الزوائد ج٨ ص٨٥، ورواه صاحب الجعفريات دون ذكر موسىعليه السلام ص١٦٤ من حديث عليعليه السلام. وفي الكافي ج٢ ص٣٢٩ عن أبي عبد اللهعليه السلام.

(٣) الجعلان: ضربٌ من الخنافس وتطلق على الرجل الأسود الذميم تشبيهاً بالجَعَلْ؛ والمراد هو الأول.

(٤) تدرف: الدرف هو الظلّ والكنف والجانب. وتدرف، تضع جانباً وتجمع.

(٥) آنافها: جمع أنف.

(٦) أخرجه أبو داود ج٢ ص٦٢٤، وأخرجه ابن ماجة أيضاً.

التنقُّصِ والثلبِ والغِيبة وذكر عيوب الناس، ومن ذلك ما روي عن عائشة أنّها قالت: دخلت امرأة على النبيﷺ فلمّا خرجَتْ فقلتُ بيدي ـ هكذا ـ أي أنها قصيرة، فقال النبيﷺ: «قد اغتبتها»[١]. وهذا منشأةُ خفيُّ الكِبر، لأنها لو كانت أيضاً قصيرة (أي عائشة) لما ذكرت المرأة بالقِصَر، فكأنها أعجبت بقامتها واستقصرت المرأة في جنبِ نفسها فقالت ما قالت.

السببُ الخامس: المال

وذلك يجري بين الملوك في الخزائن، وبين التجار في بضائعهم، وبين الدهاقين[٢] في أراضيهم، وبين المتجمّلين في لباسهم وخيولهم ومواكبهم، فيستحقرُ الغنيُّ الفقير ويتكبّرُ عليه ويقول له: أنتَ مكدّ[٣] ومسكين، وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمتُ من هو فوقك، ومن أنت وما معك، وأثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالِك، وأنا أنفقُ في اليوم ما لا تأكلُه في السنة، وكلُّ ذلكَ لاستعظامهِ للغني واستحقاره للفقر وكل ذلك جهل منه بآفه الغنى وفضيلة الفقر وإليه الاشارة بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[٤] حتى أجابه وقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾[٥]، وكان ذلك تكبّراً منه بالمال والولد، ثم بيّن الله عاقبة أمرهِ، وهو قولهُ

---

(١) تقدم في كتاب آفات اللسان.

(٢) الدهقان: رئيس الإقليم ـ التاجر (أصلها فارسي).

(٣) مُكدّ: مسكين ومستعطي.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٣٤.

(٥) سورة الكهف، الآيات: ٣٩ ـ ٤١.

تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾[1]. ومن ذلك تكبّرُ قارون إذ قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾ حتى قال قومه: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ ـ الآية[2].

السبب السادس: القوة وشدة البطش

ويكون التكبّر به على أهل الضعف.

السبب السابع: كثرةُ الأتباع

التكبّرُ بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان والعشيرة والأقارب والبنين ويجري بين الملوك في المكاثرة بالجنود، وبين العلماء بالمكاثرة بالمستفيدين، وبالجملة فكلُّ ما هو نعمة وأمكن أن يُعتقد كمالاً ـ وإن لم يكن في نفسه كمالاً ـ أمكنَ أن يُتكبَّرَ به، حتى أنّ المخنّث ليتكبّرُ على أقرانه بزيادة قدرته ومعرفته في صنعةِ المخنّثين، لأنه يرى ذلك كمالاً فيفتخرُ به وإن لم يكُن فعلُه إلاّ نكالاً. وكذلك الفاسقُ قد يفتخرُ بكثرة الشرب وكثرةِ الفجور بالنسوان والغلمان، ويتكبّر به لظنّه أنّ ذلك كمالٌ، وإن كان مخطئاً فيه.

فهذه أمهات أسباب ما يَتكبّرُ به العباد بعضُهم على بعض، فيتكبّرُ من يدلي بشيء منه على من لا يدلي به، أو على من يدلي بما هو دونَهُ في اعتقاده، وربما كان مثلَهُ أو فوقه عند الله تعالى، كالعالمِ الذي يتكبّرُ بعلمِهِ على من هو أعلم منه، لظنّه أنّه هو الأعلم، ولحسنِ اعتقاده في نفسِهِ.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٢.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٩.

٥ ـ أقسامُ المتكبَّر عليه ودرجاتُه وثمراتُ الكبرِ فيها

إعلم أنّ المتكبَّر عليه هو الله تعالى أو رسلُهُ أو سائر الخلق، وقد خُلقَ الإنسانُ ظلوماً جهولاً، فتارة يتكبرُ على الخلقِ، وتارة يتكبّرُ على الخالق. فإذن التكبّرُ باعتبار المتكبَّرِ عليه ثلاثة أقسام:

الأول: التكبّرُ على الله

وذلك هو أفحش أنواع الكبر، ولا مثارَ له ـ أي لا سببَ يؤدي إلى ظهوره ـ إلاّ الجهلُ المحض والطغيان، تماماً كما فعل نمرود، فإنه كان يحدّث نفسَهُ بأن يقاتل ربَّ السماء، وكما يحكى عن جماعةٍ من الجهلة، بل ما يُحكى عن كلِّ مَن ادّعى الربوبية مثل فرعون وغيره، فإنه لتكبّره قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1] إذ استنكفَ[2] أن يكون عبد الله، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3]. وقال الله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾[5].

---

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤.

(٢) استنكف: استكبر، امتنع حمية وأنفةً واستكباراً.

(٣) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٤) سورة النساء، الآيتان: ١٧٢، ١٧٣.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٦٠.

الثاني: التكبر على الرسل

وهو يكون من جهة تعزّز النفسِ وترفّعها عن الانقياد لبشرٍ مثل سائر الناس، وذلك تارةً يصرفُ عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظُلمة الجهل بكبره، فيمتنع عن الانقياد وهو ظانٌّ أنه محقٌّ فيه. وتارة يمتنعُ مع المعرفة، إذ لا تطاوعه نفسُهُ للانقياد للحقّ والتواضع للرشد، كما حكى الله تعالى عن قولهم ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾[1] و ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾[2] و﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾[3] و ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[4]، وقالوا: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾[5]. وقال فرعون فيما أخبرَ الله عنه: ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[6]، وقال الله تعالى: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[7]، فتكبّر هو على الله تعالى وعلى رسوله جميعاً.

قال وهب: قال له موسى عليه السلام: يا فرعون آمِنْ ولكَ ملكك. قال: حتى أشاور هامان، فشاور هامان فقال له هامان: بينما أنت ربٌّ تُعبد إذ صرتَ عبداً تَعبُد، واستنكف عن عبودية الله عز وجل ومن اتباع موسى عليه السلام. وقالت قريش: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٤٧.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٠.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٣٤.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢١.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٧.
(٦) سورة الزخرف، الآية: ٥٣.
(٧) سورة القصص، الآية: ٣٩.

﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1]، قال قتادة: عظيمُ القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي، طلبوا من هو أعظم رئاسةً من النبيﷺ إذ قالوا غلامٌ يتيمٌ، كيف بعثه الله إلينا؟! فقال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾[3] أي استحقاراً واستبعاداً لتقدُّمهم. وقالت قريش: كيف نجلسُ إليك وعندك هؤلاء؟ أشاروا إلى فقراء المسلمين فأزدروهم بأعينهم لفقرهم، وتكبّروا عن مجالستهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[4]. وقال: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[5]، ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم، إذ لم يروا الذين استرذلوهم فقالوا: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾[6]، قيل: يعنون عماراً وبلالاً وصُهَيباً والمقداد. ثمّ كانَ مِنهم مَن منعه الكبر عن الفكر والمعرفة فجهلَ كونَهُﷺ مُحقّاً، ومنهم مَن عرفَ ذلك ومنعَهُ الكبرُ عن الاعتراف، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾[7]، وقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[8]. وهذا الكبر قريب من التكبّر على الله، وإن كان دونه، ولكنّه تكبّر عن قبول أمر الله والتواضع لرسولهﷺ.

---

(1) (2) سورة الزخرف، الآيتان: ٣١، ٣٢.

(3) (4) سورة الأنعام، الآيتان: ٥٢، ٥٣.

(5) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(6) سورة ص، الآية: ٦٢.

(7) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

(8) سورة النمل، الآية: ١٤.

الثالث: التكبّر على العباد

وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقرَ غيره، فتأبى نفسهُ عن الانقياد له وتدعوهُ إلى الترفّع عليهم، فيزدريهم ويستصغرهم ويأنفَ من مساواتهم. وهذا وإن كان دون الأول والثاني، فهو أيضاً عظيمٌ من وجهين:

أحدهما، أنّ الكبرَ والعزّ والعظمةَ والعلاء ـ أي التعالي ـ لا يليقُ إلاّ بالملك القادر، وأمّا العبد المملوك الضعيف العاجزُ الذي لا يقدرُ على شيء، من أين يليقُ به الكبر؟ فكلّما تكبّر العبدُ فقد نازعَ الله تعالى في صفةٍ لا تليقُ إلاّ بجلاله، ومثالهُ أن يأخذَ الغلامُ قلنسوةَ الملكِ فيضعَها على رأسِهِ ويجلسَ على سريره، فما أعظمَ استحقاقه للمقت، وما أعظمَ جدارته بالخزي والنكال، وما أشدَّ جرأته على مولاه، وما أقبح ما فعله! وإلى هذا المعنى الإشارةُ في كلامه تعالى: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته»[1] أي أن العظمة والكبرياء خاصان صفتين ولا يليقان إلاّ بي، والمنازع فيهما منازعٌ في صفتينِ من صفاتي.

وإذا كان الكبرُ على عباده لا يليقُ إلاّ به، فمن تكبّر على عباده فقد جنى عليه، إذ الذي يسترذلُ خواصّ غلمان الملك ويستخدمهم ويترفع عليهم ويستأثرُ بما حقُّ الملكِ أن يستأثر به منهم، فهو منازعٌ له في بعضِ أمره، وإن لم تبلغ درجته درجة من أراد الجلوس على سريره والاستبداد بملكه، فالخلق كلُّهم عباد الله، وله العظمة والكبرياء عليهم، فمن تكبّر على عبدٍ من عباد الله فقد نازع اللّهَ في حقِّه. نعم، الفرقُ بين هذه المنازعة وبين منازعة نمرود وفرعون، ما هو الفرقُ بين

(١) أخرجهُ الحاكم في المستدرك ج١ ص٦١، وقد تقدم.

منازعة الملكِ في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منازعته في أصل المملكة.

ثانيهما، أنّ ما تعظمُ به رذيلة الكِبر هو أنه يدعو إلى مخالفةِ الله تعالى في أوامره، لأنّ المتكبّر إذا سمعَ الحقّ من عبدٍ من عبادِ الله استنكفَ من قبوله وتشمَّر لجحده[١]، ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين، ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين. وكلما اتّضح الحق على لسانِ واحدٍ منهم، أنِفَ[٢] الآخر من قبوله وتشمّرَ لجحده واحتال لدفعه بما يقدرُ عليه من التلبيس، وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين، إذ وصفهم الله تعالى، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾[٣]. فكلُّ من يناظرُ للغلبة والإفحام لا ليغتنم الحقَّ إذا ظفرَ به شاركهم في هذا الخُلُق، وكذلك يُحملُ ذلك على الأنفةِ من قَبولِ الوعظ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ﴾[٤]. وقال ابن مسعود: كفى بالرجلِ إثماً إذا قيل له: اتّقِ الله، قال: عليك بنفسكَ.

وقالﷺ لرجلٍ: «كُل بيمينك، فقال: لا أستطيع، فقال النبيﷺ: لا استطعت فما منعه إلاّ كبره، فقيل: ما رفعها بعد ذلك»[٥] أي اعتلّت يده. فإذن تكبّره على الخلقِ عظيم لأنه سيدعوه

---

(١) الجحود: الكفران بالشيء، التكذيب، الإنكار.
(٢) أنفَ: كره، ترفّع وتنزّه عن.
(٣) سورة فصّلت، الآية: ٢٦.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠٦.
(٥) أخرجهُ مسلم ج٦ ص١٠٩، وقال النووي: هذا الرجُل بسر بن راعي العيد الأشجعي، كذا ذكره ابن منده.

إلى التكبّر على أمر الله، وإنما ضربَ إبليس مثلاً لهذا، وما حكاهُ من أحوالِه إلاّ ليعتُبرَ به، فإنه قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ وهذا الكِبرُ بالنسب لأنه قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾(١) فحمله ذلك على أن يمتنع عن السجود الذي أمرهُ الله تعالى به، فكان مبدؤهُ الكبرَ على آدم والحسدَ له، فجرّهُ ذلك إلى التكبر على أمرِ الله، فكان ذلك سبب هلاكِهِ أبدَ الآباد. فهذه آفةٌ من آفات الكبر على العبادِ عظيمة، ولذلك شرح رسول الله ﷺ الكبر بهاتين الآفتين، إذ سألهُ ثابت بن قياس بن شمّاس، فقال: يا رسول الله، إني امرؤ قد حبّب إليّ من الجمال ما ترى، أفمنَ الكِبرِ هو؟ فقال ﷺ: لا، ولكن الكبرَ من بطِرَ الحق وغمص الناس»(٢) أي أزدرأهم واستحقرهم، وهم عباد الله أمثاله وخيرٌ منه، وهذه الآفة الأولى. وقوله «سفه الحق» هو ردّهُ به، وهي الآفة الثانية.

فكلُّ من رأى أنّه خير من أخيه واحتقرَ أخاه فازدرأه ونظر إليه بعين الاستصغار، أو ردَّ الحق وهو يعرفه، فقد تكبّر فيما بينه وبين الخلق، ومَن أنف من أن يخضعَ لله تعالى ويتواضعَ له بطاعته واتباع رسله، فقد تكبّر فيما بينه وبين الله تعالى والرسل.

٦ ـ ذمّ الكبر

قد ذمَّ الله تعالى الكِبَر في مواضع من كتابه، وذمَّ كلَّ جبّار متكبّر، فقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾(٣). وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

(٢) تقدّم غير مرةٍ بلفظِ «من سفهَ الحق».

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

جَبَّارٍ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾[2] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخلُ الجنّة من كان في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من كِبر، ولا يدخلُ النار من كان في قلبه مثقال حبّة من إيمان»[4]. وعنه ﷺ: «يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منها ألقيتُه في جهنّم ولا أبالي»[5]. وقال ﷺ: «لا يزال الرجلُ يذهبُ بنفسِهِ حتى يُكتبَ في الجبّارين، فيصيبُه ما أصابهم منَ العذاب»[6].

وقال سليمان بن داود عليه السلام يوماً للطير والجن والإنس والبهائم: «أخرجوا، فخرجوا في مائتي ألفٍ من الإنس ومائتي ألفٍ من الجن، فرُفِعَ حتى سمع زجل الملائكة بالتسبيح في السماوات، ثم خُفِضَ حتى مسَّتْ قدماهُ في البحر فسمعَ صوتاً يقول: لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرة من كبر لخَسفتُ به أبعدَ مما رفعتُه»[7].

وقال ﷺ: «يخرجُ من النار عُنقٌ[8] له أذنان يسمعان وعينان

(١) سورة المؤمن، الآية: ٣٥.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٥.
(٣) سورة النحل، الآية: ٢٣.
(٤) أخرجه مسلم ج١ ص٦٥ من حديث عبد الله بن مسعود.
(٥) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٤١٧٤، وأبو داود ج٢ ص٣٨٠ بلفظ «قذفتُه في النار».
(٦) أخرجه الترمذي في ذيل حديثٍ عن سلمةَ بن الأكوع عن أبيه عن النبي ﷺ وحسَّنَه.
(٧) لم يرد مصدر هذا الحديث [المعدّ].
(٨) عُنُق: لعل المراد منها المعنى المعروف وهو العضو ما بين الرأس والصدر، ولها معانٍ أخر فراجع كتب اللغة.

يبصران ولسان ينطقُ يقول: وكُلتُ بثلاثة: بكلِّ جبّار عنيد، وبكلِّ من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصوّرين[1]»[2]. وقالﷺ: «لا يدخلُ الجنة جبّار ولا بخيل ولا سيءُ الملكة»[3] وقالﷺ: «تحاجّت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرتُ بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلاّ ضعفاءُ الناس وسقاطهم[4] وعجَزَتهم، فقال الله تعالى للجنة: إنما أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاءُ من عبادي، وقال للنار: إنما أنتِ عذابي، أعذِّبُ بكِ من أشاء، ولكلّ واحدةٍ منكما ملؤها»[5].

وقالﷺ: «بئسَ العبدُ عبدٌ تجبّر واعتدى ونسيَ الجبار الأعلى، بئس العبدُ عبدٌ تجبّر واختال ونسيَ الكبير المتعال، بئس العبدُ عبدٌ غفِلَ وسها ولها ونسيَ المقابرَ والبِلى، بئسَ العبدُ عبدٌ عتا وبغى ونسي المبتدأ والمنتهى»[6]. وعن ثابت أنه قال: بلَغَنا أنه قيل: يا رسول الله، ما أعظمَ كبرَ فلان، فقال: «أليسَ بعده الموت»[7].

وعنهﷺ: «إن نوحاً لما حضرتهُ الوفاة دعا ابنيه فقال: إنّي آمركما باثنتين وأنهاكما عن الشرك والكِبر، وآمركما بلا إله إلاّ الله،

---

(١) المصوِّر: صانع التماثيل.
(٢) أخرجه الترمذي ج١٠ ص٤٤ من حديث أبي هريرة، وقال: حسنٌ غريب صحيح. وهكذا رواه البغوي في المصابيح ج٢ ص١٣٠، وقد رواه بعضُهم عن عطية عن أبي سعيد الخدري.
(٣) تقدم سابقاً.
(٤) سقاط: اللئيم الناقص العقل، كما في المنجد حرف السين ص٣٣٩.
(٥) أخرجه مسلم ج٨ ص١٥١، وفيه «وسقطهم وغرتهم».
(٦) أخرجه البغوي في المصابيح ج٢ ص١٦٨ بتقديم وتأخير، وقال: غريبٌ ضعيف.
(٧) قال العراقي: أخرجه البيهقي في الشعب هكذا مرسلاً بلفظ «تجبّر».

فإن السمٰوات والأرضين وما فيهنّ لو وُضعت في كفّةِ الميزان، ووضعت «لا إله إلاّ الله» في الكفّة الأخرى، لكانت أرجح منهما، ولو أن السماوات والأرضين وما فيهنَّ كانتا حلقة فوضِعَت «لا إله إلاّ الله» عليها لقصَمتها، وآمركما بسبحان الله وبحمده، فإنهما صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء»[1].

وقال عيسى عليه السلام: «طوبى لمن علّمه الله كتابهُ ثم لم يمت جباراً»[2]. وقال نبيّنا ﷺ: «أهلُ النار كلُّ جَعظريٍّ وكل جوّاظٍ مستكبرٍ جمّاعٍ منّاع، وأهل الجنة الضعفاءُ المقلّون»[3]. وقال ﷺ: «إنّ أحبكم إلينا وأقربكم منّا في الآخرة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلينا وأبعدكم منا في الآخرة الثرثارون المتشدقون المتَفَيهِقون، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارين المتشدّقين، فمن المتفيهقون؟ قال: المتكبّرون»[4].

وقال ﷺ: «يحشرُ المتكبرون يوم القيامة في مثل صور الذرّ[5] تطؤهم الناس ذرّاً في مثل صور الرجال، يعلوهم كلُّ شيء من الصَّغَار[6]، ثم يُساقون إلى سجنٍ في جهنم يُقال له: بولس، يعلوهم

(١) أخرجه أحمد في المسند ج٢ ص١٧٠ من حديث ابن عمر.

(٢) لم يرد مصدر الحديث. المعدّ.

(٣) أخرجه الحاكم ج١ ص٦١ من حديث سراقةَ بن مالك بسندٍ صحيح، بتقديم وتأخير وفيه «المغلوبون» مكانَ «المقلّون» ودون ذكرِ جمّاعٍ منّاع. والجعظري: الغليظ المتكبر (النهاية).

(٤) أخرجه الترمذي ج٨ ص١٧٥ من حديث جابر. والثرثار: هو الكثير الكلام تكلّفاً، والمتشدِّق هو المتكلّم بملء شدقيه تفاصحاً وتعاظماً واستعلاء على غيره، وهو معنى المفيهق أيضاً.

(٥) الذرّ: النمل.

(٦) الصّغَار: الذل.

نار الأنيار[1]، يُسقونَ من طينة الخَبال[2] وعصارة أهل النار»[3].

وعنه ﷺ: «يُحشر الجبّارون المتكبّرون يوم القيامة في صور الذرّ يطؤهم الناسُ لهوانهم على الله تعالى»[4]. وعنه ﷺ «إنّ في جهنم وادياً يُقال له: هَبْهَبْ، حقٌّ على الله سبحانه أن يُسكن فيه كلَّ جبّار»[5]. وعنه ﷺ «إنّ في النار قصراً يُجعل فيه المتكبّرون ويُطبَقُ عليهم»[6]. وقال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من نفخة الكبرياء»[7]. وقال ﷺ: «مَن فارقَ روحُه جسدَه وهو بريء من ثلاثٍ دخلَ الجنّة: الكِبر، والدَّين والغُلُول[8]»[9]. وسُئل سلمان عن السيئة التي لا تنفعُ معها حسنة، فقال: الكِبر.

---

(١) الأنيار: مفردها النِّير، وهي الخشبة المعترضة في عُنُقَي الثورين بأداتها. فأهل النار يساقون بمثلها حسب الحديث.

(٢) الخَبال: الفساد والعناء والنقصان والهلاك.

(٣) أخرجه أحمد ج٢ ص١٧٩.

(٤) أخرجه البزار هكذا مختصراً دون قوله: «الجبّارون» وإسناده حسن (المغني).

(٥) أخرجهُ الحاكم في المستدرك ج٤ ص٥٩٧، وسنده ضعيف.

(٦) قال العراقي: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس، وقال: «توابيت» مكان «قصراً»، وقال: «فيُقفَلُ» مكان «يُطبَق» وفيه أبان بن أبي عياش وهو ضعيف.

(٧) ما عثرتُ على أصل له إلاّ على ما أخرجَهُ ابن ماجة في كتاب «إقامة الصلاة باب الاستعاذة في الصلاة» رقم ٨٠٧ في حديث: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم، من همزه ونفخِهِ ونفثه». وقال عمرو: همزه: الموتة، ونفثُه: الشِّعر ونفخُه: الكِبر، انتهى. والموتة نوع من الجنون والصرع يعتري الإنسان، فإذا أفاق عاد إليه كمال العقل، كالسكران.

(٨) الغُلول: الخيانة.

(٩) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٢٤١٢ من حديث ثوبان. أقول: قال العراقي: رواه ابن الجوزي في جامع المسانيد عن الدارقطني، قال: إنما هو الكنز مكان «الكِبر»، وكذلك ذكرَ ابن مَردويه الحديثَ في تفسير ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾.

ومن طريق الخاصة ما رواه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «الكِبرُ رداء الله والمتكبّر ينازعُ الله رداءه»[1]. وعنه عليه السلام: «العز رداء الله والكبر إزاره، فمن تناول شيئاً منه أكبَّهُ الله في جهنم»[2]. وعنه، وعن أبي عبد الله عليه السلام قالا: «لا يدخل الجنّة مَن في قلبه مثقال ذرة من كبر»[3].

وعن محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام، قال: «لا يدخلُ الجنّة مَن كان في قلبِهِ مثقال حبّة من خردل من الكبر، قال: فاسترجعت، فقال: ما لكَ تسترجع؟ قلتُ: لما سمعتُ منك، فقال: ليس حيث تذهب إنما أعني الجحود، إنما هو الجحود»[4] وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الكبرُ أن تغمص الناس وتسفّه الحق»[5] وعنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ أعظمَ الكبر غمصُ الخلق وسفه الحقّ، قال: قلت: ما غمص الخلق وسفه الحقّ؟ قال: يجهلُ الحقَّ ويطعن على أهله، فمن فعلَ ذلك فقد نازع الله رداءه»[6].

وعنه عليه السلام قال: «إنّ في جهنّم لوادياً للمتكبرين يُقال له: سقَر، شكا إلى الله شدَّة حرِّه وسأله أن يأذن له أن يتنفّس، فتنفّس فأحرق جهنّم»[7] وعنه عليه السلام قال: «إنّ المتكبّرين يجعلون في صُورِ الذرّ يتوطّأهم الناس حتى يفرغَ الله من الحساب»[8].

وعن عمر بن يزيد قال: قلتُ لأبي عبد الله عليه السلام: إنّني آكل

---

(١) (٢) (٣) (٤) (٥) (٦) الكافي باب الكبر ج٢ ص٣٠٩ تحت رقم ٤ و٣ و٦ و٧ و٨ و٩ والغمص: الاحتقار والاستصغار. والسَّفَه: الجهل، وأصلُهُ: الخفّة والطيش، ومعنى سفه الحق الاستخفاف به وأن لا يراهُ على ما هو عليه من الرجحان والرزانة.

(٧) (٨) الكافي ج٢ ص٣١٠ تحت رقم ١٠ و١١.

الطعام الطيّب وأشمُّ الريح الطيّبة وأركب الدابة الفارهة ويتبعني الغلام فترى في هذا شيئاً من التجبّر فلا أفعله؟ فأطرقَ أبو عبد الله عليه السلام[1] ثم قال: «إنما الجبّار الملعون من غمصَ الناس وجهِلَ الحقّ» قال عمر: فقلتُ: أمّا الحقُّ فَلا أجهله والغمص لا أدري ما هو؟ قال: «من حقّر الناس وتجبّر عليهم فذلك الجبّار»[2]. وعنه عليه السلام قال: «إنّ يوسف عليه السلام لمّا قدم عليه الشيخ يعقوب عليه السلام دخله عِزُّ المُلك، فلم يَنزلْ إليه فهبطَ عليه جبرئيل. فقال: يا يوسف أُبسط راحتك[3] فخرجَ منها نور ساطع فصار في جوِّ السماء، فقال يوسف: يا جبرئيل، ما هذا النور الذي خرجَ من راحتي؟ قال: نزعتُ النبوة من عَقِبك عقوبة لما لم تنزل إلى الشيخ يعقوب فلا يكون من عقبك نبي»[4].

وعنه عليه السلام قال: «ما من عبدٍ إلاَّ وفي رأسه حَكَمة[5] ومَلَكٌ يمسكها فإذا تكبّر قال له: إتّضع وضعك الله، فلا يزال أعظم الناس في نفسِهِ وهو أصغر الناس في أعين الناس، فإذا تواضعَ رفعها الله،

---

(١) لعلّ إطراقه وسكوته عليه السلام للإشعار بأنها في محل الخطر وملتزمة للكبر.

(٢) الكافي ج٢ ص٣١١ تحت رقم ١٣.

(٣) الراحة: باطن الكفّ.

(٤) الكافي ج٢ ص٣١١ تحت رقم ١٥. والنزول إمّا عن الدابة أو عن السرير، وكلاهما مرويان وينبغي حملُهُ على أنّ ما دخَلَهُ لم يكن تكبّراً وتحقيراً لوالده لكونِ الأنبياء منزهين عن أمثال ذلك، بل راعى فيه المصلحة لحفظِ عزّتِهِ عند عامة الناس لتمكنه من سياسة الخلقِ وترويجِ الدين، إذ كان نزول الملك عندهم لغيره موجباً لذلّه، وكان رعاية الأدب للأبِ مع نبوته ومقاساة الشدائد لحبّه أهمّ وأولى من رعاية تلك المصلحة، فكان هذا منه عليه السلام تركاً للأولى، فلذا عوتِبَ عليه وخرج نور النبوة من صلبه، لأنّهم لرفعةِ شأنهم وعلو درجتهم يعاتَبون بأدنى شيء، فهذا كان شبيهاً بالتكبّر ولم يكن تكبّراً، وقوله: «فصار إلى جوّ السماء» أي استقرّ هناك أو ارتفعَ إلى السماء. قاله العلامة المجلسي (رحمه الله) في مرآة العقول.

(٥) الحَكَمة: اللجام أو ما أحاط بحنكيّ الفرس من لجامه، وفيها العذران.

ثم قال الله له: انتعش نعشك الله[1] فلا يزال أصغر الناس في نفسه وأرفع الناس في أعين الناس»[2].

وعنه عليه السلام قال: «ما مِن أحدٍ يتيه[3] إلاّ من ذلّة يجدها في نفسه» وفي لفظٍ آخر «ما من أحدٍ تكبّر أو تجبّر إلاّ لذلة وجدها في نفسِه»[4]. وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ثلاثة لا يكلّمهم الله ولا ينظرُ إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم: شيخٌ زانٍ ومَلكٌ جبّار ومُقلٌّ مختال»[5].

٧ - ذمُّ الاختيالِ وإظهارِ آثار الكِبر في المشي وجرِّ الثياب

قال النبي صلى الله عليه وآله: لا ينظرُ الله إلى رجلٍ يجرُّ إزارهُ بطراً[6]»[7]. وقال صلى الله عليه وآله: «بينما رجل يتبختر في بُردَتِه[8] وقد أعجبتْهُ نفسهُ خسفَ الله به الأرضَ فهو يتجلجل[9] فيها إلى يوم القيامة»[10]. وقال صلى الله عليه وآله: «مَن

---

(١) أي ارتفع رفعَكَ الله والأمرُ فيه وفي «اتضع» تكويني أو تشريعي.

(٢) الكافي ج٢ ص٣١٢ تحت رقم ١٦.

(٣) يتيه: أي يتكبر.

(٤) الكافي ج٢ ص٣١٢ تحت رقم ١٧. والمعنى واضح أي ما تكبّر من الناس أحدٌ إلاّ مَن أيقنَ بضعفٍ أو ذلّة كامنة في نفسِه، ولذلك يتكبّر لكي يجبرها ويدفعَ عن نفسه تلك الخسّة والذلّة، ويحتمل أن تكون اللام لام الصيرورة أو الذلّة سبباً للتكبّر.

(٥) الكافي ج٢ ص٣١١ تحت رقم ١٤، والمقلّ: الفقير، والمختال: المتكبّر.

(٦) البطر: التكبّر.

(٧) أخرجَهُ مسلم ج٦ ص١٤٧. ورواه البغوي في المصابيح ج٢ ص١١٩، واللفظ له.

(٨) بُردة: كساء من الصوف الأسود يُلتحف به.

(٩) يتجلجل: (في الأرض) يدخل فيها.

(١٠) أخرجه أبو يعلى والطبراني والبزار من حديث العباس بن عبد المطلب، ومتفق عليه في الصحيحين من حديث أبي هريرة.

جرَّ إزارهُ خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»[1]. وقال ﷺ: «إذا مشت أمّتي المصيطاء وخدَمتهُم فارسُ والروم سلّطَ اللّهُ بعضَهم على بعض»[2]؛ قال ابن الأعرابي: هي مشية فيها اختيال[3]. وقال ﷺ: «مَن تعظَّم في نفسه واختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان»[4] وروي أن عمر بن عبد العزيز حجَّ قبلَ أن يُستخلَف، فنظر إليه طاؤوس وهو يختالُ في مشيته، فغمزَ جنبه بإصبعه ثم قال: ليست هذه مشية مَن في بطنه خرء، فقال عمر كالمعتذر: يا عمّ، لقد ضربَ كلُّ عضوٍ منّي - أي اعتاد - على هذه المشية حتى تعلمتها. ويروى أنّ مطرف بن عبد الله بن الشخّير رأى المهلّب وهو يتبختر في جبّة[5] خزّ[6]، فقال له: يا عبد الله، هذه مشية يبغضها الله ورسوله، فقال له المهلّب: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك، أوّلك نطفةٌ مَذِرة[7] وآخرك جيفةٌ قذرة، وتحمل بين جنبيك العذَرة، فمضى المهلّب وترك مشيتهُ تلك. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾ أي يتبختر؛ وإذ ذكرنا ذمّ الكبر والاختيال، فلنذكر فضيلة التواضع.

٨ - فضيلةُ التواضع

قال رسول الله ﷺ: «ما زاد الله عبداً بعفوٍ إلاّ عزّاً، وما تواضع

---

(١) أخرجهُ البغوي في المصابيح ج٢ ص١١٩، واللفظ له من حديث ابن عمر.

(٢) أخرجه الترمذي ج٩ ص١١٨، وفيه «المطيطياء». وفي النهاية «المطيطاء» وذكر أنها بالمد والقَصر، وهي مشية فيها تبختر ومدُّ اليدين.

(٣) الاختيال: التبختر والتكبر.

(٤) أخرجه أحمد والبخاري في الأدب المفرد من حديث عبد الله بن عمر بسندٍ حسن، كما في الجامع الصغير.

(٥) جبّة: ثوب واسع يُلبسُ فوق الثياب.

(٦) الخزّ: الحرير.

(٧) المذِر: الفاسد والخبيث.

أحدٌ لله إلاّ رفَعَهُ الله»[١]. وقال ﷺ: «ما من أحدٍ إلا ومعه ملَكان وعليه حكَمةٌ يمسكانه بها، فإن هو رفعَ نفسه جبَذاها ثم قالا: اللهمّ ضعه، وإن وضع نفسَهُ قالا: اللهمّ ارفعهُ»[٢]. وقال ﷺ: «طوبى لمن تواضعَ في غير مسكنة، وأنفق مالاً جمعهُ من غير معصية، ورحمَ أهل الذلّة والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة»[٣].

وعن أبي سلمةَ المدينيّ، عن أبيه، عن جدّه، قال: كان رسول الله ﷺ عندنا بقباء، وكان صائماً فأتيناه عند إفطاره بقدحٍ من لبن وجعلنا فيه شيئاً من عسل، فلمّا رفعهُ فذاقَهُ وجدَ فيه حلاوةَ العسل، فقال: ما هذا؟ قلنا: يا رسول الله، جعلنا فيه شيئاً من عسل، فوضَعَه[٤] وقال: أمَا إنّي لا أحرِّمُهُ، ومَن تواضعَ لله رفعهُ الله، ومَن تكبّر وضعهُ الله، ومن اقتصد أغناه الله، ومَن بذّرَ أفقره الله، ومن أكثر ذكرَ الله أحبّهُ الله»[٥].

وروي أن النبي ﷺ كان في نفرٍ من أصحابه في بيته يأكلون، فقام سائلٌ على الباب وبه زمانة[٦] ننكره بها، فأذِنَ له، فلما دخلَ

---

(١) أخرجه مسلم ج٨ ص٢١ من حديث أبي هريرة.

(٢) قال العراقي: أخرجه العقيلي في الضعفاء، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة، وأيضاً من حديث ابن عباس، وكلاهما ضعيف. انتهى. أقول: ورواه الطبراني والبزار بنحوه من حديث أبي هريرة، وإسنادهما حسن، كما في الترغيب للمنذري ج٣ ص٥٦١. ومرَّ عن الكافي آنفاً بسندٍ حسن.

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ، والبغوي والبارودي وابن قانع والطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب عن ركبٍ المصري بسندٍ حسن، كما في الجامع الصغير.

(٤) وضعه: تركه من يده.

(٥) أخرجه البزار من رواية طلحة بن عبيد الله عن أبيه عن جدّه طلحة، فذكرَ نحوه إلاّ قوله «ومن أكثرَ ذكر الله أحبه الله» ولم يقل بقباء. قال الذهبي إنه خبرٌ منكر (المغني). وأخرجه الكليني ج٢ ص١٢٣.

(٦) زَمانة: عاهة.

أجلَسَهُ رسول اللهﷺ على فخذه ثم قال: إطعَمْ، وكان رجلٌ من قريش إشمأزّ منه ويكرههُ فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها[1].

وقال النبيﷺ: «خيّرني ربّي بين أمرين: أكونَ عبداً رسولاً أو ملكَاً نبيّاً فلم أدرِ أيَّهما اختار، وكان صفييّ من الملائكةِ جبرئيلُ، فرفعتُ رأسي، فقال: تواضَع لربّك، فقلتُ: عبداً رسولاً»[2].

وأوحى الله تعالى إلى موسىعليه السلام: «إنما أقبلُ صلاةَ من تواضعَ لعظمتي، ولم يتعاظم على خلقي، وألزمَ قلبَه خوفي، وقطعَ النهار بذكري، وكفّ نفسَهُ عن الشهوات من أجلي».

وقالﷺ: «الكرمُ التقوى، والشرفُ التواضع، واليقين الغنى»[3]. وقال عيسىعليه السلام: «طوبى للمتواضعين في الدنيا، هم أصحابُ المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا، هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهّرة قلوبهم في الدنيا، هم الذين ينظرون إلى الله عز وجل يوم القيامة».

وقال بعضُهم: بلغني أن النبيّﷺ قال: «إذا هدى الله عبداً للإسلام وحسّنَ صورتَهُ وجعله في موضعٍ غير شائن له ورزقه مع ذلك تواضعاً، فذلك من صفوة الله»[4].

---

(١) قال العراقي: لم أجد له أصلاً. والموجود حديثُ أكلهِ مع المجذوم. رواه أبو داود والترمذي ج٨ ص١١ من حديث جابر، وقال الترمذي: غريب.

(٢) أخرجه أبو يعلى من حديث عائشة، والطبراني من حديث ابن عباس، وكلا الحديثين ضعيفُ السند كما في المغني، وأخرجَه الكليني ج١ ص١٢٢ تحت رقم ٥.

(٣) أخرجَهُ ابن أبي الدنيا في اليقين عن يحيى بن أبي كثير مرسلاً، كما في الجامع الصغير.

(٤) أخرجه الطبراني موقوفاً على ابن مسعود نحوه، وفيه المسعودي. مختلف فيه (المغني).

وقال ﷺ: «أربعٌ لا يعطيهنّ الله إلاّ مَن يحبّ: الصمتُ وهو أول العبادة، والتوكل على الله، والتواضع، والزهدُ في الدنيا»[١].

وقال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «إذا تواضعَ العبدُ رفعهُ الله إلى السماء السابعة»[٢]. وقال النبي ﷺ: «التواضعُ لا يزيد العبدَ إلاّ رفعةً فتواضعوا يرحمكم الله»[٣].

وروي أن رسول الله ﷺ «كان يَطْعمُ، فجاء رجل أسود به جدريّ قد تقشّر فجعلَ لا يجلسُ إلى جنبِ أحدٍ إلاّ قام من جنبه، فأجلسه النبي ﷺ إلى جنبه»[٤]. وقال ﷺ: «إنه ليعجبني أن يحملَ الرجلُ الشيء في يده فيكون مهنةً لأهله يدفعُ به الكِبر عن نفسه»[٥]. وقال النبي ﷺ لأصحابه: «ما لي لا أرى عليكم حلاوة العبادة، قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال: التواضع»[٦] وقال ﷺ: «إذا رأيتم المتواضعين

---

(١) ما عثرتُ على أصلٍ له. نعم، روى الحاكم والطبراني من حديث أنَس «أربعٌ لا يصبن إلاّ بعجب: الصمتُ وهو أول العبادة، والتواضع، وذكرُ الله، وقلّة الشيء» وصححهُ الحاكم، لكن أورده المقدسي في تذكرةِ الموضوعات، وقال: هو من كلام الحسن البصري، وفيه العوّام بن جويرية، وقال ابن حبّان: يروي الموضوعات.

(٢) أخرج البيهقي في الشعب نحوه، وفيه زمعة بن صالح. ضعفه الجمهور، كما في المغني.

(٣) كذا، وأخرجهُ ابن أبي الدنيا في ذم الغضب وفيه «يرفعكم الله»، وهكذا رواه الكليني في الكافي ج٢ ص١٢١.

(٤) تقدم أن العراقي قال: لم أجده هكذا، والمعروف أكلُهُ مع المجذوم. رواه أبو داود والترمذي وقال؛ غريب، وابن ماجة من حديث جابر. والجُدري ما يقال له بالفارسية «آبله» وهو بثورٌ تظهر على البدن لدفع من الطبيعة المدبّرة لبدن الإنسان فضلات طمثية منبثة في البدن عن اغتذائه بها، ولذلك قيل: إنّ هذا المرض لا بدّ أن يعرِضَ لكلِّ شخص، غير أن تلك الفضلات تبقى في البدن إلى حين يحصل المحرك، فتنهض القوة الدافعة لدفعها، ومن الناس من يجدر مرتين ولذلك عندَ مَن لم تقو الطبيعة على دفع المادة في سن الصبي، بل يبقى شيء منها ثم تتفق أسبابٌ مسخّنة مرطبة، فتحرك المادة وتحرك الطبيعة لدفعها مرة ثانية (بحر الجواهر).

(٥) (٦) قال العراقي: كلاهما غريب. ومراده من المهنة: الحذق في العمل والخدمة.

من أمتي فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبّرين فتكبّروا عليهم، فإنّ ذلك لهم مذلّةٌ وصَغار»[1].

ومن طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أرسل النجاشيُّ إلى جعفر بن أبي طالب[2] وأصحابهِ فدخلوا عليه وهو في بيتٍ له جالس على التراب وعليه خلقان الثياب. قال: فقال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلمّا رأى ما بنا وتغيُّرَ وجوهنا، قال: الحمد لله الذي نصرَ محمداً وأقرَّ عينَهُ، ألا أبشّركم؟ فقلت: بلى أيها الملك، فقال: إنه جاءني الساعة من نحوِ أرضكم عينٌ من عيوني هناك، فأخبرني أن الله تعالى قد نصرَ نبيّه محمداً صلى الله عليه وآله وأهلكَ عدوّه، وأُسِرَ فلانٌ وفلان، التقوا بوادٍ يُقال له: بدر، كثيرُ الأراك، لكأني أنظر إليه حيثُ كنتُ أرعى لسيّدي هناك، وهو رجلٌ من بني ضُمرة، فقال له جعفر: أيها الملك، فما لي أراك جالساً على التراب وعليك هذه الخلقان؟ فقال: يا جعفر، إنّا نجدُ فيما أنزلَ الله على عيسى عليه السلام أنّ من حقِّ الله تعالى على عباده أن يحدثوا له تواضعاً عندما يُحدِثُ لهم من نعمة، فلمّا أحدث الله لي نعمةَ محمدٍ صلى الله عليه وآله أحدثتُ لله هذا التواضع، فلمّا بلغَ النبيَّ صلى الله عليه وآله قال: إن الصدقة تزيدُ صاحبها كثرة، فتصدقوا يرحمكُمُ الله، وإن التواضع يزيدُ

(١) كسابقيه.

(٢) النجاشي، لقبُ ملك الحبشة، والمرادُ هنا الذي أسلمَ وآمنَ بالنبي صلى الله عليه وآله واسمه أصخمةُ بن بحر. أسلمَ قبلَ الفتح ومات قبله. صلى عليه النبي صلى الله عليه وآله لما جاءهُ خبرُ موته. وجعفر بن أبي طالب، هو أخو أمير المؤمنين عليه السلام وكان أكبر منه بعشر سنين، وهو من كبار الصحابة، ومن الشهداء الأولين، وهو صاحب الهجرتين الحبشة وهجرة المدينة، واستشهد يوم مؤتة سنةَ ثمانٍ، وله إحدى وأربعون سنة، فوُجدَ فيما أَقبلَ من جسده تسعون ضربةً ما بين طعنة برمح وضربةٍ بسيف، وقُطعت يداه في الحرب، فأعطاهُ الله جناحين يطيرُ بهما في الجنّة، فلُقّبَ ذا الجناحين.

صاحبه رفعة فتواضعوا يرفعكُم الله، وإن العفو يزيد صاحبه عزّاً فاعفوا يُعزّكم الله»(١).

وعنهعليه السلام: «إنّ في السماءِ ملكين موكّلينِ بالعباد، فمن تواضعَ رفعاهُ ومن تكبّر وضعاه»(٢). وعنهعليه السلام قال: «أفطر رسول اللهصلى الله عليه وآله عشية خميس في مسجد قُباء، فقال: هل من شرابٍ؟ فأتاهُ أوسُ بن خولي الأنصاري بعُسّ مخيض(٣) بعسل، فلما وضَعهُ على فيه، نحّاهُ ثم قال: شرابان يكتفى بأحدهما من صاحبه. لا أشربهُ ولا أحرّمهُ، ولكن أتواضعُ لله فإنه مَن تواضع لله رفعهُ الله، ومَن تكبّر خفضَهُ الله، ومن اقتصد في معيشته رزقه الله، ومن بذّرَ حرمهُ الله، ومن أكثر ذكر الله أحبّه الله»(٤). وفي رواية «مَنْ أكثر ذكرَ الله أظلّهُ الله في جنّته»(٥).

وعن أبي جعفرعليه السلام: «أنه أتَى رسولَ اللهصلى الله عليه وآله ملَكٌ فقال: إنّ الله تعالى يخيرك أن تكون عبداً رسولاً أو ملكاً رسولاً ـ قال: فنظر إلى جبرئيلعليه السلام أومأ بيده(٦) أن تواضع ـ فقال: عبداً رسولاً، فقال الرسول(٧): مع أنّه لا يُنقِصُكَ ممّا عند ربّك شيئاً، قال: ومعه مفاتيحُ خزائن الأرض»(٨).

---

(١) (٢) (٣) (٤) الكافي ج٢ ص١٢١ و١٢٢.

(٥) العُسّ: القدح، والمخيض: الزبد الذي يؤخذ من اللبن.

(٦) كأنه يستشيره، وهذه الجملة وما بعدها معترضة، ولهذا لم يقُل «فأومأ» بالفاء.

(٧) يعني للمَلَك.

(٨) يعني قال أبو جعفرعليه السلام: وكان مع الملك عند تبليغ هذه الرسالة المفاتيح، ويُحتملُ أن يكون ضمير «قال» راجعاً إلى الملك ومفعول القول محذوفاً، والواو في قوله «ومعه» للحال، أي قال ذلك ومعه المفاتيح. وقيل: راجع إلى الرسول، أي قالصلى الله عليه وآله: لا أقبلُ وإن كان معهُ المفاتيح، ولا يخفى ما فيه. والخبرُ في الكافي ج٢ ص١٢٢.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أوحى اللَّهُ تعالى إلى موسى عليه السلام أن يا موسى لمَ اصطفيتُك بكلامي دون خلقي؟ قال: يا ربِّ، ولمَ ذاك؟ قال: فأوحى الله تعالى إليه، يا موسى إنّي قلبتُ لعبادي ظهراً لبطن(١) فلم أجد فيهم أحداً أذلَّ لي نفساً منك، يا موسى إنك إذا صليتَ وضعت خدك على التراب ـ أو قال: على الأرض»(٢).

وعنه عليه السلام قال: «مرَّ علي بن الحسين عليه السلام على المجذومين وهو راكب حمارهُ وهم يتغدون، فدعوه إلى الغداء، فقال: أمَا إني لولا أنّي صائم لفعلت، فلمّا صار إلى منزله أمَرَ بطعام فصُنِعَ، وأُمرَ أن يتنوّقُوا فيه، ثم دعاهم فتغدوا عنده وتغدى معهم»(٣).

وعنه عليه السلام «أنّه نظرَ إلى رجلٍ من أهل المدينة قد اشترى لعيالهِ شيئاً وهو يحمله، فلما رآه الرجل استحيى منه، فقال له أبو عبد الله: اشتريتَهُ لعيالك وحملتَهُ إليهم. أما والله لولا أهل المدينة، لأحببتُ أن أشتري لعيالي الشيء ثم أحملُهُ إليهم»(٤).

وعنه عليه السلام قال: «فيما أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود، كما أقربُ الناس إلى الله المتواضعون، كذلك أبعدُ الناس من الله المتكبرون»(٥). وعنه عليه السلام «من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس، وأن تسلّم على من تلقى، وأن تترك المراء وإن كنت محقّاً، ولا تحبَّ أن تحمدَ على التقوى»(٦) وعنه عليه السلام «إنّ من التواضع أن يجلس الرجل دون شرفه»(٧).

وعن أبي بصير قال: دخلتُ على أبي الحسن موسى عليه السلام في السنة التي قُبِضَ فيها أبو عبدالله عليه السلام فقلت له: جعلت فداك، ذبحتُ

---

(١) قلبته ظهراً لبطن: أي بحثت بنحوٍ لم أدغ شيئاً إلاّ وبحثت فيه.

(٢) (٣) الكافي ج٢ ص١٢٣ تحت رقم ٧ و٨. وتنوّقوا: أي تكلّفوا.

(٤) (٥) (٦) (٧) الكافي ج٢ ص١٢٣.

كبشاً ونحرَ فلاَنٌ بدنةً[1]. فقال: «يا أبا محمد، إنّ نوحاً كان في السفينة وكان فيها ما شاء الله وكانت السفينة مأمورة، فطافت البيت ـ وهو طواف النساء ـ وخلّى سبيلها نوحٌ فأوحى الله تعالى إلى الجبال أنّي واضع سفينة نوح عبدي على جبلٍ منكنّ فتطاولت وشمخت وتواضعَ الجوديّ ـ وهو جبلٌ عندكم ـ فضربتِ السفينة بجؤجؤها[2] الجبل، قال: فقال نوح عند ذلك: «يا ماري أتقن» وهو بالسريانية ربِّ أصلح، قال: فظننت أنّ أبا الحسن عليه السلام عرّض بنفسه»[3].

وعن أبي الحسن عليه السلام قال: «التواضع أن تعطي الناس ما تحبّ أن تعطاه»[4]. وفي حديث آخر قال: «التواضعُ درجات: منها أن يعرفَ الرّجلُ قدر نفسهِ فينزلها منزلتها بقلبٍ سليم لا يحبُّ أن يأتي إلى أحد إلاَّ مثل ما يؤتى إليه، إن رأى سيئة درأها بالحسنة، كاظم الغيظ، عافٍ عن الناس، والله يحبُّ المحسنين»[5].

وفي كتاب «مصباح الشريعة»[6] قال الصادق عليه السلام: «التواضع أصلُ كلِّ شرف نفيسٍ ومرتبة رفيعة، ولو كان للتواضع لغةٌ يفهمُها الخَلق، لنطق عن حقائق ما في مخفيات العواقب، والتواضع ما يكونُ لله وفي الله وما سواه مكرٌ، ومن تواضع لله شرَّفَهُ الله على كثيرٍ من عباده، ولأهل التواضع سيماء يعرفها أهل السماوات من الملائكة

---

(١) البدنة: الناقة أو البقرة، والجمع بُدُن وبُدْن.

(٢) الجُؤجُؤ: الصدر.

(٣) يعني أراد بهذه الحكاية أن يتبيّن أنه إنما تواضعَ بذبح الشاة دون أن ينحرَ البدنة ليَجبُرَ اللّهُ تواضعه ذلك بالرفعة في قدره في الدنيا والآخرة، كما قاله المؤلف في الوافي، والخبرُ مروي في الكافي ج٢ ص١٢٤.

(٤) (٥) الكافي ج٢ ص١٢٤.

(٦) الباب الثامن والخمسون.

وأهل الأرض من العارفين، قال الله عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾(١) وأصل التواضع من إجلال الله وهيبته وعظمته وليس لله عز وجل عبادة يرضاها ويقبلها إلاّ وبابها التواضع، ولا يَعرفُ ما في حقيقة التواضع إلاّ المقرّبون من عباده المتّصلين بوحدانيته، قال الله عز وجل: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾(٢) وقد أمرَ الله عز وجلّ خير خلقِهِ وسيّد بريّته محمداً ﷺ فقال عزّ وجل: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾(٣) والتواضع مزرعة الخشوع والخضوع والخشية والحياء، وإنهنّ لا يأتينَ إلاّ منها، ولا يسلمُ الشرفُ التام الحقيقيّ إلاّ للمتواضع في ذات الله تعالى».

وفي تفسير الإمام أبي محمد الحسن بن علي العسكري عليه السلام: «أعرفُ الناس بحقوق إخوانه وأشدّهم قضاءً لهم أعظمهم عند الله شأناً، ومَن تواضعَ في الدنيا لإخوانه فهو عند الله من الصِّدِّيقين ومِن شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام حقاً».

وقيل: ورد على أمير المؤمنين عليه السلام إخوانٌ له مؤمنان، أبٌ وابن، فقام إليهما وأكرمهما وأجلسهما في صدر مجلسه وجلسَ بين أيديهما، ثم أمرَ بطعامٍ فأُحضرَ فأكلا منه، ثم جاء قنبر بطست وإبريق خشب ومنديل لييبسٌ وماءً ليصبَّ على يد الرجل فوثب أمير المؤمنين عليه السلام وأخذ الإبريق ليصبَّ على يد الرجل، فتمرّغ الرجل في التراب وقال: يا أمير المؤمنين، الله يراني وأنتَ تصبُّ على يدي، قال: أقعد واغسل، فإن الله عز وجل يراك وأخوك الذي لا يتميّز منك ولا يتفضّل

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٦.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

عليك يريد بذلك في خدمته في الجنة مثل عشرةِ أضعاف أهل الدنيا وعلى حسبِ ذلك في مماليكه فيها، فقعد الرجلُ فقال علي عليه السلام: أقسمتُ عليك بعظيم حقّي الذي عَرفتَهُ وبجّلته[1] وتواضعِكَ لله تعالى حتى جازاك عنه بأن ندبني لما شرَّفك به من خدمتي لك، لمّا غسلتَ مطمئناً كما كنت تفعل لو كان الصابُّ عليك قنبر، ففعل الرجلُ ذلك، فلمّا فرغَ ناول الإبريقَ محمد بن الحنفية، وقال: يا بنيّ، لو كان هذا الابن حضرني دون أبيه لصببتُ على يده، ولكنَّ الله عز وجل يأبى أن يساوي بين ابن وأبيه إذا جمعهما مكان، لكن قد صبَّ الأبُ على الأب فليصبَّ الإبن على الإبن، فصبَّ محمد بن الحنفية على الابن. قال الحسن بن علي عليه السلام فمن اتّبع علياً عليه السلام فهو الشيعيّ حقّاً.

٩ ـ علاج الكبر واكتساب التواضع

إعلم أنّ الكبرَ من المهلكات، ولا يخلو أحدٌ من الخلق عن شيءٍ منه، وإزالتُه فرضُ عينٍ، ولا يزول بمجرد التمنّي بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له، وفي معالجته مقامان: أحدهما، استئصال أصله من سنخه[2] وقلعُ شجرتهِ من مغرسها في القلب. والثاني، دفع العارض منه نتيجة الأسباب الخاصة التي بها يتكبّر الإنسان على غيره.

٩: أ ـ استئصال أصل الكبر وشجرته

وعلاج الكبر ضمن هذا المقام علاج علمي وعملي، ولا يتمُّ الشفاءُ إلاَّ بمجموعهما معاً.

---

(١) بجّل: عَظَّم.
(٢) سنخه: أي أصله ومنبته.

٩ : أ : ١ ـ العلاج العلمي

هو أن يعرف نفسَهُ ويعرف ربّه، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإنه كلما عرف نفسه حق المعرفة علمَ أنه أذلُّ من كلِّ ذليل، وأقلُّ من كل قليل بذاته، وأنّه لا يليق به إلاّ التواضع والذلّة والمهانة. وإذا عرفَ ربّه علمَ أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلاّ بالله.

أمّا معرفته ربه، وعظمَته ومجدَهُ، فالقول فيه يطول، وهو منتهى علم الصدّيقين. وأمّا معرفته نفسه فكذلك أيضاً يطول القول فيه، ولكنّا نذكرُ منه ما ينفعُ في إثارة التواضع والمذلّة، ويكفيه أن يعرفَ معنى آية واحدة من كتاب الله تعالى، فإنّ في القرآن علمَ الأولين والآخرين لمن فُتحت بصيرته، وقد قال﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾[١].

فقد أشارت الآية إلى أول خلقِ الإنسان وإلى آخر أمره وإلى وسطه، فلينظر الإنسانُ في ذلك ليفهم معنى هذه الآية.

أمّا أول الإنسانِ فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً، وقد كان ذلك في كتم العدم دهوراً، بل لم يكن لعدمه أوّل، فأي شيءٍ أخسُّ وأقلّ من المحو والعدم؟! وقد كان ذلك في القِدَم، ثم خلقه الله تعالى من أرذل الأشياء ثم من أقذرها، إذ خلقَهُ من ترابٍ ثم من نُطْفةٍ ثم من علقةٍ ثم من مضغة، ثم جعله عظماً ثم كسى العظام لحماً. فقد كان هذا بدايةُ وجوده حيث صار شيئاً مذكوراً، فما صار مذكوراً إلاّ وهو على أخسِّ الأوصاف والنعوت، إذ لم يخلق في ابتدائه كاملاً، بل

---

(١) سورة عبس، الآيات: ١٧ ـ ٢٢.

خلقه جماداً ميتاً لا يسمعُ ولا يُبصر ولا يحسّ، ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش، ولا يدركُ ولا يعلم، فبدأ بموته قبلَ حياته، وبضعفه قبل قوته، وبجهله قبل علمه، وبعماه قبل بصره، وبصَمَمه قبل سمْعِه، وببكمهِ قبل نُطقه، وبضلالته قبلَ هداه، وبفقره قبل غناه، وبعجزه قبل قدرته، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝١٩﴾ ومعنى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾[1] كذلك خلقه أولاً ثم امتنَّ عليه فقال: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝٢٠﴾ وهذه إشارة إلى ما تيسّر له في مدة حياته إلى الموت، ولذلك قال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ ومعناه أنه أحياه بعدَ أن كان جماداً ميتاً تراباً أولاً ونطفةً ثانياً، وأسمعه بعدما كان أصم، وبصّرَهُ بعدما كان فاقد البصر، وقوّاه بعد الضعف، وعلّمه بعد الجهل، وخلقَ له الأعضاء بما فيها من العجائب والآيات بعد الفقدِ لها، وأغناهُ بعد الفقر، وأشبعه بعد الجوع، وكساه بعد العُري، وهداه بعد الضلال، فانظر كيف دبّرهُ وصوّره، وإلى السبيل كيف يسّره، وإلى طغيان الإنسان ما أكفره، وإلى جهل الإنسان كيف أظهره، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧﴾[2] و ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾[3]. فانظر إلى نعمةِ الله عليه كيف نَقَلَهُ من تلكَ القِلّة والذلّة والخِسّة والقذارة، إلى هذه الرفعةِ والكرامة، فصار موجوداً بعد العدم، وحيّاً بعد الموت، وناطقاً بعد البكم، وبصيراً بعد العمى،

---

(١) سورة الدهر، الآيتان: ١، ٢.

(٢) سورة يس، الآية: ٧٧.

(٣) سورة الروم، الآية: ٢٠.

وقوياً بعد الضعف، وعالماً بعدَ الجهل، ومهديّاً بعد الضلالة، وقادراً بعد العجز، وغنياً بعد الفقر، فكان في ذاته لا شيء، وأي شيءٍ أخسُّ من لا شيء! وأيّ قلّةٍ أقلُّ من العدم المحض! ثم صار بالله شيئاً.

وإنما خلَقه من التراب الذليل والنطفة القذرة بعد العدم المحض ليُعرِّفَه خسّة ذاته، فيعرفَ به نفسَهُ. وإنما أكمل النعمةَ عليه ليعرفَ بها ربَّهُ ويعلمَ بها عظَمته وجلاله، وأنه لا يليق الكبرياء إلاّ به، ولذلك إمتنَّ عليه فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾(١)، وعرَّفَ خسّتَهُ أولاً فقال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ ـ ثم ذكرَ منّتَهُ عليه فقال: ـ ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾(٢) ليدوم وجوده بالتناسل كما حصلَ وجوده ابتداءً بالاختراع. فمن كان هذا بدؤه وهذه أحواله، فمن أين له البطرُ والكبرياء والفخرُ والخيلاء، وهو بنحوٍ مؤكّدٍ أخسُّ الأخساء، وأضعفُ الضعفاء! نعم لو أكمله وفوّضَ إليه أمرهُ وأدام له الوجود باختياره، لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى، ولكنّه سلّط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة والأسقام العظيمة والآفاتِ المختلفة والطبائعَ المتضادة من المُرَّةِ والبلغمِ والريحِ والدم، يهدمُ البعضُ من أجزائه البعض الآخر منها، شاء ذلكَ أم أبى، رضي أم سخِطَ، فيجوعُ كُرهاً، ويعطشُ كرهاً، ويمرضُ كُرهاً ويموت كُرهاً، لا يملك لنفسِهِ نفعاً ولا ضراً، ولا خيراً ولا شراً، يريدُ أن يعلمَ الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينساه، ويريدُ أن ينسى الشيء ويغفلُ عنه فلا يغفلُ عنه، ويريدُ أن يصرف قلبه إلى ما يهمّه فيجول في أودية

(١) سورة البلد، الآيات: ٨ ـ ١٠.

(٢) سورة القيامة، الآيات: ٣٧ ـ ٣٩.

الوساوس والأفكار بالإضطرار، فلا يملك قلبُهُ قلبَه، ولا نفسُهُ نفسَه، ويشتهي الشيء وربما يكونُ هلاكُه فيه، ويكرهُ الشيء وربّما تكون حياتُه فيه، يستلذُّ الأطعمة فتهلكُه وترديه، ويستبشع الأدوية وهي تنفعُه وتحييه، لا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يُسلبَ سمعَهُ وبصرهُ وعلمَهُ وقدرتَهُ، وتفلج أعضاؤه، ويُختلس[1] عقله، وتختطف روحه، ويُسلبَ جميع ما يهواه في دنياه، فهو مضطرٌ ذليل، إن تُركَ ما بقيَ، وإن ٱختُطف فَنِيَ عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه ولا من غيره. فأي شيء أذل منه لو عرف نفسه؟! وأنّى يليقُ الكبر به لولا جهله؟! فهذا أوسطُ أحواله فليتأمله.

وأمّا آخره ومورده فهو الموتُ، المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾. ومعناه أنه يسلبُ روحَهُ وسمعهُ وبصره وعلمَه وقدرتَه وحسَّه وإدراكه وحركته، فيعود جماداً كما كان أول مرةً، لا يبقى إلاً شكلُ أعضائه وصورته، لا حسَّ فيه ولا حركة، ثم يوضع في التراب فيصير جيفة منتنة قذرة كما كان في الأول نطفةً مذِرةً، ثم تبلَى أعضاؤه وصورتُه، وتتفتت أجزاؤه وتنخرُ عظامه، فيصير رميماً[2] ورفاتاً[3]، ويأكلُ الدود أجزاءه، فيبتدي - أي يبدأ - بحدقتيه فيقلعهما وبخديه فيقطعهما وبسائر أجزائه فيصير روثاً في أجواف الديدان، ويكونُ جيفةً يهربُ منه الحيوان ويستقذرهُ كلُّ إنسان، ويُهربُ منه لشدة الإنتان، وأحسنُ أحواله أن يعود إلى ما كان، فيصير تراباً يُعمل منه الكيزان[4]، ويعمَّرُ منه البنيان، فيصير

---

(١) يُختلس العقل: يُسلب.
(٢) الرميم: البالي.
(٣) الرفات: الحطام ،كلُّ ما تكسّر وبليَ.
(٤) الكيزان: جمع كوز وهو إناء كالإبريق لكنه أصغر منه (آرامية الأصل).

مفقوداً بعدما كان موجوداً، وصار كأن لم يغنَ بالأمس حصيداً، كما كان أوّلَ أمرهِ أمداً مديداً.

وليته بقي كذلك! فما أحسنَهُ لو تُركَ تراباً! لا، بل يحييه بعد طول البلى ليقاسي شدائد البلاء، فيخرجُ من قبرهِ بعد جمعِ أجزائه المتفرّقة، ويخرجُ إلى أهوال القيامة، فينظرُ إلى قيامةٍ قائمة، وسماءٍ ممزقة مشقّقة، وأرضٍ مبدّلة، وجبالٍ مسيَّرة، ونجوم منكدرة[1]، وشمس منكسفة، وأحوالٍ مظلِمة، وملائكة غلاظٍ شداد، وجحيم تزفر، وجنّةٍ ينظرُ إليها المجرمُ فيتحسَّر، ويرى صحائفَ منشورةً فيُقالُ له: إقرأ كتابك، فيقول: وما هو؟ فيُقال: كان قد وُكِّل بك في حياتك التي كنت تفرحُ بها وتتكبّر بنعيمها وتفتخر بأسبابها ملكان رقيبانِ يكتبان عليك ما كنت تنطقُ به أو تعمله من قليلٍ وكثير، ونقيرٍ[2] وقِطمير[3]، وأكلٍ وشربٍ، وقيامٍ وقعود، وقد نسيت ذلك وأحصاهُ الله عليك، فهلمَّ إلى الحساب، واستعدَّ للجواب أو تساقُ إلى دار العذاب، فيتقطّعُ قلبُه فزعاً من هول هذا الخطاب من قبل أن تُنشرَ الصحفُ، ويشاهِدَ ما فيها من مخازيه، فإذا شاهدها قال: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩]. فهذا آخر أمره، وهو معنى قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾، فما لمن هذه حالهُ والتكبّر والتعظم؟! بل ما له وللفرح في لحظةٍ واحدة، فضلاً عن البطر والتجبّر؟!

فقد ظهر له أول حاله ووسطه، ولو ظهر آخرهُ ـ والعياذ بالله ـ

---

(١) الإنكدار: التناثر.
(٢) النقير: النكتة في ظهر النواة.
(٣) القِطمير: القشرة الرقيقة بين النواة والتمرة.

ربما اختار أن يكون كلباً أو خنزيراً، ليصير مع البهائم تراباً، ولا يكونَ إنساناً يسمع خطاباً أو يلقى عذاباً. وإن كان عند الله مستحقاً للنار فالخنزير أشرفُ منه وأطيبُ وأرفع، إذ أولهُ التراب وآخره التراب، وهو بمعزلٍ عن الحساب والعذاب.

والكلبُ والخنزير لا يهرب منه الخَلق، ولو رأى أهل الدنيا العبدَ المذنبَ في النار لصُعقوا من وحشةِ خِلقته وقُبحِ صورته، ولو وجدوا ريحه ـ أي وصلت إليهم رائحته ـ لماتوا من نتنه، ولو وقعت قطرة من شرابه الذي يُسقى منه في بحار الدنيا لصارت أنتنَ من الجيف. فمن هذه حاله في العاقبة ـ إلاّ أن يعفوَ عنه، وهو على شكٍّ من العفو ـ فكيف يفرحُ ويبطر؟! وكيف يتكبّرُ ويتجبّر؟! وكيف يرى نفسَهُ شيئاً حتى يعتقد لها فضلاً؟! وأيُّ عبدٍ لم يُذنب ذنباً استحقَّ به العقوبة، إلاّ أن يعفو الكريم بفضله؟!

أرأيتَ من جنى على بعض الملوك فاستحقَّ به ألفَ سوطٍ، فحُبسَ في السجن وهو منتظر أن يُخرجَ إلى العَرضِ وتُقام عليه العقوبة على ملأ من الخلق، وليس يدري أيُعفى عنه أم لا، كيف يكون ذلّه في السجن؟ أفترى أنه يتكبرُ على من معهُ في السجن؟! وما من عبدٍ مذنبٍ إلاّ والدنيا سجنه، وقد استحقّ العقوبة من الله تعالى، ولا يدري كيف يكون أمره، فيكفيه ذلك حُزناً وخوفاً وإشفاقاً ومهانة وذلاً؛ فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصلِ التكبّر.

٩ : أ : ٢ ـ العلاج العملي

وأمّا العلاج العمليّ فهو التواضعُ لله تعالى بالفعل، ولسائرِ الخلقِ بالمواظبة على أخلاق المتواضعين، كما وصفناهُ وحكيناهُ من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله ﷺ حتى أنّه كان يأكلُ على

الأرضِ ويقول: «إنّما أنا عبدٌ آكلُ كما يأكلُ العبد»[1]. وقيل لسلمان: لِمَ لا تلبَس ثوباً جديداً، فقال: إنما أنا عبدٌ فإذا أُعتقتُ يوماً لبِست؛ أشار به إلى العتقِ في الآخرة.

ولا يتمُّ التواضعُ بعد المعرفةِ إلاّ بالعمل، ولذلك أُمرَ العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان والصلاة جميعاً ـ أي بهما معاً ـ .وقيل: الصلاةُ عماد الدين، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً، ومن جملةِ ما فيها التواضعُ بالمثول قائماً وبالركوع والسجود. وقد كانت العربُ قديماً يأنفون من الانحناء، فكان ربّما يسقطُ من يدِ أحدِ سوطُه فلا ينحني لأخذه، وينقطع شراك نعلِهِ فلا يُنكِّسُ[2] رأسُه لإصلاحه، حتى قال حكيم بن حزام: بايعتُ رسول الله ﷺ على أن لا أخرَّ إلاّ قائماً، فبايعه النبي ﷺ على ذلك، ثم فقِهَ وكَمُلَ إيمانه بعد ذلك[3]. فلمّا كان السجود عندهم هو منتهى المذلّة والضّعة[4] أُمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم، ويزولَ به كِبرهم، ويستقرَّ التواضعُ في قلوبهم؛ وأُمرَ به سائر الخلق، فإن الركوع والسجود والمثول قائماً هو العملُ الذي يقتضيه التواضع.

فكذلك، من عرف نفسهُ فلينظر كلَّ ما يتقاضاه الكِبرُ من الأفعال، فليواظب على نقيضها حتى يصير التواضعُ له خُلُقاً، فإنّ القلوب لا تتخلّقُ بالأخلاقِ المحمودة إلاّ بالعلم والعمل معاً، وذلك لخفاء العلاقةِ بين القلب والجوارح، وسرِّ الارتباط الذي بين عالمِ

---

(١) تقدَّمَ في باب سيرته في المأكل والمشربِ وكتابِ آداب المعيشة.

(٢) نكّس: طأطأ من الذل.

(٣) أخرجه أحمد مقتصِراً، يعني إلى قوله «أن لا أخرَّ إلاّ قائماً» وفيه إرسالٌ خفي. (المغني).

(٤) الضّعة: الذلّة.

المُلْكِ وعالمِ الملكوت؛ والقلبُ من عالم الملكوت.

٩: ب ـ دفع العارضِ منه

ما يعرضُ من التكبّرِ إنما يعرضُ نتيجة الأسباب السبعة المذكورة آنفاً، وقد بيّنّا في كتاب ذمّ الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلمُ والعمل، وأمّا ما عداهُ مما يفنى بالموتِ، فهو كمال وهمي. فمِن هذا يَعسُرُ على العالمِ أن لا يتكبّر، ولكنّا نذكرُ طريق العلاج من العلمِ والعمل ـ أي العلاج العلمي والعملي ـ في جميع الأسباب السبعة.

السبب الأول: النسب

من يعتريه الكبرُ من جهةِ النّسَب، فليداوِ قلبه بمعرفة أمرين: أحدهما، أنّ هذا جهلٌ من حيث إنّه تعزّز بكمال غيره، ولذلك قيل:

لئنْ فخرتَ بآباءٍ ذوي شرفٍ لقد صدقتَ ولكن بئسَ ما وَلَدوا

فالمتكبّر بالنسبِ إن كان خسيساً في صفاتِ ذاته، فمن أين يَجبُرُ خسّتَهُ بكمال غيره؟! بل لو كان الذي ينتسبُ إليه حيًّا، لكان له أن يقول: الفضلُ لي، ومن أنت؟! إنما أنتَ دودةٌ خُلِقَتْ من بولي؟! أفترى أن الدودة التي خُلِقت من بولِ إنسانٍ أشرفُ من الدودةِ التي خُلقت من بول فرس؟ هيهات! بل هما متساويان، والشرفُ للإنسان لا للدودة!

ثانيهما، هو أن يعرفَ نسَبَهُ الحقيقيّ، فيعرفَ أباه وجدَّهُ، فإنَّ أباه القريب نطفةٌ قذرة، وجَدّهُ البعيد ترابٌ ذليل، وقد عرّفَهُ الله تعالى نسَبَهُ، فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾[1]. فمَن أصلُه التراب

(١) سورة السجدة، الآيتان: ٧، ٨. والمَهين: الضعيف. و «نسله» أي ذريته بالنّسل، لأنها تنسلُ منه أي تنفصِلُ.

المهين الذي يُداسُ بالأقدام، ثم خمّرَ طينه حتّى صار حمأً مسنوناً[1]، كيف يتكبر؟! وأخسُّ الأشياء ما إليه نسبُه ـ أي ما كان إلى التراب والحمأ ينسب ـ إذ يقول: يا أذلَّ مِنَ التراب، ويا أنتن من الحمأ. ويا أقذَر من المضغة. فإن كان كونه من أبيه أقربَ من كونهِ من التراب، فنقول: إفتَخر بالقريب دون البعيد، فالنطفةُ والمضغةُ أقربُ إليه من الأب، فليحتقر نفسَهُ بهما! ثمَّ إن كان ذلك يوجب رفعةً بالأب لقُربه، فالأبُ الأعلى من التراب، فمن أين رفعتُه؟! فإذا لم يكن له رفعة، فمن أين جاءت الرِّفعة لولده؟! فإذن أصلهُ من التراب وفصلُه من النطفة، فلا أصل له ولا فصل له؛ وهذه غايةُ خسّةِ النّسب، والأصل يُوطأُ بالأقدام، والفصلُ تُغسَلُ منه الأبدان.

فهذا هو النّسبُ الحقيقي للإنسان، ومَن عرَفَهُ لم يتكبّر بالنسب، ويكونُ مثالُهُ بعد هذه المعرفة وانكشافِ الغطاء له عن حقيقةِ أصله، كرجلٍ لم يزل عند نفسه من بني هاشم ـ أي بنظرها ـ وقد أخبره بذلك والداه، فلم تزل فيه نخوة الشرف. فبينما هو كذلك إذ أخبرهُ عُدولٌ لا يُشكُّ في قولهم إنه ابن هنديٍّ حجّام يتعاطى القاذورات، وكشفوا له وجهَ التلبيس عليه، فلم يبقَ له شكٌّ في صِدقهم، أفترى أن ذلك يُبقي شيئاً من كبره؟! لا بل يصير عند نفسِه أحقرَ الناس وأذلَّهم، فهو من استشعار الخزي لخسَّتهِ، في شغل عن أن يتكبّر على غيره.

فهذه حال البصير إذا تفكّر في أصله وعلِمَ أنّه من النطفة والمضغة والتراب، إذ لو كان أبوه ممن يتعاطى نقلَ التراب، أو يتعاطى الدم بالحجامة أو غيرها، لكان يعلمُ بذلك خسّة نفسه، بسبب مسِّ أعضاء أبيه للتراب والدم، فكيف إذا عرفَ أنّه في نفسه من

(١) الحمأُ المسنون: الحمأُ هو الطين الأسود. والمسنون: المنتن.

التراب والدم والأشياء القذرة التي يتنزه عنها هو نفسه!

السبب الثاني: الجمال

ودواؤه أن ينظُر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظرَ إلى الظاهر نظر البهائم. وكلّما نظر إلى باطنه، رأى من الفضائح ما يكدّرُ عليه التعزز بجماله، فإنّه وُكِّلَ به الأقذار في جميع أجزائه: الرجيعُ في أمعائه، والبولُ في مثانته، والمخاطُ في أنفه، والبصاق في فمه، والوسخُ في أُذنه، والدم في عروقه، والصديد تحت بَشرَته، والصُنانُ تحت إبطه[١] يغسلُ الغائط كل يوم دفعةً أو دفعتين ـ أي مرة أو مرتين ـ بيده، يتردد إلى الخلاءِ كل يوم مرةً أو مرتين ليُخرجَ من باطنه ما لو رآهُ بعينه لاستقذرهُ فضلاً عن أن يمَسَّهُ أو يشُمَّهُ، كلُّ ذلك يعرفُ قذارتَهُ وذلّه؛ هذا في حالة توسطه، أي بعدما خُلق وأصبح نامياً.

وفي أول أمرِهِ، خُلِقَ من الأقذار الشنيعة الصور: من النطفة ودم الحيض، وأُخرجَ من مجاري الأقذار، إذ خرجَ من الصّلب، ثم من الذَّكرِ مجرى البول، ثم من الرّحمِ مفيض دم الحيض، ثم خرجَ من مجرى القذر؛ هذا أوّلُهُ ووسطه ولو تركَ نفسَهُ في حياته يوماً، لم يتعهدها بالتنظيف والغسل، لثارت منه الأنتانُ والأقذار، وصار أقذر وأنتن من الدواب المهملة التي لا تتعهّد نفسها قطُّ.

فإذا نظر أنه خُلق من أقذار، وأُسكِنَ في أقذار، وسيموتُ فيصيرُ جيفة أقذر من سائر الأقذار، لم يفتخر بجماله الذي هو كخضراء الدِّمَن[٢] وكلونِ الأزهار في البوادي، فبينما هو كذلك إذا صار هشيماً

---

(١) الصُنان: ذفرُ الإبط، والنتن عموماً.

(٢) الدِّمَن: السرقين والزبل. وخضراء الدّمن: ما ينبتُ في الدِّمَنِ من العشب.

تذروه الرياح! كيف ولو كان جماله باقياً وعن هذه القبائح خالياً، لكان يجب أن لا يتكبر به على الإنسان القبيح، إذ لم يكن قُبحُ القبيح إليه ـ أي ليس يملكه ولا كان مسؤولاً عنه ـ فينفيَهُ، ولا كان جمالُ الجميلِ إليه حتى يُحمدَ عليه! كيف ولا بقاء له، بل هو في كلِّ حالٍ يُتصوَّرُ أن يزولَ بمَرضٍ أو جدريٍّ أو قُرحةٍ أو سببٍ من الأسباب، فكم من وجوه جميلةٍ قد سَمِجَتْ[1] بهذه الأسباب! فمعرفةُ هذه الأمور تنزعُ من القلب داء الكِبر بالجمال لمنْ أكثر تأمُّلها.

السبب الثالث: القوةُ والأيدي

ويمنعهُ من ذلك أن يعلمَ ما سُلِّطَ عليه من العلل والأمراض، وأنّه لو توجّع عِرقٌ واحد من بدنهِ لصار أعجزَ من كلِّ عاجزٍ وأذلَّ من كل ذليل، وأنّه لو سلبَهُ الذبابُ شيئاً لم يستنقذهُ منه، وأنَّ بَقّةً[2] لو دخلت في أنفه أو نملةً دخلت في أُذنه، لقتلتهُ، وأنّ شوكةً لو دخلت رِجلَهُ لأعجَزتهُ، وأن حمّى يومٍ تحلّلُ من قوّتِهِ ما لا ينجبرُ في مدة. فمَن لا يطيق شوكةً ولا يقاومُ بقّةً ولا يقدرُ على أن يدفعَ عن نفسِهِ ذبابةً، فلا ينبغي أن يفتخرَ بقوّتهِ، ثم إن قوى الإنسان لا تكونُ أقوى من حمارٍ أو فيلٍ أو جملٍ أو بقر! وأي افتخارٍ في صفةٍ تسبقكَ البهائم فيها!

السبب الرابع والخامس: المال والأتباع وولاية السلطان

الغنى وكثرةُ المال، وفي معناهُ كثرةُ الأتباعِ والأنصار والتكبُّر بولاية السلاطين والتمكنُ من جهتهم، كلُّ ذلك تكبّرٌ بأمورٍ خارجةٍ عن

---

(١) سمجت: قبحت.

(٢) البقّة: جنسُ حشرات من فصيلة البقّيات تمتص دم الإنسان وتتغلغل في المواضع الدافئة.

ذات الإنسان، كالجمال والقوة والعلم. وهذا أقبحُ أنواعِ الكِبر، فإن المتكبّرَ بماله كأنه متكبّرٌ بفرسِهِ وداره، ولو مات فرسهُ وانهدَمتْ دارهُ، لعاد ذليلاً.

والمتكبّرُ بتمكينٍ من السلطان وولايته، لا بصفةٍ في نفسهِ، فقد بنى أمرهُ على قلبٍ هو أشدُّ غلياناً من القِدر، فإن تغيّرَ عليه كان أذلّ الخلق، وكلُّ متكبّرٍ بأمرٍ خارجٍ من ذاته فهو ظاهرُ الجهل، كيف والمتكبّر بالغنى لو تأمّلَ لرأى في اليهود مَن يزيد عليه في الغنى والثروة والتجمُّل، فأفٍّ لشرفٍ يسبقُكَ اليهود به، وأفٍّ لشرفٍ يأخذهُ السارقُ في لحظةٍ فيعودُ صاحبُهُ ذليلاً مفلساً!

فهذه أسبابٌ ليست في ذاته، وما هو في ذاته ليس إليه دوامُ وجوده ـ أي لا يرجعُ الأمرُ إليه في بقائه أو عدمِ بقائه ـ وهو في الآخرةِ وبالٌ ونكالٌ، فالتفاخر به غايةُ الجهل، وكلُّ ما ليسَ إليكَ فليس لك، وشيءٌ من الأمور ليس إليك بل إلى واهبها[1]، إن أبقاها بقيت وإن استرجعها زالت عنك، وما أنتَ إلاّ عبدٌ مملوك لا تقدرُ على شيء! فمن عرفَ ذلك فلا بدَّ أن يزولَ كِبرهُ. ومثالُهُ أن يفخرَ الغافلُ بقوّتِهِ وجمالِهِ ومالِهِ وحرّيتِهِ واستقلالِهِ وسَعةِ منازلِهِ وكثرةِ خيولِهِ وغلمانه، فإذا بشاهدين عدلين يشهدان عليه عند حاكمٍ منصفٍ بأنه رقيقٌ ـ أي عبدٌ مملوك ـ لفلان، وأنّ أبويه كانا مملوكَين له، فعُلِمَ ذلك وحكمَ به الحاكمُ، فجاء مالكُهُ فأخذهُ وأخذَ جميع ما في يديه، وهو مع ذلك يخشى أن يعاقبَهُ وينكّلَ به لتفريطه في أمواله وتقصيره في طلب مالكه ليعرفَ أنّ له مالكاً. ثم نظرَ العبدُ فرأى نفسَهُ عبوساً في

(١) كذا. والضمائر راجع إلى الأمور. وفي «الإحياء»: «إلى واهبه»، وكذا الضمائر التي تأتي.

منزلٍ قد أَحدقَتْ بهِ الحيّاتُ والعقاربُ والهوامُّ[1]، وهو في كلِّ حالٍ على وجلٍ من كلِّ واحدةٍ منها، وقد بقي لا يملكُ نفسَهُ ولا مالَهُ، ولا يعرف طريقاً في الخلاص البتّة. أفترى أنّ مَن هذه حالُهُ، هل يفتخرُ بقدرته وثروته ومالهِ وقوّته وكماله؟! أم يذلُّ في نفسهِ ويخضع؟! وهذه حال كلِّ عاقلٍ بصيرٍ، فإنه يرى نفسَهُ كذلك، فإنه لا يملكُ رقبتَهُ وبدنَهُ وأعضاءه وماله، وهو مع ذلك بين آفاتٍ وشهواتٍ وأمراض وأسقام هي كالعقارب والحيّات يُخافُ منها الهلاك. فمَن هذه حالُهُ لا يتكبّر بقدرتهِ وقوّتهِ إذ يعلمُ أنّه لا قدرةَ له ولا قوّة.

فهذا طريقُ علاج التكبّر بالأسباب الخارجة، وهو أهونُ من علاج التكبّر بالعلم والعمل، فإنهما كمالانِ في النفس جديران بأن يُفرحَ بهما، ولكن في التكبّر بهما أيضاً نوعٌ من الجهل خفيٌّ كما سنذكره.

السبب السادس: العلم

وهذا أعظمُ الآفات وأغلبُ الأدواء وأبعدُها عن قبول العلاجِ إلاّ بشدّةٍ شديدة وجهدٍ جهيد، وذلك لأنّ قدر العلمِ عظيم عند الله، عظيم عند الناس، وهو أعظمُ من قدر المال والجمال وغيرهما، بل لا قدَر لهما أصلاً إلاّ إذا كان معهما عمل وعلم، ولذلك قيل: للعلم طغيانٌ كطغيان الماء. وقيل: العالِمُ إذا زلَّ، زلَّ بزلَّتِهِ عالَمٌ كثير - أي خَلْقٌ كُثر. فيعجزُ العالِمُ عن أن لا يَستعظم نفسَهُ مقارنة بالجاهل، لكثرةِ ما نطق الشرعُ بفضائل العلم، ولن يقدرَ العالمُ على دفع الكبر إلاّ بمعرفةِ أمرين:

---

(١) الهوام: مفردها الهامّة: ما كان له سُمٌّ كالحيّة. وقد تطلق «الهوام» على ما لا يقتل من الحشرات.

أحدهما: أن يعلمَ أنَّ حجّةَ اللَّهِ على أهل العلمِ آكدُ، وأَنَّهُ يُحتملُ منَ الجاهلِ ما لا يُحتمل عُشرُهُ من العالِم، وأنّه عصى الله عن معرفةٍ وعلم، فجنايتهُ أفحش، إذ لم يقضِ حقَّ نعمةِ الله عليه في العلم. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالعالِم يوم القيامة فيُلقى في النار فتندلقُ أقتابُهُ[1]، فيدورُ بها كما يدور الحمار بالرحى، فيطيفُ أهل النار ـ أي يَطوفُ بهم ـ فيقولون: ما لك؟ فيقول: كنتُ آمر بالخير ولا آتيه، وأنهى عن الشرِّ وآتيه»[2].

وقد مثَّلَ اللَّهُ سبحانه وتعالى مَن يعلم ولا يعمل بالحمار والكلب، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[3] أراد به علماء اليهود. وقال تعالى في بلعم بن باعورا: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[4] أي سواء آتيتهُ الحكمةَ أو لم أوتهِ، فلا يدعُ شهوتَهُ، فيكفي العالمَ هذا الخطرُ، وأيُّ عالمٍ لم يتبع شهوتَهُ؟ وأيُّ عالمٍ لم يأمر بالخير الذي لا يأتيه؟! فكلّما خطرَ للعالم عِظَمُ قدرهِ مقارنة بالجاهل، فليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإنَّ خطرهُ أعظمُ من خطرِ غيره، كما أنَّ قدرهُ أعظم من قدرِ غيره؛ فهذا بذاك.

وهو كالملكِ المخاطرِ بروحِهِ في ملكهِ لكثرةِ أعدائه، فإنّه إذا

---

(١) تندلق أقتابه: تخرج أمعاؤه من مكانها. والأقتاب هي الأمعاء المشوية.

(٢) أخرجَهُ البخاري ومسلم وأحمد من حديث أُسامة بن زيد بلفظ «يُجاء بالرجل» وقد تقدّمَ في كتاب العلم.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٤) سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٥، ١٧٦.

أُخذَ وقُهر، إشتهى أن يكونَ قد كان فقيراً. فكم من عالمٍ يشتهي في الآخرةِ سلامة الجهّال، والعياذُ بالله!

فهذا الخطر يمنعُ التكبّرَ لأنه إن كان من أهل النار، فالخنزير أفضلُ منه، فكيف يتكبّرُ من هذه حاله؟! فلا ينبغي أن يكون العالمُ أكبرَ عندَ نفسهِ من الصحابة! وقد كان بعضُهم يقول: يا ليتني لم تلدني أمّي، ويأخذ الآخر تبنةً من الأرض ويقول: يا ليتني كنت هذه التبنة، ويقول الآخر: يا ليتني كنتُ طيراً، كلُّ ذلك خوفاً من خطرِ العاقبة. كانوا يرون أنفسهم أسوأ حالاً من التراب أو الطير، وكلّما أطال فكرهُ في الخطرِ الذي هو بصدده، زال بالكليّة كبرهُ، ورأى نفسَهُ كأنه شرُّ الخلق. ومثالُهُ مثالُ عبدٍ أمرهُ سيّده بأمور فشرعَ وترك بعضها، وأدخل النقصان في بعضها، وشكَّ في بعضها أنّه هل أدّاها كما يرتضيه مولاه أم لا، فأخبرَ مخبرٌ أنّ مولاهُ مرسِلٌ إليه رسولاً يخرجُه من كلِّ ما هو فيه عرياناً ذليلاً، ويلقيه على بابه في الشمس والحرِّ زماناً طويلاً، حتى إذا ضاق عليه الأمر وبلغَ به الجهد، أُمرَ برفع حسابه وفُتّش عن جميع أعماله، قليلها وكثيرها، ثم أمرَ به إلى سجن ضيّق وعذاب دائم لا يروح عنه ساعة، وقد علم أنّ سيدهُ قد فعل بطوائف من عبيده مثل ذلك، وعفا عن بعضهم، وهو لا يدري في أي الفريقين يكون.

فإذا تفكّر في ذلك انكسرت نفسه، وذلَّ وبطل عزّهُ وكِبرهُ، وظَهُرَ حزنُه وخوفُه، ولم يتكبر على أحد من الخلق، بل تواضع رجاء أن يكونَ هو من شفعائه عند نزول العذاب، وكذلك العالمُ إذا تفكّر فيما ضيّعه من أوامر ربّه بجناياتٍ على جوارحه وبذنوبٍ في باطنه من الرياء والحقد والحسد والعجب والنفاق وغيره، وعلمَ ما يواجهه من الخطر العظيم، فارقهُ كبرهُ لا محالة.

ثانيهما: إنّ العالِمَ يعلمُ أن الكِبرَ لا يليقُ إلاّ بالله جلَّ وعزَّ

وحدَهُ، وإنّهُ إذا تكبّر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً، وقد أحبّ الله منهُ أن يتواضع وقال له: إن لكَ عندي قدراً ما لم ترَ لنفسِكَ قدراً، فإن رأيت لنفسك قدراً، فلا قدر لك عندي. فلا بدّ أن يكلّفَ نفسَهُ ما يحبُّ مولاهُ منه، وهذا يزيل التكبّر عن قلبه.. وبهذا زال الكبرُ عن الأنبياء، إذ علموا أنَّ مَن نازع الله في رداء الكبرياءِ قصَمهُ، وقد أمرهم بأن يصغّروا أنفسهم حتى يعظُمَ عند الله محلهم؛ فهذا أيضاً ممّا يبعثه على التواضع لا محالة.

وقد يُسأل: كيف يَتواضعُ (العالمُ) للفاسقِ المتظاهرِ بالفسقِ وللمبتدع؟ وكيف يرى نفسَهُ دونهم وهو عالمٌ عابد؟ وكيف يَجهلُ فضل العلم والعبادة عند الله عز وجل؟ وكيف يغنيهِ أن يخطُرَ بباله خطر العلم وهو يعلمُ أنَّ خطر الفاسق والمبتدعِ أكثر؟

والجواب أنّ ذلك إنما يمكنُ بالتفكّر في خطر الخاتمة، بل لو نظر إلى كافرٍ لم يكن بإمكانه أن يتكبّر عليه، إذ يُتصَوَّرُ أن يُسلمَ الكافرُ فيُختمَ له بالإيمان، ويضلَّ هذا العالِم فيُختَم له بالكفر؛ والكبيرُ مَن هو كبيرٌ عند الله في الآخرة، والكلبُ والخنزير أعلى رتبةً ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك. فالعواقب مطويةٌ عن العباد، ولا ينظرُ العاقل إلاّ إلى العاقبة، وجميعُ الفضائل في الدنيا إنما تُراد للعاقبة. فإذن، من حق العبد أن لا يتكبَّر على أحد، بل إن نظر إلى جاهل قال: إنه عصى الله بجهلٍ، وأنا عصيتُ الله بعلمٍ فهو معذور أكثر مني. وإن نظرَ إلى عالمٍ فيقول: إنّه قد علم ما لمْ أعلم فكيف أكونُ مثلَهُ؟! وإن نظر إلى كبِير هو أكبر منه سنّاً قال: هذا قد أطاع الله قبلي، فكيف أكون مثله؟! وإن نظرَ إلى صغيرٍ قال: إني عصيتُ الله قبلَهُ، فكيف أكون مثلهُ؟! وإن نظر إلى مبتدعٍ أو كافرٍ قال: ما يدريني، لعله يُختم له بالإسلام، ويختم لي بما هوَ عليه الآن، فليس

دوام الهداية إليّ - أي بيدي - كما لم يكن ابتداؤها إليّ!

فبملاحظة الخاتمة يقدرُ أن ينفي الكبرَ عن نفسِهِ، وكلُّ ذلكَ بأن يعلمَ أنَّ الكمال في سعادة الآخرة والقربِ من الله، لا فيما يظهرُ في الدنيا ممّا لا بقاء له، ولعمري هذا الخطرُ مشتركٌ بين المتكبِّرِ والمتكبَّرِ عليه. ولكن حقٌّ على كلِّ واحدٍ أن يكون مصروف الهمِّ إلى نفسهِ، مشغولَ القلبِ بخوفهِ على عاقبته، لا أن يشتغل بخوفِ أمرٍ غير هذا، فإن الشفيق بسوءِ الظنّ مولع وشفقةُ كلِّ إنسانٍ على نفسهِ. فلو حبست جماعةٌ وأُوعدوا بأن تُضربَ رقابُهم، لم يتفرّقوا بسبب تكبّر بعضِهم على بعض وإن عمَّهُم الخطر، إذ شغَلَ كلَّ واحدٍ منهم همُّ نفسهِ عن الإلتفات إلى همِّ غيرهِ، حتى كان كلُّ واحدٍ هو وحدَهُ في مصيبته وخطرهِ.

فإن اعترُض أنه كيف لا أُبغضُ المبتدعَ في الله وأُبغضُ الفاسقَ، وقد أُمرتُ ببغضهما، ثم مع ذلك أتواضعُ لهما؟ والجمع بينهما متناقض؟!

أجيبَ بأن هذا أمر مشتبه، يلتبسُ على أكثر الخلق، إذ يمتزجُ غضبُك لله في إنكار البدعة والفسق، بكبَر النفس والإدلال - أي الإشارة والإظهار والمراءاة - بالعلم والورع. فكم من عابدٍ جاهل وعالمٍ مغرور حينما رأى فاسقاً جلسَ بجنبه أزعجَهُ من عنده - أي دفعه للقيامِ من جواره - وتنزّه عنه بكبرٍ باطنٍ في نفسِهِ، وهو ظانٌّ أنه قد غضبَ لله، كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليعهم، وذلك لأنّ التكبر على المطيع ظاهرٌ كونُهُ شرّاً، والحذرُ عنه ممكن، والتكبرَ على الفاسق والمبتدع يشبهُ الغضب لله، وهو خير، فإنّ الغضبان أيضاً يتكبّر على مَن غضبَ عليه، والمتكبّر يغضب، وأحدهما يثمرُ الآخر ويوجبه، وهما ممتزجان ملتبسان، لا يميّزُ بينهما إلاّ الموفقون.

والذي يخلّصُكَ من هذا أن يكون الحاضرُ في قلبِكَ عند مشاهدةِ المبتدع أو الفاسقِ إذا أمرتهما بالمعروف ونهيتهما عن المنكر ثلاثة أمور:

أحدها، التفاتُكَ إلى ما سبقَ من ذنوبك وخطاياك، ليصغُرَ عند ذلك قدركَ في عينك.

والثاني، أن تكون ملاحظتُك لما أنت متميّزٌ به من العلم واعتقاد الحقِّ والعملِ الصالح من حيث إنّها نعمة من الله عليك، فله المنّةُ فيه لا لكَ، وترى ذلك منه حتى لا تُعجَب بنفسكَ؛ وإذا لم تُعجب لم تتكبر.

والثالث، ملاحظةُ إبهام ـ أي غموض وعدم وضوح ـ عاقبتك وعاقبته، وأنه ربما يُختم له بالخير ويُختمُ لك بالسوء، حتى يشغلك الخوفُ عن التكبّر عليه.

فإن سأل سائل أنّه: كيف أغضبُ مع هذه الأحوال؟ كان الجوابُ أنّكَ تغضبُ لمولاك وسيدك إذا أمرك بأن تغضبَ لا لنفسِكَ، وأنتَ في غضبك لا ترى نفسكَ ناجياً وصاحبكَ هالكاً، بل يكون خوفُك على نفسك بما علمَ الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه مع الجهل بالخاتمة.

وٱعرفْ ذلك بمثالٍ، لتعلمَ أنه ليس من ضرورة الغضبِ لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدركَ فوق قدره: إذا كان للملك غلامٌ وولدٌ هو قرّةُ عينه، وقد وكّلَ الغلام بالولد ليراقبه، وأمَرهُ بأن يضربَهُ كلما أساء أدبَهُ، وٱشتغل بما لا يليق به ويغضب عليه. فإن كان الغلام مطيعاً محبّاً لمولاه، فلا يجدُ بُدّاً من أن يغضبَ كلما رأى ولدَه ـ أي ولد الملك ـ قد أساء الأدب، وإنما يغضبُ عليه لمولاه، ولأنه

يريدُ التقرّبَ إليه بامتثال أمره، ولأنه جرى من الولد ما يكرهه مولاه، فيضربه ويغضبُ عليه من غير تكبّرٍ لهُ عليه، بل هو متواضعٌ له، يرى قدرهُ عند مولاه فوق قدرِ نفسِهِ، لأنّ الولدَ أعزُّ لا محالة من الغلام.

فإذن، ليس من ضرورة الغضب التكبّر وعدم التواضع، فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدعِ والفاسق وتظنُّ أنه ربما كان قدرهما عند الله في الآخرة أعظمَ، لما سبق لهما من الحسنى في الأزل، ولما سبقَ لكَ من سوء القضاء في الأزلِ وأنتَ غافلٌ عنهُ، ومع ذلك تغضبُ بحكمِ الأمرِ محبّةً لمولاك إذا جرى ما يكرههُ، مع التواضع، لمَن يجوز أنَ يكونَ عند الله أقرب منك في الآخرة.

فهكذا يكون بعض العلماء الأكياس(١) وينضمُّ إليه الخوف والتواضع، وأمّا المغرور فإنه يتكبّرُ ويرجو لنفسهِ أكثر مما يرجوه لغيرهِ مع جهله بالعاقبة، وذلك غايةُ الغرور؛ فهذا سبيلُ التواضعِ لمن عصى اللّهَ أو اعتقدَ البدعةَ مع الغضب عليه، ومجانبتِهِ بحكم الأمر.

السبب السابع: الورعُ والعبادة

وذلك أيضاً فتنةٌ عظيمة على العُبّاد. وسبيلُهُ أن يُلزمَ قلبَهُ التواضع لسائر العباد، وهو أن يعلم العابدُ أنّ مَن يتقدمُ عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبَّرَ عليه كيفما كان، لما عَرَفهُ من فضيلة العلم، وقد قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢)، وقال رسول الله ﷺ: «فضلُ العالمِ على العابد كفضلي على أدنى رجلٍ من أصحابي»(٣)، إلى غيرِ ذلك مما ورد في فضلِ العالم. فإن اعترضَ

(١) الأكياس: الظرفاء الفطنون.
(٢) سورة الزُّمر، الآية: ٩.
(٣) أخرجه الترمذي ج١٠ ص١٥٧ من حديث أبي أمامة الباهلي، وقد تقدم في كتاب العلم.

العابدُ بأن العالمَ الذي لا ينبغي أن يتكبَّرَ هو عليه هو ذلك العالمُ العاملُ بعلمهِ، وهذا عالم فاجر؟ أجيبَ بأنه: أما علمتَ أن الحسناتِ يُذهبنَ السيئات! وكما أن العلم يمكنُ أن يكون حجّةً على العالِم، كذلك يمكن أن يكون وسيلةً له وكفّارةً لذنوبه، وكلُّ واحد منهما ممكن، وقد وردت الأخبارُ بما يشهدُ لذلك. وإذا كان هذا الأمر ـ أي أن علم العالم هذا هو حجة عليه أم وسيلة له ـ غائباً عنه ـ أي مجهولاً لديه ـ لم يجز له أن يحتقر عالماً، بل يجبُ عليه أن يتواضعَ له.

فإن سأل ثانية بأنه إن صحَّ هذا الكلام، ينبغي إذاً للعالم أن يرى نفسهُ فوق العابد، بدليل قولِ رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجلٍ من أصحابي»؟ أجيبَ بأنَّ ذلك ممكنٌ لو علِمَ العالم عاقبةَ أمره، إلاَّ أن خاتمة الأمر مشكوك فيها، فيحتمل أن يموت بحيث يكونُ حالُهُ عند الله أشدَّ من حال الجاهل الفاسق، بسبب ذنبٍ واحدٍ كان يحسبُهُ هيّناً وهو عند الله عظيم، وقد مقَتَهُ به؛ وإذا كان هذا ممكناً، كان على نفسِهِ خائفاً. فإذا كان كلُّ واحدٍ من العالمِ والعابد خائفاً على نفسه، وقد كُلِّفَ أمر نفسهِ لا أمرَ غيره، ينبغي أن يكون الغالبُ عليه في حقِّ نفسهِ الخوفُ، وفي حق غيرهِ الرجاءُ، وذلك يمنعهُ من التكبر على كلِّ حال؛ فهذه حال العابدِ معَ العالم.

وأمّا مع غير العالم، فهم منقسمون في حقّه إلى مستورين ومكشوفين، فينبغي أن لا يتكبّر على المستور ـ فلعله أقلّ منه ذنباً وأكثرَ منه عبادة وأشدَّ منه حبّاً لله ـ وأمّا المكشوفُ حالُهُ، إن لم يُظهر لك من الذنوبِ إلاَّ ما تزيدُ عليه ذنوبُك في طول عمرك ـ أي إلاّ ما يكون عددُ ذنوبك خلال عمرك بكامله أزيدَ مما أظهره لك عند

انكشاف حاله ـ فلا ينبغي أن تتكبّر عليه، ولا يمكن أن تقول هو أكثرُ مني ذنباً، لأنّ عدد ذنوبك وذنوب غيرك في طول العمر لا تقدرُ على إحصائها حتى تعلمَ الكثرة من القلة ـ أي من هو الذي أذنب أكثر من الآخر ـ نعم، يمكنُ أن يعلمَ أن ذنوبَهُ أشدّ، كما لو رأيت منه القتل والشربَ والزنى؛ ومع ذلك، فلا ينبغي أن تتكبر عليه، إذ ذنوبُ القلوبِ من الكِبر والحسدِ والرياء والغلّ واعتقادِ الباطلِ والوسوسةِ في صفات الله وتخيّلِ الخطأ فيه، كلُّ ذلك شديدٌ عند الله. فربما جرى عليكَ في باطنكَ من خفايا الذنوب ما صرتَ به عند الله ممقوتاً، وجرى للفاسق الظاهر الفسقِ من طاعات القلوب من حبِّ الله، ومن إخلاصٍ وخوفٍ وتعظيمِ ما أنتَ خالٍ عنه، وقد كفّر بذلك سيئاته، فينكشف الغطاءُ يوم القيامة فتراهُ فوق نفسكَ بدرجات!!

فهذا ممكنٌ، والإمكان البعيد فيما يتعلقُ بك ينبغي أن يكون قريباً عندك، وإن كنتَ مشفقاً على نفسِكَ فلا تتفكر فيما هو ممكنٌ لغيرك، بل فيما هو مخوفٌ في حقك، فإنه لا ترزُ وازرةٌ وزر أخرى، وعذاب غيركَ لا يخفف شيئاً من عذابك. فإذا تفكرت في هذا الخطر، كان عندكَ شغلٌ شاغلٌ عن التكبّر، وعن أن ترى نفسكَ فوق غيرك.

وقد قال وهبُ بن منبّه: ما تمَّ عقلُ عبدٍ حتى تكونَ فيه عشرُ خصال، فعدَّ تسعةً حتى بلغ العاشرةَ فقال: العاشرةُ وما العاشرة! بها ساد مجدُهُ، وبها علا ذكرُه: أن يرى الناسَ كُلَّهُم خيراً منه، وإنما الناسُ عندهُ فرقتان: فرقةٌ هي أفضلُ منه وأرفع، وفرقةٌ هي شرٌّ منه وأدنى، فهو يتواضعُ للفرقتين جميعاً بقلبه: إن رأى من هو خيرٌ منه سرّهُ، وتمنى أن يلحق به، وإن رأى مَن هو شرٌّ منهُ قال: لعلَّ هذا ينجو وأهلكُ أنا، فلا يراه شراً منه، خائفاً من العاقبة، ويقول: لعلَّ

برٌّ هذا باطنٌ فذلكَ خيرٌ له، ولا أدري لعلَّ فيه خُلُقاً كريماً بينَهُ وبين الله فيرحمُهُ الله ويتوبُ عليه ويختمُ له بأحسنِ الأعمال، وبرّي ظاهرٌ فذلك شرٌّ لي لا آمنُ فيما أُظهِرُ من الطاعةِ أن تكونَ دخلتها الآفات فأحبطتها، ثم قال وهب: فحينئذٍ كَمُلَ عقلُهُ وسادَ أهلَ زمانِهِ؛ فهذا كلامه.

وبالجملة، من جوّز ـ أي احتمل ـ أن يكون عند الله شقياً وقد سبقَ القضاءُ الأزليُّ بشقوتهِ، فما له سبيلٌ إلى أن يتكبّر بحالٍ من الأحوال. نعم، إذا غلبه الخوف، رأى كلَّ أحدٍ خيراً من نفسِهِ، وذلك هو الفضيلة، كما روي من أنّ عابداً أوى إلى جبلٍ فقيل له في النوم: إئت فلاناً الإسكاف فسَلْهُ أن يدعو لك، فأتاهُ فسأله عن عملهِ فأخبرهُ أنه يصومُ النهار ويكتسبُ ويتصدّق ببعضه، ويطعمُ عياله ببعضه، فرجعَ وهو يقول: إنّ هذا لحسنٌ ولكن ليس هذا كالتفرُّغ لطاعةِ الله. فأُتي في النوم ثانياً فقيل له: إئت الإسكاف فقُل له: ما هذا الصّفار الذي بوجهك؟ فأتاه فسأله، فقال له: ما رأيتُ أحداً من الناس إلاّ وقعَ لي ـ أي أحسست في نفسي ـ أنه سينجو وأهلكُ أنا؛ فقال العابد بهذه.

والذي يدلُّ على فضيلة هذه الخصلة، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾(١) أي يؤتون الطاعات وهم على وجلٍ عظيم من قبولها. وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧﴾(٢). وقال: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾(٣). وقد وصف الله الملائكة مع

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٥٧.
(٣) سورة الطور، الآية: ٢٦.

تقدُّسِهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات، بأنهم دائبون على الإشفاق، فقال: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝٢٠﴾[1] و ﴿وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾[2].

ومتى زال الإشفاقُ والحذرُ مما سبقَ به القضاء في الأزلِ وينكشفُ عند خاتمة الأزلِ، غلبَ الأمنُ من مكرِ اللَّهِ، وذلك يوجبُ الكبرَ، وهو سببُ الهلاك. فالكبرُ دليلُ الأمنِ، والأمنُ مهلكٌ، والتواضعُ دليلُ الخوفِ، وهو مُسعِدٌ.

فإذن، ما يفسدهُ العابدُ بإضمار الكِبر واحتقار الخلقِ والنظر إليهم بعين الاستصغار، أكثرُ مما يُصلحُهُ بظاهرِ الأعمال؛ فهذه معارف بها يُزال داء الكبر عن القلب لا غير.

٩ : ج ـ امتحانات النفس في وجود الكبر

بعد هذه المعرفة، قد تضمرُ النفسُ التواضع وتدعي البراءة من الكبر، وهي كاذبة، فإذا وقعت الواقعة عادت النفسُ إلى طبعها ونسيت وعدها، ولهذا لا ينبغي أن يكتفى في المداواة بمجرد المعرفة، بل ينبغي أن يكمل المعرفة بالعمل، ويجرّب ـ أي يمتحن ـ نفسه بأعمال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النفس.

وبيانُه، أن يمتحن النفس بخمسِ امتحانات هي أدلة على استخراج ما في الباطن، وإن كانت الامتحانات كثيرة:

الامتحان الأول

أن يناظرَ في مسألة مع واحدٍ من أقرانه، فإن ظهر شيء من

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

الحقِّ على لسان صاحبه فثقل عليه قبولهُ والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحقَّ، فذلك يدلُّ على أنّ فيه كِبراً دفيناً، فَليتقِّ الله فيه، وليشتغل بعلاجه، إما بالعلاج العلمي بأن يذكّر نفسَهُ خسّةَ نفسِه وخطر عاقبته، وأنّ الكبرَ لا يليق إلاّ بالله تعالى، وإما بالعلاج العملي بأن يكلِّفَ نفسَهُ ما يثقلُ عليه من الاعترافِ بالحق، فيطلق اللسان بالحمد والثناء، ويقرُّ على نفسه بالعجز، ويشكره على الاستفادة فيقول: ما أحسنَ ما فطنتَ له وقد كنتُ غافلاً عنه، فجزاك الله خيراً كما نبّهتني له. فالحكمةُ ضالّة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دلَّهُ عليها، فإذا واظب على ذلك مرّاتٍ متوالية، صار ذلكَ له طبعاً، وسقطَ ثقل الحق عن قلبِهِ وطابَ له قبوله. وكلما ثقلَ عليه الثناء على أقرانهِ بما فيهم، ففيه كبرٌ، فإن كان ذلك لا يثقلُ عليه في الخَلوة ويثقل في الملأ، فليسَ فيه كبرٌ وإنما فيه رياء، فليعالج الرياء بما ذكرناه من قطعِ الطمعِ عن الناس، ويذكّر القلبَ بأن منفعتَهُ في كماله في ذاته وعند الله، لا عندَ الخلق، إلى غير ذلك من أدوية الرياء. وإن ثقل عليه ذلك في الخلوةِ والملأ معاً ففيه الكبرُ والرياء، ولا ينفعهُ الخلاص من أحدهما ما لم يتخلّص من الثاني فليُعالج كلا الداءين، فإنهما جميعاً مهلكان.

الامتحان الثاني

أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ويقدِّمَهم على نفسِهِ ويمشي خلفَهم ويجلسَ في الصدور تحتهم ـ أي في مواضع أدنى من مواضعهم في صدور المجالس ـ فإن ثقل ذلك عليه فهو متكبّر، فليواظب عليه تكلّفاً حتى يسقُطَ عنه ثقله، فبذلك يزايله ـ أي يبتعد عنه وينفصل منه ـ الكبر.

وههنا للشيطان مكيدة، وهي أن يجلسَ في صفِّ النّعال، أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأرذال، فيظنُّ أن ذلك تواضع، وهو عين الكبر، فإنّ ذلك يخفُّ على نفوس المتكبرين إذ يوهمون أنّهم إنّما تركوا مكانَهم بالاستحقاق والتفضّل فيكونُ قد تكبّر، وتكبّرَ بإظهار التواضع أيضاً، بل ينبغي أن يقدِّمَ أقرانَهُ ويجلس تحتهم - أي دونهم - ولا ينحطَّ عنهم إلى صفِّ النعال، فذلك هو الذي يُخرج خبثَ الكِبرِ من الباطن.

الامتحان الثالث

أن يجيبَ دعوة الفقير ويمرَّ إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب، فإن ثقل ذلك عليه، فهو كبرٌ، فإن هذه الأفعال من مكارمِ الأخلاق، والثوابُ عليها جزيل، ونفور النفسِ عنها ليس إلاّ لخبثٍ في الباطن، فليشتغِل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكّر جميع ما ذكرناهُ من المعارفِ التي تزيلُ داء الكبر.

الامتحان الرابع

أن يحملَ حاجةَ نفسهِ وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت، فإن أبَتْ نفسُهُ ذلك، فهو كبرٌ أو رياء، فإن كان يثقلُ ذلك عليه مع خلوّ الطريق، فهو كبرٌ، وإن كان لا يثقل إلاّ عند مشاهدة الناس، فهو رياء. وكلُّ ذلك من أمراض القلبِ وعللهِ المهلِكة إن لم تُتدارك.

لكن، ليس كل رياء مذموماً بل قد يكون مستحباً، بل واجباً، إذ يجبُ على المؤمن صيانة عِرضه وأن لا يفعلَ ما يُعابُ عليه، فلا يليق بذوي المروءات أن يرتكبوا الأمور الخسيسة بأنفسهم عند مشاهدة

الناس، وإن جاز لهم في الخلوة؛ إلاّ أنَّ ذلك يختلف باختلافِ الأزمنةِ والبلادِ والأشخاص، فلا بدَّ من مراعاةِ ذلك. روي في الكافي[1] عن الصادق عليه السلام «أنه نظر إلى رجلٍ من أهل المدينة قد اشترى لعيالهِ شيئاً وهو يحمله، فلمّا رآه الرجل استحيى منه، فقال عليه السلام: اشتريتَهُ لعيالكَ وحملَتهُ إليهم، أما والله لولا أهل المدينة لأحببتُ أن أشتري لعيالي الشيء ثمَّ أحملَهُ إليهم» أراد عليه السلام لولا مخافة أن يعيبوا عليّ ذلك، مع أنّ جدّه أمير المؤمنين عليه السلام كان يفعلُ مثله ـ أي مثل هذا العمل ـ إلاّ أنهم لمّا لم يعيبوا عليه بمثله في زمانه وفي شأنه، جاز له أن يرتكبه، وكان منقبةً له وتعليماً.

قال أبو حامد: وقد أهملَ الناسُ طبَّ القلوب، واشتغلوا بطبِّ الأجساد، مع أنّ الأجساد قد كُتبَ عليها الموت لا محالة، والقلوبُ لا تدركُ السعادةَ إلاّ بسلامتها، إذ قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[2].

ويروى عن عبد الله بن سلام أنّه حملَ حزمةَ حطبٍ، فقيل له: يا أبا يوسف. قد كان في غلمانك وبنيك من يكفيك، قال: أجل، ولكن أردت أن أمتحن نفسي هل تنكرُ ذلك، أي تستثقله؛ فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على تركِ الأنفةِ حتى جرَّبها، أهي صادقة أم كاذبة. وفي الخبر «من حملَ الفاكهةَ أو الشيء فقد برىء من الكِبر»[3].

---

(١) الكافي ج٢ ص١٢٣ تحت رقم ١٠.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨٩.

(٣) أخرجه البيهقي في شعبِ الإيمان من حديث أبي أُمامة بسندٍ ضعيف، كما في الجامعِ الصغير، وفي لفظهِ «من حمل سلعتهُ».

الامتحانُ الخامس

أن يلبسَ ثياباً بَذِلَة[1]، فإن نفور النفسِ عن ذلك في الملأ رياء وفي الخلوةِ كبر، وقد قال رسول الله ﷺ: «من اعتقل[2] البعير ولبسَ الصوف فقد برىء من الكِبر»[3]، وقال ﷺ: «إنما أنا عبدٌ آكلُ بالأرض وألبسُ الصوف وأعقلُ البعير وألعقُ أصابعي وأُجيبُ دعوة المملوك فمن رغب عن سنّتي فليس منّي»[4].

وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر، فما يختص بالملأ فهو الرياء، وما يكونُ في الخلوة فهو الكِبر، فليعرف، فإنّ مَن لا يعرفِ الشرَّ لا يتقيه، ومن لا يدركُ المرضَ لا يداويه.

١٠ ـ أخلاقُ المتواضعين وأهمُّ مواطنِ ظهور التواضعِ والكبر

إعلم أنّ التكبّر يظهرُ في شمائل الرجل، كصَعرٍ في وجهه، ونظره شزراً، وإطراقه رأسَهُ، وجلوسه متربّعاً أو متكئاً، وفي أقواله، حتى في صوتِهِ ونغمته وصيغة حديثه ويظهرُ في مشيتهِ وتبختُره وقيامِه وجلوسِهِ وحركاتِهِ وسكناتِهِ، وفي تعاطيهِ لأفعالِهِ، وفي سائر تقلّباتِهِ في أحوالِهِ وأقوالِهِ وأعمالِهِ. ومن المتكبّرين مَن يجمعُ ذلك كُلَّهُ، ومنهم مَن يتكبّر في بعضٍ ويتواضع في بعض.

---

(١) بَذِلة: رَثّة، خَلِقَة.

(٢) إعتقل البعير: أي عقله ومعناه: ثنى وظيفه مع ذراعه فشدّهما معاً بحبلٍ هو العقال.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بزيادةٍ فيه، وفي إسناده القاسمُ اليعمري. ضعيف جداً، كما في المغني.

(٤) مضمونٌ مأخوذ من جملةٍ من الأحاديث وليس هو حديث واحد. راجع سنن ابن ماجة وغيره، باب الكبر وباب الزهد، وقد مرَّ في كتاب أخلاق النبوة.

فمنها، التكبّرُ بأن يحبَّ قيام الناسِ له أو بينَ يديه. وقد قال عليﷺ: «من أراد أن ينظر إلى رجلٍ من أهل النار فلينظر إلى رجلٍ قاعدٍ وبينَ يديه قومٌ قيام». وقال أنس: لم يكن شخصٌ أحبَّ إليهم من رسول اللهﷺ، وكانوا إذا رأوه لا يقومون له لما يعلمونَ من كراهتهِ لذلك.

ومنها، أن لا يمشي إلاّ ومعهُ غيرهُ يمشي خلفَهُ. قال أبو الدرداء: لا يزال العبدُ يزدادُ من الله بُعداً ما مُشيَ خلفه. وكان رسول الله ﷺ في بعض الأوقات يمشي مع الأصحاب، فيأمرهم بالتقدم ويمشي في غمارهم[1].

ومنها، أن لا يزور غيرهُ، وإن كان يحصلُ من زيارتِهِ خيرٌ لغيره في الدين؛ وهو ضد التواضع. ومنها، أن يستنكف من جلوسِ غيرهِ بالقربِ منه، إلاّ أن يجلسَ بين يديه.

والتواضع خلافُه. قال أنس: «كانت الوليدةُ من ولائدِ المدينةِ تأخذ بيد رسول اللهﷺ ولا ينزعُ يده منها حتى تذهبَ به حيث شاءت»[2].

ومنها، أن يتوقّى مجالسةَ المرضى والمعلولين ويتحاشى عنهُم، وهو كبر. دخل رجلٌ على رسول الله ﷺ وعليه جدريٌّ قد تقشَّرَ، وعنده ناسٌ من أصحابه يأكلون، فما جلسَ عند أحدٍ إلاّ قام من

---

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أُمامة بسندٍ ضعيف جداً أنهﷺ يمشي إلى البقيع فتبعه أصحابُه، فوقف وأمرهم أن يتقدموا، ومشى خلفهم، فسئل عن ذلك، فقال: «إني سمعتُ خفقَ نعالكم فأشفقتُ أن يقع في نفسي شيء من الكبر» وقال: هو منكَرٌ، وفيه جمعٌ من الضعفاء.

(٢) تقدم سابقاً ج٤ ص١٢٩ (من المتن الأصلي للكتاب)، ورواه ابن ماجة تحت رقم ٤١٧٧.

جنبه، فأجلسَهُ النبيﷺ إلى جنبه[١].

ومنها، أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته؛ والتواضع خلافُه.

ومنها، أن لا يأخذَ متاعاً ويحمله إلى بيته، وهٰذا خلافُ عادة المتواضعين. كان رسول اللهﷺ يفعل ذلك[٢]، وقال عليعليه السلام: «لا ينقصُ الرجلَ من كماله ما حمل من شيء إلى عياله. وقال بعضُهم: رأيتُ علياً اشترى لحماً بدرهم فحمَلَهُ في مِلحفتِهِ، فقلتُ له: أحملُ عنكَ يا أمير المؤمنين؟ قال: «لا، أبو العيال أحقُّ أن يحمل»[٣].

ومنها، اللباس، إذ يظهرُ به التكبّر والتواضع، وقد قال رسول اللهﷺ: «البذاذة من الإيمان»[٤]؛ قيل: البذاذة هي الدونُ من اللباس. وعوتب عليّعليه السلام في إزارٍ مرقوعٍ، فقال: «يقتدي به المؤمن ويخشعُ له القلب»[٥]. وقال عيسىعليه السلام: جودة الثياب خيلاء القلب. وقال رسول اللهﷺ: «مَن ترك زينةً لله ووضع ثياباً حسنة تواضعاً لله وابتغاء وجهه، كان حقاً على الله أن يَدَّخرَ لهُ عبقريَّ[٦] الجنة»[٧].

---

(١) تقدم آنفاً.

(٢) حديثُ حملهِ المتاع إلى بيته أخرجَهُ أبو يعلى من حديث أبي هريرة في شرائه للسراويل وحمله، وقد تقدّمَ في المجلد الرابع (من المتن الأصلي للكتاب).

(٣) البحار، ج٩ ص٥٢٠، وفيه هكذا:

لا ينقصُ الكاملَ من كماله ... ما جرَّ من نفعٍ إلى عياله

والمِلحفة: كل ما يُلتحف به، اللباسُ فوق ما سواه.

(٤) أخرجه أحمد في المسند من حديث أبي أُمامة الحارثيّ، والحاكمُ في المستدرك أيضاً بسندٍ صحيح كما في الجامع الصغير، وأخرجهُ أبو داود، وابن ماجة تحت رقم ٤١١٨.

(٥) أورده الشريف الرضي في النهجِ، أبواب الحِكَم تحت رقم ١٠٣.

(٦) العبقريّ: ضربٌ من البسط الفاخرة.

(٧) أخرجه أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية، وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس، وفي إسناده نظرٌ، كما في المغني.

وقد يُسأل بأنّ عيسى عليه السلام قد قال: جودةُ الثياب خيلاءُ القلب، وقد سُئل نبينا ﷺ عن الجمال في الثياب، هل هو من الكبر؟ فقال: «لا، ولكنّ الكبر، من سفه الحقّ وغمص الناس»[1]، فكيفَ طريقُ الجمع بينهما؟

والجواب: إعلم أن الثوب الجيّد ليس من ضرورته أن يكونَ من التكبّر في حقِّ كلِّ أحد وفي كل حال، وهو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ، وهو الذي بيّنه رسول الله ﷺ من حال ثابت بن قيس إذ قال: إنّي امرؤ حُبّبَ إليّ من الجمال ما ترى، فعرَّفَه أنَّ ميله إلى النظافة وجودة الثياب ليست لأجل أن يتكبّر على غيره، فإنّ لبسَ الثوب الجميل ليس بالضرورة أن يكون من الكبر، وقد يكون من الكبر كما أن الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع.

فإذا انقسمت الأحوال ـ أي تعددت ـ ينزل قول عيسى عليه السلام على بعضِ الأحوال، على أنّ قوله: خيلاء القلب يعني أنّه قد يورثُ خيلاءَ في القلب، وقول نبينا ﷺ: «إنّه ليس من الكبر» يعني أنّ الكِبر لا يوجبُهُ، ويجوز أن لا يوجبه ـ أي لبس الثياب الحسنة ـ الكبر، ثم يكون هو مورثاً للكبر.

وبالجملة، فالأحوال تختلف في مثل هذا، والمحمود هو الوسطُ من اللباس الذي لا يوجبُ شهرةً بالجودة ولا بالرداءة، وقد قال ﷺ: «كُلوا واشربوا والبسوا وتصدَّقوا في غير سَرفٍ ولا مخيلة»[2] و «إنّ اللّهَ يحبُّ أن يرى أثرَ نعمته على عبده»[3]. وقال بكرُ بن عبد

---

(١) تقدّم غير مرة، وهو حديث ثابت بن قيس الآتي.

(٢) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٣٦٠٥، والنسائي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه.

(٣) أخرجه الترمذي وحسّنه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه، وقد جعل في المتن هذين الحديثين حديثاً واحداً، وهو الصحيح.

الله المزنيّ: إلبسوا ثياب الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية. وإنما خاطب بهذا ـ أي بهذا الحديث الناهي في ظاهره عن لبس الثياب الحسنة ـ قوماً يطلبون التكبّر بثياب أهل الصلاح. وقال عيسى عليه السلام: «ما لكم تأتوني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوبُ الذئاب الضواري، إلبسوا ثيابَ الملوك وأميتوا قلوبكم بالخشية».

ومنها، أن يتواضع بالاحتمال ـ أي التحمّل ـ إذا سُبَّ وأوذي وأُخذَ حقُّهُ، فذلك هو الأفضل. وقد أوردنا ما نُقل عن السلفِ من احتمال الأذى في كتاب الغضبِ والحسد. وبالجملة، فأمهات محاسن الأخلاق والتواضع موجودة في سيرة رسول الله ﷺ فيه، فينبغي أن يقتدى به، ومنهُ ينبغي أن يُتعلّم.

وقد قال أبو سلمة: قلت لأبي سعيد الخدري: ما ترى فيما أحدث الناس من الملبسِ والمشربِ والمركب والمطعم؟ فقال: يا بن أخي، كُل لله، واشرب لله، والبس لله، وكلُّ شيءٍ من ذلك دخَلَهُ زهوٌ[١] أو مباهاة أو رياء أو سُمعة فهو معصيةٌ وسَرف، وعالج في بيتكَ من الخدمةِ ما كان رسول الله ﷺ يعالجُ في بيته: كان يعلف الناضح[٢]، ويعقل البعير، ويقم البيت[٣]، ويحلبُ الشاةَ، ويخصفُ النعل[٤]، ويرقّعُ الثوب، ويأكلُ مع خادمهِ، ويطحن عنه إذا أعيى[٥]، ويشتري الشيء من السوق، ولا يمنعهُ الحياء أن يعلّقه بيده أو يجعله في طرفِ ثوبه فينقلبُ إلى أهله، يصافحُ الغنيّ والفقير والصغير والكبير

---

(١) زهو: تكبّر.
(٢) يعلف الناضح: يعلف: يقدّم العَلف. الناضح: البعير يستقى عليه.
(٣) في النسخة: يَقُمّ.
(٤) يخصف النعل: يطبق عليها مثلها ويخرزها بالمِخصَف أي مخرز الإسكاف.
(٥) أعيى: تَعبَ وكَلَّ.

ويسلِّمُ مبتدئاً على كلِّ من استقبَلَهُ من صغير أو كبيرٍ، أسود أو أحمر، حرٍّ أو عبدٍ من أهل الصلاة، ليس له حُلَّةٌ لمدخلهِ وحلّةٌ لمخرجهِ، لا يستحي من أن يجيب إذا دعي وإن كان أشعث أغبر، ولا يحقّرُ ما دعي إليه وإن لم يجد إلاّ حشفَ الدّقل[١]، لا يرفعُ غداءً لعشاء ولا عشاءً لغداء، هيّنُ المؤونة، لين الخُلق، كريمُ الطبيعة، جميل المعاشرةِ، طليقُ الوجه، بسّام من غير ضحك، محزونٌ من غير عبوس، شديدٌ في غير عنف، متواضعٌ في غير مذلة، متواضعٌ في غير مذلّة، جوادٌ من غير سَرف، رحيمٌ بكلِّ ذي قربى، قريبٌ من كلِّ ذمّي ومسلم، رقيقُ القلبِ، دائم الإطراق، لم يَبشمْ قطُّ من شبع، ولا يمدُّ يدهُ إلى طمع. قال أبو سلمة: فدخلتُ على عائشة فحدَّثتُها كلَّ هذا عن أبي سعيد، فقالت: ما أخطأ منهُ حرفاً، ولقد قصّر، إذ لم يخبرك أن رسول الله ﷺ لم يمتلىء قطُّ شبَعاً، ولم يبثَّ إلى أحدٍ شكوى، وأنْ كانت الفاقةُ أحبّ إليه من اليسار والغنى، وأن كان ليظلُّ جائعاً يلتوي ليلته حتى يصبح، فما يمنعهُ ذلك عن صيام يومه، ولو شاء أن يسألَ ربّهُ فيؤتى بكنوزِ الأرضِ وثمارها ورغَدِ عيشها من مشارقها ومغاربها لفعل، وربّما بكيتُ رحمة له مما أوتي من الجوع، فأمسحُ بطنهُ بيدي فأقول: نفسي لك الفداء، لو تبلّغتَ من الدنيا بقدر ما يقوتُك ويمنعك من الجوع؟ فيقول: يا عائشة، إخواني من أولي العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشدّ من هذا فمضوا على حالهم وقدموا على ربّهم، فأكرم مآبهم وأجزل ثوابَهم، فأجدني أستحي إن ترفّهتُ في معيشتي أن يُقصَرَ بي دونَهم[٢]، فأصبرُ أياماً يسيرة أحبُّ

---

(١) حشف الدّقل: الحَشَف هو أردأ التمر أو اليابس الفاسد من التمر. والدقَل هو أردأ التمر.

(٢) أي ان أُبلَّغَ مرتبةً ومقاماً هي دون مرتبتهم ومقامهم.

إليَّ من أن يَنقصَ حظّي غداً في الآخرة، وما من شيء أحبُّ إليّ من اللحوق بإخواني وأخلائي، فقالت عائشة: فوالله ما استكملَ بعد ذلك جُمعةً حتى قبضَهُ الله تعالى»(١).

فما نُقل من أخلاقهﷺ يجمعُ جملةَ أخلاق المتواضعين، فمن طلب التواضع فليقتد به، ومن رأى نفسه فوق محلّهِﷺ ولم يرضَ لنفسهِ بما رضي هو به، فما أشدَّ جهلَهُ! فلقد كان رسول اللهﷺ أعظمَ خلقِ الله تعالى منصباً في الدنيا والدين، فلا عزَّ ولا رفعةَ إلاّ في الاقتداء به، ولذلك لمّا عوتب بعض الصحابة في بذاذةِ هيئته، قال: إنّا قومٌ أعزّنا الله تعالى بالإسلام، فلا نطلبُ العزَّ من غيره.

وقال أبو الدرداء: إعلم أنّ لله عباداً يُقال لهمُ الأبدال، خلَفٌ من الأنبياء(٢)، هم أوتاد الأرض. فلما انقضت النبوة أبدلَ الله تعالى مكانهم قوماً من أمّة محمدﷺ، لم يفضلوا الناس بكثرة صلاة ولا صوم ولا حُسنِ حلية، ولكن بصدقِ الورع وحسنِ النية وسلامةِ الصدر لجميع المسلمين والنصحِ لهم، ابتغاء مرضاةِ الله. بصبرٍ من غير تجبُّنٍ، وتواضعٍ من غير مذلة، وهم قوم اصطفاهمُ الله تعالى واستخلصهم لنفسهِ، وهم أربعون صدّيقاً أو ثلاثون رجلاً، قلوبهم على مثل يقين إبراهيم خليل الرحمنﷺ، لا يموتُ الرجلُ منهم حتى يكون الله تعالى قد أنشأ من يُخلفُه. واعلم يا أخي أنّهم لا يلعنون شيئاً ولا يؤذونه ولا يحقرونه ولا يتطاولون عليه ولا يحسدون أحداً

---

(١) قال العراقي: لم أقف على أسناد. أقول: يوجد بعض فصولهِ في الأخبار متفرّقاً عن غير أبي سلمة. راجع المجلد الرابع (من المتن الأصلي للكتاب) وسننَ ابن ماجة كتاب الزهد، ومجمعَ الزوائد ج١٠ ص٣١٢.

(٢) أي بقية من الأنبياءﷺ.

ولا يحرصون على الدنيا، هم أطيبُ الناس خيراً، وألينُهم عريكة، وأسخاهم نفساً، علامتُهم السخاء، وسجيتهم البشاشة، وصفتهم السلامة، ليسوا اليوم في خشيةٍ وغداً في غفلة، ولكن مداومين على حالهم الظاهر، وهم فيما بينهم وبين ربّهم لا تحركهم الرياحُ العواصف ولا الخيلُ المجراة[1]، قلوبُهم تصعدُ ارتياحاً إلى الله واشتياقاً إليه وقُدُماً في استباق الخيرات ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. فقال الراوي: فقلت: يا أبا الدرداء، ما سمعتُ بصفةٍ أشدَّ عليّ من هذه الصفة، وكيف لي أن أبلغها؟ فقال: ما بينك وبين أن تكون في أوسعها[2] إلاّ أن تكونَ تبغضُ الدنيا، فإنك إذا أبغضت الدنيا أقبلتَ على حبِّ الآخرة، وبقدر حبك للآخرة تزهدُ في الدنيا، وقدرَ ذلك تبصرُ ما ينفعك[3]، فإذا علمَ الله من عبد حسنَ الطلب، أفرغَ عليه السداد، واكتنفه بالعصمة، واعلم يا بن أخي أنّ ذلك في كتاب الله المنزل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ وقال يحيى بن كثير: فنظرنا في ذلك[4]، فما تلذّذ المتلذّذون بمثل حبِّ الله تعالى وطلبِ مرضاته.

١١ ـ غايةُ الرياضة في خُلقِ التواضع

إعلم أنّ هذا الخلقَ كسائر الأخلاق له طرفان وواسطة. فطرفُهُ الذي يميلُ إلى الزيادة يسمّى تكبّراً، وطرفهُ الذي يميلُ إلى النقصان يسمى تخاسساً ومذلّة، والوسطُ يسمّى تواضعاً، والمحمود أن يتواضعَ

---

(١) الخيل المجراة: الخيل المهاجمة.
(٢) أي في أرفعها وأرحبها.
(٣) في النسخة: ينفكَ.
(٤) أي تأملنا فيه وفكرنا.

في غير مذلّة ومن غير تخاسس، فإنَّ كلا طرفي قصد الأمورِ ذميمٌ وأَحبُّ الأمور إلى الله تعالى أوساطُها. فمن يتقدم على أمثالهِ فهو متكبّر ومَن يتأخرُ عنهم فهو متواضع، أي أنّه وضعَ شيئاً من قدره الذي يستحقّه.

والعالِمُ إذا دخلَ عليه إسكافٌ فتنحّى له عن مجلسهِ وأجلسَهُ فيه، ثمَّ تقدَّمَ وسوّى له نعلَهُ وغدا إلى الباب خلفه فقد تخاسس وتذلّل، وهذا أيضاً غير محمود، بل المحمود عند الله العدل، وهو أن يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقّه، فينبغي أن يتواضعَ بمثلِ هذا لأمثاله ولمن يقربُ من درجته.

وأمّا تواضعه للسوقي[1] فبالقيام له، وبالبِشر في الكلام والرّفقِ في السؤال وإجابةِ دعوته والسعي في حاجته وأمثالِ ذلك، وأن لا يرى نفسهُ خيراً منه، بل يكون على نفسه أخوف منه على غيره، فلا يحتقرهُ ولا يستصغره وهو لا يعرف خاتمةَ أمرهِ وخاتمته.

فإذن، سبيلهُ في اكتساب التواضع أن يتواضعَ للأقران ولمن دونهم حتى يخفَّ عليه التواضع المحمود في محاسنِ العادات ليزول به الكِبرُ عنهُ، فإن خفَّ عليه ذلك فقد حصل له خلُقُ التواضع، وإن كان يثقلُ عليه وهو يفعلُ ذلك ـ أي يتواضع ـ فهو متكلّفٌ لا متواضع، بل الخُلُق ما يصدرُ عنه الفعلُ بسهولةٍ من غير ثقلٍ ومن غير روية. فإن خفَّ ذلك وصار بحيث يثقلُ عليه رعاية قدره حتى أحبَّ التملّقَ والتخاسس (فعل الخسّة) فقد خرج إلى طرفِ النقصان، فليرفَع نفسه، إذ ليس للمؤمن أن يذلَّ نفسَهُ، حتى يعود إلى الوسط الذي هو

---

(١) السُوقي: المنسوب إلى السُوَقة وهي الرعية من الناس.

الصراط المستقيم؛ وذلك غامضٌ في هذا الخُلق وسائر الأخلاق.

والميل عن الوسط إلى طرفِ النقصان، وهو التملّق، أهون من الميل إلى طرفِ الزيادة بالتكبّر، كما أنّ الميل إلى طرف التبذير في المال أحمدُ عند الناس من الميل إلى طرفِ البخل. فنهاية ـ أي طرفُ ـ التبذير ونهايةُ البخل مذمومان، وأحدهما أفحشُ من الآخر، وكذلك نهاية التكبّر ونهاية التملّق[1] والتذلل مذمومان، وأحدهما أقبح من الآخر. والمحمود المطلق هو العدل ووضعُ الأمور في مواضعها، كما يقتضيه العقل وعلى ما يعرف من ذلك بالشرع والعادة؛ ولنقتصر على هذا من بيان خُلُقِ الكبر.

وله الحمد أولاً وآخراً

---

(١) في النسخة: التبصبص وفي «الإحياء»: نهاية التنقّص.

آفة العُجب

١ ـ مدخل.

وضعَ المصنّفُ آفتي الكبر والعجبِ في كتاب واحد كما تقدم، وقد فصلناهما إلى بحثين منفصلين تحقيقاً لغرض هذا الكتاب، حيث يمثّلُ البحثُ بشأن آفة العُجبِ الشطر الثاني من كتابه (ره)، وفيه: بيانُ ذمِّ العجب وآفتِه، وبيان حقيقةِ العجبِ والإدلالِ وحدُّهما، وبيان علاجُ العجب على الجملة، وبيانُ أقسامِ ما به العجبِ وتفصيل علاجه؛ وقد رتبناها أيضاً بنحوٍ مختلف، بما يخدم هدف الكتاب وينظّمُ تناولَ القارىء العزيز للبحث.

٢ ـ حقيقةُ العُجب والإدلال وحدُّهما

إعلم أن العجبَ إنما يكونَ بوصفٍ هو كمال لا محالةَ. وللعالم بكمال نفسهِ في علمٍ وعملٍ ومال وغيره حالتان: إحداهما، أن يكونَ خائفاً على زوالهِ، مشفقاً على تكدّرهِ أو سلبه من أصلهِ؛ فهذا ليس بمعجب.

والأخرى، أن لا يكون خائفاً من زوالهِ، لكن يكونُ فرحاً به من حيثُ إنّه نعمةٌ من الله تعالى عليه، لا من جهة أنه كمال من نفسه ومن عنده؛ وهذا أيضاً ليس بمعجب.

وله حالةٌ ثالثةٌ هي العجب، وهو أن يكونَ غير خائفٍ عليه، بل يكون فرحاً به مطمئناً إليه، ويكون فرحه به من جهة أنه كمال ونعمةٌ ورفعةٌ وخيرٌ، لا من حيث إنّه عطية من الله تعالى ونعمةٌ منه، فيكون فرحُهُ به من جهة أنّه صفتُه هو، ومنسوبٌ إليه بأنه له، لا من حيث إنه منسوبٌ إلى الله تعالى بأنه منه؛ فكلما غلبَ على قلبِهِ أنّه نعمةٌ من الله، كلما شاءَ سلبَها عنه، زال العجب بذلك عن نفسِهِ.

فإذن العُجبُ هو إعظامُ النّعمة والركون إليها، مع نسيان إضافتها إلى المنعم. فإن أضيف إلى ذلك أن يغلبَ على نفسه (الإحساس) بأن له عند الله حقاً، وأنّه من اللهِ بمكانٍ يجعله يتوقّع بعملهِ كرامةً له في الدنيا، ويستبعدُ أن يجري عليه مكروهٌ قد يجري على الفسّاق، سُمِّيَ هذا إدلالاً بالعمل؛ فكأنه يرى لنفسهِ على الله دالّة[1]. وكذلك، قد يعطي غيرهُ شيئاً فيستعظمهُ ويمنُّ عليه، فيكونُ معجباً؛ فإن استخدمه ـ أي الشخص المعطى ـ أو اقترح عليه الاقتراحات، أو استغرب تخلُّفَهُ عن قضاء حقوقه، كان مدلاً عليه.

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾[2]: أي لا تُدلَّ بعملك. وفي الخبر «أنّ صلاةَ المدلّ لا ترفعُ فوق رأسه»[3]. ولأَن تضحك وأنت معترفٌ بذنبك، خير من أن تبكي وأنت مدلٌّ بعملك.

والإدلالُ وراء العُجب ـ أي مرتبة بعده وأسوأ منه ـ فلا مدلَّ إلاّ وهو معجب، وربَّ معجبٍ لا يُدلُّ، إذ العجب يحصل بالاستعظامِ

---

(١) دالّة: جرأة [بسبب وجاهته عنده].

(٢) سورة المدثّر، الآية: ٦.

(٣) قال العراقي: لم أجد له أصلاً. وفي النهاية «مُدلاً، أي منبسطاً لا خوف عليه».

ونسيان النعمة دون توقّع جزاء عليه، والإدلالُ لا يتمُّ إلاّ مع توقع جزاء، فإن توقّع إجابةَ دعوته واستنكرَ ردّها بباطنه، وتعجّبَ منها، كان مُدلاً بعمله؛ فإنه لا يتعجبُ من ردِّ دعاء الفساق، ويتعجبُ من ردِّ دعاء نفسه لذلك - أي للاستعظام ونسيان النعمة. فهذا هو العجبُ والإدلال، وهو من مقدمات الكبر وأسبابه.

وفي الكافي عن علي بن سويد، عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألتُه عن العُجبِ الذي يُفسدُ العمل، فقال: «العجبُ درجاتٌ منها أن يزيَّنَ للعبدِ سوءُ عمله فيراهُ حسناً ويحسبُ أنّه يُحسنُ صنعاً. ومنها أن يؤمن العبد بربّه فَيَمنَّ على الله، ولله عليه فيه المنة»(١)؛ أي لله عليه المنّة في الإيمان.

٣ ـ آفات العجُب

إعلم أن آفات العجب أنه يدعو إلى الكبر، لأنه أحد أسبابه كما ذكرناه، فيتولد من العجبِ الكبرُ، ومن الكبر الآفاتُ الكثيرة التي لا تحصى؛ هذا مع العباد.

وأمّا مع الله تعالى، فالعجبُ يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها. فبعضُ ذنوبه لا يذكرها ولا يتفقدها لظنّه أنّه مستغنٍ عن تفقدها، فينساها، وما يتذكره منها يستصغره ولا يستعظمه، فلا يجتهدُ في تداركه وتلافيه، بل يظنُّ أنه يُغفر له.

وأمّا العباداتُ والأعمال فإنه يستعظمها ويتبجّح بها ويمنُّ على الله بفعلها، وينسى نعمةَ الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، ثم إذا أُعجبَ بها عميَ عن آفاتها، ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثرُ سعيهِ ضائعاً، فإنّ الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصةً نقيّة عن

---

(١) الكافي ج٢ ص٣١٣.

الشوائب قلّما تنفع، وإنّما يتفقّدُ الآفات من يغلبُ عليه الإشفاق والخوفُ دون العُجب.

والمعجَبُ يغترُّ بنفسِهِ وبرَبّه ويأمن مكر الله وعذابَهُ، ويظن أنّه عند الله بمكان ـ أي يظن أن له مكانة رفيعة عند الله ـ وأنّ له عند الله منّة وحقاً بأعماله، التي هي نعمةٌ من نعمهِ وعطيّةٌ من عطاياه، ويخرجُهُ العجبُ إلى أن يثني على نفسهِ ويحمدَها ويزكيها، فإن أُعجبَ برأيه وعلمه وعقله، منعهُ ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال، فيستبدُّ بنفسهِ وبرأيه ويستنكفُ عَن سؤال مَن هو أعلم منه، وربما يعجبُ بالرأي الخطأ الذي خطرَ له، فيفرحُ بكونه من خواطرهِ، ولا يفرحُ بخاطرِ غيره، فيصرُّ عليه، ولا يسمعُ نُصحَ ناصحٍ ولا وعظَ واعظٍ، بل ينظرُ إلى غيره بعين الاستجهال، ويصرُّ على خطئه، فإن كان رأي الناصح في أمرٍ دنيوي حقق فيه، وإن كان رأيه في أمرٍ ديني لا سيما فيما يتعلق بأصول العقائد استخفّ به، ولو أنّه اتّهم نفسَهُ ولم يثق برأيه واستضاء بنور القرآن، واستعانَ بعلماء الدين، وواظب على مدارسةِ العلم، وتابع سؤال أهل البصيرة، لكان ذلك يوصلهُ إلى الحقّ.

فهذا وأمثالهُ من آفات العجب، فلذلك كان من المهلكات. ومن أعظم آفاتِهِ أن يفتُرَ في السعي، لظنّه أنّه قد فاز واستغنى؛ وهو الهلاكُ الصريح الذي لا شبهة فيه.

٤ ـ ذمُّ العُجبِ وآفتُه

إعلم أنّ العجبَ مذمومٌ في كتاب الله تعالى وسنّةِ نبيّه محمدٍ ﷺ. قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾[١]؛

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٥.

وذكرَ ذلك في معرض الإنكار. وقال الله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾[1]؛ فردَّ على الكفّار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم. وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2]؛ وهذا يرجعُ أيضاً إلى العُجبِ بالعمل، وقد يعجبُ الإنسانُ بعملٍ هو مخطىء فيه كما يُعجبُ بعملٍ هو مصيبٌ فيه.

وقال النبي ﷺ: «ثلاثٌ مهلكات: شحٌّ مطاع، وهوًى متّبَع، وإعجاب المرء بنفسه»[3].

وقال ﷺ لأبي ثعلب حيث ذكر آخر هذه الأمّة: «إذا رأيت شُحّاً مطاعاً، وهوى متّبعاً، وإعجاب كلِّ ذي رأيٍ برأيه فعليك نفسك»[4]. وقال ﷺ: «لو لم تذنبوا لخشيتُ عليكم ما هو أكبر من ذلك: العجبَ العجب»[5]. وقال ابن مسعود: «الهلاكُ في اثنتين: القنوط والعجب» وإنما جمعَ بينهما لأنّ السعادة لا تُنال إلاّ بالسعي والطلبِ والجدِّ والتشمّر، والقانطُ لا يسعى ولا يطلب، والمعجب يعتقد أنه سعد وظفر بمراده، فلا يسعى، والموجود لا يُطلبُ والمحال لا يُطلب، والسعادة في اعتقاد المعجب حاصلة له ومستحيلةٌ في اعتقاد القانط؛ فبهذا جمعَ بينهما، وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ

(١) سورة الحشر، الآية: ٢.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

(٣) قد مرَّ عن البيهقي، رواه في الشعب.

(٤) أخرجه أبو داود والترمذي وحسّنه، وابن ماجة، وقد تقدم.

(٥) أخرجه البزار وابن حبّان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أنس، وقال العراقي: فيه سلام بن أبي الصهباء، قال البخاري: منكرُ الحديث. أقول: وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: رواه البزار من حديث أنس بإسنادٍ جيّد.

﴿ٱتَّقَىٰٓ﴾[1]. قال ابن جريج: معناهُ إذا عملتَ خيراً، فلا تقل عملتُ. وقال زيد بن أسلم: لا تبرُّوها أي لا تعتقدوا أنّها بارّة؛ وهو معنى العجب. وقال تعالى: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾[2]، والمنُّ نتيجة استعظام الصدقة، واستعظامُ العمل هو العجب؛ فظهر من هذا أن العجبَ مذمومٌ جدّاً.

ومن طريق الخاصة ما رواه في الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الله تعالى علم أنّ الذنب خير للمؤمن من العُجب ولولا ذلك ما ابتلى مؤمناً بذنب أبداً»[3]. وعنه عليه السلام قال: «مَن دخَلهُ العجبُ هلك»[4]. وعنه عليه السلام قال: «إنّ الرجل ليُذنبَ الذنب فيندمُ عليه ويعمل العمل فَيسُرُّهُ ذلك فيتراخى عن حاله تلك، فلأن يكون على حالهِ تلك خيرٌ له مما دخل فيه»[5].

وعنه عليه السلام قال «أتى عالمٌ عابداً فقال له: كيف صلاتُك؟ فقال: مثلي يُسألُ عن صلاته؟ وأنا أعبدُ الله منذ كذا وكذا، قال: فكيف بكاؤك؟ قال: أبكي حتى تجري دموعي، فقال العالم: إنّ ضحِكَكَ وأنت خائف أفضلُ من بكائك وأنت مدلٌّ، إنّ المدلّ لا يصعدُ من عمله شيء»[6].

وعن أحدهما عليه السلام قال: «دخل رجلان المسجد، أحدهما عابد والآخر فاسق، فخرجا من المسجد والفاسق صِدِّيق[7] والعابد فاسق،

(١) سورة النجم، الآية: ٣٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

(٣) (٤) (٥) الكافي ج٢ ص ٣١٣ رقم ١ و٢ و٤.

(٦) الكافي ج٢ ص٣١٣ تحت رقم ٥. والمدلّ: المنبسط المسرور الذي لا خوف له من التقصير في العمل.

(٧) الصدّيق: المؤمن الصادق في إيمانه، الكثير الصدق والتصديق قولاً وفعلاً.

وذلك أنه يدخل العابد المسجد مُدلاً بعبادته يدلُّ بها فتكونُ فكرته في ذلك، وتكون فكرة الفاسق في الذمّ على فسقه ويستغفر الله مما صنعَ من الذنوب»[1].

وعنهعليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: بينما موسىعليه السلام جالس إذ أقبل إبليس وعليه برنس[2] ذو ألوان، فلمّا دنا منه خلع البرنس، وقام إلى موسىعليه السلام فسلّمَ عليه، فقال له موسىعليه السلام: من أنت؟ فقال: أنا إبليس. قال: أنت؟ فلا قربَ اللّهُ دارك[3]! قال: إنّي إنّما جئت لأُسلّم عليك لمكانك من الله تعالى. قال: فقال له موسىعليه السلام: فما هذا البرنس؟ قال: أختطفُ به قلوبَ بني آدم[4]، فقال له موسى: فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذتَ عليه[5]؟ فقال: إذا أعجَبتهُ نفسُهُ واستكثر عمله وصغُرَ في عينه ذنبه»[6].

وقال: قال الله تعالى لداودعليه السلام: يا داود بشر المذنبين وأنذر الصدّيقين، قال: كيف أبشر المذنبين وأنذر الصديقين؟ قال: يا داود بشّر المذنبين أني أقبلُ التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر الصديقين ألاّ يُعجبوا بأعمالهم، فإنه ليس عبداً أنصبُهُ للحساب إلاّ هَلك»[7].

وفي مصباح الشريعة[8] قال الصادقعليه السلام: «العَجبُ كلُّ العجبِ

---

(١) الكافي ج٢ ص١١٤ رقم ٦.

(٢) البرنُس: كل ثوبٍ يكون غطاء الرأس جزءاً منه متصّلاً به، قلنسوة طويلة كانت تلبس في صدر الإسلام.

(٣) أي لا قرّبكَ الله تعالى منّا أو من أحد.

(٤) أي أستلبُ به قلوب الآدميين وكأنّ الألوان في البرنس كانت صورة شهوات الدنيا وزينتها.

(٥) استحواذ الشيطان على بني آدم: غلبتُه واستمالتُه إلى ما يريدُ منه.

(٦) (٧) الكافي ج٢ ص٣١٤ تحت رقم ٨.

(٨) الباب الأربعون.

ممّن يُعجبُ بعمله وهو لا يدري بما يُختم له، فمَن أُعجب بنفسه وفعله فقد ضلّ عن نهج الرشاد وادّعى ما ليس له، والمدّعي من غير حقٍّ كاذب، وإن خفي دعواه وطال دهره فإنه أولى ما يُفعل بالمعجب نزعُ ما أُعجبَ به، ليعلمَ أنه عاجزٌ فقير، ويشهد على نفسهِ لتكون الحجة عليه أوكد كما فُعل بإبليس. والعُجبُ نباتٌ حَبُّها الكفر، وأرضها النفاق، وماؤها البغي، وأغصانها الجهل، وورقها الضلالة، وثمرها اللعنة والخلودُ في النار، فمن اختار العجب فقد بذرَ الكفر وزرعَ النفاق، ولا بدّ من أن يثمر».

٥ ـ علاجُ العُجب على الجملة

إعلم أنّ علاج كلِّ علّة هو مقابلةُ سببها بضدّها، وعلّةُ العجبِ الجهلُ المحض، فعلاجُه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط. فلنفرضِ العُجبَ بفعلٍ داخلٍ تحت اختيار العبد ـ كالعبادة والصدقة والغزو وسياسةِ الخلقِ وإصلاحهم ـ فإنّ العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوة والنسب، وبفعل لا يدخل تحت اختياره ولا يراهُ من نفسه، فنقول:

الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب، إمّا أن يُعجبَ به من جهة أنّه فيه ـ أي موجود في نفسه ـ وأنه هو محلّه ومجراه، أو من جهة أنه منه وبسببه وقدرته وقوّته.

فإن كان يعجبُ به من جهة أنّه فيه وأنه هو محله ومجراه.. فهذا جهلٌ، لأنّ المحلّ مسخّر، لا دخل له في الإيجاد والتحصيل، فكيف يعجبُ بما ليس إليه؟!

وإن كان يعجبُ به من جهة أنه منه وإليه، وباختياره حصل، وبقدرته وقوّته تمّ، فينبغي أن يتأمل في قدرتهِ وإرادته وأعضائه وسائر

الأسباب التي بها تمّ عملُهُ، أنّها من أين كانت له؟!

فإن علمَ أنّ جميعَ ذلك نعمةٌ من الله عليه، من غير حقٍّ سبقَ له، ومن غير وسيلة يدلي بها، لزم أن يكونَ إعجابُهُ بجود الله تعالى وكرمِهِ وفضله، إذ أفاضَ عليه ما لا يستحقه وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة.

فكلما برز الملِكُ لغلمانه ونظر إليهم وخلع من جملتهم على واحدٍ منهم[1] لا لصفةٍ فيه، ولا لوسيلة ولا لجمال ولا لخدمة، لزم أن يتعجّب المنعَمُ من فضلِ الملك وحكمه وإيثاره له من غير استحقاق، فإعجابه بنفسه من أين؟ وما سببه؟ ولا ينبغي أن يُعجبَ هو بنفسه. نعم، يجوز أن يعجَبَ العبدُ فيقول: إن الملك حكَمٌ عدلٌ لا يظلم، ولا يقدِّمُ ولا يؤخِّر إلاّ لسببٍ، فلولا أنه تفطّنَ في صفة من الصفات المحمودة الباطنة، لمَا اقتضى الإيثار بالخلعة ولما آثرني بها. لكن يقال أيضاً بأنّ تلك الصفةِ هي أيضاً إمّا من خلعةِ الملكِ وعطيّته التي خصّصك بها دون غيرك وبلا وسيلة، أو هي عطيةُ غيره.

فإن كانت من عطية الملك لم يكن لك أيضاً أن تُعجبَ بها، بل كان الحالُ كما لو أعطاك فرساً فلم تُعجب به فأعطاك غلاماً فصرتَ تعجبُ به وتقولُ إنما أعطاني غلاماً لأنّي صاحب فرس وأمّا غيري فلا فرس له، فيُقال: وهو الذي أعطاك الفرس! فلا فرق بين أن يُعطيك الفرس والغلام معاً أو يعطي أحدهما بعد الآخر، فإذا كان الكلُّ منه، ينبغي أن يعجبك جوده وفضله، لا نفسُك.

وأمّا إن كانت تلك الصفة من غيره، فلا يبعدُ أن تعجبَ بتلك

---

(١) أي أعطاهُ خلعةً، وهي المنحة والهدية.

الصفة؛ وهذا يُتصوّرُ في حقِّ الملوك ولا يتصوّرُ في حق الجبّار ملكِ الملوك، المنفردِ باختراع الجميع، المتفردِ بإيجاد الموصوف والصفة، فإنك إن أُعجبتَ بعبادتك، وقلت: وفّقني للعبادة لحبّي له، قيل لك: ومن خلقَ الحبَّ في قلبك؟ فستقول: هو، فيُقال: فالحبُّ والعبادة كلاهما نعمتان من عنده، إبتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك، إذ لا وسيلة لك ولا علاقة، فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعمَ بوجودكَ ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسبابِ أعمالك.

فإذاً لا معنى لعجبِ العابد بعبادته، وعجب العالم بعلمه، وعُجب الجميل بجماله. وعجب الغنيّ بغناه، لأن كلّ ذلك من فضل الله، وإنما هو محلٌّ لفيضان فضلِ الله وجوده؛ والمحلُّ أيضاً من جوده وفضله.

لكن قد يَعترضُ معترض بأنني لا يمكنني أن أجهلَ أعمالي، وأني أنا عملتها، وأني أنتظر عليها ثواباً، ولولا أنها عملي لما انتظرتُ الثواب، فإن كانت الأعمال مخلوقة لله على سبيل الاختراع، فمن أين لي الثواب؟ وإن كانت الأعمال منّي وبقدرتي فكيف لا أعجبُ بها؟

فاعلم أن الجواب من وجهين: أحدهما، وهو صريحُ الحق. والآخر، فيه مسامحة. أمّا صريح الحقّ، فهو أنّكَ وقدرتَك وإرادتك وحركتَك وجميع ذلك من خلقِ الله واختراعه، فما عملتَ إذ عملت! وما صليت إذ صليت! قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

هذا هو الحق الذي انكشف لأرباب القلوب بمشاهدةٍ أوضح من إبصار العين، بل خلقَك، وخلقَ أعضاءك،وخلقَ فيها القوة والقدرة والصحّة، وخلق لك العقل والعلم، وخلقَ لك الإرادة، ولو أردت أن تنفي شيئاً من ذلك عن نفسِكَ لم تقدر عليه، ثم خلقَ الحركات في أعضائك مستبدّاً باختراعه ـ أي متفرداً بذلك ـ من غير مشاركةٍ له من قِبَلِكَ في الاختراع، إلاّ أنه خلقها على ترتيب، فلم يخلقِ الحركةَ ما لم يخلق في العضو قوّة، وفي القلبِ إرادة، ولم يخلق إرادة ما لم يخلق علماً بالمراد، ولم يخلق العلم ما لم يخلق القلب الذي هو محلّ العلم. فتدرّجه في الخلقِ شيئاً بعد شيء هو الذي خيّلَ إليك أنك أوجدت عملك، وقد أخطأت؛ وإيضاح ذلك وكيفية الثواب على عملٍ هو من خلقِ الله سيأتي تقريره في كتاب الشُكر، فإنه أليقُ به، فارجع إليه، ونحن الآن نزيل الإشكال بالجواب الثاني الذي فيه مسامحةٌ ما.

والجواب هذا هو أن تحسبَ أنّ العملَ حصل بقدرتكَ، فمن أين قدرتك؟! فلا يُتصوّر العملُ إلاّ بوجودكَ وبوجود علمك وإرادتك وقدرتك وسائر أسبابِ عملك، وكلُّ ذلك من الله تعالى لا منك. فإن كان العمل بالقدرة، فالقدرةُ مفتاحه، وهذا المفتاحُ بيد الله تعالى، وطالما لم يعطك المفتاح، فلا يمكنك العمل. فالعبادات خزائن بها يُتوصّل إلى السعادات، ومفاتيحها القدرة والإرادة والعلم، وهي بيد الله لا محالة. أرأيت لو أنك نظرتَ إلى خزائن الدنيا مجموعةً في قلعة حصينة، ومفتاحُها بيدِ خازنٍ، فلو جلست على بابها وحول حيطانها ألف سنة، ما أمكنك أن تنظر إلى دينارٍ مما فيها. ولو أعطاك الخازنُ المفتاحَ لأخذته بسهولة، ولا يحتاجُ منك سوى أن تبسطَ يدك إليه فتأخذه، فإذا أعطاك الخازن المفاتيح وسلّطكَ على الدنانير

ومكّنَكَ منها فمددتَ اليد وأخذتها، أيكون إعجابُك بإعطاء الخازن المفاتيح أو بمدّكَ يدك إليه وأخذه؟ فلا تشكُّ في أنك ترى ذلك نعمةً من الخازن، لأنّ المؤونة في تحريك اليد إليه لأخذ المال سهلة، وإنما الشأنُ كلُّهُ في تسليم المفاتيح.

فكذلك، كلمّا خُلِقت القدرةَ وسُلِّطَت الإرادة الجازمة وحُرِّكَت الدواعي والبواعث وصُرفت عنك الموانع والصوارف، حتى لم يبقَ صارفٌ إلاّ دُفِع ولا باعثٌ إلاّ توفّر لك، فالعمل هيّنٌ عليك. وتحريكُ البواعث وصرف العواتق وتهيئة الأسباب كلُّها من الله تعالى، ليس شيءٌ منها إليك. فمن العجائب أن تُعجبَ بنفسِك ولا تعجبَ ممن إليه الأمر كلّه، ولا تعجبَ بجوده وفضلهِ وكرمهِ، في إيثاره إيّاك على الفسّاق من عباده، إذ سلّطَ دواعي الفساد على الفسّاق وصرفها عنك، وسلط أقران[1] السوء ودعاة الشر عليهم وصرفهم عنك، ومكّنَهم من أسباب الشهوات واللذات. وزواها عنك، وصرفَ عنهم بواعث الخير ودواعيه وسلّطها عليك حتى تيسَّر لك الخير وتيسَّرَ لهم الشر، فعلَ ذلك كلَّهُ بك من غير وسيلةٍ سابقةٍ منك ولا جريمةٍ سابقةٍ من الفاسق العاصي، بل آثرك وقدَّمكَ واصطفاك بفضله، وأبعدَ العاصي وأشقاهُ بعدله، فما أعجب إعجابك بنفسك إذا عرفتَ ذلك!

فإذن لا تنصرفُ قدرتُك إلى المقدور إلاّ بتسليط الله عليك داعيةً لا تجدُ سبيلاً إلى مخالفتها، فكأنه الذي اضطرّكَ إلى الفعل إن كنت الفاعل حقاً؛ فله الشكر والمنّةُ، لا لك. وسيأتي في كتاب التوحيد والتوكّل من بيان تسلسل الأسباب والمسببات ما تستبينُ به أنه لا فاعل إلاّ الله، ولا خالقَ سواه. والعجبُ ممن يتعجب إذا رزقَهُ الله عقلاً

(١) أقران: مفردها قرين وهو المصاحبُ والعشير.

وأفقره أكثر ممن أفاضَ الله عليه المال من غير علم فيقول: كيف منعني قوتَ يومي وأنا العاقلُ الفاضل، وأفاض عليه نعيم الدنيا وهو الجاهل الغافل؟ حتى يكاد يرى هذا ظُلماً! ولا يدري هذا المغرور أنه لو جمع له بين العقل والمال معاً لكان ذلك بالظلم أشبه، إذ يقول الجاهل الفقير آنذاك: يا ربِّ، لم جمعتَ له بين العقل والغنى، ومنعتني وحرمتني منهما؟ فهلاّ جمعتهما لي؟ وهلاّ رزقتني أحدهما؟

وإلى هذا أشار علي عليه السلام حيث قيل له: ما بال العقلاء فقراء؟ فقال: «إنّ عقل الرجل محسوبٌ عليه من رزقه». والعجبُ أنّ العاقل الفقير ربما يرى الجاهل الغنيّ أحسنَ حالاً منه، ولو قيل له: هل تؤثر ـ أي تفضّل ـ جهله وغناه عوضاً من عقلك وفقرك، لامتنع عنه. فإذن ذلك يدلُّ على أنَّ نعمةَ الله عليه أكبر، فلمَ يتعجّبُ منه؟!

والمرأة الحسناءُ الفقيرة ترى الحُليّ والجواهر على المرأة الدميمة القبيحة، فتتعجبُ وتقول: كيفَ يحرمُ مثلُ هذا الجمال من الزينة، ويُخصَّصُ به مثل هذا القبيح؟! ولا تدري هذه المغرورة أنّ الجمال محسوبٌ عليها من رزقها، وأنّها لو خُيّرت بين الجمال مع الفقر وبين القبح مع الغنى لآثرت الجمال؛ فإذاً نعمة الله عليها أكبر! وقولُ الحكيم العاقل الفقير بقلبه: يا ربِّ، لم حرمتني الدنيا وأعطيتها الجهّال، هو كقول من أعطاهُ الملِكُ فرساً فيقول: أيّها الملكُ لم لا تعطيني الغلام وأنا صاحبُ فرس، فيقول الملِك: ما كنتَ لتتعجب من هذا لو لم أُعطِكَ الفرس، فهب أنّي ما أعطيتُكَ فرساً، أصارت نعمتي عليكَ وسيلة لك وحجّةً تطلبُ بها نعمةً أخرى؟! فهذه أوهام لا تخلو الجهّال عنها، ومنشأ جميع ذلكَ الجهلُ.

ويُزالُ ذلكَ بالعلمِ المحقَّق ـ أي الثابت المؤكد ـ بأن العبدَ

وعمَلَهُ وأوصافَهُ، كلُّ ذلك من عند الله، نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق؛ وهذا ينفي العجبَ والإدلال، ويورثُ الخضوعَ والشكر والخوفَ من زوال النعمة. ومن عرف هذا لم يُتصوّر أن يُعجبَ بعلمهِ وعملهِ، إذ يعلمُ أنّ ذلك من الله تعالى، ولذلك لمّا اتّكل أصحابُ رسول الله ﷺ يوم حنين على قوتهم وكثرتهم، ونسوا فضل الله عليهم، قالوا: لا نغلبُ اليوم من قلّة ـ أي لن تهزمنا اليوم فئة قليلة ونحن لدينا عدد كبير ـ فوكلوا إلى أنفسهم. قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[1].

وروى ابن عيينة أنّ أيوبَ عليه السلام قال: إلهي إنك ابتليتني بهذا البلاء، وما ورد عليّ أمر إلاّ آثرتُ هواك على هواي، فنودي من غمامةٍ بعشرة آلاف صوت: يا أيوب، أنّى لك ذلك؟ ـ أي من أين لك ذلك؟ ـ قال: فأخذ رماداً فوضعهُ على رأسه وقال: «منك يا ربِّ، منك يا ربِّ» فرجع عن نسيانه، ونسبَ ذلك إلى الله تعالى، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[2].

وقال النبي ﷺ لأصحابه: «ما منكم من أحدٍ ينجيه عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلاّ أن يتغمدني الله برحمته»[3]. فإذن هذا هو العلاج القاطع لمادّة ـ أي أصل وجوهر ـ العجب من القلب، وكلما غلبَ ذلك على القلب، شغلهُ خوف سلبِ

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٦. وأخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع أنّ رجلاً قال: يوم حنين لن نغلب من قلّة، فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾. راجع الدر المنثور ج٣ ص٢٢٤.

(٢) سورة النور، الآية: ٢١.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم ج٨ ص١٤١ من حديث عائشة.

هذه النعمة عن الإعجاب بها. فكم من مؤمنٍ قد ارتدَّ، ومطيعٍ قد فسقَ وخُتمَ له بالسوء؛ وهذا لا يبقى معه عجب في أي حالٍ من الأحوال!

٦ ـ أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

إعلم أن الإنسانَ قد يَعجبُ بالأسباب التي بها يتكبّر، كما ذكرنا آنفاً، وقد يُعجبُ بما لا يتكبر به، كعُجبه بالرأي الخطأ الذي يُزيّن لهُ بجهله؛ فما به العُجب ثمانية أقسام:

الأول: بالبدن والجمال

من الممكن للإنسان أن يعجب ببدنه، في جماله وهيئته وصحته وقوّته وتَناسبِ أشكاله وحُسنِ صوته، وبالجملةِ تفصيلِ خلقته، فيلتفت إلى جمال نفسهِ، وينسى أنّه نعمةٌ من الله وهو معرّض للزوال في كل حين. وعلاجُه ما ذكرناه في الكبر بالجمال، وهو التفكر في أقذار باطنه، وفي أول أمره وآخره، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة، كيف أنها تمزقت في التراب وأنتنت في القبور بحيث استقذرتها الطباع.

الثاني: بالقوة والبطش

من الممكن للإنسان كذلك أن يعجب بقوته وبطشه، كما حُكي عن قوم عادٍ حين قالوا، فيما أخبر الله عنهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[١]، وكما اتكل «عوج» على قوته فأُعجب بها، فاقتلعَ جبلاً ليُطبقه على عسكرِ موسى عليه السلام، فثقب الله تعالى تلك القطعة من الجبل حتى صارت

---

(١) سورة فُصّلت، الآية: ١٥.

في عنقه. وقد يتكل المؤمن أيضاً على قوته، كما روي عن سليمان عليه السلام أنه قال: لأَطوفنَّ الليلة على مائة امرأة تلدُ كلُّ امرأة غلاماً ـ الحديث[1]، ولم يقل إن شاء الله، فحُرِمَ ما أراد من الولد.

ويورثُ العجب بالقوة الهجومَ في الحروب، وإلقاء النفسِ في التهلكة، والمبادرة إلى الضرب والقتل لمن قصَدَهُ بالسوء ـ أي المبادرة إلى ضربه وقتله ـ وعلاجُهُ ما ذكرناه، وهو أن يعلمَ أن حُمّى يوم تضعفُ قوّته، وأنه إذا أُعجبَ بها، ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفةٍ يسلّطها عليه.

الثالث: بالعقل والكياسة والتفطن

القسم الثالث هو العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا، وثمرتُه الاستبداد بالرأي، وترك المشورة، واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه، ويُخرجُ ـ أي يدفع ويؤدي ـ إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضاً عنهم نتيجة الاستغناء بالرأي والعقل، واستحقاراً لهم وإهانةً. وعلاجُهُ أن يشكر اللَّهَ على ما رزق من العقل، ويتفكّر أنه بأدنى مرضٍ يصيبُ دماغَه كيف يصاب بالوسوسة ويجنُّ، بحيث يضحكُ عليه الناس، ولا يأمنُ أن يُسلبَ عقلُه إن أُعجبَ به ولم يقم بشكره، وليستقصر عقله وعلمه ـ أي فليعتبره قاصراً ـ وليعلم أنه ما أوتيَ من العلم إلاّ قليلاً وإن اتّسع علمه، وأنّ ما جهله مما عرفَهُ الناس أكثرُ مما علمه، فكيف بما لم يعرفهُ الناس من علم الله تعالى.

وعلاجُه كذلك أن يتهم عقله، وينظرَ إلى الحمقى كيفَ يُعجبون

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

بعقولهم ويضحكُ الناسُ عليهم، فيحذرُ أن يكون منهم وهو لا يدري، فإنّ قاصرَ العقل قطُّ لا يعلم قصور عقله، فينبغي أن يعرفَ مقدار عقلهِ من غيره لا من نفسه، ومن أعدائه لا من أصدقائه، فإنّ مَن يداهنُه يثني عليه، فيزيدهُ عُجباً، وهو لا يظنُّ بنفسهِ إلاّ الخير، فلا يفطنُ بجهل نفسه ويزداد به ـ أي بعقله ـ عجباً.

الرابع: بالنّسبِ الشريف

ومثاله كعُجب الهاشمية، حتى أن بعضهم يظنُّ أنّه ينجو بسبب شرفِ نسَبِه ونجاةِ آبائه، وأنه مغفور له، ويتخيل بعضُهم أن جميعَ الخلقِ له مَوالٍ وعبيد. وعلاجُهُ أن يعلم أنه كلما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم، وظنّ مع ذلك أنه ملحقٌ بهم، فقد جهلَ. وإن اقتدى بآبائه، فما كان العجبُ من أخلاقهم! بل الخوفُ والإزراء[1] على النفس واستعظام الخلق، ومذمّةُ النفس، ولقد شُرِّفوا بالطاعة والعلمِ والخصال المحمودة لا بالنسب، فليتشرّف بما شُرفوا به، وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله، فكانوا عند الله شراً من الكلاب وأخسَّ من الخنازير، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ أي لا تفاوتَ في أنسابكم، لاجتماعكم في أصل واحد ـ أي لرجوعكم إلى أصل واحد واشتراككم فيه ـ ثم ذكرَ فائدة النسب فقال: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ ثم بيّن أن الشرف بالتقوى لا بالنسب، فقال: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[2].

ولمّا قيل لرسول الله ﷺ: مَن أكرمُ الناس؟ من أكيس الناس؟ لم

---

(١) الإزراء: العيب على الشيء والوضع من حقّه.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

يقل مَن ينتمي إلى نسبي، ولكن قال: «أكثرهم للموت ذكراً وأشدُّهم له استعداداً»[1]. وإنما نزلت هذه الآية حين أذّن بلال يوم الفتح على الكعبة فقال الحارثُ بن هشام وسُهيل بن عمرو وخالد بن أُسيد: هذا العبدُ الأسود يؤذن، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[2]. وقال النبيﷺ: «إن الله قد أذهبَ عنكم عُبّيّة الجاهلية ـ أي كبرها ـ كُلّكُم بنو آدم وآدمُ من تراب»[3]. وقالﷺ: «يا معشرَ قريش، يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتوني بالدنيا تحملونها على رقابكم وتقولون: يا محمد يا محمد، فأقولُ: هكذا»[4] أي أُعرضُ عنكم. فبيّن أنهم إن مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب قريش.

ولما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[5] ناداهم بطناً بعد بطنٍ حتى قال: «يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله، إعملا لأنفسكما، فإني لا أغني عنكما منَ اللّهِ شيئاً»[6].

---

(١) أخرجه ابن ماجة في السنن تحت رقم ٤٢٥٩ بسندٍ مجهول عن ابن عمر أنه قال: كنتُ مع رسول اللهﷺ فجاءه رجل من الأنصار فسلّمَ على النبيﷺ، ثم قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال: «أحسنُهم خُلُقاً». قال: فأي المؤمنين أكيس؟ قال: «أكثرهم للموتِ ذكراً وأحسنُهم لما بعدهُ استعداداً، أولئك الأكياس»؛ وبهذه الزيادة رواه ابن أبي الدنيا في ذكر الموت آخر الكتاب. والكيّس هو الفطِن.

(٢) أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن أبي مليكة قال: لما كان يوم الفتح، رقى بلال فأذّن على الكعبة، فقال بعض الناس: هذا العبدُ الأسود يؤذن على ظهر الكعبة، وقال بعضهم: إنْ يسخطِ اللّهُ هذا يُغيّرهُ، فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ ـ الآية. راجع الدر المنثور ج٦ ص٩٨.

(٣) أخرجه أبو داود ج٢ ص٦٢٤. والعُبّيّة ـ كأُمنية ـ: الكبرُ والنخوة والفخر.

(٤) أخرجهُ الطبراني من حديث عمران بن حصين، إلاّ أنه قال: «يا معشرَ بني هاشم»؛ وسندُه ضعيف.

(٥) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٦) أخرجه أحمد ومسلم والترمذي وابن جرير وابن مردويه عن عائشة. راجع الدر المنثور ج٥ ص٩٥.

فمن عرف هذه الأمور وعلمَ أنّ شرفَهُ بقدر تقواه، وقد كان من عادة آبائه التواضع، فإن اقتدى بهم في التقوى والتواضع، وإلاّ كان طاعناً في نسبِ نفسِهِ بلسانِ حاله، مهما انتمى إليهم، ولم يُشبههم في التواضع والتقوى والخوفِ والإشفاق.

فإن اعترض معترض بأن رسول الله ﷺ قد قالَ بعد قوله لفاطمةَ وصفية: «إني لا أُغني عنكما من الله شيئاً إلاَّ أن لكما رحماً سأبلُّها ببَلالها»[1]. وقال ﷺ: «أترجو سليم شفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطّلب»[2]، وذلك يدلُّ على أنه سيخصُّ قرابتَهُ بالشفاعة، فكيف يجاب عن هذا؟

إعلم أن كلَّ مسلمٍ منتظر شفاعة رسول الله ﷺ، والنسبُ جدير أيضاً بأن يرجوها، ولكنْ بشرط أن يتقي الله ويخافَ أن يُغضبَ اللَّهُ عليه فلا يأذنَ لأحدٍ في شفاعته ـ أي في الشفاعة له ـ فإن الذنوبَ منقسمة إلى ما يوجب المقت فلا يؤذن في الشفاعة فيها، وإلى ما يُعفى عنه بسببِ الشفاعة تماماً، كالذنوب عند ملوك الدنيا، فإنّ كلَّ ذي مكانةٍ عند الملك لا يقدر على الشفاعة في مَن اشتد عليه غضبُ الملك. فمنَ الذنوب ما لا ينجي منه الشفاعة، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[3]، وفي قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[4] وفي قوله: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ

---

(١) قوله «سأبلها ببلالها» أي أصلكم في الدنيا ولا أغني عنكم من الله شيئاً. والبلال جمع بلل، وقيل: كلُّ ما بلّ الحلق من ماء أو لبنٍ أو غيره (النهاية) وهذا تتمة الخبر السابق.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عبد الله بن جعفر. (المغني).

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

قَوْلًا﴾[1] وفي قوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾[2].

وإذا انقسمت الذنوبُ إلى ما يُشفع فيه وإلى ما لا يُشفعُ فيه، وجبَ الخوف والإشفاق لا محالة. ولو كان كلُّ ذي ذنبٍ لتُقَبلَ منه الشفاعة لما أمر قريشاً بالطاعة، ولما نهاهم عن المعصية. فالإنهماك في الذنوب وترك التقوى اعتماداً على الشفاعة يضاهي انهماك المريض في شهواته اعتماداً على طبيب حاذق قريبٍ مشفق، من أبٍ أو أخ أو غيره، وذلك جهلٌ، فإن سعي الطبيب وهمّتَهُ وجدَّهُ تنفع في إزالة بعض الأمراض لا في كلّها، فلا يجوز ترك الحمية مطلقاً اعتماداً على مجرد الطبّ، بل للطب أثرٌ في الجملة، ولكن في الأمراض الخفيفة وعند غلبةِ اعتدال المزاج. فهكذا ينبغي أن تُفهمَ عنايةُ الشفعاء من الأنبياءِ والصلحاء للأقارب والأجانب، فإنه كذلك قطعاً ـ أي كما بيّناه ـ وذلك لا يزيل الخوفَ والحذر.

الخامس: بنَسبِ السلاطين الظلمة وأعوانهم

من الأمور التي قد يعجبُ بها المرء نسبُ السلاطين الظلمةِ وأعوانهم دون نسبِ الدين والعلم، وهذا غايةُ الجهل. وعلاجُه أن يتفكَّر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله، والفسادِ في دين الله، وأنّهم ممقوتون عند الله. ولو نظر إلى صورهم في النار وأنتانهم[3] وأقذارهم، لاستنكف منهم، ولتبرأ من الانتساب إليهم، ولأنكر ـ أي اعترض مستنكراً ـ على من نسبه إليهم استقذاراً لهم واستحقاراً، ولو انكشف له ذلُّهم يوم القيامة وقد تعلّق الخصماءُ بهم،

---

(١) سورة طه، الآية: ١٠٨.
(٢) سورة المدثر، الآية: ٤٨.
(٣) أنتانهم: مفردها نَتَن، وهو خبثُ الرائحة.

والملائكة آخذون بنواصيهم يجرّونهم على وجوههم إلى جهنم في مظالم العباد، لتبرّأ إلى الله منهم، ولكانَ انتسابهُ إلى الكلب والخنزير أحسنَ إليه من الانتساب إليهم. فحقُّ أولاد الظلمة إن عصمهم اللهُ من ظلمهم أن يشكروا الله على سلامةِ دينهم ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين، وأمّا العُجب بنسبهم فجهلٌ محض.

السادس: بكثرة العدد

وهو أن يعجب المرء بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع، كما قال الكافرون: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾[1]، وكما قال المؤمنون يوم حنين: لا نغلب اليوم من قلة[2].

وعلاجُهُ ما ذكرناه في الكبر، وهو أن يتفكر في ضعفهِ وضعفهم، وأنّ كلَّهم عبيد عجزة، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ثم كيف يعجبُ بهم وهم سيفترقون عنه إذا مات، فيُدفنُ في قبرهِ ذليلاً مهيناً وحده، لا يرافقه ولدٌ ولا أهلٌ، ولا قريبٌ ولا حميم ولا عشير، فيسلّمونه إلى البلى، وإلى الحيّات والعقارب والديدان، ولا يغنون عنه شيئاً، وهو في أحوج أوقاته إليهم، وكذلك يهربونَ منه يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[3]، فأي خيرٍ فيمن يفارقُكَ في أشدِّ أحوالك ويهربُ منك؟! وكيف تعجب، ولا ينفعُكَ في القبر، والقيامةِ، وعلى

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٥.
(٢) تقدم آنفاً.
(٣) سورة عبسَ، الآيات: ٣٤ ـ ٣٧.

الصراط، إلاّ عملكَ وفضل الله! وكيف تتكل على مَن لا ينفعك وتنسى نِعمَ من يملكُ ضرّكَ ونفعك وموتك وحياتك؟!!

السابع: بالمال

وهو كما قال الله تعالى إخباراً عن صاحبِ الجنّتينِ إذ قال: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾. ورأى رسول الله ﷺ رجلاً غنياً جلسَ بجنبه فقيرٌ فانقبضَ عنه وجمعَ ثيابه، فقال ﷺ: «أخشيتَ أن يعدو إليكَ فقره»[1]، وذلك للعُجبِ بالغنى. وعلاجُهُ أن يتفكّر في آفات المال وكثرةِ حقوقهِ وعِظَمِ غوائله، وفي فضيلة الفقراء وسبقِهم إلى الجنّة في القيامة، وفي أن المالَ غادٍ ورائحٌ ولا أصل له، وفي أنَّ في اليهود من يزيدُ عليه في المال، وفي قوله ﷺ: «بينما رجلٌ يتبختر في حلّةٍ له قد أعجبتهُ نفسُهُ، إذ أمرَ اللّهُ الأرضَ فأخذتهُ فهو يتجلجل[2] فيها إلى يوم القيامة»[3]؛ أشار به إلى عقوبة إعجابهِ بمالهِ ونفسِهِ. وجميعُ ما ذكرناه في كتاب الزهد وكتاب ذم الدنيا وكتابِ ذمِّ المال، يبيّن حقارة الأغنياء وشرفَ الفقراء عند الله، فكيف يُتصوَّرُ من المؤمن أن يُعجبَ بثروته؟! بل لا يخلو المؤمن عن الخوفِ من تقصيره في القيام بحقوقِ المالِ، في أخذهِ من حِلّه ـ أي أخذ المال من مصادرهِ الحلال ـ ووضعهِ في حقّه؛ ومن لا يفعل ذلك فمصيرهُ إلى الخزي والبوار، فكيف يعجبُ بماله؟!

---

(١) رواهُ أحمد في الزهد.
(٢) يتجلجل: (في الأرض) يدخلُ فيها.
(٣) أخرجه مسلم ج٦ ص١٤٨ من حديث أبي هريرة.

الثامن: بالرأي الخطأ

قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾(١)، وقال: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾(٢). وقد أخبر رسول الله ﷺ أنّ ذلك ـ أي العجب بالرأي الخطأ ـ يغلبُ على آخر هذه الأمّة، وبذلك هلكَت الأممُ السالفة إذ افترقَتْ فرقاً(٣) وكلٌّ معجبٌ برأيه، وكلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون، وجميعُ أهل البدع والضلال إنما أصرُّوا عليها ـ أي على بدَعِهم وضلالهم ـ بسبب عُجبهم بآرائهم، والعجبُ بالبدعةِ هو استحسانُ ما يسوقُ إليه الهوى والشهوة مع ظنِّ كونهِ حقًّا.

وعلاجُ هذا العجب أشدُّ من غيره لأنّ صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه، ولو عرفهُ لتركه، ولا يُعالَجُ الداءُ الذي لا يُعرف، والجهل داءٌ لا يُعرف فتعسر مداواته جدًّا، لأنّ العارف يقدرُ على أن يبيّن للجاهل جهله ويزيله عنه، إلاّ إذا كان مُعجباً برأيه وجهله، فإنه لا يصغي إلى العارف ويتّهمه.

فقد سلّط اللّهُ عليه بلية تهلِكُه وهو يظنُّها نعمةً، فكيفَ يمكنُ علاجُه! وكيف يطلبُ الهربَ مما هو سبب سعادته في اعتقاده!

وإنما علاجُه في الجملة أن يكون متهماً لرأيه دوماً ـ حذراً منه مشككاً فيه ـ لا يغترُّ به، إلاّ أن يشهدَ له قاطعٌ من كتاب الله أو سنّةٍ أو دليلٍ عقلي صحيح جامعٍ لشروط الأدلة. ولن يعرف الإنسان أدلّة الشرع والعقل وشروطهما ومكامن الغلط فيها إلاّ بقريحة تامّة وعقلٍ ثاقب وجدٍّ وتشمّر في الطلب، وممارسةٍ للكتاب والسنّة ـ أي كثرةِ

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

(٣) تقدم كرراً وهو جزء من حديث أبي ثعلبة «إذا رأيت شحاً مطاعاً» ـ الحديث.

اشتغال بهما ـ ومجالستهِ لأهل العلم طول العمر، ومدارسة العلوم؛ ومع ذلك فلا يؤمنُ عليه الغلطُ في بعضِ الأمور، والصواب لمن لم يتفرّغ لاستغراق عمره ـ أي صرفِ كل عمره ـ في العلم. أن لا يخوض في المذاهب، ولا يصغيَ إليها ولا يسمعَها، ولكن يعتقدُ أن اللّهَ واحدٌ لا شريك له، وأنه ليس كمثله شيء، وهو السميع والبصير، وأنَّ رسولَهُ صادِقٌ فيما أخبر به، ويتّبع سنّةَ السَّلَف. بل يتّبعُ سنّة أئمة الهُدى من أهل بيت النبي صلواتُ الله وسلامُه عليه وعليهم خاصةً دون غيرهم من السلف كما عرفتَ غير مرّة.

كذلك، ويؤمنُ بجملةِ ما جاء به الكتاب والسنّة من غير بحثٍ وتفتيش وسؤالٍ عن تفصيل، بل يقول: آمنّا وصدّقنا، ويشتغلُ بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات والشفقةِ على المسلمين وسائر الأعمال، فإنْ خاضَ في المذاهب والبدعِ والتعصّبِ في العقائد، هلكَ من حيث لا يشعر؛ فهذا حقُّ كلِّ من عزَمَ على أن يشتغل في عمره بشيء غير العلم.

وأمّا الذي عزمَ على التجرد للعلم، فأول مهم له ـ أي أول أمرٍ مهم ينبغي عليه فعله ـ معرفةُ الدليل وشروطه، وذلكَ مما يطولُ الأمرُ فيه، والوصولُ إلى المعرفة واليقين في أكثر المطالب شديدٌ لا يقدرُ عليه إلاّ الأقوياءُ المؤيَّدون بنور الله تعالى، وهو عزيز الوجود جدًّا. فنَسأل الله تعالى العصمة من الضلال ونعوذُ به من الاغترار بخيالات الجهّال.

هذا آخر كتابُ ذمِّ الكبر والعجب من كتاب المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ويتلوه إن شاء اللّهُ كتابُ ذمِّ الغرور منه.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

آفة الغرور

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ مدخل

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي بيده مقاليدُ الأمور، وبقدرتهِ مفاتيح الخيرات والشرور، مُخرجُ أوليائه من الظلمات إلى النور، ومُوردُ أعدائه ورطاتِ الغرور، والصلاةُ على محمدٍ مخرجِ الخلائق من الديجور، وعلى آله وأصحابه الذين لم تغرَّهم الحياة الدنيا، ولم يغرَّهم بالله الغرور، صلاةً تتوالى على مرِّ الدّهور وكرِّ الساعات والشهور.

أمّا بعد، فمفتاح السعادة التيقّظُ والفطنةُ، ومنبعُ الشقاوةِ الغرور والغفلة، فلا نعمةَ لله على عباده أعظمُ من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية، ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة، فالأكياس[1] وأربابُ البصائر قلوبهم ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن

---

(١) الأكياس: ذوو الفطنة.

يَشَآءُ﴾. والمغترّون قلوبُهم ﴿كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

والأكياس هم الذين أراد اللَّهُ تعالى أن يهديهم فشرحَ صدورهم للإسلام والهدى، والمغترُّون هم الذين أراد أن يُضلّهم فجعل صدورهم ﴿ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾، والمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرتُه ليكونَ بهداية نفسهِ كفيلاً، وبقي في العمى، فاتخذ الهوى قائداً والشيطان دليلاً ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢﴾.

فإذا عُرفَ أن الغرور هو أمُّ الشقاوات ومنبَعُ المهلِكات، فلا بدّ من شرحِ مداخله ومجاريه، وتفصيلِ ما يكثر وقوع الغرور فيه، ليحذرهُ المريدُ بعد معرفته فيتقيه؛ فالموفّق من العباد من عرفَ مداخل الآفات والفساد، فأخذَ منها حِذرهُ، وبنى على الحزمِ والبصيرةِ أمرَهُ.

ونحن سوف نشرح أجناس مجاري الغرور، وأصناف المغترّين من العلماء والصالحين الذين اغترّوا بمبادىء ـ أي ظواهر ـ الأمور الجميلة ظواهرها، القبيحةِ سرائرها، ونُشير إلى وجه اغترارهم بها وغفلتهم عنها، فإنَّ ذلك وإن كان أكثر من أن يُحصى، ولكن يمكنُ التنبيه على أمثلةٍ تغني عن الاستقصاء. وفِرَقُ المغترّين كثيرة، ولكن يجمعُهم أربعةُ أصناف: الصنفُ الأول من العلماء، الصنف الثاني من العبّاد، الصنفُ الثالث من المتصوّفة، الصنفُ الرابع من أرباب الأموال. والمغترون من كل صنفٍ فرقٌ كثيرة، وجهاتُ غرورهم مختلفة، فمنهم من رأى المنكر معروفاً، كالذي يتخذ المساجدَ ويزخرفها من المال الحرام، ومنهم مَن لم يميّز بين ما يسعى فيه لنفسهِ

وبين ما يسعى فيه لله، كالواعظ الذي غرضُه القبول والجاه. ومنهم من يترك الأهمَّ ويشتغل بغيره، ومنهم من يترك الفرضَ ويشتغلُ بالنافلة، ومنهم من يترك اللُّبابَ[1] ويشتغلُ بالقشر، إلى غير ذلك من المداخل التي لا تتضح إلاّ بتفصيل الفِرق وضرب الأمثلة. ولنبدأ أولاً بذكر غرور العلماء ولكن بعد بيان ذمّ الغرور، وبيان حقيقتِهِ وأمثلته.

ملاحظة: رتّبنا البحث بناءً على غرض الكتاب هذا مخالفين ترتيب المؤلف (رحمه الله) للمباحث.

٢ ـ حقيقةُ الغرور وأمثلته

إعلم أنّ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[2]. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[3]، كافٍ في ذم الغرور.

وقد قال النبيﷺ: «حبّذا نوم الأكياس وفِطرُهم كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم، ولَمِثقال ذرّةٍ من صاحب تقوى ويقينٍ أفضلُ من ملء الأرض من المغترّين»[4]. وقالﷺ: «الكيّسُ مَن دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمقُ من أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنّى على الله الأماني»[5].

---

(١) اللُّباب: المختارُ الخالصُ من كل شيء.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٣٣.

(٣) سورة الحديد، الآية: ١٤.

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول أبي الدرداء بنحوه، وفي بعض الروايات أبي الورد موضع أبي الدرداء، وقال العراقي: لم أجده مرفوعاً.

(٥) أخرجه الترمذي والحاكم وأحمد وابن ماجة تحت رقم ٤٢٦٠ من حديث شداد بن أوس بسندٍ صحيح.

وكلُّ ما ورد في فضل العلم وذمِّ الجهل فهو دليلٌ على ذمّ الغرور، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل، إذ الجَهل هو أن يعتقد الشيء ويراهُ على خلافِ ما هو به، والغرور هو الجهل إلاَّ أنّ كلَّ جهلٍ ليسَ بغرور بل يستدعي الغرور مغروراً فيه مخصوصاً، ومغروراً به ـ وهو الذي يغرّه. فكلّما كان المجهول المعتَقَدُ شيئاً يوافقُ الهوى وكان السببُ الموجبُ للجهل شبهةً ومخيلةً فاسدةً ـ أي وهماً ـ يُظنُّ أنّها دليلٌ ولا تكون دليلاً، سمّي الجهل الحاصلُ به غروراً.

فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافقُ الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهةٍ وخدعةٍ من الشيطان، فمن اعتقدَ أنّه على خير إمّا في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة، فهو مغرور؛ وأكثرُ الناسِ يظنُّون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه. فأكثر الناس إذاً مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم، حتى كان غرور بعضهم أظهرَ وأشدَّ من بعض، وأظهرُها وأشدُّها غروراً غرورُ الكفار وغرور العصاة والفساق، فنوردُ هنا أمثلة لحقيقة الغرور.

المثال الأول: غرور الكفار

فمنهم من غرّته الحياة الدنيا، ومنهم من غرَّهُ بالله الغرور. أمّا الذين غرّتهمُ الحياة الدنيا فهم الذين قالوا: النقدُ خيرٌ من النسيئة[1]، والدنيا نقدٌ والآخرة نسيئة، فإذن هي خيرٌ، فلا بدّ من إيثارها.

وقالوا: اليقين خير من الشك، ولذات الدنيا يقين، ولذات الآخرة شكٌّ، فلا يُترك اليقين بالشك. فهذه أقيسةٌ فاسدة تشبه قياس إبليس حيث قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، وإلى

---

(١) النسيئة: التأخير (في دفع الثمن).

هؤلاء الإشارة بقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾[1].

وعلاجُ هذا الغرور إمّا بتصديق الإيمان ـ أي بالتصديق الناشىء من الإيمان ـ وإمّا بالبرهان. أما التصديق بمجرّد الإيمان، فهو أن يصدّق الله تعالى في قوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[2]، وفي قوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[3]، وقوله: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[4]، وقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[5]، وقوله: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[6].

وقد أخبرَ رسول الله ﷺ طوائف من الكفّارِ بذلك فقلّدوه وصدّقوه وآمنوا به، ولم يطالبوه بالبرهان[7]، ومنهم من قال: نشدتُك الله، أبعثك الله رسولاً؟ فكان يقول: نعم، فيصدّق[8]. وهذا إيمان العامة، وهو يخرجُ من الغرور، وهو ينزل منزلةَ ـ أي يماثله ويشبهه ـ تصديق الصبيّ والدَهُ في أنّ حضور المكتب ـ أي المدرسة ـ خير من حضور الملعب ـ أي مكان اللعب ـ مع أنه لا يدري وجه كونه خيراً.

وأمّا المعرفةُ بالبيان والبرهان، فهو أن يعرفَ وجه فسادِ هذا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ٩٦.

(٣) سورة القصص، الآية: ٦٠.

(٤) سورة الأعلى، الآية: ١٧.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٦) سورة فاطر، الآية: ٥.

(٧) كإيمان الأنصار وجلة أهل المدينة.

(٨) كإيمان ضمام بن ثعلبة. أخرجه أحمد ج١ ص٢٦٤، وراجع أسد الغابة ج٣ ص٤٣.

القياس الذي نَظَمهُ في قلبِهِ الشيطان، فإن كلَّ مغرورٍ فلغرورِهِ سببٌ، وذلكَ السبب هو دليلٌ، وكلُّ دليلٍ فهو نوعُ قياسٍ يقعُ في النفس ويورثُ السكونَ إليه وإن كان صاحبُه لا يشعر به ولا يقدرُ على نظمه بألفاظِ العلماء. فالقياس الذي نظَمه الشيطان فيه أصلان: أحدهما أن الدنيا نقدٌ والآخرة نسيئة ـ وهذا صحيح ـ والآخرُ أنّ النقد خير من النسيئة، وهذا محل التلبيس ـ الشبهة والخداع ـ إذ ليس الحال والأمر كذلك. بل إن كان النقد مثلَ النسيئة من حيث المقدار والمقصود، فهو خير، وإن كان أقلَّ منها فالنسيئة خير، فإن الكافر المغرور يبذلُ في تجارتِهِ درهماً ليأخذ عشرةً نسيئة، ولا يقول: النقدُ خيرٌ من النسيئة فلا أتركه. وإذا حذّرهُ الطبيبُ الفواكهَ ولذائذَ الأطعمة تركها في الحال، خوفاً من ألمِ المرضِ في المستقبل، وقد تركَ النقدَ ورضي بالنسيئة، والتجار كُلُّهم يركبون البحار ويتعبونَ في الأسفار نقداً لأجل الراحةِ والربحِ نسيئةً. فإن كانت عشرةٌ في ثاني الحال [أي عشرة دراهم مثلاً ينالها الإنسان لاحقاً] خيراً من واحدٍ في الحال، فانسب ـ أي قِسْ وقارن ـ لذّة الدنيا من حيث مدّتِها إلى مدّةِ الآخرة، فإنّ أقصى عمر الإنسان مائة سنة، وليس هو عُشْرُ عُشير جزءٍ من ألفِ ألفِ جزءٍ من الآخرة، فكأنه ترك واحداً ليأخذ ألفَ ألفٍ، بل ليأخذ ما لا نهايةَ له ولا حدّ. وإنْ نظرَ من حيث النوع رأى لذاتِ الدّنيا مكدَّرةً مشوبة بأنواعِ المنغّصات، ولذّات الآخرةِ صافية غير مكدّرة.

فإذن قد غلط في قوله «النقدُ خيرٌ من النسيئة». وهذا غرور منشؤه قبول لفظٍ عامٍ مشهور، أُطلِقَ وأريدَ به خاصٌّ، حيث غفلَ المغرور عن خصوصِ معناه، فإنّ من قال: «النقدُ خير من النسيئة» أراد به خيرٌ من نسيئةٍ هي مثله ـ أي مساوية له في المقدار والمقصود ـ وإن لم يصرِّح به.

وعند هذا يفزعُ الشيطان إلى القياس الآخر، وهو أنّ اليقين خيرٌ من الشك، والدنيا يقين والآخرة شك، وهذا القياسُ أكثر فساداً من الأوّل، لأنّ كلا أصليهِ باطلٌ، إذ اليقين خير من الشك إذا كان مثلَهُ، وإلاّ فالتاجرُ في تعبِهِ على يقين وفي ربحه على شك، والمتفقّه في اجتهاده على يقين، وفي إدراكه رتبة العلم على شك، والصيادُ في تردده في المقتنص ـ أي مكان القنص والصيد ـ على يقين، وفي اقتناصه الظفرَ بالصيدِ على شك، وكذلكَ الحزمُ دأبُ العقلاء بالاتفاق، وكلُّ ذلك تركٌ لليقين بالشك، ولكنّ التاجر يقول: إنّي إن لم أتّجر بقيتُ جائعاً وعظُمَ ضرري، وإن اتجرتُ كان تعبي قليلاً وربحي كثيراً.

وكذلك المريضُ يشربُ الدواءَ البشع الكريه، وهو من الشفاء على شكّ ومن مرارة الدواء على يقين، ولكن يقول: ضرر مرارةِ الدواء قليلٌ مقارنة بما أخافهُ من المرض والموت. وكذلك من شك في الآخرة، فواجبٌ عليه بحكم الحزم أن يقول: أيامُ الصبرِ قلائل، وهو منتهى العمر مقارنة إلى ما يُقال من أمر الآخرة، فإن كان ما قيل فيه كذباً، فما يفوتني إلاّ التنعّم أيام حياتي، وقد كنتُ في العدم ـ من الأزل إلى الآن ـ لا أتنعّم، فأحسبُ أنّي بقيتُ في العدم. وإن كان ما قيل صدقاً فأبقى في النار أبدَ الآباد، وهذا لا يطاق. ولذلك قال عليٌّ عليه السلام لبعض الملحدين: «إن كان ما قلتَهُ حقّاً فقد تخلّصتَ وتخلّصنا، وإن كان ما قلناه حقاً فقد تخلصنا وهلَكتَ»[1] ولم يقل ما قاله عليه السلام عن شكٍ منه في الآخرة، ولكنْ كلّمَ الملحدَ على قدر عقله، وبيّنَ له أنّه وإن لم يكن متيقّناً فهو مغرور.

وأمّا الأصلُ الثاني من كلامه ـ وهو أن الآخرة شكٌّ ـ فهو أيضاً

---

(١) راجع الكافي ج١ ص٧٨، مرويٌّ نحوه عن الصادق والرضا عليهما السلام جواباً للزنديق.

خطأً، بل ذلك يقين عند المؤمنين، ولليقين بالآخرة مدرَكان: أحدهما، الإيمان والتصديقُ تقليداً للأنبياء والعلماء، وذلك أيضاً يزيلُ الغرور؛ وهو مدرَكُ يقين العوام وأكثر الخواصّ.

ومثالهم مثال مريضٍ لا يعرفُ دواء علّته وقد اتّفق الأطباءُ وأهلُ الصناعة كلُّهم على أنّ دواءَهُ النبات الفلاني، فإنّ نفسَ المريضِ تطمئن إلى تصديقهم، ولا يطالبُهم بتصحيح ـ أي إثبات ـ ذلك بالبراهين، بل يثقُ بقولهم ويعملُ به حتى ولو بقي فردٌ من عامة الناس أو معتوهٌ يكذّبهم في ذلك، وهو ـ أي المريض ـ يعلمُ بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثرُ منه عدداً وأغزرُ منهُ فضلاً وأعلمُ بالطبّ منه، بل لا علمَ له بالطبّ، فحينئذٍ يعلمُ كذبَهُ هو على ضوء قولهم، ولا يرى أنّهم كاذبون لمجرد قوله، ولا يغترُّ بعلمه.. ولو اعتمدَ على قوله وترك قول الأطباء كان معتوهاً مغروراً.

وكذلك، من نظر إلى المقرِّين بالآخرةِ والمخبرينَ عنها والقائلين بأنّ التقوى هي الدواء النافعُ في الوصول إلى سعادتها، وجَدَهُم خير خلقِ الله وأَعلاهُم رتبةً في البصيرة والمعرفةِ والعقل، فهم الأنبياء والأولياء والحكماءُ والعلماء، وقد اتبعهم عليه ـ أي قولهم بوجود الآخرة ـ الخلقُ على أصنافهم، وشذَّ منهم آحادٌ من البطّالين، غلبت عليهم الشهوة ومالتْ نفوسهم إلى التمتع، فعظُمَ عليهم ترك الشهوات وعظُمَ عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار، فجحدوا الآخرة وكذّبوا الأنبياء. فكما أنَّ قولَ الصبيّ وقول العامي من الناس لا يزيلُ طمأنينة القلب إلى ما اتّفق عليه الأطباء، فكذلك قولُ هذا الغبيّ الذي استرقّتهُ الشهوات لا يشكك في صحة أقوال الأنبياء والعلماء؛ وهذا القدر من الإيمان كافٍ لجملة الخلق، وهو يقين جازمٌ يحثُّ على العمل لا محالة، والغرورُ يزول به.

وأمّا المدرَك الثاني لمعرفة الآخرة، فهو الوحي والإلهام. فالوحي للأنبياء والإلهامُ للأولياء. ولا تظنّنّ أن معرفة النبي لأمرِ الآخرةِ ولأمور الدين تقليدٌ لجبرئيل بالسماعِ منه، كما هي معرفتُك تقليدٌ للنبيﷺ، فتكون معرفتُكَ كمعرفته، وإنما يختلفُ المقلَّدُ فقط! وهيهات، فإن التقليد ليس بمعرفة بل هو اعتقادٌ صحيح.

والأنبياءُ عارفون، ومعنى معرفتهم أنّه كُشف لهم حقيقةُ الأشياء كما هي عليها، وشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهدُ أنت المحسوسات بالبصر الظاهر، فيخبرون عن مشاهدةٍ لا عن سماعٍ وتقليد، وذلك بأن يُكشف لهم عن حقيقة الروح، وأنه من أمرِ الله.

وليسَ المرادُ بكونه من أمرِ الله الأمرُ الذي يقابلُ النهي، لأن ذلك الأمرَ كلامٌ، والروح ليس بكلام. وليس المرادُ به الأمر الذي هو الشأن حتى يكون المراد به أنّه من خلقِ الله فقط، لأنّ ذلك عامٌ في جميع المخلوقات. بل العالمُ عالَمان: عالمُ الأمرِ وعالمُ الخلق، ولله الخلقُ والأمر. فالأجسامُ ذوات الكميّة والمقادير من عالمِ الخلق، إذ الخلقُ عبارة عن التقدير في اللغة.

وكلُّ موجود منزّهٍ عن الكمية والمقدار فإنه من عالمِ الأمر، وشرحُ ذلك يستدعي كشف سرّ الروح، ولا رخصةَ في ذكره لإصابة أكثر الخلقِ بالضرر جرّاءَ سماعِهِ، كسرِّ القدَر الذي مُنع من إفشائه، فمَن عرفَ سرّ الروح فقد عرفَ نفسَهُ، وإذا عرفَ نفسَهُ فقد عرفَ ربَّهُ، وإذا عرفَ نفسه وربَّهُ عرفَ أنّه أمرٌ رباني بطبعه وفطرته، وأنه في العالم الجسماني غريبٌ، وأنّ هبوطه لم يكن بمقتضى طبعه الموجود في ذاته، بل بأمرٍ عارضٍ غريب عنها، وذلك العارضُ الغريب وردَ على آدمعليه السلام وعُبّرَ عنه بالمعصية، وهي التي حطّته من الجنة، التي هي

أليقُ لذاته، فإنها ـ أي الذات ـ في جوار الربِّ تعالى وهي أمر ربّاني، وحنينهُ إلى جوار الربِّ تعالى أمر طبعيٌّ ذاتيٌّ له إلاّ أنْ تصرِفَهُ عن مقتضى طبعهِ عوارضُ العالم الغريب عن ذاته، فينسى عند ذلك نفسَهُ وربّهُ، وكلّما فعلَ ذلك فقد ظلمَ نفسَهُ، حيث قيل له: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي الخارجون عن مقتضى طبعهم وقابلياتهم يقال: فسقت الرّطبة عن كمامها[1] إذا خرجت عن معدنها[2] الفطري؛ وهذه إشارة إلى أسرارٍ يهتزُّ لاستنشاق روائحها العارفون، ويشمئزُّ من سماع ألفاظها القاصرون، فإنها تضرُّ بهم كما تضر روائح الورد[3] بالجُعل[4]، وتبهرُ أعيُنَهم الضعيفة كما تبهرُ الشمسُ أبصار الخفافيش، وانفتاحُ هذا الباب من سرِّ القلب إلى عالم الملكوت يسمّى معرفة وولاية، ويسمّى صاحبُها ولياً وعارفاً، وهي مبادىء ـ أي بدايات ـ مقامات الأنبياء، وآخر مقامات الأولياء أوّلُ مقاماتُ الأنبياء. ولنرجع إلى الغرض.

فالمقصودُ أنّ غرور الشيطان بأن الآخرةَ شك يُدفعُ إما بيقين تقليدي وإمّا ببصيرة ومشاهدةٍ من جهة الباطن، والمؤمنون بألسنتهم وبعقائدهم إذا ضيّعوا أوامر الله وهجروا الأعمال الصالحة ولابسوا[5] الشهوات والمعاصي، فهم مشاركون للكفّار في هذا الغرور، لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة.

نعم، وأمرُهم أخفُّ لأنّ أصل الإيمان يعصمهم عن عقاب الأبد

---

(١) كَمام (النخل): غلافه الذي يخرج منه.
(٢) معدن: مكان كل شيءٍ فيه أصلهُ ومركزه؛ ومنه «فلان معدن الخير» إذا جُبل عليه.
(٣) روائح الورد: في المتن رياح الورد.
(٤) الجعل: نوع من الخنافس.
(٥) لابسَ: زاول.

فيخرجون من النار، ولو بعد حين، ولكنّهم أيضاً مغرورون، فإنهم اعترفوا بأن الآخرة خير من الدنيا، ولكنّهم مالوا إلى الدنيا وآثروها، ومجرد الإيمان لا يكفي للفوز. قال الله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾[1]، وقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]. وقال النبي ﷺ للأعرابي: «الإحسانُ أن تعبُدَ الله كأنك تراه»[3]، وقال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[4]. فوعدُ المغفرةِ في جميعِ كتابِ الله منوطٌ بالإيمان والعمل الصالحِ معاً، لا بالإيمان وحده. فهؤلاء أيضاً مغرورون، أعني المطمئنين إلى الدنيا، الفرحينَ بها، المتوفين بنعيمها، المحبين لها، الكارهين للموت خيفةَ فواتِ لذّات الدنيا دون الكارهين له خيفةً لما بعده؛ فهذا مثال المغرور بالدنيا من الكفار والمؤمنين جميعاً.

ولنذكر للغرور بالله مثالين من غرور الكافرين والعاصين. فأما غرور الكفّار بالله فمثالُه قول بعضهم في أنفسهم وبألسنتهم أنّه إن كان لله من معاد، فنحن أحقُّ به من غيرنا. ونحن أوفرُ حظاً فيه وأسعدُ حالاً، كما أخبر الله تعالى عنه من قول الرجلين المتحاورين إذ قال: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾[5]. وجملةُ أمرهما، كما نقل في التفسير، أن الكافر منهما بنى قصراً بألف دينار واشترى بستاناً بألفِ دينار، واشترى خدماً

---

(١) سورة طه، الآية: ٨٢.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.

(٣) أخرجه البخاري ج٦ ص١٤٤، وقد تقدم في المجلد الأول.

(٤) سورة العصر، الآيات: ١ ـ ٣.

(٥) سورة الكهف، الآية: ٣٦.

بألف دينار، وتزوج آمرأةً على ألفِ دينار، وفي ذلك كلِّه يعظُهُ المؤمن ويقول: اشتريتَ قصراً يخرب ويفنى، ألا اشتريت قصراً في الجنة! واشتريت بستاناً يخرب ويفنى ألا اشتريت بستاناً في الجنة لا يفنى! وخدماً لا يفنون ولا يموتون! وزوجةً من الحور العين لا تموت! وفي كلِّ ذلك يردُّ عليه الكافر ويقول: ما هناك شيء، وما قيل من ذلك فهو أكاذيب، وإن كانَ فليَكونَنَّ لي في الآخرة خيرٌ من هذا.

وكذلك، وصفَ الله قولَ العاصِ بن وائل(١) إذ يقول: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فقال الله تعالى ردّاً عليه ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾. وروي عن خَبّابِ بن الأرتِّ(٢) أنه قال: كان لي على

(١) العاصُ بن وائلِ السهمي، فهو الشقيُّ الأبتر شانىء النبيﷺ الذي نزلت فيه ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ وهو من المعادين للنبيﷺ والمستهزئين به، وهو الذي لُقِّبَ في الإسلام بالأبتر لقوله «سيموتُ هذا الأبترُ غداً فينقطع ذكره» يعني رسول اللهﷺ. وهو من الذين روّعوا زينت بنت رسول اللهﷺ في هودجها حتى أجهضت جنيناً ميتاً، فلما بلغهﷺ لعنهم. وهو أبو عمرو بن العاص المعروف الذي كشف عن سوءته يوم صفين، وكفى أباه بهذا الابن فخراً، وبالعكس أيضاً!!.

(٢) خَبّاب ـ كشدّاد ـ ابن الأرَتِّ ـ بالراء المهملة والتاء المثنّاة المشدّدة ـ صحابي بدريّ من فضلاء المهاجرين الأولين، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد مع رسول اللهﷺ، وكان قديمَ الإسلام، ممّن عُذِّب في الله وصبَر على دينه. نزل الكوفة ومات بها سنة ٣٧ أو سنة ٣٩. روي أنّ قريشاً أوقدت له ناراً وسحبوه عليها فما أطفؤوها إلاّ ودْكُ ظهره، وكان أثرُ النار ظاهراً عليه في جسدِهِ. ولما رأى عمر ظهره قال: ما رأيتُ كاليوم ظهر رجلٍ مثله.
وفي أُسد الغابة: أنهم ألبسوه الدرع الحديد وصهروه في الشمس، فبلغَ منه الجهد ولم يعطِ الكفار ما سألوه، وروي أنّ فيه وفي سلمان وأبي ذر وعمّار، أنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.
وعن ابن عبد البرّ في الاستيعاب، وابن أبي الحديد في شرح النهج أنه شهدَ صفين والنهروان، ولكن يظهر من نصر بن مُزاحم أنه لم يشهد صفين ولا النهروان، بل مات بالكوفة وأمير المؤمنينﷺ كان بصفين، فلما رجعَ من صفين رأى قبرهُ بظاهر الكوفة. =

العاص بن وائل دَينٌ فجئتُ أتقاضاه فلم يقضِ لي، فقلت: إنّي آخذهُ في الآخرة، فقال لي: إذا صرتُ في الآخرةِ فإنَّ لي هناك ولداً ومالاً فأقضيك منه، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ

= وروي أنّه كان في سفرٍ فشكت بُنيّته إلى النبي ﷺ نفاد النفقة، قال النبي ﷺ: ايتيني بشويهٍ لكم، فمسحَ يدهُ على ضرعها، فكانت تدرُّ إلى انصراف خبّاب.
وقال الطبرسي: كان خباب رجلاً غنياً وله على العاص بن وائل دَين، فأتاه يتقاضاه فقال: لا أقضيك حتى تكفر بمحمدٍ، قال: لن أكفر به حتى نموت ونُبعث. وفي المناقب باع خباب بن الأرت سيوفاً من العاص بن وائل، فجاءه يتقاضاه، فقال: أليسَ يزعمُ محمدٌ أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهبٍ وفضة وثيابٍ وخدم؟ قال: بلى، قال: «فأنظرني أقضك هناك حقّك فوالله لا تكون هناك وأصحابَك عند الله آثر منّي»، فنزلت ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا - إلى قوله - فَرْدًا﴾.
وفي «أعلام الورى» ص٥٧ عن خبّاب قال: أتيتُ رسول الله ﷺ وهو متوسدٌ بُردَهُ وهو في ظلّ الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة، فقلتُ: ألا تدعو الله، فقعد وهو محمرٌ وجهه، فقال: لقد كان مَن قبلكم ليُمشط بمشاطِ الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفُه ذلكَ عن دينه، ويوضعُ المنشار على مفرق رأسه فيُشقُّ باثنين ما يصرفُه ذلك عن دينه، وليُتمّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموت ما يخافُ إلاّ الله أو الذئب على غنمه. رواه البخاري [ج٥ ص٥٦]. وقال ابن أبي الحديد: خباب من فقراء المسلمين وخيارهم، وكان في الجاهلية قيناً - أي عبداً - يعمل السيوف وهو قديم الإسلام؛ انتهى.
وقد كان خباب في أول أمرهِ غنياً كما قال الطبرسي (ره) فلمّا أسلمَ أخذت كفار قريش أمواله، ففرَّ بدينه وهاجر إلى المدينة فصار من فقراء المسلمين. راجع سفينة البحار ج٢ ص٣٧٢.
وروي أن أمير المؤمنين عليه السلام لما أقبلَ من صفين دخل الكوفة فجاز دور بني عوف، فرأى قبوراً سبعةً أو ثمانية، فقال: ما هذه القبور؟ فقيل: إن خباب بن الأرتّ توفي بعد مخرجك فأوصى أن يُدفنَ في الظهر وكان الناسُ يُدفنون في دورهم وأفنيتهم، فدُفِنَ الناسُ إلى جنبه، فقال: «رحم الله خبّاباً، فقد أسلمَ طائعاً وعاش مجاهداً وابتلي في جسدهِ أحوالاً، ولن يضيّع الله أجر من أحسنَ عملاً» ثم جاء حتى وقفَ عليهم وقال: «السلام عليكم يا أهل الديار الموحشة والمحالّ المقفرة من المؤمنين - إلى آخر ما قال عليه السلام».

لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ الآيات[1]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾ - الآية[2].

وهذا كله من الغرور بالله، وسببه قياسٌ من أقيسةِ إبليس، وذلك لأنهم ينظرون مرةً إلى نِعَمِ الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة، وينظرون الى تأخير الله العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[3]، ومرّةً ينظرون إلى المؤمنين وهم فقراءُ شعثٌ غبرٌ، فيزدرون بهم ويستحقرونهم، فيقولون: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾[4] ويقولون: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾[5].

وترتيبُ القياس الذي نظمه الشيطان في قلوبهم أنهم يقولون: قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا، وكلُّ محسنٍ فهو محبّ وكلُّ محبٌ فإنه يحسنُ في المستقبل أيضاً، كما قال الشاعر:

كما أحسنَ الله فيما مضى — كذلكَ يُحسنُ فيما بقي

فإنما يقيس المستقبلَ على الماضي برابطة الكرامة والحبّ، إذ يقول: لولا أنّي كريمٌ عند الله ومحبوبٌ لما أحسنَ إليّ. والتلبيس يكمن في ظنّه أن كلَّ محسنٍ محبٌّ، لا بل في ظنّه أن إنعامَهُ عليه في الدنيا إحسانٌ، فقد اغترّ بالله، إذ يظن أنه كريم عندهُ بدليلٍ لا يدلّ على الكرامة، بل عند ذوي البصائر يدلُّ على الهوان.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٧٨. والخبر رواه البخاري ج٦ ص١١٩.
(٢) سورة فُصّلت، الآية: ٥٠.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ٨.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٥٣.
(٥) سورة الأحقاف، الآية: ١١.

ومثالُهُ أن يكون عند الرجل عبدان صغيران يُبغضُ أحدَهما ويحبُّ الآخر. فالذي يحبّه يمنعه من اللعب ويلزمهُ المكتب ـ مكان التعلم ـ ويحبسهُ فيه ليعُلِّمه الأدب، ويمنعه من الفواكه وملاذِّ الأطعمة التي تضرّه، ويسقيه الأدوية التي تنفعه. والذي يبغضه، يُهمِلُهُ ليعيش كيف يريد، فيلعب، ولا يدخل المكتب، ويأكل كلَّ ما يشتهي، فيظَنُّ هذا العبدُ المهمل أنه عند سيّده محبوب كريم، حيث إنه قد مكّنه من شهواته ولذّاته، وساعده على جميع أغراضه، فلم يمنعه ولم يحجر عليه؛ وذلك محض الغرور.

وهكذا نعيم الدنيا ولذّاتُها، فإنها مهلكات ومبعّدات عن الله تعالى، وإنّ الله يحمي عبده من الدنيا ـ أي يمنعه عنها حماية له ـ وهو يُحِبّه، كما يحمي أحدكم مريضَهُ الطعامَ والشراب وهو يُحبّه. هكذا وردَ في الخبر[1]، وكان أرباب البصائر إذا أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا: ذنبٌ عُجّلت عقوبتُه، ورأوا ذلك أمارةَ المقتِ والإهمال. وإذا أقبلَ عليهم الفقر، قالوا: مرحباً بشعار الصالحين. والمغرورون إذا أقبلت الدنيا عليهم ظنّوا أنّها كرامة من الله، وإذا صُرفت عنهم ظنّوا أنه هوانٌ، كما أخبرَ الله تعالى عنه إذ قال: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ فأجاب الله عن ذلك ﴿كَلَّا ...﴾[2]، بيّنَ أن ذلك غرور، وقيل: كذّبهما جميعاً بقوله: «كلا»، إذ يقول: ليس هذا بكرامتي ولا هذا بهواني، ولكنّ الكريم من أكرمتُه بطاعتي غنياً كان أو فقيراً، والمهانُ من أهنتُه بمعصيتي غنياً كان أو فقيراً.

---

(١) أخرجه الترمذي وحسّنه الحاكم ج٤ ص٣٠٩، وصحّحه من حديث قتادة بن النعمان.

(٢) سورة الفجر، الآيات: ١٥ ـ ١٧.

وهذا الغرور علاجُه معرفة دلائل - أي علامات - الكرامة والهوان، إما بالبصيرة، وإما بالتقليد. أما بالبصيرة فبأن يعرفَ وجه كون الالتفات إلى شهوات الدنيا مبعّداً عن الله تعالى - أي أن يعرف السبب في كون الالتفات سبباً مبعداً عن الله تعالى - ووجه كونِ التباعدِ عنها مقرّباً إلى الله تعالى: ويُدركُ ذلك بالإلهام في منازل العارفين والأولياء، وشرحُهُ في جملةِ علومِ المكاشفة، ولا يليق بعلم المعاملة. وأمّا معرفتُه بطريق التقليد والتصديق، فهو أن يؤمنَ بكتاب الله تعالى ويصدِّقَ رسولهﷺ. وقد قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾(١). وقال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢). وقال: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾(٣). وفي تفسير قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾: إنهم كلّما أحدثوا ذنباً أحدثنا لهم نعمة ليزيد غرورهم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾(٥)، إلى غير ذلك مما ورد في كتاب الله تعالى وسنّة رسول اللهﷺ، فمَن آمنَ به خلُصَ ونجا من هذا الغرور، فإنّ منشأ هذا الغرور الجهلُ بالله وبصفاته، فإنّ من عرفَهُ لا يأمنُ مكرهُ ولا يغترُّ

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٥ - ٥٦.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

(٥) سورة إبراهيم، الآيتان: ٤٢ - ٤٣.

بأمثال هذه الخيالات الفاسدة، وينظر إلى فرعون وقارون وإلى ملوك الأرض، وكيفَ أحسنَ الله إليهم ابتداءً ثم دمّرهم تدميراً.

وقد حذّر اللَّهُ مَكرَهُ واستدراجه، فقال: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾[2]، وقال: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[3]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾[4].

وكما لا يجوز للعبد المهمَلْ أن يستدلَّ بإهمال السيّد إياه وتمكينه من النِّعم على حبِّ السيّد، بل ينبغي أن يحذر أن يكونَ ذلك مكراً منه، مع أن السيِّدَ لم يحذّره مكر نفسه، فأن يحبَّ ذلك في حقِّ الله، مع تحذيره من احتمال أن يستدرجهُ، أولى.

فإذن، من أمِنَ مكرَ اللَّهِ فهو مغترّ، ومنشأ هذا الغرور أنّه استدل بنعيم الدنيا على أنه كريمٌ عند المنعِم، واحتمل أن يكون ذلك دليل الهوان، ولكنّ ذلك الاحتمال لا يوافق الهوى. فالشيطانُ بواسطة الهوى يميلُ بالقلبِ إلى ما يوافقُهُ، وهو التصديق بدلالة نعيم الدنيا على الكرامة؛ وهذا هو حدُّ الغرور.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.
(٢) سورة النمل، الآية: ٥٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.
(٤) سورة الطارق، الآيات: ١٥ ـ ١٧.

المثال الثاني: غرور العصاة من المؤمنين

بقولهم: إنّ الله كريم وإنا نرجو عفوهُ، وإتكالِهم على ذلك وإهمالِهم الأعمال، وتحسينِ ما يقومون به بتسميتهم تمنّيهم واغترارهم رجاءً، وظنِّهم أن الرجاء مقام محمود في الدين، فإن نعمة الله واسعة، ورحمتُه شاملة وكرمُه عميم، وأين معاصي العباد في بحار رحمته، وإنا موحدون ومؤمنون، فنرجوه بوسيلةِ الإيمان.

وربما كان مستند رجائهم التمسّك بصلاح الآباء وعلوِّ رتبتهم، كاغترار العلوية بنسبهم ومخالفتهم سيرة آبائهم في الخوفِ والتقوى والورع، وظنِّهم أنهم أكرم على الله من آبائهم، إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين، وهم مع غَاية الفسق والفجور آمنون(١) وذلك نهاية الاغترار بالله تعالى. فقياس الشيطانِ للعلوية أنّ مَن أحبَّ إنساناً

---

(١) روى الصدوق (ره) في عيون أخبار الرضا عليه السلام بإسناده عن الوشاء قال: كنتُ بخراسان مع علي بن موسى عليه السلام في مجلسه، وزيدُ بن موسى حاضرٌ قد أقبلَ على جماعةٍ في المجلسِ يفتخرُ عليهم ويقول: «نحن ونحن نقول» وأبو الحسن عليه السلام مقبِلٌ على قوم يحدثهم، فسمع مقالة زيد، فالتفت إليه وقال: يا زيد، أغرك قول ناقلي الكوفة «إن فاطمة أحصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار، فوالله ما ذاك إلاّ للحسن والحسين وولدِ بطنها خاصة، فأما أن يكون موسى بن جعفر عليه السلام يطيعُ الله ويصومُ نهارهُ ويقومُ ليله، وتعصيه أنت، ثم تجيئان يوم القيامةِ سواء، لأنت أعزّ على الله عز وجل منه، إن علي بن الحسين عليه السلام كان يقول: «لمحسننا كِفْلاَنِ من الأجر ولمسيئنا ضعفان من العذاب». قال الحسن الوشاء: ثم التفتَ إليّ وقال لي: يا حسن، كيف تقرؤون هذه الآية ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ فقلت: من الناس مَن يقرأ ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [على صيغة المصدر] ومنهم من يقرأ ﴿إِنَّهُۥ عَمِلَ غَيۡرَ صَٰلِحٖ﴾ [على صيغة الفعل الماضي] فمن قرأ ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [على صيغة المصدر] فقد نفاهُ عن أبيه، فقال عليه السلام: كلا، لقد كان ابنه، ولكن لما عصى الله عز وجل نفاهُ عن أبيه كذا من كان منّا لم يُطعِ الله عز وجل فليس منّا، وأنتَ إذا أطعت الله عز وجل فأنت منّا أهل البيت.

أحبَّ أولاده، وأنّ الله قد أحبَّ آباءكم فيحبُّكم فلا تحتاجون إلى الطاعة، وينسى المغرور أنّ نوحاً صلوات الله عليه أراد أن يستصحب ولده في السفينة، فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾، وأن إبراهيم استغفر لأبيه فلم ينفعه ذلك.

فهذا أيضاً اغترار بالله، لأن الله تعالى يحبُّ المطيع ويبغضُ العاصي، فكما أنه لا يبغضُ الأبَ المطيع ببغضه للولد العاصي، فكذلك لا يحبُّ الولد العاصي بحبّه للأب المطيع. ولو كان الحب يسري من الأبِ إلى الولد لأوشك أن يسري البغض أيضاً، بل الحقُّ أن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ومن ظنَّ أنه ينجو بتقوى أبيه، كان كمن ظنَّ أنه يَشبعُ بأكل أبيه، ويروى بشربِ أبيه، ويصير عالماً بتعلم أبيه، ويصلُ إلى الكعبة ويراها بمشي أبيه! فالتقوى فرض عينٍ، ولا يجزي فيه والدٌ عن ولده شيئاً، وكذا العكس، وعند الله جزاء التقوى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾ إلاّ على سبيل الشفاعة لمن لم يَشتدَّ غضبُ اللّهِ عليه، فيأذن في الشفاعة له؛ كما سبقَ في كتابِ الكبرِ والعجب.

وقد يسأل سائل أنه ما الغلطُ في قول العصاة والفجّار إن الله كريم «وإنا نرجو مغفرته ورحمته» وقد قال: «أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيراً»[1]، فما هذا إلاّ كلامٌ صحيح مقبول الظاهر في القلوب.

لكن إعلم أن الشيطان لا يُغوي الإنسان إلاّ بكلام مقبول الظاهر

---

(١) أخرجهُ الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية من حديث واثلة بن الأسقع بسندٍ صحيح هكذا «إن الله يقول: أنا عند ظنِّ عبدي بي إن خيراً فخير وإن شراً فشر».

مردود الباطن، ولولا حسن ظاهره لما انخدعت به القلوب، ولكن النبي ﷺ كشفَ ذلك فقال: «الكيّس من دانَ نفسه، وعمل لما بعدَ الموت، والأحمقُ من أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنّى على الله»(١)، وهذا هو التمني على الله، غيّر الشيطانُ اسمه فسمّاه رجاءً حتى خدع به الجهال، وقد شرح الله تعالى الرجاء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾(٢) يعني أن الرجاء بهم يليق، وهذا لأنه ذكرَ أن ثواب الآخرة أجرٌ وجزاءٌ على الأعمال، قال تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾(٤). أفترى أنّ من استؤجر على إصلاح أَوانٍ، وشُرِطَ له أجرة عليها، وكان الشارطُ كريماً يفي بالوعد كلما وعد ولا يُخلف، بل يزيده، فجاء الأجيرُ وكسر الأواني وأفسدها كلّها، ثم جلسَ ينتظر الأجر ويزعمُ أن المستأجر كريم، أفيراهُ العقلاء في انتظاره متمنّياً مغروراً أو راجياً؟! فهذا للجهل بالفرق بين الرجاء والغِرَّة ـ أي الاغترار ـ فإن من رجا شيئاً طلبَهُ، ومن خاف شيئاً هربَ منه(٥). فكما أن الذي يرجو في الدنيا ولداً وهو بعدُ لم ينكح، أو

---

(١) رواه ابن ماجة في السنن تحت رقم ٤٢٦٠ كما تقدم.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٨.

(٣) سورة الواقعة، الآية: ٢٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٥) في الكافي مسنداً عن أبي عبد الله عليه السلام قيل له: قوم يعملون بالمعاصي ويقولون نرجو، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت، فقال: «هؤلاء قوم يترجحون في الأماني، كذبوا ليسوا براجين، إن من رجا شيئاً طلبَه ومن خاف من شيءٍ هرب منه». وفيه أيضاً قيل له عليه السلام: إن قوماً من مواليك يلمون بالمعاصي ويقولون نرجو، فقال: «كذبوا، ليسوا لنا بموالٍ، أولئك قوم ترجّحت بهم الأماني، من رجا شيئاً عملَ له، ومَن خاف من شيء هرب منه».

نكح ولم يجامع، أو جامع ولم يُنزل فهو معتوه، كذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن، أو آمن ولم يعمل صالحاً، أو عمل ولم يترك المعاصي فهو مغرور. وكما أنَّه إذا نكح ووطىء وأنزل بقي متردداً في الولد ـ أي خائفاً لا يعلم هل يرزقه الله ولداً أم لا ـ يخاف ويرجو فضل الله في خلقِ الولدِ ودفعِ الآفات عن الرحم وعن الأمّ إلى أن يتمّ، فهو كيّسٌ، فكذلك إذا آمن وعملَ الصالحات وترك السيئات وبقي متردداً بين الخوف والرجاء، يخافُ أن لا يُقبلَ منه وأن لا يثاب عليه، وأن يُختمَ له بالسوء، ويرجو من فضل الله أن يثبّته بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويحفظ دينه من صواعق سكرات الموتِ حتى يموتَ على التوحيد، ويحرسَ قلبَهُ عن الميل إلى الشهوات بقية عمره، حتى لا يميل إلى المعاصي، فهو إذن كيّسٌ، ومَن عدا هؤلاء فهمُ المغرورون بالله وسوف يعلمون حين يرونَ العذاب مَن أضلُّ سبيلاً، ولتَعلمُنَّ نبأه بعد حين، وعند ذلك يقولون كما أخبر الله عنهم: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[1] أي علمنا أنه كما لا يولد ولدٌ إلاّ بوقاعٍ ونكاح، ولا ينبت زرعٌ إلاّ بحراثةٍ وبثّ بذر، فكذلك لا يحصلُ في الآخرة ثواب وأجرٌ إلاّ بعملٍ صالح، فارجعنا نعمل صالحاً، فقد علمنا الآن صدقك في قولك: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾[2] و﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾[3] أي ألم نُسمعكم سنّة اللّهِ في عباده، وأنه ﴿تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾؟ وأنّ ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾، فما الذي غرّكم بالله

(١) سورة السجدة، الآية: ١٢.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٣٩ ـ ٤٠.

(٣) سورة الملك، الآيتان: ٨ ـ ٩.

بعد أن سمعتم وعقلتم؟ ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[1].

لكن لك أن تسأل: فأين مظنّةُ الرجاء وموضعه المحمود إذاً؟ فاعلم أنه محمود في موضعين: أحدهما، في حق العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة فقال له الشيطان: وأنّى تُقبل توبتك؟ فيقنطه من رحمة الله. فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء، ويتذكّر أنّ الله كريم يقبلُ التوبة عن عباده، وأنّ التوبة طاعةٌ تكفّر الذنوب. قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾[2] أمرهم بالإنابةِ وقال: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾[3] فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور، كما أنّ من ضاقَ عليه وقتُ الجُمعة وهو في السوق، فخطر له أن يسعى إلى الجمعة فقال له الشيطان: إنك لا تدركُ الجمعة فأقم على موضعك ـ أي ابق في مكانك ـ فكذّب الشيطان وقام يعدو وهو يرجو إدراك الجمعة، فهو راجٍ، وإن استمر على التجارة وأخذ يرجو تأخير الإمام الصلاةَ لأجلهِ إلى وسطِ الوقت، أو لأجل غيره، أو لسببٍ من الأسباب.. فهو مغرور لا محالة.

والثاني، أن تفتُرَ نفسُهُ من فضائل الأعمال ويقتصرُ على الفرائض، فيرجّي نفسَهُ نعيمَ الله تعالى وما وعد الله الصالحين به،

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٠ ـ ١١.
(٢) سورة الزمر، الآيتان: ٥٣، ٥٤.
(٣) سورة طه، الآية: ٨٢.

حتى ينبعث من الرجاءِ نشاطُ العبادة فيُقبِلَ على الفضائل، ويتذكّر قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ - إلى قوله - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1].

فالرجاء الأول يقمعُ القنوط المانعَ من التوبة، والرجاء الثاني يقمعُ الفتور المانعَ من النشاط والتشمّر، فكلُّ توقعٍ حثّ على توبةٍ أو على تشمّرٍ في العبادة، فهو رجاءٌ. وكلُّ توقّعٍ أوجبَ فتوراً في العبادة وركوناً إلى البطالة فهو اغترار، كما إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل فيقول له الشيطان: ما لكَ وإيذاء نفسكَ وتعذيبها، ولك ربّ كريم غفور رحيم، فيفترُ به عن التوبة والعبادة؛ فهذا هو الاغترار.

وعند هذا يجب على العبد أن يستعمل الخوفَ، فيخوف نفسه بغضبِ الله وعظيم عقابه ويقول: إنه مع أنّه غافر الذنب وقابل التوب، شديدُ العقاب. وإنّه مع أنه كريمٌ، خلّدَ الكفار في النار أبدَ الآباد، مع أنّه لم يضره كفرهم، بل سلّط العذاب والمحنَ والأمراض والعلل والفقر والجوع على جملةٍ من عبادهِ في الدنيا، وهو قادر على إزالتها. فمن هذه سنّتُه في عباده، وقد خوّفَني عقابَهُ، فكيفَ لا أخافُه، وأغترُّ به؟!

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان على العمل، فما لا يبعث على العمل فهو تمنٍّ وغرور، ورجاءُ كافة الخلق هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا، وسببُ إعراضهم عن الله وإهمالهم السعي للآخرة، فذاك غرور. وقد أخبر النبيﷺ وذكرَ أنّ الغرور

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ١ ـ ١١.

سيغلبُ على آخر هذه الأمة[1]، وقد كان ما وعد بهﷺ!.

فقد كان الناس في الأعصار الأُوَل يواظبون على العبادات، ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنّهم إلى ربهم راجعون، يخافون على أنفسهم وهم طول الليل والنهار في طاعةِ الله، يبالغون في التقوى والحذر من الشهوات والشبهات، ويبكون على أنفسهم في الخلوات.

وأمّا الآن، فترى الناس آمنين مسرورين مطمئنين غير خائفين، مع إكبابهم على المعاصي وانهماكهم في الدنيا وإعراضهم عن الله تعالى، زاعمينَ أنّا واثقون بكرمِ الله وفضله، وراجون لعفوه ومغفرته، كأنّهم يزعمون أنهم عرفوا من كرمِ الله وفضله ما لم يعرفه الأنبياء والسلفُ الصالحون. فإن كان هذا الأمرُ يُدرَكُ بالمنى ويُنال بالهوينا، فعلى ماذا كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنُهم؟! وقد ذكرنا تحقيق هذه الأمور في كتاب الرجاء والخوف.

وقد قال رسول اللهﷺ فيما رواه معقِلُ بن يسار: «يأتي على الناس زمانٌ يَخْلَقُ[2] فيه القرآن في قلوب الرجالِ كما تخلَقُ الثياب على الأبدان، أمرُهم كلُّه يكون طمعاً لا خوف معه، إن أحسنَ أحدهم قال: يُتقبَّلُ منّي، وإن أساء قال: يُغفرُ لي»[3]، فأخبرَ أنهم يضعون الطمعَ موضعَ الخوفِ ـ أي بدلاً عنه ـ لجهلهم بتخويف القرآن وما فيه. وبمثله أخبرَ عن النصارى إذ قال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ (أي علماء) يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ (أي شهواتهم من

---

(١) في حديث أبي ثعلبة، وقد تقدم.

(٢) يخلَقُ: يبلى.

(٣) قال العراقي: أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس بنحوه، بسندٍ فيه جهالة. ولم أره من حديث معقل.

الدنيا، حلالاً كان أو حراماً) ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[2]. والقرآن من أوله إلى آخره تحذير وتخويف، لا يتفكّر فيه متفكّر إلاّ ويطولُ حزنُه ويعظُمُ خوفُه إن كان مؤمناً بما فيه، وترى الناس يهذُّونَهُ[3] هذّاً، يُخرجون الحروف من مخارجها ويتناظرون على رفعها وخفضها ونصبها، وكأنهم يقرؤون شعراً من أشعار العرب، لا يهمّهم الالتفاتُ إلى معانيه والعمل بما فيه، فهل في العالم غرور يزيدُ على هذا؟!

فهذه أمثلةُ الغرور بالله، وبيانُ الفرقِ بين الرجاء والغرور، ويقربُ منه غرور طوائف لهم طاعاتٌ ومعاصٍ، إلاّ أن معاصيهم أكثر، وهم يتوقعون المغفرة ويظنون أنّه تترجح كفّة حسناتِهم، مع أنّ ما في كفّةِ السيئات أكثر؛ وهذا غاية الجهل!

فترى الواحدَ يتصدق بدراهم معدودة من الحلال والحرام، ويكونُ ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه، ولعلَّ ما تصدّق به هو من أموال المسلمين، وهو يتكل عليه، ويظنُّ أنّ أكلَ ألفِ درهمٍ حرامٍ يقاومُه التصدّقُ بعشرةٍ من الحلال أو الحرام، وما هو إلا كمنْ وضعَ عشرة دراهم في كفّة ميزان، وفي الكفّة الأخرى ألف درهم، وأراد أن يُميل الكفّة الثقيلة بالكفّة الخفيفة! وذلك غاية الجهل.

نعم، ومنهم من يظن أنّ طاعاته أكثر من معاصيه، لأنه لا يحاسبُ نفسَهُ ولا يتفقّدُ معاصيه، وإذا عمل طاعة حفظها واعتدَّ بها،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٤.

(٣) هَذّ: هذَّ بالحديث أي لهجَ به. وهذَّ الحديث أي سرَدَهُ. والمراد: أسرع فيه وتابعه.

كالذي يستغفر الله بلسانه أو يُسبّحُ اللّهَ في اليوم مائة مرةٍ، ثم يغتاب المسلمين ويمزّق أعراضهم، ويتكلمُ بما لا يرضاهُ اللّهُ طول النهار، من غير حصرٍ وعدد، ويكونُ نظرهُ إلى عددِ سبّحتِه وأنّه استغفر مائة مرة، وغفل عن هذيانه طول نهاره، والذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة أو ألفَ مرة، وقد كتبَهُ الكرامُ الكاتبون، وأوعدَ اللّهُ العقاب على كل كلمةٍ، فقال: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾[1]. فهو أبداً يتأمل في فضائل التسبيحات والتهليلات، ولا يلتفتُ إلى ما ورد في عقوبةِ المغتابين والكذابين والنمّامين والمنافقين، يُظهرون من الكلامِ ما لا يضمرونه، إلى غير ذلك من آفات اللسان؛ وذلك محض الغرور.

ولعمري، لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أُجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذي زاد على تسبيحه، لكان عند ذلك يكفُّ لسانه حتى عن جملةٍ من مهمّاته ـ أي الأمور التي تهمه ـ وما نطقَ به في فتراتِهِ، كان يَعدُّه ويحسِبُهُ ويوازنُهُ بتسبيحاته، كي لا تبقى عليه أجرةُ نسخه.

فيا عجباً لمن يحاسبُ نفسَهُ ويحتاطُ خوفاً على قيراطٍ يفوتُهُ في الأجرة على النسخ، ولا يحتاطُ خوفاً من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه! ما هذه إلاّ مصيبة عظيمة لمن تفكّر فيها، وقد دُفعنا إلى أمرٍ ـ وهو رجاء رحمته تعالى ـ إن شككنا فيه كّنا من الكفرةِ الجاحدين، وإن صدّقنا به (دون عمل) كنا من الحمقى المغرورين، فما هذه أعمالُ من يصدّقُ بما جاء به القرآن! وإنّا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفر فسبحانَ الله كيف صُددنا عن التنبّه واليقين، وما أجدرَ من يقدرُ

---

(١) سورة ق، الآية: ١٨.

على تسليطِ مثل هذه الغفلةِ والغرور على القلوب أن يُخشى ويُتّقى ولا يُغترَّ به اتكالاً على أباطيلِ المنى، وتبريرات الشيطان والهوى.

٣ ـ أصنافُ المغترين وفِرقُ كل صنفٍ منها

الصنف الأول: أهل العلم
والمغترون منهم فِرَقٌ

ففرقةٌ منهم أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وتعمّقوا فيها واشتغلوا بها، وأهملوا تفقّد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم وظنوا أنّهم عند الله بمكان، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغاً لا يعذِّبُ اللَّهُ مثلَهُم، بل يقبلُ في الخلقِ شفاعتهم، وأنه لا يطالبُهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله؛ وهم مغرورون.

فإنهم لو نظروا بعين البصيرة، لعلموا أن العلمَ علمان: علمُ معاملةٍ وعلم مكاشفةٍ، وهو العلم بالله تعالى وبصفاته، المسمّى بحسب العادة علم المعرفة. فأما العلمُ بالمعاملة، كمعرفةِ الحلالِ والحرام، ومعرفةِ أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفيّة علاجها والفرار منها، فهو علمٌ لا يُرادُ إلاّ للعمل، ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلومِ قيمة، وكلُّ علمٍ يرادُ للعمل فلا قيمة له دون العمل.

فمثال هؤلاء كمريضٍ به علّةٌ لا يُزيلها إلاّ دواءٌ مركب من أخلاطٍ كثيرة لا يعرفها إلاّ حُذَّاقُ الأطباء، فيسعى في طلب الطبيب بعد أن هاجر عن وطنه، حتى عثر على طبيبٍ حاذق، فعلّمه الدواء وفصّلَ له الأخلاط وأنواعَها ومقاديرها ومعادنَها التي مِنها تُجتَلبُ، وعلّمَهُ كيفية دقِّ كلِّ واحدٍ منها، وكيفية الخلطِ والعجن، فتعلّمَ ذلك

منه، وكتب منه نسخةً حسنةً بخطٍ حسنٍ، ورجعَ إلى بيته وهو يكررها ويقرؤها، ويُعلِّمُها المرضى، ولم يشتغل بشربها واستعمالها، أفترى أنّ ذلك يُغني عنه من مرضه شيئاً؟

هيهات، هيهات! لو كتبَ منه ألفَ نسخةٍ، وعلّمَهُ ألفَ مريضٍ حتى شُفي جميعُهم، وكرّره كلّ ليلة ـ أي أعاده على نفسه ـ ألفَ مرةٍ، لم يُغنه ذلك من مرضهِ شيئاً، إلاّ أن يزنَ الذهبَ ويشتري الدواء ويخلطه كما تعلمَ، ويشربَهُ ويصبرَ على مرارته ويكونَ شربُه في وقته ـ أي على الموعد ـ وبعد تقديم الاحتماء ـ أي بعد رعاية الحِميَة في البداية ـ وجميع شروطه، فإذا فعل جميع ذلك فهو على خطرٍ من شفائه، فكيف إذا لم يشربه أصلاً!! فكلما ظنّ أن ذلك ـ أي التعلم ـ يكفيه ويشفيه، فقد ظهرَ غروره.

فهكذا الفقيه الذي أحكمَ علمَ الطاعات ولم يعملها، وأحكم ـ أي علم جيداً ـ علم المعاصي ولم يجتنبها، وأحكم علم الأخلاق المذمومة، ولم يزكِّ نفسَهُ منها، وأحكم علم الأخلاقِ المحمودة ولم يتصف بها، فهو مغرور، إذ قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾[1] ولم يقل قد أفلح من تعلّم كيفية تزكيتها وكتبَ علمَها وعلَّمَها للناس.

وعند هذا يقول له الشيطان: لا يغرّنّك هذا المثال، فإنّ العلم بالدواء لا يزيلُ المرض، وإنما مطلبُك القرب من الله تعالى وثوابُه، والعلمُ يجلبُ الثواب، ثم يتلو عليه الأخبار الواردة في فضل العلم. فإن كان المسكين معتوهاً مغروراً، وافق ذلك ـ أي كلام إبليس ـ مرادهُ وهواه، فيطمئن إليه ويهمل العمل. وإن كان كيّساً، فيقول

(١) سورة الشمس، الآية: ٩.

للشيطان: أتذكرني فضائل العلم وتنسيني ما ورد في العالم الفاجر الذي لا يعملُ بعلمه، كقوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾[1] وكقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[2]، فأيُّ خزيٍ أعظمُ من التمثيل بالكلب والحمار؟!

وقد قال النبيُّ ﷺ: «من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله تعالى إلاّ بُعداً»[3]. وقال ﷺ: «يُلقى العالمُ في النار فتندلقُ أقتابُهُ فيدور بها في النار كما يدور الحمار في الرحى»[4]. وقال ﷺ: «شرُّ الناس العلماءُ السوء»[5]، وقال ﷺ: «أشدُّ الناسِ عذاباً يوم القيامة عالمٌ لم ينفعهُ الله بعلمه»[6]. فهذا وأمثالُه مما أوردناه في كتاب العلم في بابِ علامةِ علماء الآخرة أكثرُ من أن يُحصى، إلاّ أنّ هذا فيما لا يوافقُ هوى العالمِ الفاجر - وما ورد في فضل العلمِ يوافقه - فيُميلُ الشيطان قلبَهُ إلى ما يهواه؛ وذلك عينُ الغرور. فإنه إن نظَرَ بالبصيرة، فمثالُهُ ما ذكرناه. وإن نظر بعين الإيمان، فالذي أخبره بفضيلة العلم - اللّهُ تعالى ورسوله ﷺ - هو الذي أخبره بذمِّ العلماء السوء، وأنّ حالَهُم عند الله تعالى أشدُّ من حال الجهّال. فبعدَ ذلك، اعتقادُه أنه

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٥.

(٣) تقدم في المجلد الأول (من متن الكتاب الأساسي) أبواب العلم.

(٤) تقدم آنفاً عن أحمد، رواه في المسند.

(٥) أخرجه البزار من حديث معاذٍ هكذا «شرار الناس شرار العلماء في الناس» بإسنادٍ حسنٍ، كما في الجامع الصغير؛ وقد تقدم.

(٦) أخرجه الطبراني في الصغير، وفيه عثمان البري. قال الفلاس: صدوقٌ ولكنه كثيرُ الغلط، وضعّفَهُ أحمد والنسائي والدارقطني، كما في مجمع الزوائد ج١ ص١٨٥.

على خير، مع تأكُّدِ حجةِ الله عليه، غاية الغرور.

وأمّا الذي يدّعي علوم المكاشفة، كالعلم بالله وصفاتِهِ وأسمائه، وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيّع أمرَ الله تعالى وحدوده، فغروره أشدّ.

ومثالُه، كمن أراد خدمة ملكٍ، فعرفَ الملكَ وعرفَ أخلاقه وأوصافَه ولونَه وشكلَه وطولَهُ وعرضَهُ وعادَته ومجلِسَه، ولم يتعرف ما يحبّه ويكرهُه، وما يغضبُ عليه وما يرضى به، أو أنه عرفَ ذلك إلاَّ أنه قصد خدمتَهُ وهو ملابسٌ - أي متلبسٌ وفاعلٌ - بجميع ما يغضب منه الملك، وعاطلٌ عن جميع ما يحبّه، من زيٍّ وهيئةٍ وكلامٍ وحركةٍ وسكونٍ، فورد على الملكِ وهو يريد التقرب منه وأن يكون من خاصّته متلطخاً بجميع ما يكرهُهُ الملك، عاطلاً عن جميع ما يُحبُّه، متوسلاً إليه بمعرفته له ولنسبِه واسمِه وبلدِهِ وشكلِهِ وصورتِه وعادتِه في سياسةِ غلمانه ومعاملةِ رعيته، فهذا مغرور جداً، إذ لو تركَ جميعَ ما عرفَهُ واشتغلَ بمعرفتِه فقط، ومعرفةِ ما يحبُّه ويكرهه، لكان ذلك أقربَ إلى نيله المراد من قُربه والاختصاصِ به، بل تقصيره في التقوى واتباعه الشهوات يدلُّ على أنّه لم ينكشف له من معرفةِ الله تعالى إلاّ الأسامي دون المعاني، إذ لو عرفَ الله تعالى حقّ معرفته لخشيَهُ واتقاه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[(١)]، وفاتحةُ الزُّبور (كتاب داودعليه السلام): «رأسُ الحكمةِ خشيةُ الله». وقال ابن مسعود: «كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً».

فإذن، الفقيه من فقِهَ عن الله أمرَهُ ونهيه، وعلمَ من صفاتِهِ ما

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

أحبَّه وكرهه، فهو العالمُ بالحقيقةِ، «ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين»؛ فإذا لم يكن بهذه الصفة ـ أي الفقاهة الحقة ـ فهو من المغرورين.

وفرقة أخرى، أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي إلاّ أنّهم لم يتفقّدوا قلوبهُم ليمحُوا عنها الصفات المذمومة عند الله تعالى من الكبرِ والحسدِ والرياء وطلبِ الرئاسة والعلاء ـ أي المكانة العالية ـ وإرادة السوءِ للأقران والنظراء، وطلب الشهرة في البلادِ والعباد. وربما لم يعرف بعضُهم أن ذلك مذمومٌ، فهو مكبٌّ عليها، غير محترز منها ـ أي الصفات المذمومة ـ ولا يلتفتُ إلى قوله ﷺ: «أدنى الرياء شرك»[1]، وإلى قوله ﷺ: «لا يدخلُ الجنةَ من في قلبهِ مثقالُ ذرّةٍ من كبر»[2] وإلى قوله: «الحسدُ يأكُلُ الحسنات كما تأكل النار الحطب»[3]، وإلى قوله: «حبُّ المالِ والشرفِ يُنبتان النفاقَ في القلب كما ينبتُ الماءُ البقلَ»[4] إلى غير ذلك من الأخبار التي أوردناها.

فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم، ونسوا قوله ﷺ: «إنّ الله لا ينظرُ إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم»[5]، فتعهّدوا ـ أي أولوه أهمية ورعاية ـ الأعمال وما تعهدوا القلوب، والقلبُ هو الأصل، إذ لا ينجو إلاّ مَن أتى الله بقلبٍ سليم.

---

(١) تقدم في كتاب ذم الجاه والرياء.

(٢) تقدم في كتاب الكِبر والعجب.

(٣) تقدم في كتاب الغضبِ والحقدِ والحسد.

(٤) تقدم في كتاب ذم الدنيا.

(٥) تقدم في كتاب عجائب القلب ظاهراً.

ومثالُ هؤلاء كبئرِ الحشّ[1]، ظاهرها جصٌّ[2] وباطنها نتِنٌ، أو كقبور الموتى، ظاهرها مزيّنةٌ وباطنُهَا جيفة، أو كبيتٍ مظلم باطنُه، ووضِعَ السراجُ على ظاهره حتى استنار ظاهرهُ وباطنُهُ مظلم، أو كرجلٍ قصدَ ضيافةَ الملكِ ـ أي استضافته ـ إلى داره، فجصّصَ باب داره وترك المزابلَ في صدر داره؛ ولا يخفى أن ذلك غرور، بل أقربُ مثالٍ إليه رجلٌ زرع زرعاً فنبتَ، ونبتَ معه حشيش يفسدهُ، فأمرَ بتنقيةِ الزرعِ عن الحشيش، بقلعهِ من أصله، فأخذ يجزُّ رأسَهُ وأطرافَهُ فلا يزال يقوى أصله وينبت، لأنّ مغارس المعاصي ـ أي منابتها ـ هي الأخلاقُ الذميمةُ في القلب. فمَن لا يطهّر القلبَ منها، لم تتمَّ له الطاعات الظاهرة إلاّ مع الآفات الكثيرة، بل هو كمريضٍ ظهرَ به الجَرَبُ وقد أُمرَ بالطلاء ـ أي دهن البدن ـ وشرب الدواء. فالطلاءُ ليزيل ما على ظهره ـ أي ظاهر بدنه ـ والدواء ليقلع مادته من باطنه، فقنعَ بالطلاء وترك الدواء، وبقي يتناول ما يزيد في المادة، فلا يزال يطلي الظاهر، والجربُ دائمٌ به يتفجرُ من المادة التي في الباطن.

وفرقة أخرى، علموا هذه الأخلاق الباطنة، وعلموا أنها مذمومة من جهة الشرع إلاّ أنَّهم لعُجبِهم بأنفسهم يظنُّون أنهم منفكّون عنها ـ أي لا يتصفون بها ـ وأنّهم أرفعُ عند الله من أن يبتليَهُم بذلك، وإنما يبتلي به العوام دونَ من بلغَ مبلغَهم في العلم، وأمّا هو فأعظم عند الله من أن يبتليه! ثم إذا ظهرت عليه مخائل[3] الكِبر والرئاسةِ وطلبِ العلوّ

---

(١) بئر الحشّ: الحش هو الغائط، وبئر الحشّ هي ما تعرف اليوم بحفرة الصرف الصحي.

(٢) الجصّ: ما يطبخ فيصير كالحجارة فيبنى به وتسمّيه العامة الجفصين أو ما تطلى به البيوت من الكلس.

(٣) مخائل: مفردها مَخِيلة والمراد بها هنا علامات.

والشرف قال: ما هذا كبرٌ! وإنما هذا طلبُ عزِّ الدين، وإظهارِ شرف العلم، ونصرةِ دين الله، وإرغام أنفِ المخالفين من المبتدعين. فإنّي لو لبستُ الدُّونَ من الثياب وجلستُ في الدون من المجالس، لشمت بي أعداء الدين وفرحوا به، وكان ذلّي ذلاً على الإسلام، ونسي المغرور أنَّ عدوّهُ الذي حذّرهُ مولاه منه هو الشيطان، وأنه يفرحُ بما يفعلُهُ، ويسخرُ به، ونسيَ أن النبيﷺ بماذا نصر الدين، وبماذا أرغمَ الكافرين، ونسيَ ما رويَ عن السّلفِ من التواضعِ والتبذّل والقناعة بالفقرِ والمسكنة، حتى عوتب بعضُهم في بذاذةِ زيِّهم فقال: إنّا قومٌ أعزّنا الله بالإسلام، فلا نطلبُ العزَّ في غيره. ثم هذا المغرورَ يطلبُ عزّ الدين بالثياب الرقيقة من القصب الديبقيّ[1]، والإبريسم[2] المحرم، والخيول والمراكب ويزعم أنه يطلبُ به عز الدين وشرف العلم. وكذلك، كلما أطلق اللسان بحسد أقرانه أو في مقابلة من ردَّ عليه شيئاً من كلامه، لم يظنَّ بنفسه أنّ ذلك حسد، ولكن يقول: إنما هذا غضبٌ للحق، وردٌّ على المبطلِ في عدوانه وظلمه..

وهكذا يرائي بأعماله وعلومه، وإذا خطر له خاطرُ الرياء قال: هيهات! إنما غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداءُ الخلق بي ليهتدوا إلى دين الله ويتخلّصوا من عقاب الله، ولا يتأمّلِ المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرحُ باقتدائهم به! فلو كان غرضه صلاحُ الخلق لفرحَ بصلاحهم على يدِ أيٍّ كان، تماماً كمن له عبيد مرضى يريد معالجتهم، لم يفرّق بين أن يحصل شفاؤهم على يدهِ أو على يدِ طبيبٍ آخر.

---

(١) القصبُ الديبقيّ: القصب: خيوط يُلفُّ عليها شريط مطروف من الذهب أو الفضة. الديبقيّ: يظهر أنه نوع من القماش.

(٢) الإبريسم: الحرير.

وربما يُذكرُ هذا ـ أي هذا الاحتمال من أن يكون فرحه لنفسه وعمله رياءً ـ له، فلا يخلّيه الشيطان أيضاً، بل يقول: إنما ذاك لأنّهم إذا اهتدوا بي كان الأجرُ والثواب لي، فإنما فرحي بثواب الله تعالى لا بقبول الخلق.

هذا ما يظنّه بنفسِهِ، والله يطّلع من ضميره ـ أي يعلم ويعرف ـ على أنه لو أخبره نبيٌّ بأنّ ثوابهُ في الخمول وإخفاء العلم أكثرُ من ثوابه في الإظهار، وحبسَ مع ذلك في سجنٍ وقُيِّدَ بالسلاسل، لاحتالَ في هدمِ السجنِ وحلِّ السلاسل حتى يرجع إلى موضعه الذي به يُظهر رئاسته من تدريسٍ أو وعظٍ أو غيره، وكذلك يدخل على السلطان ويتودد إليه ويثني عليه ويتواضع له.

وإذا خطرَ له أنّ التواضع للسلاطين الظلمةِ حرامٌ، قال له الشيطان: هيهات! إنما ذلك عند الطمعِ في مالهم، وأمّا أنتَ فغرضُك أن تتشفع للمسلمين وتدفعَ الضُّرَّ عنهم، وتدفعَ شر أعدائك عن نفسك، والله يعلمُ من باطنهِ أنه لو ظهر لبعضِ أقرانهِ قبولٌ عند ذلك السلطان، فصار يشفّعه في كل مسلمٍ حتى أمكنه أن يدفع الضرر عن جميع المسلمين، لثُقلَ ذلك عليه، ولقد قدر على أن يقبّح حالهُ عند السلطان بالطعنِ فيه والكذبِ عليه لفعل.

وكذلك، قد ينتهي غرور بعضهم إلى أن يأخذ من مالهم، وإذا خطر له أنّه حرامٌ قال له الشيطان: هذا مالٌ لا مالِكَ له، وهو لمصالح المسلمين، وأنت إمام المسلمين وعالمهم، وبك قوام دين الله، أفلا يحِلُّ لك أن تأخذ قدر حاجتك؟ فيغترّ بهذا التلبيس في ثلاثة أمور: أحدُها، في أنّه مالٌ لا مالِكَ له، وأنّه يعرفُ أنه يأخذُ الخراج من المسلمين وأهل السّواد، والذين أخذَ منهم أحياءٌ قيامٌ، وأولادُهم وورثتُهم أحياء، ونهايةُ الأمر وقوعُ الخلطِ في أموالهم، ومَن غصبَ

مائة دينار من عشرة أنفس وخلطها، فلا خِلافَ في أنه مال حرام، ولا يُقال: هو مالٌ لا مالِكَ له، ويجب أن يُقسَّم بين العشرة، ويردُّ إلى كل واحدٍ عشرة، وإن كان مالُ كلٍّ واحدٍ قد ٱختلطَ بمال الآخر.

ثانيها، في قوله: إنّك من مصالحِ المسلمين، وبكَ قوامُ الدِّين. ولعلّ الذين فسد دينهُم واستحلوا أموال السلاطين، ورغبوا في طلب الدنيا والإقبال على الرئاسة والإعراضِ عن الآخر بسببه، أكثرُ من الذين زهدوا في الدنيا ورفضوها وأقبلوا على الله. فهو بنحوٍ مؤكد دجّالُ الدّين وقوام مذهب الشياطين، لا إمامُ الدّين، إذ الإمام هو الذي يُقتدى به في الإعراضِ عن الدنيا والإقبالِ على الله، كالأنبياء ومتابعيهم، والدجّال هو الذي يُقتدى به في الإعراض عن الله والإقبال على الدنيا؛ ولعلّ موتَ مثلِ هؤلاء أنفعُ للمسلمين من حياته، وهو يزعم أنه قوام الدّين، ومَثَلُهُ كما قال عيسى عليه السلام للعالم السّوء: «إنه كصخرةٍ وقعت على فم الوادي فلا هي تشربُ الماء، ولا هي تتركُ الماءَ يخلَصُ إلى الزرع». وأصناف غرور أهل العِلم في هذه الأعصار المتأخرة خارجةٌ عن الحصر، وفيما ذكرناه تنبيه بالقليل على الكثير.

وفرقة أُخرى، أحكموا العلوم وطهّروا الجوارح وزيّنوها بالطاعات، واجتنبوا ظاهر المعاصي، وتفقّدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسدِ والكبر والحقد وطلبِ العلوّ، وجاهدوا أنفسَهم في التبرّي منها، وقلعوا من القلوبِ منابِتَها الجليّة القويّة، ولكنّهم بعد مغرورون، إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكائدِ الشيطان وخبايا خِدَع النفس، ما دقَّ (من الدقة) وغَمُضَ مدركه، فلم يفطنوا له وأهملوه.

وإنما مثالُه مَن يريدُ تنقية الزّرع من الحشيش، فبحث فيه وفتّش

عن كل حشيشٍ رآهُ فقلعه، إلاّ أنه لم يفتش عمّا لم يخرج رأسُهُ بعد من تحت الأرض، وظنّ أن الكلَّ قد ظهرَ وبرز، وكانَ قد نبتَ من أصولِ الحشيش فروع لطيفة وٱنبسطت تحت التراب فأهملها وهو يظنُّ أنه قد اقتلعها، فإذا هو بها في غفلتِه وقد نبتت وقويَتْ وأفسَدت أصول الزّرع من حيث لا يدري. فكذلك العالمُ قد يفعلُ جميع ذلك ويذهلُ عن المراقبة للخفايا والتفقّد للدقائق، فتراه يسهر ليله ونهاره في جمعِ العلوم وترتيبها وتحسين ألفاظها وجمع التصانيف فيها وهو يرى أنّ باعثه الحرص على إظهار دين الله ونشر شريعته، ولعلَّ باعثَهُ الخفيُّ هو طلبُ الذكْر وانتشارُ الصيت[1] في الأطراف، وكثرة الرحلة إليه من الآفاق، وانطلاق الألسنةِ عليه بالثناء والمدحِ بالزّهد والورع والعلم، والتقديمُ له في المهمّات وإيثارهُ في المنافع والاجتماعُ حولَه للاستفادة، والتلذّذُ بحسنِ الاصغاء عند حسنِ الكلام والتمتعُ بتحريك الرؤوس على كلامه، والبكاء بسببه والتعجّب منه، والفرحُ بكثرةِ الأصحاب والمستفيدين، والسرور بالاختصاص بهذه الخاصية من بين سائر الأقران في الجمعِ بين العلم والورع وظاهر الزهد، واستخدامه لإطلاق اللسان في الطعن على المقبلين على الدنيا، لا عن تفجعٍ بمصيبة الدين، ولكن مدلاً على نفسه بالتمايز والاختلاف.

ولعلّ هذا المسكين المغرور، حياتُه في الباطن قائمة على ما انتظمَ له ـ أي توفّرَ واستدام ـ من أمرٍ وإمارةٍ وعزٍّ وانقيادٍ وتوقيرٍ وحسن ثناء، فإن تغيّرت عليه القلوب واعتقدوا فيه خلاف الزهد بما يُظهر من أعماله، لعلّه يتشوش عليه قلبُه وتختلطُ أورادُه ووظائفُه، وعساهُ يعتذرُ بكلِّ حيلةٍ ـ أي يتذرع بكل وسيلة ـ لنفسه، وربما يحتاجُ

(١) الصيت: الاشتهار وانتشار الذكر.

إلى أن يكذبَ في تغطية عيبه ـ أي من أجل التستر عليه ـ ولعلّه يؤثر بالكرامةِ والمراعاة من اعتقدَ فيه الزهدَ والورع، وإن كان قد اعتقدَ فيه فوق قدره، وينبو[1] قلبُه عمّن عرفَ حدَّ فضلِهِ وورعِهِ، وإن كان ذاك على وفق حاله! وعساهُ يؤثر بعضَ أصحابه على بعضٍ، وهو يرى أنه يؤثرهُ لتقدُّمِه في الفضل والورع، وإنما ذلك لأنه أطوعُ لهُ وأتبعُ لمراده، وأكثرُ ثناءً عليه وأشدُّ أصحابهِ إصغاءً إليه وأحرصُ على خدمته. ولعلهم يستفيدون منه ويرغبون في العلم، وهو يظنُّ أن قبولهم بسببِ إخلاصهِ وصدقِه وقيامِه بحقِّ علمهِ، فيحمَدُ الله تعالى ما يسَّر على لسانهِ من منافعِ خلقِهِ، ويرى أنّ ذلك مكفِّرٌ لذنُوبه، ولم يتفقّد صحة نيّته في نفسه، فعساه لو وُعِد بمثل ذلك الثواب في إيثاره الخمول والعزلةَ وإخفاءِ العلمِ لم يرغب فيه، لفقدهِ في العزلةِ والاختفاءِ لذّةَ القبول وعزّةَ الرئاسة. ولعلّ مثل هذا هو المرادُ بقول الشيطان: من زعمَ من ابن آدم أنّه بعلمه امتنع مني، فبجهله وقعَ في حبائلي!

وعساهُ يصنّفُ، ويجتهدُ فيه، ظاناً أنه يجمعُ علمَ اللَّهِ لينتفعَ به، وإنما يريد استطارة اسمه ـ أي انتشاره في البلدان وعبر الآفاق ـ بحسنِ التصنيف. فلو ادعى مدّعٍ تصنيفه ـ أي نسبَهُ إليه ـ ومحا عنه اسمَهُ، ونسَبَهُ إلى نفسه، ثقُلَ عليه ذلك، مع علمهِ بأنَّ ثواب الاستفادة من التصنيف إنّما يرجعُ إلى المصنِّف، واللَّهُ عالمٌ بأنه هو المصنّفُ لا من ادّعاه. ولعلّهُ في تصنيفه لا يخلو من الثناء على نفسه، إمّا صريحاً بالدعاوى ـ أي الادعاءات ـ الطويلةِ العريضة، وإمّا ضمناً بالطعن في غيرهِ، ليستبين من طعنهِ في غيرهِ أنه أفضلُ ممّن طعنَ فيه وأعظمُ منه علماً، ولقد كان في غُنيةٍ ـ أي مستغنياً ـ عن الطعن فيه.

---

(١) نَبَا ـ ينبو: تجافى وتباعد.

ولعله يحكي من الكلام المزيّف ما يريد تزييفه، فيَعزِيه ـ أي ينسبه ـ إلى قائله، وما يستحسنُهُ فلعلّه لا يعزيه إليه، ليُظنَّ أنّه من كلامه، فينقلُهُ بعينه كالسارق له، أو يغيّرهُ أدنى تغيير ـ أي يغيّرهُ بشكل بسيط ـ كالذي يسرقُ قميصاً فيتخذه قباءً حتى لا يُعرَفَ أنه مسروق.

ولعلّه يجتهدُ في تزيين ألفاظه ـ أي ألفاظ ما ألّفه من كتاب ـ وتسجيعها وتحسين نظمها كيلا يُنسبَ إلى الركاكة، ويرى أنّ غرضَهُ ترويجُ الحكمةِ وتحسينُها وتزيينها ليكون أقربَ إلى نفعِ الناس. وعساهُ غافلٌ عما روي أن بعض الحكماء وضعَ ثلاثمائة وستين مصحفاً[1] في الحكمة، فأوحى الله إلى نبيّ زمانِهِ أن قل له: قد ملأت الأرض نفاقاً، وإني لا أقبَلُ من نفاقِكَ شيئاً.

ولعلّ جماعة من هذا الصنف من المغترّين إذا اجتمعوا، ظنَّ كلُّ واحدٍ بنفسهِ السلامة عن عيوب القلوب وخفاياها ـ أيّ اعتقد أنه غير مصابٍ بها ـ فلو افترقوا واتّبع كلُّ واحدٍ منهم فرقة من أصحابه، نظر كلُّ واحدٍ إلى كثرةِ من يتّبعه، وأنّه أكثرُ تبعاً أم غيره؟ فيفرحُ إن كان أتباعه أكثر، فإن علمَ أنّ غيرهُ أحقُّ بكثرةِ الاتباع منه، حسدَهُ. ثم إذا تفرّقوا واشتغلوا بالإفادة ـ أي بالتعليم ـ تغايروا ـ من الغيرة ـ وتحاسدوا، ولعلَّ من يختلفُ إلى واحدٍ منهم إذا انقطع عنه إلى غيره، ثَقُل على قلبه ووجدَ في نفسِهِ نِفرةً ـ أي تنفّراً ـ منه فبعدَ ذلك لا يهتزُّ باطنُه لإكرامه ولا يهبُّ لقضاء حوائجه كما كان يسارعُ من قبل، ولا يحرصُ على الثناء عليه كما أثنى من قبل، مع علمه بأنه مشغول بالاستفادة، ولعل التحيّزَ منه إلى فئةٍ أخرى كان أنفعَ له في دينه لآفةٍ من الآفات قد تلحقه عند تحيّزه لهذه الفئة، وسلامته منها تكون في

---

(١) المصحف: ما جُمِعَ من الصُحف بين دفتي الكتاب المشدود.

تلك الفئة - التي لم يتحيّز لها؛ ومع ذلك فلا تزول النفرةُ من قلبه.

ولعلّ واحداً منهم إذا تحرّكت فيه مبادىء الحسد، لم يقدر على إظهاره. فيُظهرُ الطعنَ في دين المحسود وفي ورعهِ ليبرر حسده وليحملَ غضبه على ذلك، فيقول: إنما غضبتُ لدين الله لا لنفسي، وكلما ذكرت عيوب المحسود بين يديه ربما فرح بذلك، وإن أُثنيَ عليه ربما ساءه ذلك وكرهه، وربما قطّبَ وجهه إذا ذكرت عيوبُه ليُظهر أنه كاره لغيبةِ المسلمين، وسرُّ قلبهِ راضٍ به ومريدٌ له، والله مطلع عليه في ذلك؛ فهذا وأمثاله من خفايا العيوب، لا يفطن لها إلاّ الأكياس، ولا يتنزّه عنها إلاّ الأقوياء، ولا مطمع فيها لأمثالنا من الضعفاء، إلاّ أن أقلّ الدرجات أن يعرف الإنسانُ عيوبَ نفسِهِ ويسوءه ذلك ويكرهَهُ ويحرصَ على إصلاحهِ. فإذا أراد الله تعالى بعبدٍ خيراً بصّرهُ بعيوب نفسهِ، ومَن سرّتهُ حسنتُه وساءتهُ سيئتُه، فهو مرجوّ الحال - أي يرجى له الخير - وأمرهُ أهونُ من المغرور المزكّي لنفسهِ، الممتنّ على الله تعالى بعلمهِ وعملهِ، الظّانّ أنه من خيار خلقه. فنعوذُ بالله من الغفلةِ والاغترارِ، ومن المعرفة بخفايا العيوبِ مع الإهمال؛ وهذا غرور الذين حصّلوا العلومَ المهمّة، ولكن قصّروا في العملِ بالعلم. ولنذكرِ الآن غرور الذين قنعوا من العلومِ بما لا يهمّهم، وتركوا المهمّ وهم به مغترّون، إما لاستغنائهم عن أصل ذلك العلم، وإمّا لاقتصارهم عليه.

فمنهم فرقةٌ اقتصروا على علمِ الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيويةِ الجارية بين الخلق لمصالح المعايش، فخصّصوا اسمَ الفقهِ بها وسمّوه الفقه وعلم المذهب، وربما ضيّعوا مع ذلك الأعمال الظاهرةَ والباطنة، ولم يتفقّدوا الجوارح، ولم يُخرسوا اللسان عن الغِيبة، ولا البطنَ عن الحرام، ولا الرِّجلَ عن المشي إلى السلاطين، وكذا سائر الجوارح، ولم يخرسوا

قلوبهم عن الكبرِ والرياء والحسد وسائر المهلكات. فهؤلاء مغرورون من وجهين: أحدهما من حيث العمل والآخرُ من حيث العلم.

أمّا العمل، فقد ذكرنا وجه الغرور فيه، وأن مثالهم مثال المريضِ إذا تعلّمَ نسخة الدواء واشتغل بتكراره ـ أي تكرار العلم به ـ وحفظِه وتعليمه، لا بل مثالُهم مثال مَن به علّة البواسير والبرسام[1] وهو مشرفٌ على الهلاك محتاجٌ إلى تعلم الدواء واستعماله، فاشتغل بتعلّم دواء الاستحاضة، وبتكرار ذلكَ ليلاً ونهاراً، مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحاض، ولكن يقول: ربما تحدثُ علّةُ الاستحاضةِ لامرأةٍ فتسألني عنها؛ وذلك غاية الغرور!

وكذلك المتفقّهُ المسكين قد تسلّطَ عليه حبُّ الدنيا واتّباعُ الشهوات والحسد والكبرِ والرياء وسائر المهلكات الباطنة، وربما يختطفهُ الموتُ قبلَ التوبة والتلافي ـ أي التدارك ـ فيلقى الله تعالى وهو عليهِ غضبان، فترك ذلك كلّه ـ أي التوبة من المهلكات جميعاً ـ واشتغل بعلمِ السّلَم والإجارة والظّهار واللّعان والجراحات والديّات والدعاوى والبيّنات، وبكتاب الحيض، وهو لا يحتاجُ إلى شيءٍ من ذلكَ قطُّ في عمُرهِ لنفسه، وإذا احتاجَ غيرهُ كان في المُفتِينَ كثرة، فيشتغلُ بذلك ويحرصُ عليه، لما فيه من الجاه والمال والرئاسةِ، وقد دهاهُ[2] الشيطان وما يشعر، إذ يظنُّ المغرور بنفسهِ أنّه مشغولٌ بفرضِ كفايةٍ دينية دون أن يدري أن الاشتغال بفرضِ الكفايةِ قبلَ الفراغ عن فرضِ العينِ معصيةٌ؛ هذا لو كانت نيّتُهُ صحيحة كما قال، وكان قصدَ بالفقهِ وجهَ الله تعالى.

---

(١) البرسام: التهابٌ في الحجاب الذي بين الكبد والقلب.
(٢) دَهَا: أصابَ بداهيةٍ، وهي المصيبة والأمرُ المنكَر.

فإنه وإن قصدَ وجهَ الله، فهو باشتغالهِ معرضٌ عن فروضِ عينه في جوارحهِ وقلبِه؛ فهذا غرورهُ من حيث العمل.

وأمّا غروره من حيث العلم، فحيثُ اقتصرَ على علمِ الفتاوى، وظنَّ أنه علمُ الدّين، وتركَ علم كتاب الله وسنّةِ نبيه، وربما طعن على المحدّثين فقال: إنّهم نقلةُ أخبار وحملةُ أسفارٍ ـ أي كتبٍ ـ لا يفقهون، وترك أيضاً علم تهذيب الأخلاق، وترك الفقه بالله، وذلك بإدراك جلاله وعظمته ـ وهو العلمُ الذي يورث الخوفَ والهيبةَ والخشوع، ويحمل على التقوى ـ فتراه آمناً من الله مغترّاً به، متّكلاً على أنّه لا بدَّ وأن يرحمَهُ، فإنه ـ أي هذا العلم ـ قوام دينه، معتبراً أنّه لو لم يشتغل بالفتاوى لتعطّل الحلال والحرام. فقد ترك العلوم التي هي أهم، وهو غافل مغرور، وسبب غروره ما سمعَ في الشرع من تعظيم الفقه، ولم يدر أنّ ذلك الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوِّفَة والمرجوَّة ليستشعر القلبُ الخوفَ ويلازم التقوى، إذ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾[1] والذي به يَحصلُ الإنذار هو غيرُ هذا العلم، فإنّ مقصودَ هذا العلم حفظُ الأموال وفق شروط المعاملات، وحفظُ الأبدان بالأموال وبدفعِ القتلِ والجراحات؛ والمال في طريق الله تعالى آلةٌ والبدنُ مركبٌ.

وإنما العلم المهمُّ هو معرفةُ سلوكِ الطريق، وقطعُ عقبات القلب التي هي الصفاتُ المذمومة، فهي الحجابُ بين العبدِ وبين الله تعالى، وإذا ماتَ ملوّثاً بتلك الصفات كان محجوباً عن الله تعالى. فمثالُه في الاقتصار على علم الفقه مثالُ مَن اقتصر من سلوكِ طريق الحج على

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

علم خرز الراوية[1] والخفّ[2]، ولا يشكُّ في أنه لو لم يكن لتعطّل الحجّ، ولكنَّ المقتصرَ عليه ليس من الحجاج في شيء، وقد ذكرنا شرح ذلك في كتاب العلم.

ومن هؤلاء من اقتصر من علم الفقه على الخلافيّات، ولم يهمّه إلاّ تعلُّمُ طريق المجادلة والإلزام وإفحام الخصوم ودفع الحقِّ لأجل الغلبةِ والمباهاة، فهو طولَ الليلِ والنهار في التفتيش عن مناقضات أرباب المذاهب ـ أي ما يخالفُ آراءهم ـ والتفقُّدِ لعيوب الأقران، والتلقُّفِ[3] لأنواع التسبيبات المؤذية ـ أي الأمور المؤذية للآخرين ـ وهؤلاء هم سباعُ الإنس، طبعُهمُ الإيذاء وهمّهم السَّفَه[4]، ولا يقصدون العلمَ إلاّ لضرورةِ ما يلزمهم ـ أي يحتاجون إليه ـ لمباهاة الأقران. فكلُّ علم لا يحتاجونَ إليه في المباهاة، كعلمِ القلب وعلمِ سلوكِ الطريق إلى الله تعالى، بمحو الصفاتِ المذمومة، وتبديلها بالمحمودة، فإنَّهم يستحقرونه ويسمّونَهُ التزويق[5] وكلام الوعّاظ، وإنما التحقيقُ عندهم معرفةُ تفاصيل العربدة التي تجري بين المتصارعين في الجدل، وهؤلاء قد جمعوا ما جمَعه الذين من قبلهم في علم الفتاوى لكن زادوا، إذ اشتغلوا بما ليس من فروض الكفايات ـ أي ما ليس من الواجبات الكفائية ـ أيضاً، بل جميعُ دقائق الجدل في الفقهِ بدعةٌ لم يعرفها السلف. وأمّا أدلة الأحكام فيشتملُ عليها علم المذاهب، وهو كتابُ

(١) خرزُ الراوية: خرزَ: ثقب بالمخرَز وخاطَ. الراوية: المزادة ـ وهي ما يوضع فيه الزاد ـ من ثلاثة جلود فيها الماء، والمراد هو خياطة هذه المزادة.

(٢) الخفّ: ما يُلبس بالرِّجْلِ.

(٣) التلقّف: التناول بسرعة.

(٤) السّفَه: الجهل وعدم الحلم ورداءة الخُلُق.

(٥) التزويق: التحسين والتزيين، والمراد هنا أنهم يرون هذا العلم من زخارف العلوم والكلام.

الله تعالى وسنّةُ رسول الله ﷺ وفهم معانيهما. وأمّا حيَلُ الجدلِ فهي إنما أُبدِعَتْ لإظهار الغلبةِ والإفحام وإقامةِ سوقِ الجدَلِ بها؛ فغرور هؤلاء أشدُّ كثيراً وأقبحُ مِن غرور مَن قبلَهم.

وفرقةٌ أخرى اشتغلوا بعلم الكلام، والمجادلة في الأهواء والردّ على المخالفين وتتبُّعِ مناقضاتهم، واستكثروا من معرفةِ المقالات ـ ما يُقال ويطرح ـ المختلفة، واشتغلوا بتعلُّم الطرق في مناظرة أولئك وإفحامهم، وافترقوا في ذلك فِرَقاً كثيرة، واعتقدوا أنه لا يكون لعبدٍ عملٌ إلاّ بالإيمان، ولا يصحُّ إيمانٌ إلاّ بأن يتعلّم جدَلهم وما يسمّونه أدلة عقائدهم، وظنوا أنه لا أحدَ أعرفَ باللّهِ وصفاتِه منهم، وأنّه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم، ودعَتْ كلُّ فرقةٍ منهم إلى نفسها. ثم هم فرقتان: ضالّة ومحقّة. والضالة هي التي تدعو إلى غير السنّة، والمحقة هي التي تدعو إلى السنّة؛ والغرور شامل لجميعهم!

أمّا الضالة فلغفلتها عن ضلالها وظنّها بنفسها النجاة، وهم فرقٌ كثيرةٌ يكفّر بعضهم بعضاً، وإنما أُتيت ـ أي غفلت عن ضلالها وأصابها الغرور ـ من جهة أنّها لم تتّهم رأيها ولم تُحكم في البدايةِ شروط الأدلة ومنهاجها، فرأى أحدُهم الشبهةَ دليلاً، والدليلَ شبهة.

وأمّا الفرقة المحقّة فإنما اغترارها من حيث إنّها ظنّت الجدلَ أهمَّ الأمور وأفضلَ القُرُبات في دين الله، وزعمت أنّه لا يتمُّ لأحدٍ دينُه ما لم يتفحّص ولم يبحث، وأنّ من صدّقَ الله ورسوله من غير الوقوف على دليلٍ فليس بمؤمنٍ ولا بكاملٍ ولا مقرّبٍ عند الله. فلهذا النظر ـ أي الرأي ـ الفاسد، صرفَت أعمارها في تعلُّم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعة ومناقضاتهم، وأهملَ الواحد منهُم نفسَهُ وقلبَهُ حتى عميت عليه ذنوبه وخطاياه، الظاهرةُ والباطنة، وهو

يظنُّ أنّ اشتغالَهُ بالجدلِ أولى وأقرب عند الله وأفضل، ولكنّه لالتذاذِهِ بالغلبةِ والإفحام ولذّةِ الرئاسةِ وعزِّ الانتماء إلى فئة الذابين عن دين الله، عميَت بصيرتُه ولم يلتفت إلى القرن الأول، وإلى أن النبي ﷺ شهد لأهله بأنهم خير الخلق، وأنّهم أدركوا كثيراً من أهل البدَع والأهواء، فما جعلوا أعمارهم ودينَهم غرضاً للخصومات والمجادلات، ولم يشتغلوا بذلك عن تفقّد قلوبهم وجوارحهم وأحوالهم، بل لم يتكلموا فيه إلاّ حينما يرون حاجةً ويتوسّمون[1] مخائِلَ قبولٍ، فذكروا بقدر الحاجة ما يدلُّ الضالَّ على ضلالتِهِ. وإذا رأوا مصرّاً على ضلالهِ هجروه وأعرضوا عنه وأبغضوه في الله، ولم يلزموا الملاحاة ـ أي المنازعة ـ معه طول العمر، بل قالوا: إنّ الحقّ هو الدعوة إلى السنّة، ومن السنّة تركُ الجدال في الدعوة إلى السنّة، إذ روى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنّه قال: «ما ضلَّ قومٌ قطُّ بعد هدى إلاّ أوتوا الجدلَ وحُرموا العمل»[2].

وخرجَ رسول الله ﷺ يوماً على أصحابه وهم يتجادلون ويختصمون، فغضبَ عليهم، حتى كأنّه فقىء في وجههِ حَب الرّمان حمرةً من الغضب، فقال: «ألهذا بُعثتم؟! أبهذا أُمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضَه ببعض؟! انظروا إلى ما أُمرتم به فاعملوا وإلى ما نُهيتم عنه فانتهوا»[3].

فقد زجرهم رسول الله ﷺ عن ذلك، وكانوا أَولى خلقِ الله

---

(١) توسّمَ: تفرّس، طلبَ وَسْمَ الشيء أي علامتَهُ، تعرّف وتبيّن.

(٢) أخرجَهُ ابن ماجة تحت رقم ٤٨، ورواه أحمد والترمذي والحاكم أيضاً بسندٍ حسنٍ وقد تقدم.

(٣) أخرجه البزار، والطبراني في الكبير بأدنى تفاوتٍ من حديث أبي سعيد بسندٍ ضعيف، وفي الأوسط من حديث أنَس ورجالُه ثقات أثبات، كما في مجمع الزوائد ج١ ص١٥٦.

بالحجاجِ والجدال، ثم إنهم رأوا النبيﷺ وقد بُعث إلى كافةِ أهل الملل، فلم يقعُد معهم في مجلسِ مجادلةٍ لإلزامٍ وإفحامٍ وتحقّقِ حجّةٍ، ودفع سؤالٍ وإيرادِ حجّةٍ ملزمة، فما جادلهم إلاّ بتلاوة القرآن المنزَلِ عليهم، ولم يزد في المجادلةِ عليه، لأنّ ذلك يشوّش القلوبَ ويستخرجُ منها الإشكالات والشُّبَه، ثم لا يقدرُ على محوها من قلوبهم، علماً أنه لم يكن ليعجز عن مجادلتهم بالتقييسات ودقائق الأقيسة، ولم يُعلّم أصحابَهُ كيفية الجدل والإلزام.

ولكنّ الأكياس وأهل الحزم لم يغتروا بهذا، وقالوا: لو نجا أهل الأرض وهلكنا لم تنفعنا نجاتُهم، ولو نجونا وهلكوا، لم يضرَّنا هلاكُهم، وليس علينا في أمر المجادلة أكثر مما كان على الصحابة مع اليهودِ والنصارى وأهل الملل، وهم لم يضيعوا العمرَ بالمجادلة، فما لنا نضيّع العمر ولا نصرفُه إلى ما ينفعنا في يوم فقرنا وفاقتنا، ولِمَ نخوضُ فيما لا نأمنُ على أنفسنا الخطأ في تفاصيله، ثم نرى أن المبتدع لا يترك بدعته بجدالنا، بل يزيده التعصب والخصومة تشدداً في بدعته. فاشتغالي بمخاصمة نفسي ومجاهدتها ومجادلتها لتترك الدنيا للآخرة أولى؛ هذا لو أنني لم أُنه عن الجدل والخصومة، فكيف وقد نهيت عن ذلك أراني أدعو إلى السنّة بتركِ السنّة؟! فالأَولى لي أن أتفقّد نفسي وأنظر من صفاتها ما يبغضُه الله تعالى لأتنزّه عما يُبغضُه، وأتمسّكَ بما يحبه.

وفرقة أخرى، اشتغلوا بالوعظ، وأعلاهم رتبةً من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب، من الخوف والرجاء، والصبر والشكر، والتوكّل والزهد، واليقين والإخلاص، والصدق ونظائره. وهم مغرورون يظنّون بأنفسهم أنّهم إذا تكلّموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها، فقد صاروا موصوفين بهذه الصفات، وهم منفكّون عنها عند الله، إلاّ عن قدرٍ يسيرٍ لا ينفكُّ عنه عوام المسلمين.

وغرور هؤلاء أشدُّ الغرور، لأنّهم يُعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب، ويظنّون أنهم ما تبحّروا في علم المحبّة إلاّ وهم محبّون لله، وما قدروا على تحقيق دقائق الإخلاص إلاّ وهم مخلصون، وما وقفوا على خفايا عيوب النفس إلاّ وهم عنها منزّهون، ولولا أنّه مقرّبٌ عند الله لما عرّفَهُ معنى القُرب والبعد، وعلم السلوك إلى الله وكيفية قطع المنازل في طريق الله. فالمسكين بهذه الظنون يرى أنه من الخائفين، وهو آمنٌ من مكرِ الله، ويرى أنه من الرّاجين، وهو من المغترّين المضيّعين، ويرى أنّه من الراضين بقضاء الله عز وجلّ، وهو من الساخطين، ويرى أنّه من المتوكّلين على الله، وهو من المتّكلين على العزّ والجاه والمال والأسباب، ويرى أنّه من المخلصين وهو من المرائين، بل يصفُ الإخلاص فيتركُ الإخلاص في الوصف، ويصفُ الرياء ويذكرهُ وهو يرائي بذكره ليُعتقَدَ فيه أنه لولا أنه مخلصٌ لما اهتدى إلى دقائق الرياء، ويصفُ الزهد في الدنيا لشدة حرصهِ على الدنيا وقوة رغبتهِ فيها، فهو يُظهرُ الدعاءَ إلى الله وهو منه فار، ويخوّفُ بالله وهو منه آمن، ويذكّر بالله وهو له ناسٍ، ويقرّبُ إلى الله وهو منه متباعد، ويحثُّ على الإخلاص وهو غير مخلصٍ، ويذمُّ الصفات المذمومة وهو بها متصف، ويصرفُ للناس عن الخلق وهو على الخلقِ أشدُّهم حرصاً، لو مُنعَ عن مجلسه الذي يدعو فيه الناس إلى الله تعالى لضاقت عليه الأرض بما رحبت[1]، ويزعمُ أنّ غرضه

(١) أي بما اتسعت، والرحب: سعةُ المكان، ومنه رحبةُ المسجد، ورحبت الدار اتّسعت. واستعير للواسع الجوف فقيل: رحبُ البطن، ولواسعِ الصدر كما استعير الضيقُ لضده. قال الله تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ ويُقال: رحيب الفناء لمن كثرت غاشيته ـ أي زواره ـ وقولهم مرحباً وأهلاً أي وجدت مكاناً رحباً. (قاله الراغبُ في مفرداته).

إصلاح الخلق، ولو ظهر من أقرانِه مَن أقبلَ الخلقُ عليه وصلحوا على يديه، لمات غمّاً وحسداً، ولو أثنى أحدٌ من المتردّدين إليه على بعض أقرانه، لكان أبغض خلق الله إليه.

فهؤلاء أعظم الناس غِرّةً ـ أي غروراً ـ وأبعدهم عن التنبّه والرجوع إلى السداد لأنّ المرغّبَ في الأخلاق المحمودة والمنفّر عن المذمومة هو العلم بغوائلها وفوائدها، وهذا قد علم ذلك ولم ينفعه، وشغَلَهُ حبُّ دعوةِ الخلقِ، عن العمل به، فبعد ذلك بماذا يُعَالج، وكيف السبيل إلى تخويفه؟! وإنما المخوِّف ما يتلوه على عباد الله فيخافون وهو ليس بخائف! نعم، لو ظنَّ بنفسهِ أنه موصوفٌ بهذه الصفات المحمودة يمكن أن يُدلَّ على طريق الامتحان والتجربة، وهو أنه يدّعي مثلاً حبَّ الله تعالى، فما الذي تركَهُ من محابِّ الدنيا لأجله؟ ويدّعي الخوف فما الذي امتنع منه بالخوف؟ ويدّعي الزهد، فما الذي تركه مع القدرةِ عليه لوجه الله تعالى؟ ويدّعي الأُنس بالله، فمتى طابت له الخلوة؟ ومتى استوحش من مشاهدة الخلق؟ لا، بل يرى قلبه يمتلي بالحلاوة إذا أحدق به المريدون، وتراه يستوحش إذا خلا بالله تعالى، فهل رأيت محبّاً يستوحشُ من محبوبه ويستروح ـ أي يستريح ـ منه إلى غيره؟!

الأكياسُ يمتحنون أنفسهم في هذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة، ولا يقنعون منها بالتزويق، بل بمَوثقٍ[1] من الله غليظ، والمغترّون يُحسنون بأنفسهم الظّنون، وإذا كشف الغطاء عنهم في الآخرة يفتضحون، بل يُطرحون في الآخرة في النار، فتندلق أقتابُهم فيدورُ بها أحدهم كما يدور الحمار بالرحى ـ كما ورد في الخبر ـ لأنهم يأمرون بالخير ولا يأتونَهُ، وينهون عن الشر ويأتونه.

---

(١) المَوثِق: العهد.

وإنما وقعَ الغرور لهؤلاء لأنهم يصادفون من قلوبهم شيئاً ضعيفاً من أصول هذه المعاني، من قبيل حب الله تعالى والخوفِ منه والرضا بفعله، ثم قدروا مع ذلك على وصفِ المنازلِ العالية في هذه المعاني، فظنّوا أنّهم ما قدروا على وصف ذلك، وما رزقَهُم الله علمه، وما نفع الناسَ بكلامهم فيها، إلاّ لاتصافهم بها، وذهب عليهم ـ أي غاب عنهم ـ أن القبول للكلام، والكلام للمعرفة، وجريان اللسان والمعرفة للعلم، وأنّ كلّ ذلك غير الإتّصاف بالصفة. فمثل هذا الشخص إذاً لم يتميّز عن آحاد المسلمين في الإتصاف بصفةِ الحبِّ والخَوف، بل في القدرة على الوصف، بل ربما زاد أمنُه وقلَّ خوفُه وظهر إلى الخلقِ ميلُهُ، وضعُفَ في قلبِهِ حبُّ الله تعالى. وإنما مثالُه مثالُ مريضٍ يصفُ المرضَ ويصفُ دواءه بفصاحتِهِ، ويصفُ الصحّة والشفاء، في حين أن غيره من المرضى لا يقدر على وصف الصحة والشفاء وأسبابهِ ودرجاتِهِ وأصنافه. فهؤلاء لا يمتاز عنهم في صفة المرض والإتصافِ به، وإنما يفارقهم في وصف المرض والعلم بالطبّ. فظنّه عند علمهِ بحقيقة الصحة أنه صحيحٌ هو غاية الجهل. وكذلك العلمُ بالخوفِ والحبِّ والتوكّلِ والزّهدِ وسائر هذه الصفات هو غير الإتصافِ بحقائقها، ومَن التبسَ عليه وصفُ الحقائق بالاتصاف بالحقائق فهو مغرور؛ فهذه حالة الوعّاظ الذين لا عيبَ في كلامهم، بل منهاج وعظهم منهاجُ وعظ القرآن والأخبار.

وفرقةٌ أخرى منهم، عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعظ، وهم وعّاظُ أهل هذا الزمان كافّة إلاّ مَن عصمَهُ الله ـ على ندرةٍ في ذلك ـ في بعض أطرافِ البلاد ـ إن وجدَ، ولسنا نعرف أحداً هذه حاله.

فهؤلاء اشتغلوا بالطامات والشطح(١) وتلفيقِ كلماتٍ خارجة عن قانون الشرع والعقل، طلباً للإغراب ـ أي لمعرفة الغريب من العلوم ـ وطائفة شغفوا بطيارات النكت(٢) وتسجيع الألفاظ وتلفيقها، فأكثر همهم في الإسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال والفراق، وغرضهم أن تكثر في مجلسهم الزَّعقات والتواجد (من الوجد) ولو على أغراضٍ فاسدة. فهؤلاء شياطين الإنس ضلّوا وأضلّوا عن سواء السبيل، فإنّ الأوّلين وإن لم يصلحوا أنفسهم فقد أصلحوا غيرهم وصحّحوا كلامهم ووعظهم، وأمّا هؤلاء فإنهم يصدّون عن السبيل ويجرّون الخلقَ إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء ـ أي يصورون الغرور رجاءً ـ فيزيد كلامُهم الخلقَ جرأة على المعاصي ورغبةً في الدنيا، لا سيما إذا كان الواعظ مزيّناً بالثياب والخيل والمركب، فإنّ هيئته من قرنه إلى قدمِهِ لتشهد بشدة حرصه على الدنيا؛ فما يفسدهُ هذا المغرور أكثر مما يصلحه، بل لا يصلح أصلاً ويضلُّ خَلقاً كثيراً، فلا يخفى وجه كونهِ مغروراً.

وفرقة أخرى منهم، قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذمِّ الدنيا، فهم يحفظون الكلمات على وجهها، ويؤدونها من غير إحاطةٍ بمعانيها. فبعضهم يفعل ذلك على المنابر وبعضُهم في المحاريب

---

(١) «الطامات» في اصطلاح العرفاء والمتصوّفة هي المعارف التي تصدر عن لسان السالك في أول سلوكه. والشطحة: الخرجة ـ أي الخروج ـ عن الأحكام المقررة. وفي اصطلاح المتصوّفة، الشطحات عبارة عن كلماتٍ تصدُر منهم في حالة الغيبوبة وغلبةِ شهود الحق تعالى عليهم بحيث لا يشعرون حينئذٍ بغير الحق، كقول بعضهم «أنا الحق» و «ليس في الجبّة غير الله». قال في التاج في مادة «بهصم»: «لازمَ الخلوة وكانت له أحوال وشطحات».

(٢) طيارات النكت: الطيّار: المنتشر. النكت: مفردها النكتة وهي المسألة الدقيقة أخرجت بدقة نظر وإمعان فِكر. فالمراد هو أنهم اشتغلوا بالمسائل المتفرقة التي لا تلتفت إليها الأنظار والعقول بسهولة، لغموضها وغرابتها، يريدون بذلك جلب القلوب إليهم بدافع من غرورهم.

وبعضُهم في الأسواق مع الجلساء، وكلٌّ منهم يظنُّ أنّه إذا تميّز بهذا القدر عن السوقيّة والجنديّة ـ حيث حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دوناً عنهم ـ فقد أفلح ونال الفرض ـ أي ما كتب له ـ وصار مغفوراً له، وأَمِنَ من عقاب الله، من غير أن يحفظ ظاهرهُ وباطنهُ عن الآثام، ولكنّه يظنُّ أن حفظَهُ لكلام الزّهاد من أهل الدين يكفيه؛ وغرور هؤلاء أظهرُ مِن غرور مَن قبلَهم.

وفرقة أخرى، استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث، أعني في سماعه، وجمع الروايات الكثيرة منها، وطلبِ الأسانيد الغريبة العالية، وهمّةُ أحدهم أن يدور في البلاد ويقابل الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان. وقد لقيتُ فلاناً، ومعي من الأسانيد ما ليس مع غيري.

وغرور هؤلاء من وجوه، منها أنّهم كحملةِ الأسفار ـ أي الكتب ـ فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهمِ معاني السنّة، فعلمهم قاصرٌ وليس معهم إلاّ النقل، ويظنون أن ذلك يكفيهم. ومنها، أنّهم إذا لم يفهموا معانيها لا يعملون بما فيها، وقد يفهمُ بعضُهم أيضاً فلا يعملون بها. ومنها، أنّهم يتركونَ العلمَ الذي هو فرضُ عين عليهم ـ وهو معرفةُ معالجةِ القلوب ـ ويشتغلون بكثرة الاستنادات وطلبِ الأسانيدِ العالية؛ ولا حاجة بهم إلى شيءٍ من ذلك. ومنها، وهو الذي أكبّ عليه أهل الزمان أيضاً، أنّهم لا يقومون بشرط السّماع، فإن السَّماعَ بمجرده وإن لم تكن له فائدة، ولكنّه مهمّ في نفسهِ للوصول إلى إثبات الحديث، إذ التفهّم بعد الإثبات، والعمل بعد التفهّم. فالأوّلُ السماع ثم التفهم ثم الحفظ ثم العملُ ثم النشر(١)،

---

(١) في الكافي ج١ ص٤٨ عن أبي عبد الله، عن آبائه عليهم السلام، قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، ما العلم؟ قال: الإنصات، قال: ثم مه؟ قال: الاستماع، قال: ثمّ مه؟ قال: الحفظ، قال: ثم مه؟ قال: العمل به، قال: ثم مه يا رسول الله؟ قال: نشره.

وهؤلاء اقتصروا من كل ذلك على السَّماع، ثم تركوا حقيقة السّماع، إذ ترى الصبيّ يحضرُ في مجلس الشيخ والحديثَ يقرأُ، والشيخُ ينامُ والصبيُّ يلعبُ، ثم يُكتبُ اسمُ الصبيِّ في السَّمَاعِ، فإذا كبُرَ تصدى ليُسمعَ منه، والبالغ الذي يحضرُ ربما يغفلُ ولا يسمعُ ولا يصغي ولا يضبط، وربما يشتغلُ بحديث أو نسخٍ، والشيخُ الذي يقرأُ عليه لو صحّفَ أو غيّرَ ما يقرأ عليه لم يشعر ولم يعرف ذلك.

وكلُّ ذلك جهل وغرور، إذ الأصل في الحديث أن يسمعَهُ من رسول الله ﷺ، فيحفظُه كما يسمعه، ويرويه كما حفظ، فتكون الرواية عن الحفظ، والحفظ عن السماع، فإن عجزتَ عن سماعه من رسول الله ﷺ، سمعتَهُ من الصحابة أو التابعين، وصار سماعُك عن الراوي كسماع من يسمعُ من رسول الله ﷺ، وهو أن تصغي وتحفظ وتروي كما حفظتَ، وتحفظ كما سمعت، بحيث لا تغيّر منه حرفاً، ولو غيّر غيرُك منه حرفاً أو أخطأ، علمتَ خطأه.

ولحفظك طريقان: أحدهما، أن تحفظ بالقلب، وتستديمه ـ أي توجد أسباب دوامه واستمراره ـ بالذِّكر والتكرار. . والثاني، أن تكتب كما تسمع، وتصحّح المكتوب، وتحفظ كتابك حتى لا تصل إليه يَدُ من يغيّره، ويكون حفظُك للكتاب معك وفي خزانتك، فإنه لو امتدت إليه يد غيرك، ربما غيّره.

وإذا لم تحفظه، لم تشعر بتغييره، فيكون محفوظاً بقلبك أو بكتابك، ويكون كتابُك مذكّراً لما سمعتَهُ، وتأمنُ فيه من التغيير والتحريف. فإذا لم تحفظ لا بالقلب ولا بالكتاب، وغلب على سمعك في المجلس صوت غفلت بسببه عن بعض ما قيل ثم فارقت المجلس الذي قرأت فيه، فرأيت نسخة لذلك الشيخ، واحتملتَ أن يكون ما فيه مغيَّراً، أو يفارقَ حرفٌ منه ـ أي يتفاوت ويختلف ـ شيئاً

من النسخة التي سمعتَها، لم يجز لك أن تقول: سمعتُ هذا الكتاب، فإنك لا تدري لعلك لم تسمع ما فيه، بل سمعتَ شيئاً يُخالفُ ما فيه ـ ولو في كلمة ـ فإذا لم يكن معك حفظٌ بقلبِكَ ولا نسخةٌ صحيحة استوثقت عليها لتقابل بها، فمن أين تعلمُ أنّك سمعتَ ذلك؟! وقد قال تعالى: ﴿وَلَا نَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾[1]. وقولُ الشيوخِ كُلِّهم في هذا الزمان: إنّا سمعنا ما في هذا الكتاب، إذا لم يوجد الشرطُ الذي ذكرناه، فهو كذبٌ صريح.. وهل للسّماع مستندٌ إلاّ قول رسول الله ﷺ: «نضّرَ الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها فأدّاها كما سمعها»[2]، فكيف يؤدي كما سمعها مَن لا يدري ما سَمِعَهُ؟! فهذا هو أفحشُ أنواعِ الغرور، وقد ابتلي به أهل الزمان، ولو احتاط أهل الزمان لم يجدوا شيوخاً إلاّ الذين سمعوه في الصِّبا على هذا الوجه (من عدم العلم) مع الغفلة، إلاّ أنّ للمحدّثين في ذلك جاهاً وقَبولاً، فخاف المساكين أن يشترطوا ذلك، فيقلَّ بسبب ذلك مَن يجتمع في حَلَقهم ـ أي حلقات دروسهم ـ فينقصُ جاههم، وتقلُّ أيضاً أحاديثُهم التي قد سمعوها بهذا الشرط ـ شرط العلم بما سمع وعدم الغفلة عنه لمانع ـ بل ربما عدموا ذلك وافتضحوا، فاصطلحوا على أنه يكفي أن يقرعَ سمعهُ دمدمةٌ وإن كان لا يدري ما يجري.

وصحة السماع لا تعرفُ من قول المحدّثين لأنه ليس من علمهم بل من علمِ علماء أصول الفقه، وما ذكرناه مقطوعٌ به في قوانين أصول الفقه. فهذا غرور هؤلاء، ولو سمعوا وفق الشرط، لكانوا

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.
(٢) أخرجه ابن ماجة تحت رقم ٢٣٦ من حديث أنس، وتحت رقم ٢٣٠ من حديث زيد بن حارث وغيره.

مغرورين في اقتصارهم على النقل، وفي إفناء أعمارهم في جمع الروايات والأسانيد، وإعراضِهم عن مهمّات الدين ومعرفةِ معاني الأخبار، بل الذي يَقصدُ من الحديثِ سلوكَ طريق الله تعالى، ربما يكفيه الحديثُ الواحد عمراً، كما روي عن بعض الشيوخ أنه حضر مجلسَ السماع، فكان أول حديثٍ روي هو قوله ﷺ: «من حُسنِ إسلامِ المرء تركهُ ما لا يعنيه»[1]، فقام وقال: يكفيني هذا حتى أفرغ منه، ثم أسمعُ غيره؛ فهكذا كان سماعُ الأكياس الذين يحذرون الغرور.

وفرقة أخرى، اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة، واغترّوا به وزعموا أنّهم قد غُفِرَ لهم، وأنّهم من علماء الأمة، إذ قوامُ الدِّين بالكتاب والسنّة، وقوامُ الكتابِ والسنّة بعلم اللغة والنحو، فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو وفي صناعة الشعر وفي غريب اللغة، ومثالُهم كمن يفني جميع العمر في تعلّم الخط وتصحيحِ الحروف وتحسينها، ويزعمُ أن العلومَ لا يمكن حفظُها إلاّ بالكتابة، فلا بدَّ من تعلّمها وتصحيحها، ولو عقِلَ لعلمَ أنه يكفيه أن يتعلم أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان، والباقي زيادة على الكفاية.

وكذلك الأديب، لو عقِلَ لعرفَ أنّ لغة العربِ كلغةِ التّرك، والمضيّعُ عمرهُ في معرفة لغة العرب كالمضيِّعِ عمرَهُ في معرفةِ لغة التُّركِ والهند، وإنما تختلف عن غيرها في كونها لغة يستفاد منها لأجل ورود الشريعة بها، فيكفي من اللغةِ علم الغرائب في الأحاديث والكتاب، ويكفي من النحو ما يتعلق بالكتاب والسنّة، وأمّا التعمق فيه إلى درجاتٍ لا تتناهى ففضول مستغنًى عنه.

---

(١) أخرجهُ الترمذي وابن مالك، وقد تقدم.

ولو أنه اقتصر على ذلك ثم أعرضَ عن معرفة المعاني الشرعية والعمل بها، فهو أيضاً مغرور، بل مثالُهُ مثالُ من ضيّع العمرَ في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصرَ عليه، وهو غرور، إذ المقصود من الحروف هو المعاني، وإنما الحروف ظروف وأدوات، ومَن احتاج إلى أن يشرب السكنجبين[1] ليزيل ما به من الصفراء، فضيّعَ أوقاتَه في تحسين القدَح الذي يحفظُ فيه السكنجبين، فهو من الجهّال المغرورين، وكذلك هو غرور أهل النحو واللغة والأدب والقراءة والتدقيق في مخارج الحروف كلّما تعمقوا فيها وتفرّغوا لها وعرّجوا عليها أكثر مما يُحتاجُ إليه في تعلّمِ العلوم التي هي فرض عين. فاللبُّ الأقصى هو العمل، والذي فوقه هو معرفةُ العلم وهو كالقشر للعمل، وكاللبِّ بالإضافة إلى ما فوقه، وما فوقه هو سماع الألفاظ وحفظها بطريق الرواية، وهو قشرٌ بالإضافة إلى المعرفة ولبٌّ بالإضافة إلى ما فوقه، وما فوقه هو العلمُ باللغة والنحو، وفوق ذلك ـ وهو القشر الأعلى ـ العلمُ بمخارج الحروف؛ والقانعون بهذه الدرجات كلُّهم مغرورون إلاّ من اتخذ هذه الدرجات منازل، فلم يعرِّج عليها إلاّ بقدر حاجته، فيجاوزها ـ أي يتعداها ـ إلى ما وراءها حتى وصلَ إلى لباب العمل، فطالبَ بحقيقة العمل قلبَهُ وجوارحَه، وصرف عمره[2] في حمل النفسِ عليه، وتصحيحِ الأعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات.

فهذا هو المقصود المخدوم من جملةِ علوم الشرع، وسائرُ العلوم خدمٌ له ووسائل إليه وقشور له، ومنازلُ بالإضافةِ إليه، وكلُّ من لم يبلغ المقصد فقد خاب، سواء أكان في المنزلِ القريب أو في المنزلِ البعيد.

---

(١) السكنجبين: نوع من الشراب معروف بين الإيرانيين.

(٢) في المتن: رجى عمره.

وهذه العلومُ لما كانت متعلقة بعلوم الشرع، اغترَّ بها أربابُها، وأمّا علم الطبِّ والحساب والصناعات، وما يُعلم أنه ليس من علوم الشرع، فلا يعتقد أصحابُها أنّهم ينالون المغفرةَ بها من حيث إنها علوم، وكان الغرور فيها أقلَّ من الغرور بعلوم الشرع، لأنّ العلوم الشرعية مشتركة في أنّها محمودة كما يشاركُ القشرُ اللبَّ في كونهِ محموداً، ولكنَّ المحمود منه بعينه هو المنتهى، والباقي محمودٌ للوصول به إلى المقصود الأقصى، فمن ظنّه مقصوداً وعرّج إليه، فقد اغترَّ به. . .

الصنف الثاني: أرباب العبادة والعمل والمغترون منهم فرقٌ كثيرة

فمنهم مَن غروره في الصلاة، ومنهم في تلاوة القرآن، ومنهم في الحج، ومنهم في الصوم، ومنهم في الغزو، ومنهم في الزهد، وكذلك كلّ مشغولٍ بمنهجٍ من مناهج العمل فليس خالياً من غرورٍ إلاّ الأكياس؛ وقليل ما هم.

ومنهم فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل، وربما تعمّقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسَّرَف، كالذي تغلبُ عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغُ فيه ولا يرتضي الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع، ويقدِّرُ الاحتمالات البعيدة قريبةً في النجاسة، وإذا آلَ الأمرُ إلى الأكل الحلال قدّر الاحتمالات القريبة بعيدة، وربما أكل الحرام المحض؛ ولو انقلب هذا الاحتياطُ من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة.

ثم من هؤلاء مَن يخرجُ إلى الإسرافِ في صبّهِ الماء، وذلك منهيٌّ عنه[1]، وقد يطول الأمرُ حتى يضيّعَ الصلاة ويخرجَها عن وقتها.

---

(١) راجع سنن ابن ماجة رقم ٤٢١.

وإن لم يخرجها عن وقتها أيضاً فهو مغرور كذلك، لما فاته من فضيلةِ أول الوقت. وإن لم يفته، فهو مغرور كذلك لإسرافه في الماء. وإن لم يُسرِف، فهو مغرور كذلك لتضييعه العمرَ الذي هو أعزُّ الأشياء... إلاَّ أنَّ الشطانَ يصدُّ الخلقَ عن الله بطرقٍ شتى، ولا يقدر على صدِّ العباد إلاّ بما يخيِّل إليهم - أي يوهمهم - أنه عبادة، فيبعّدهم عن الله بمثل ذلك.

وفرقة أخرى، غلبت عليها الوسوسة في نية الصلاة، فلا يدع الشيطان الواحدَ منهم يعقدُ نيّتَهُ صحيحة، بل يشوّشُ عليه حتى تفوتَه الجماعة وتخرجَ الصلاة عن الوقت. وإن تمَّ تكبيرُه، يحدث في قلبه تردد بعد ذلك في صحّةِ نيّته، وقد يصابون بالوسوسة في التكبير حتى أنّهم قد يغيّرون صيغة التكبير لشدة الاحتياطِ فيه، يفعلون ذلك في أول الصلاة، ثم يغفلون في جميع الصلاة ولا يُحضرون قلوبَهُم، ويغترّون بذلك ويظنّون أنّهم إذا أتعبوا أنفسهم في تصحيح النية في أول الصلاة، وتميّزوا عن العامةِ بهذا الجهد والاحتياط، فهم على خيرٍ عند ربهم.

وفرقة أخرى، تغلبُ عليها الوسوسة في إخراجِ حروفِ الفاتحة وسائرِ الأذكار من مخارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات، والفرق بين الضاد والظاء، وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته، لا يهمّه غيره، ولا يتفكّر فيما سواه، ذاهلاً عن معنى القرآن والإتعاظِ به وصرفِ الهمِّ إلى فهم أسراره؛ وهذا من أقبح أنواع الغرور، فإنّه لم يكلّف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلاّ بما جرت به عادتُهم في الكلام. ومثالُ هؤلاء مثالُ مَن حملَ رسالة إلى مجلسِ سلطان، فأُمرَ أن يؤديها على وجهها، فأخذ يؤدّي الرسالة ويتأنق في مخارج الحروف ويكرّرها ويُعيدها مرةً بعد أُخرى، وهو في

ذلك غافلٌ عن مقصود الرسالة ومراعاة حرمة المجلس، فما أحراهُ بأن تُقام عليه السياسة فيُردَّ إلى دار المجانين ويُحكم عليه بفقد العقل.

وفرقةٌ أخرى، اغترّوا بقراءة القرآن فيهذُّونه هذًّا[1]، وربما يختمون في اليوم والليلة مرةً، ولسانُ أحدهم يجري به وقلبُهُ يتردّد في أودية الأماني، إذ لا يتفكّر في معاني القرآن لينزجر بزواجره، ويتّعظَ بمواعظه، ويقفَ عند أوامره ونواهيه، ويعتبرَ بمواضع الاعتبار فيه، إلى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصدِ التلاوة. فهو مغرور، يظنُّ أن المقصودَ من إنزال القرآن هو الهمهمة به مع الغفلةِ عنه، ومثالُه مثالُ عبدٍ كتبَ إليه مولاه ومالكُه كتاباً، وأشار عليه فيه بالأوامر والنواهي، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، ولكنه اقتصر على حفظه، فهو مستمرٌّ على خلاف ما أَمرَ به مولاه، إلاّ أنه مكرِّرٌ للكتابِ بنغمته وصوته كلَّ يوم مائة مرة، فهو مستحق للعقوبة، وكلّما ظنّ أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور.

نعم، تلاوتُه إنما ترادُ لكيلا ينسى بعدُ، ولحفظه. وحفظُه يراد لمعناه، ومعناه يرادُ للعملِ به والانتفاعِ بمعانيه. وقد يكون له صوتٌ طيّب، فهو يقرؤه ويتلذّذ به ويغترُّ باستلذاذه، ويظنُّ أن ذلكَ لذّةُ مناجاة اللّهِ تعالى وسماعِ كلامه، وإنما هي لذّتُه في صوتهِ، ولو ردّدَ ألحانهُ بشعرٍ أو كلامٍ آخرَ لاَلتذَّ به ذلك الإلتذاذ. فهو مغرور إذ لم يتفقّد قلبه، فيعرف أن لذّتَهُ بكلام الله من حيث نظمه ومعانيه أو أن لذّتَه بصوته.

وفرقة منهم، اغتروا بالصوم، وربما صاموا الدهر، وصاموا

---

(١) قال الزمخشري في الأساس: هذّه هذّاً: أسرعَ قطعَهُ، وسكّين هذوذ. ومن المجاز هذّ القرآن، وهو يهذّه هذّاً إذا أسرعَ فيه وتابَعَهُ، ومنه قول رؤبة: «ضرباً هذاذيك وطعناً وحضاً».

الأيام الشريفة، وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغِيبة، وخواطرَهم عن الرياء، وبطونَهم عن الحرام عند الإفطار، وألسنتَهم من الهذيان بأنواعِ الكلام الذي لا طائل وراءه طول النهار، وأحدهم مع ذلك يظنُّ بنفسه الخير، يهملُ الفرضَ ويطلب النّفَل ـ أي النافلة ـ ثم لا يقوم بحقّه؛ وذلك غاية الغرور.

وفرقة أخرى، اغتروا بالحج، فيخرجون إلى الحج من غير خروجٍ عن المظالمِ وقضاءِ الديون، واسترضاء الوالدين، وطلبِ الزاد الحلاَل، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حِجّةِ الإسلام، ويضيّعون في الطريق الصلاة والفرائض، ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن، ويتعرّضون لمكس ـ أي الضريبة ـ الظّلمة حتى يؤخذَ منهم، ولا يحذرون في الطريق عن الرّفَث والخصام، وربما جمعَ بعضُهم الحرام وأنفقَهُ على الرفقاء في الطريق، وهو يطلبُ به السمعة والرياء، فيعصي اللَّهَ في كسب الحرام أوّلاً، وفي إنفاقِهِ بالرياء ثانياً، فلا هو أخذه من حِلّهِ،ولا هو وضَعَهُ ـ أي صرفَهُ ـ في حقّه، ثم يحضرُ البيت بقلبٍ ملوّثٍ برذائل الأخلاق وذمائم الصفات، لم يقدِّم تطهير قلبِه على حضور بيتِ ربّه، وهو مع ذلك يظنُّ أنه على خيرٍ من ربّه؛ وهو مغرور.

وفرقةٌ أُخرى، أخذت في طريق الحسبة[1]، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ينكر على الناس ويأمرهم بالخير، وينسى نفسه. فإذا أمرهم بالخير عنّفَ وطلبَ الرئاسة والعزّة والجاه، وإذا باشر هو بنفسهِ منكراً فرُدَّ عليه، غضبَ وقال: أنا المحتسب، فكيف يُنكرُ عليّ؟! وقد يجمعُ الناس إلى مسجده، فمن تأخّر عنه أغلظَ القول

---

(١) الحِسبة: من معانيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

عليه، وإنما غرضُه الرياء والرئاسة، ولو قامَ بتعهّد المسجد غيرهُ لحَرِد[1] عليه، بل منهم من يؤذِّنُ لله، فإن جاء غير فأذَّنَ في وقت غَيبتِهِ، قامت عليه القيامة، وقال: لم أخذَ حقّي وزاحمني على مرتبتي؟!

وكذلك، قد يتقلد إمامة مسجدٍ ويظنُّ أنه على خير، وإنما غرضُه أن يُقال: إنّه أمام المسجد، فلو تقدّمَ غيرهُ ـ وإن كان أورعَ منه وأعلم ـ ثقُلَ عليه.

وفرقة أُخرى، جاوروا بمكّة والمدينة، واغتروا بذلك، ولم يراقبوا قلوبهم، ولم يطهّروا ظاهرهم وباطنهم. قلوبُهم معلّقةٌ ببلادهم، ملتفتة إلى قول القائل إن فلاناً ـ أي هو ـ مجاور بمكّة. تراه يتحدى ويقول: قد جاورتُ بمكّة كذا وكذا سنة، وإذا سمعَ أنّ ذكرَ ذلك قبيحٌ، ترك صريح التحدّي، وأحبَّ أن يعرفَهُ الناسُ بذلك. ثمّ إنه يجاور ويمدُّ عين طمعه إلى أوساخِ أموال الناس، فإذا جمعَ من ذلك شيئاً شحَّ عليه وأمسكَهُ، ولم تسمح نفسهُ بلقمةٍ يتصدق بها على فقيرٍ، فيَظهر فيه الرياء والبخل والطمعُ وجملةٌ من المهلكات كان بمعزلٍ عنها لو ترك المجاورة، ولكنّ حبَّ المحمدة، وحبَّ أن يقال: إنه من المجاورين، ألزمَهُ المجاورة، ولكن مع التصنّع بهذه الرذائل؛ فهو أيضاً مغرور. فما مِن عملٍ من الأعمال ولا عبادةٍ من العبادات إلاّ وفيها آفات، فمن لم يعرف مداخل آفاتها واعتمدَ عليها بغير معرفة، فهو مغرور؛ ولا يَعرفُ شرحَ ذلك إلاّ من جملةِ كتابِ «إحياء العلوم»، فيعرفُ مداخل الغرور في الصلاة من كتاب الصلاة، وفي الحج والزكاة وسائر القُرُبات من الكتب التي رتبناها فيها، وإنما الغرضُ

---

(١) حرِدَ: غضب.

الآن الإشارة إلى مجامعِ ما سبقَ في الكتُب.

وفرقةٌ أخرى، تزهّدت وقنَعت من اللباس والطعام بالدُّون، ومن المسكنِ بالمساجد، وظنّت أنها أدركت رتبة الزهّاد، ومع ذلك يرغب الواحدُ منهم في الرئاسةِ والجاه، إمّا بالعلمِ أو بالوعظِ أو بمجرّدِ الزهد. فقد ترك أهونَ الأمرين رياءً لقاء أعظمِ المهلِكَين، فإن الجاهَ أعظمُ من المال، ولو ترك الجاه وأخذَ المال كان إلى السلامةِ أقرب.

وهذا مغرورٌ، إذ ظنَّ أنّه من الزهاد في الدنيا، وهو لم يعرف معنى الدنيا، ولم يدرِ أنّ منتهى لذاتها الرئاسة، وأنّ الراغب فيها لا بدَّ وأن يكونَ منافقاً وحسوداً ومتكبراً ومرائياً ومتّصفاً بجميع خبائث الأخلاق.

نعم، قد يترك الرئاسة ويؤثر الخلوة والعزلة، وهو مع ذلك مغرور، إذ يتطاول بذلك على الأغنياء ويُخشن الكلامَ معهم، وينظرُ إليهم بعين الاستحقار، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، ويُعجبُ بعمله ويتّصف بجملةٍ من خبائثِ القلوب، وهو لا يدري. وربما يُعطى المال فلا يأخذه خيفةً من أن يقال: بطُلَ زهده، ولو قيل له: إنه حلال، فخذه في الظاهر ورُدَّهُ في الباطن، لم تسمح به نفسُهُ خوفاً من ذمِّ الناس. فهو راغب في حمدِ الناس، وهو ـ أي الحمد ـ من ألذِّ أبوابِ الدنيا، ويرى نفسَهُ أنه زاهدٌ في الدنيا وهو مغرور، ومع ذلك فربّما لا يخلو عن توقيرِ الأغنياء وتقديمهم على الفقراء والميلِ إلى المريدين له والمُثنينَ عليه، والنفرةِ عن المائلين إلى غيرهِ من الزهاد، وكلُّ ذلك خدعة وغرور من الشيطان.

وفي العبادِ مَن يشدِّدُ على نفسِه في أعمالِ الجوارح حتى يصلّي في اليوم والليلة مثلاً ألفَ ركعةٍ، ويختمُ القرآن فيه، وهو مع ذلك لا

يخطر له مراعاةُ القلب وتفقّدُهُ وتطهيره من الرياء والكِبر والعُجب وسائرِ المهلِكات فلا يدري أن ذلك مهلك. وإن علمَ ذلك، فلا يظنُّ بنفسهِ ذلك ـ أي أنه مبتلى بهذه المهلكات ـ وإن ظنّ بنفسهِ ذلك فربما توهّمَ أنّه مغفور له بعملهِ الظاهر، وأنّه غير مؤاخذٍ بأحوال القلب. وإن توهّمَ فيظنُّ أن العبادات الظاهرة تترجّح بها كفّةُ حسناته، لكن هيهات، وذرةٌ من ذي تقوى، وخلُقٌ واحدٌ من خلُقِ الأكياس، أفضلُ من أمثالِ الجبال عملاً بالجوارح.

ثم لا يخلو هذا المغرور، مع سوء خُلقه مع الناس وخشونتِهِ وتلوّثِ باطنه بالرياء وحبِّ الثناء، أن يفرح فرحاً شديداً إذا قيل له: أنتَ من أوتادِ الأرض وأولياءِ الله وأحبائه، ويصدّقُ به، ويزيده ذلك غروراً، فيظنُّ أن تزكية الناس له دليلٌ على كونهِ مرضيّاً عند الله، ولا يدري أنّ ذلك لجهلِ الناس بخبائث باطنه.

وفرقة أخرى، حرِصتْ على النوافل، ولم يعظم اعتدَادها بالفرائض. ترى أحدَهم يفرحُ بصلاةِ الليل وسائر الرواتب، ولا يجدُ للفريضةِ لذّة، ولا يشتدُّ حرصُه على المبادرة بها في أول الوقت، وينسى قوله ﷺ، فيما يرويه عن ربه عز وجل: «ما تقرّب المتقرّبون إليّ بمثل أداء ما افترضتُ عليهم»[1].

وتركُ الترتيب بين الخيراتِ من جملةِ الشرور، بل قد يتعين على الإنسان فرضان، أحدهما يفوتُ والآخر لا يفوت، أو نفلان أحدهما يضيقُ وقتُه والآخرُ يتّسعُ وقتُه، فإن لم يحفظِ الترتيب فيه فهو مغرور. ونظائر ذلكَ أكثرُ من أن تحصى، فإنّ المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة،

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

وإنما الغامضُ تقديمُ بعضِ الطاعات على بعض، كتقديم الفرائضِ كلِّها على النوافل، وتقديم فروضِ الأعيان على فروض الكفايات (الواجبات العينية على الواجبات الكفائية)، وتقديم فرضِ كفايةٍ لا قائمَ به على ما قام به غيره، وتقديم الأهمِّ من فروضِ الأعيان على ما دونه، وتقديمِ ما يفوتُ على ما لا يفوت؛ وهذا كما يجبُ أن يقدِّم حاجةَ الوالدةِ على حاجةِ الوالد، إذ سُئل رسول الله ﷺ فقيل له: «مَن أبرّ؟ قال: أمّك، ثمّ قال: ثم من؟ قال: أمّك، قال: ثم من؟ قال: أمّك، قال: ثم من؟ قال: أباك، قال: ثم من؟ قال: أدناك ثم أدناك»[1]. فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقربِ فالأقرب، وإن استويا فبالأحوج، فإن استويا فبالأتقى والأورع.

وكذلكَ من لا يفي مالُهُ بنفقةِ الوالدين والحج، فربما يحجّ. فإن فعلَ فهو مغرور، بل ينبغي أن يقدم حقّيهما على الحج، وهذا من تقديم فرض أهم على فرضٍ هو دونه. وكذلك إذا كان على العبدِ ميعاد، ودخل وقتُ الجمعة، فالجمعة تفوتُ بالاشتغال بالوفاء بالوعد، والاشتغالُ بالوفاء بالوعدِ معصيةٌ، وإن كان هو في نفسهِ طاعةٌ. وكذلك تصيبُ ثوبهُ النجاسة فيَغلظُ القولَ على أبويه وأهله بسبب ذلك. فالنجاسةُ محذورة وإيذاؤهما محذور، فالحذر من الأذى أهمُّ من الحذر من النجاسة؛ وأمثلةُ تقابُلِ المحذورات والطاعات لا تنحصر، ومن ترك الترتيبَ في جميعِ ذلك فهو مغرور.

وهذا غرورٌ في غاية الغموض، لأن المغرور فيه في طاعة، إلاّ

---

(١) أخرجه الترمذي ج٨ ص٩١ عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، وقال في الباب عن أبي هريرة وأبي الدرداء وعبد الله بن عمر وعائشة.

أنه لا يفطنُ بصيرورة الطاعة معصية، حيث ترك بها طاعةً واجبةً هي أهم منها. ومن جملة هذا الغرور الاشتغالُ بالمذهبِ، وبالخلافِ من الفقه، في حقّ من بقي عليه شغلٌ من الطاعات والمعاصي الظاهرة والباطنة المتعلّقةِ بالجوارح والمتعلّقةِ بالقلب، لأن مقصود الفقهِ معرفة ما يحتاجُ إليه غيره في جوراحهم. فمعرفةُ ما يحتاجُ إليه في قلبه أولى به، إلاّ أن حبَّ الرئاسة والجاه، ولذّةَ المباهاة والقهرِ للأقران والتقدّمِ عليهم، يُعمّي عليه حتى يغترّ به.. ويظنَّ أنه مشغولٌ بهمِّ دِينه.

الصنف الثالث: المتصوفة
وما أغلبَ الغرور عليهم! والمغترون منهم فِرَق كثيرة

ففرقةٌ هم متصوفةُ أهل الزمان، إلاّ من عصمهُ الله، اغترّوا بالزّيّ والمنطقِ والهيئة، فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيّهم وهيئتهم، وفي ألفاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم، وفي أحوالهم الظاهرة في السّماع والرقصِ والطهارةِ والصلاةِ والجلوسِ على السّجادات مع إطراقِ الرأس وإدخاله في الجيب[١] كالمتفكّر، وفي تنفُّسِ الصعداء، وفي خفضِ الصوت في الحديث، إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات.

أقول[٢]: وأيُّ فضلٍ وكرامةٍ للصادقين من الصوفية حتى يكون للمتشبّهين بهم فضل وغرور؟! فإن أكثرهم من أهل البدعِ من السماع والرقص والجهرِ من القول في الدعاء، وغير ذلك.

قال أبو حامد: فلمّا تكلّفوا هذه الأمور وتشبّهوا بهم فيها، ظنّوا

---

(١) الجيب: هنا بمعنى الصدر، كأنّ المطرقَ برأسه يدخله في صدره حال إطراقه.
(٢) القائل هو الفيض الكاشاني (قده) معلقاً على كلامِ أبي حامد.

أنهم أيضاً صوفية، ولم يُتعبوا أنفسَهم قطُّ في المجاهدة والرياضةِ ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجليّة، وكلُّ ذلك من أوائل منازل التصوّف، ولو فرغوا عن جميعها، لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم من الصوفية، كيف ولم يحوموا قطُّ حولها، ولم يذيقوا أنفسهم شيئاً منها، بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين، ويتنافسونَ في الرغيف والفلس[1] والحبّة، ويتحاسدون على النقير[2] والقِطمير[3]، ويمزّقُ بعضُهم أعراض بعض كلّما خالفَهُ في شيءٍ من غرضهِ؛ وهؤلاء غرورهم ظاهر...

وفرقة أخرى، زادت على هؤلاء في الغرور، إذ شقَّ عليهم الاقتداء بهم في بذاذةِ الثياب، والرّضاءِ بالدّون، وأرادت أن تتظاهرَ بالتصوّف، ولم تجد بُدّاً من التزيّي بزيّهم، فتركتِ الخزّ والإبريسم، وطلبت الثياب الملونة النفيسة والفوط الرقيقة والسّجادات المصبغة، ولبست من الثياب ما هو أرفع قيمةً من الخزِّ والإبريسم، فظنَّ أحدُهم مع ذلك أنّه متصوِّفٌ بمجردِ لون الثياب وكونه مرقّعاً، ونسي أنّهم إنّما لونوا الثيابَ لئلا يطولَ عليهم غسلُها كلَّ ساعةٍ لإزالة الوسخ.. فهؤلاء أظهرُ حماقةً من كافةِ المغرورين، فإنّهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة، ويطلبون رغد الغيش، ويأكلون أموال السلاطين، ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلاً عن الباطنة، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير، وشرُّ هؤلاء مما يتعدّى إلى الخلقِ، إذ يهلكُ من يقتدي بهم، ومَن لا يقتدي بهم تفسُدُ عقيدتُه في أهل التصوّفِ كافة،

---

(١) الفلس: قطعة مضروبة من النحاس يُتعاملُ بها.

(٢) النقير: النكتبة في ظهر النواة.

(٣) القِطمير: القشرة الرقيقة بين النواة والتمرة.

إذ يظنُّ أن جميعَهم كانوا من جنسهِ، فيُطيل اللسان في الصادِقِينَ ـ أي يتطاولُ عليهم بالكلام ـ منهم، وكلُّ ذلك من شؤم المتشبّهين وشرِّهم.

وفرقة أخرى، ادّعت علمَ المعرفةِ ومشاهدةَ الحق ومجاوزة المقامات المحمودة والأحوال والملازمة، في عين الشهود والوصول إلى القرب، ولا يعرفُ أحدهم هذه الأمور إلاّ بالأسامي والألفاظ، لأنه تلقّف من ألفاظِ الطامات كلماتٍ، فهو يرددها، وهو يظنُّ أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين. فهو ينظرُ إلى الفقهاء والمفسّرين والمحدِّثين وأصنافِ العلماء بعين الإزدراء فضلاً عن العوام، حتى أن الفلاّح ليترُكُ فلاحتَهُ، والحائكَ يتركُ حياكته ويلازمهم أياماً معدودة، ويتلقّفُ منهم تلك الكلمات المزيّفة فهو يردّدها كأنه يتكلم عن الوحي، ويخبرُ عن سرّ الأسرار، ويستحقرُ بذلكَ جميع العبّاد والعلماء، فيقولُ في العبّاد: إنهم أجراءُ متعبون، ويقولُ في العلماء: إنّهم بالحديث عن الله محجوبون، ويدّعي لنفسهِ أنّه الواصلُ إلى الحقّ وأنّه من المقرّبين، وهو عندَ الله من الفجّار المنافقين، وعندَ أربابِ القلوبِ من الحمقى الجاهلين، ولم يُحكم ـ أي يتعلّم ـ قطُّ علماً ولم يهذّب خُلُقاً، ولم يرتّب عملاً، ولم يراقب قلباً، سوى اتباع الهوى، وتلقّفِ الهذيانِ وحفظهِ.

وفرقة أخرى، وقعت في الإباحةِ وطووا بساطَ الشرع، ورفضوا الأحكام وسوّوا بين الحلال والحرام، فبعضهم يزعمُ أنّ الله مستغنٍ عن عملي، فلمَ أُتعبُ نفسي؟! وبعضُهم يقول: قد كلّفوا الناسَ تطهيرَ القلوب عن الشهواتِ وعن حبِّ الدنيا، وذلك محال، فقد كلّفوا ما لا يمكن، وإنما يغترُّ به من لم يجرّب، وأما نحن فقد جرّبنا وأدركنا أنّ ذلك محال. ولا يعلمُ الأحمقُ أن الناس لم يكلفوا قلعَ الشهوةِ والغضبِ من أصلهما، بل كُلّفوا تأديبهما بحيث

ينقادُ كلُّ واحدٍ منهم لحكم العقل والشرع. وبعضهم يقول: الأعمال بالجوارح لا وزن لها، وإنما النظرُ إلى القلوب، وقلوبُنا والهة[1] إلى حبِّ الله، وواصلةٌ إلى معرفة الله، وإنما نخوضُ في الدنيا بأبداننا، وقلوبنا عاكفةٌ في الحضرة الربوبية، فنحن مع الشهوات بالظواهر، لا بالقلوب. ويزعمون أنهم قد ترقّوا عن رتبةِ العوام، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية، وأنَّ الشهواتِ لا تصدُّهم عن طريق الله تعالى لقوّتهم فيها، ويرفعون درجَتَهُم على درجةِ الأنبياء عليهم السلام...

وأصنافُ غرور أهل الإباحةِ من المتشبهين بالصوفيةِ لا تحصى، وكلُّ ذلكَ بناءً على أغاليطَ ووساوسَ يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام ـ أي تثبيت ـ العلم، ومن غير اقتداءٍ بشيخٍ متقنٍ في الدين والعلم الصالح للاقتداء؛ وإحصاء أصنافهم يطول.

وفرقة أخرى، جاوزت حدَّ هؤلاء وأحسنت الأعمال وطلّقت الحلال واشتغلت بتفقّد القلب وصار أحدهم يدّعي المقاماتِ من الزُّهد والتوكل والرضا والحبّ، من غير وقوفٍ على حقيقةِ هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها.

فمنهم من يدّعي الوجدَ والحبَّ لله تعالى ويزعمُ أنه والهٌ بالله، ولعلّه قد تخيّلَ في الله تعالى خيالاتٍ هي بدعةٌ أو كفرٌ، فيدّعي حبَّ الله قبلَ معرفته، ثم إنّه لا يخلو عن مقارفةِ ـ أي ارتكاب ـ ما يكرهُ الله، وعن إيثار هوى نفسه على أمرِ الله تعالى، وعن ترك بعض الأمور حياءً من الخلف، ولو خلا لوحده لما تركها حياءً من الله تعالى، وليس يدري أنّ كلَّ ذلك يُناقضُ الحبّ.

وبعضُهم ربما يميل إلى القناعة والتوكّل، فيخوضُ البوادي من

---

(١) والهة: (إلى الله) تفزع إليه وتحنّ.

غير زادٍ، ليصحّح دعوى التوكّل، وليس يدري أنّ ذلك بدعة لم تُنقل عن السلف والصحابة، وقد كانوا أعرفَ بالتوكّل منه، فما فهموا أن التوكّلَ هو المخاطرةُ بالروح وتركُ الزاد، بل كانوا يأخذون الزاد وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد. وهذا (المدّعي) ربما يتركُ الزاد وهو متوكّل على سببٍ من الأسبابِ واثق به؛ وما من مقامٍ من المقامات المنجيات إلاّ وفيه غرور، وقد اغترّ به قومٌ، وقد ذكرنا مداخل الآفات في رُبع المنجياتِ من الكتاب.

وفرقة أخرى، ضيّقت على نفسها في أمرِ القوتِ حتى طلبت منه الحلال الخالص، وأهملوا تفقّدَ القلوب والجوارح في غير هذه الخصلةِ الواحدة. ومنهم مَن أهملَ الحلالَ في مطعمهِ وملبسهِ ومسكنهِ وأخذَ يتعمّقُ في غير ذلك، ولم يدرِ المسكينُ أنّ الله لم يرضَ من عبدهِ بطلبِ الحلال فقط، ولا رضيَ بسائر الأعمال دون طلبِ الحلال، بل لا يرضيه إلاّ تفقّد جميع الطاعات والمعاصي، فمن ظنّ أنّ بعضَ هذه الأمور يكفيه وينجيه، فهو مغرور.

وفرقةٌ أخرى، ادّعوا حسنَ الخُلق والتواضع والسماحة، فتصدوا لخدمة الصوفية، فجمعوا قوماً وتكلّفوا بخدمتهم، واتخذوا ذلك شبكة للرئاسةِ وجمعِ المال، وإنما غرضُهم التكبّر، وهم يظهرون أنّ غرضَهم الخدمة والتواضع. وغرضُهم الارتفاع، وهم يظنون أن غرضَهُم الإرفاق. وغرضُم الاستتباع ـ أي توفير الاتباع ـ وهم يُظهرون أنّ غرضَهم الخدمة والتبعية.

ثم إنهم يجمعون من الحرامِ والشبهات، ويُنفقون عليهم ليكثر أتباعهم وينتشر بالخدمة اسمهم. وبعضهم يأخذ أموال السلاطين ويُنفق عليهم، وبعضهم يأخذها لينفق في طريق الحج على الصوفية، ويزعمُ

أن غرضَهُ البرُّ والإنفاق، وباعثُ جميعهم الرياء والسمعة.

وآية ـ أي علامة ـ ذلك إهمالُهم لجميع أوامر الله عليهم ظاهراً وباطناً، ورضاهُم بأخذِ الحرام والإنفاقِ منه. ومثالُ مَن ينفقُ الحرام في طريق الحج لإرادة الخير، كمن يعمّر مساجدَ الله فيطيّنها بالعَذَرة، ويزعم أن قصده العمارة.

وفرقة أخرى منهم، اشتغلوا بالمجاهدةِ وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها، وصاروا يتعمقون فيها، فاتخذوا البحث عن عيوبِ النفسِ ومعرفة خدعها علماً وحرفةً، فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفسِ باستنباطِ دقيقِ الكلام في آفاتها، فيقولون: هذا في النفسِ عيبٌ، والغفلةُ عن كونهِ عيباً عيبٌ، والالتفاتُ إلى كونهِ عيباً عيبٌ.. ومن جعلَ طول عمرهِ في التفتيش عن العيوب وتحرير ـ أي تدوين وتنقية ـ علم علاجها، كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته، ولم يسلك طريق الحج، فذلك لا يغنيه.

وفرقة أخرى، جاوزوا هذه الرتبة، وابتدأوا سلوك الطريق، وانفتحت لهم أبوابُ المعرفة، فكلّما تشمّموا من مبادىء المعرفة رائحةً، تعجبوا منها وفرحوا بها، وأعجبتهم غرابتُها، فتقيّدت قلوبُهم بالإلتفاتِ إليها والتفكّر فيها، وفي كيفية انفتاحِ بابها عليهم وانسداده على غيرهم؛ وكل ذلك غرور، لأن عجائبَ طريق الله ليسَ له نهاية.

فلو وقف مع كلِّ أعجوبةٍ وتقيَّدَ بها، قصُرتْ خطاهُ وحرم من الوصول إلى المقصد، وكان مثاله مثال من قصدَ ملكاً فرأى على باب ميدانِهِ روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى قبلَ ذلك مثلها، فوقفَ ينظرُ إليها ويتعجب حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك.

وفرقة أخرى، جاوزوا هؤلاء، ولم يلتفتوا إلى ما يفيضُ عليهم

من الأنوار في الطريق، وإلى ما يتيسّر لهم من العطايا الجزيلة، ولم يعرّجوا على الفرحِ بها والإلتفات إليها، جادّين في السير حتى قاربوا - أي اقتربوا - فواصلوا إلى حدِّ القربةِ إلى الله تعالى، وظنّوا أنهم قد وصلوا إلى الله فوقفوا وغلّطوا، فإنّ لله سبعين حجاباً من نور، لا يصل السالك إلى حجابٍ من تلك الحجبِ في الطريق إلاّ ويظنُّ أنّه قد وصل. وإليه الإشارة بقول إبراهيم صلوات الله عليه، إذ قال الله تعالى إخباراً عنه: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾(١).

وليس المعنيُّ به هذه الأجسام المضيئة، فإنه كان يراهُ في الصِّغر، ويعلمُ أنها ليست آلهة، وهي كثيرة وليست بواحدة، والجهّال يعلمون أن الكوكب ليس بإله، فمِثلُ إبراهيم لا يغرّه الكوكبُ الذي لا يغرُّ عامة الناس، ولكن المراد به أنه نور من الأنوار التي هي من حُجبِ الله عز وجلّ، وهي على طريق السالك.

ولا يُتصوّر الوصول إلى الله إلاّ بالوصول إلى الحجب، وهي حجبٌ من النور بعضُها أعظمُ من بعض، وأصغر النيّرات الكوكبُ فاستعيرَ له لفظُه، وأعظمُها الشمسُ، وبينهما رتبةُ القمرُ، فلم يزل إبراهيم عليه السلام لما رأى ملكوت السماوات - حيث قال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(٢) - يصل إلى نور بعد نور، ويتخيّلُ إليه في أول ما كان يلقاه أنه قد وصل، ثم كان يُكشف له أن وراءه أمرٌ، فيترقى إليه ويقول: قد وصلت، فيكشف له ما وراءه، حتى وصل إلى الحجاب الأقرب الذي لا وصول إلاّ بعده، فقال: هذا أكبر. فلما ظهر له أنه مع عِظَمِهِ غير خالٍ عن الهوى في

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٧٦.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

حضيض النقص والانحطاط عن ذروةِ الكمال، قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وسالكُ هذا الطريق قد يغترُّ في الوقوفِ على بعضِ هذه الحجُب، وقد يغترُّ بالحجاب الأول، وأول الحجاب بين الله وبين العبدِ هو نفسُه، فإنه أيضاً أمر رباني، وهو نور من أنوار الله، أعني سرَّ القلب الذي تتجلّى فيه حقيقةُ الحقِّ كلِّه، حتى أنّه ليتّسعُ لجملةِ العالَم ويحيطُ به، وتتجلى فيه صورةُ الكلّ، وعند ذلك يشرقُ نورهُ إشراقاً عظيماً، إذ يظهرُ فيه الوجود كلُّهُ على ما هو عليه، وهو في أوّلِ الأمر محجوبٌ بمشكاةٍ[1] هي كالساترِ له، فإذا تجلّى نوره وانكشف جمالُ القلبِ بعد إشراقِ نور الله تعالى عليه، ربما التفت صاحبُ القلبِ إلى القلب، فيرى من جمالهِ الفائقِ ما يُدهشُه، فربّما يسبقُ لسانُه في هذه الدهشة، فيقول: أنا الحقّ. فإن لم يتّضح له ما وراء ذلك اغترّ به ووقفَ عليه فهلك، وكان قد اغترَّ بكوكبٍ صغيرٍ من أنوار الحضرة الإلهية، ولم يصل بعدُ إلى القمر فضلاً عن الشمس، فهو مغرور.

وهذا هو محلُّ الالتباس، إذ المتجلّي يلتبسُ بالمتجلّى فيه، كما يلتبسُ لون ما يتراءى في المرآة بالمرآة، فيظنُّ أنه لونُ المرآة، وكما يلتبسُ ما في الزجاج بالزجاج، كما قيل:

رقّ الزجاجُ ورقّتِ الخمرُ　　　فتشابها فتشاكلَ الأمرُ
فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ　　　وكأنما قدحٌ ولا خمرُ

---

(١) مشكاة: كلُّ كوّةٍ غير نافذة ـ كلّ ما يوضع فيه أو عليه المصباح ـ وتأتي بمعنى المصباح.

وبهذه العين نظر النصارى إلى المسيح، فرأوا إشراقَ نور الله قد تلألأ فيه، فغلّطوا فيه، كمن يرى كوكباً في المرآة أو في الماء، فيمدُّ اليد إليه ليأخذه وهو مغرور.

وأنواعُ الغرور في طريق السلوك إلى الله لا تحصى في مجلدات، ولا تُستقصى إلاّ بعد شرح جميعِ علوم المكاشفة، وذلكَ ممّا لا رخصةَ في ذكرهِ، ولعلَّ القدر الذي ذكرناه أيضاً كان الأولى تركُه، إذا السالكُ لهذا الطريق لا يحتاجُ إلى أن يسمعه من غيره، والذي لم يسلكهُ لا ينتفعُ بسماعهِ، بل ربما يتضرر به، إذ يورث ذلك دهشة من حيث يسمع ما لا يَفهم، ولكن في ذكره فائدة، وهي إخراجُهُ من الغرور الذي هو فيه، إذ ربّما يَصدِّقُ بأن الأمرَ أعظم مما يظنّه ومما يتخيله بذهنِهِ المختصر ـ أي المحدود ـ وخياله القاصرِ وجَدَلِهِ المزخرف، ويصدِّقُ أيضاً بما يحكى له من المكاشفات التي أخبرَ عنها أولياءُ الله تعالى، ومن عِظَمِ غروره ربّما أصرَّ مكذّباً بما يسمعه الآن، كما يكذِّبُ بما سمِعَهُ من قَبل؛ والله أعلم.

الصنف الرابع: أرباب الأموال والمغترون منهم فرقٌ كثيرة

ففرقةٌ منهم، يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات[1] والقناطر وما يظهر للناس كافة، ويكتبون أساميهم بالآجر عليها ليتخلّد ذكرهم ويبقى بعد الموتِ أثرهم، وهم يظنون أنّهم قد استحقوا المغفرة بذلك، وقد اغتروا فيه من وجهين: أحدهما، أنهم يبنونها من أموالٍ اكتسبوها من الظلم والنهب والرشى

---

(١) الرباطات: واحدها «الرِبَاط»: وهي المعاهد المبنية والموقوفة للفقراء.

والجهات المحظورة، فهم قد تعرّضوا لسخطِ الله في كسبها وتعرضوا لسخطهِ في إنفاقها، وكان الواجبُ عليهم الامتناع عن كسبها، فإذا عصوا الله تعالى بكسبها، كان الواجبُ عليهم التوبةُ والرجوع إلى الله وردُّها إلى ملاّكها، إمّا بأعيانها، أو بردِّ بدلها عند العجز. فإن عجزوا عن المُلاّك، كان الواجبُ ردّها إلى الورثة، فإن لم يبقَ للمظلوم وارثٌ فالواجب صرفُها إلى أهمِّ المصالح، وربما يكون الأهمُّ التفرقةُ على المساكين وهم لا يفعلون ذلك خيفة من أن لا يظهر ذلك للناس، فيبنون الأبنية بالآجر وغرضُهم من بنائها الرياء وجلبُ الثناء، وحرصهم على بقائها لبقاء أسمائهم بها، لا لبقاء الخير.

والوجه الثاني، أنّهم يظنون بأنفسهم الإخلاصَ وقصدَ الخير في الإنفاق على الأبنية، ولو كُلّف واحدٌ منهم أن يُنفق ديناراً ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أَنفقَ عليه، لشقّ عليه ذلك ولم تسمح به نفسه، والله تعالى مطّلعٌ عليه كتبَ اسمَهُ أو لم يكتب، فلولا أنّه يريدُ به وجهَ الناس لا وجهَ الله، لما افتقرَ إلى ذلك.

وفرقةٌ أخرى، ربّما اكتسبت الأموال من الحلال وأنفقت على المساجد، وهي أيضاً مغرورة من وجهين: أحدهما، الرياء وطلبُ الثناء، فإنه ربما يكونُ في جوارهِ أو في بلده فقير، وصرفُ المال إليه أهم وأفضل من الصرف إلى المساجد وزينتها، وإنما يخفُّ عليه الصرف إلى المساجد ليظهر ذلك بين الناس.

والثاني، أنه يصرف إلى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش التي هي منهيٌّ عنها[1] وشاغلةٌ لقلوب المصلين ومختطفةٌ أعينهم،

---

(١) روى الراوندي في لب اللباب كما في مستدرج الوسائل ج١ ص٢٢٨ عن النبيﷺ أنه قال: «لا تزخرفوا مساجدكم كما زخرفت اليهود والنصارى بِيَعَهُم».

والمقصودُ من الصلاة الخشوع وحضور القلب، وذلك يُفسِدُ قلوبَ المصلّين ويحبطُ ثوابهم بذلك، ووبالُ[1] ذلك كلّه يرجعُ إليه، وهو معَ ذلك يغترُّ به، ويرى أنه من الخيرات، ويعدُّ ذلك وسيلةً إلى الله تعالى، وهو بذلك تعرّضَ لسخطِ الله وهو يظنُّ أنه مطيعٌ لله وممتثلٌ لأمره، وقد شوّش قلوب عباد الله بما زخرفَ من المسجد، وربما شوّقهم به إلى زخارف الدنيا، فيشتهون مثل ذلك في بيوتهم ويشتغلون بطلبه، ووبال ذلك كلّه في رقبته، إذ المسجدُ للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى.

قيل: دخل رجلان مسجداً فوقف أحدهما على الباب وقال: مثلي لا يدخلُ بيت الله، فكتبه الملكان عندَ الله صدِّيقاً؛ فبهذا ينبغي أن يعظّمَ المساجد، وهو أن يرى تلويث المسجد بنفسهِ جناية على المسجد، لا أن يرى تلويث المسجد بالحرام أو بزخرف الدنيا منّةً على الله تعالى.

وقال الحواريّون للمسيحعليه السلام: أُنظر إلى هذا المسجد ما أحسنَهُ، فقال: أمّتي، أمّتي! بحقٍ أقولُ لكم. لا يترك الله من هذا المسجدِ حجراً قائماً على حجر إلاّ أهلكه بذنوبِ أهله. إنّ الله لا يعبأُ بالذهب والفضة ولا بهذه الحجارة التي تُعجبكم شيئاً، وإنّ أحبَّ الأشياء إلى الله القلوب الصالحة، بها يعمر اللّهُ الأرضَ، وبها يُخرب إذا كانت على غير ذلك.

وقال أبو الدرداء: قال رسول اللهﷺ: «إذا زخرفتم مساجدكم وحلّيتم مصاحفكم فالدّمار عليكم»[2]. روي أن رسول اللهﷺ لمّا أراد

---

(١) الوبال: الوخامة، الشدّة، سوء العاقبة.

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر من حديث أبي الدرداء بسندٍ ضعيفٍ، كما في الجامع الصغير.

أن يبني مسجد المدينة أتاه جبرئيل عليه السلام فقال: ابنِهِ سبعةَ أذرع طولاً في السماء لا تزخرفُه ولا تنقّشه»[1]؛ فغرور هذا من حيث إنّه رأى المنكرَ معروفاً واتكل عليه.

وفرقة أُخرى، يُنفقون الأموال في الصدقات، وعلى الفقراء والمساكين، ويطلبون به المحافلَ الجامعة، ومِنَ الفقراءِ مَن عادتُهُ الشكرُ والإفشاءُ للمعروف، ويكرهونَ التصدّق في السرّ، ويرونَ إخفاء الفقير لما يأخذُ منهم جنايةً عليهم وكفراناً، وربما يحرصون على إنفاقِ المال في الحج فيحجون مرةً بعدَ أُخرى ويتركون جيرانهم جائعين. ولذلك قال ابن مسعود: في آخر الزمان يكثرُ الحاجُّ بلا سببٍ، يهون عليهم السفر، ويُبسَطُ لهم في الرزق، ويرجعون محرومين مسلوبين، يهوي بأحدهم بعيرهُ بين القفار والرّمالِ وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه. وروى أبو نصر التّمار أنّ رجلاً جاء يودّعُ بشر بن الحارث وقال: عزمتُ على الحج، فقام بشرٌ فقال له: كم أعددت للنفقة؟ فقال: ألفي درهم، قال: فأيّ شيءٍ تبتغي بحجّك، نزهةً أو اشتياقاً إلى البيت أو ابتغاءَ مرضاة الله؟ قال: ابتغاء مرضاة الله. قال: فإن أصبتَ رضا الله وأنت في منزلك، وتنفقُ ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله، أتفعلُ ذلك؟ قال: نعم. قال: فاذهب فأعطها عشرةَ أنفسٍ، مديونٍ يقضي دينه، وفقيرٍ يلمُّ شعثه، ومعيلٍ تغني عياله، ومربّي يتيم تُفرّحه، وإن قويَ قلبُك أن تُعطيها واحداً فافعل، فإنّ إدخالكَ السرورَ على قلبِ المسلم وإغاثةَ اللهفان وكشفَ الضرّ وإعانةَ الضعيف أفضلُ من مائةِ حجة بعد حجة الإسلام، قُم فأخرجها كما

---

(١) قال العراقي: لم أجد له أصلاً.

أمرناك، وإلاّ فقل لنا ما في قلبك، فقال: يا أبا نصر، سفري أقوى في قلبي، فتبسّمَ بشرٌ وأقبلَ عليه فقال له: المالُ إذا جُمِعَ من وسخ التجارات والشبهات، اقتضت النفسُ أن تقضي به وطراً[1]، فأظهرت الأعمال الصالحات، وقد آلى الله تعالى على نفسهِ أن لا يقبلَ إلاّ عملَ المتّقين.

وفرقةٌ أخرى، من أرباب الأموال، يحفظونها ويمسكونها بحكمِ البخل ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يُحتاجُ فيها إلى نفقةٍ، كصيام النهار وقيام الليل، والختم للقرآن؛ وهم مغرورون، لأن البخلَ المهلك قد استولى على باطنهم، فهم محتاجون إلى قمعه بإخراجِ المال. فقد اشتغلوا بطلب فضائل هم مستغنون عنها، ومثالُهُ مثالُ من دخلَ في ثوبه حيّةٌ، وقد أشرفَ على الهلاك وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكّنَ به الصفراء، ومن قتلته الحيّة فمتى يحتاجُ إلى السكنجبين؟!

وفرقة أخرى، غلبهم البخلُ فلا تسمحُ نفوسُهم إلاّ بأداء الزكاة فقط، ثم إنّهم يُخرجون من المال الخبيث الرديّ الذي يرغبون عنه يعطونه للفقراء ممَن يخدمُهم ويتردد في حاجاتهم، أو مَن يحتاجون إليه في المستقبل في خدمةٍ أو مَن لهم فيه على الجملةِ غرضٌ، أو يسلمون ذلك إلى مَن يُعينه واحدٌ من الأكابر ممّن يُستعان بحشمته[2]، لينال بذلك عنده منزلةً، فيقومَ بحاجاته؛ وكلُّ ذلك مفسداتٌ للنّية ومحبطاتٌ للعمل، وصاحبُه مغرور، ويظنُّ أنه يطيعُ الله تعالى. وهو فاجر، إذ طلبَ بعبادةِ الله عِوضاً من غيره؛ وهذا وأمثالُهُ من غرور

(١) وطراً: حاجةً وبغية.
(٢) الحشمة: الغضب والذّمام.

أرباب الأموال أيضاً لا يحصى، وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور.

وفرقة أُخرى، من عوام الخلق وأرباب الأموال أو الفقراء، اغتروا بحضور مجالسِ الذكر، واعتقدوا أن ذلك يُغنيهم ويكفيهم، واتخذوا ذلك عادة، ويظنّون أن لهم على مجرد سماعِ الوعظِ ـ دون العمل ودون الإتعاظ ـ أجرٌ، وهم مغرورون لأن فضلَ مجلسِ الذّكر لكونهِ مرغّباً في الخير، فإن لم يهيّج الرغبة فلا خير فيه، والرغبةُ محمودة لحملها على العمل، فإن ضعُفت عن الحملِ على العمل فلا خير فيها، وما يرادُ لغيره إن قصُرَ عن الأداء إلى ذلك الغير، فلا قيمةَ له.

وربما يغترُّ أحدُهم بما يسمعهُ من الواعظ من فضلِ حضور المجلس وفضل البكاء، وربما دخلته رقّة كرقّة النساء فيبكي، وربما يسمعُ كلاماً مخوفاً فلا يزيدُ على أن يصفق بيديه ـ أي لا يقدر على ما عدا ذلك ـ ويقول: يا سلامُ سلّم، أو نعوذ بالله أو سبحان الله، ويظنُّ أنّه قد أتى بالخير كلِّهِ؛ وهو مغرور.

وإنما مثالُهُ مثالُ المريض الذي يحضرُ مجالسَ الأطباء فيسمع ما يجري، أو الجائع الذي يحضرُ عندَ من يصفُ له الأطعمة اللذيذة الشهية ثم ينصرف، وذلك لا يُغني عنه مِن مرضِهِ وجوعه شيئاً. فكذلك وصفُ الطاعات دون العمل بها لا يغني من الله شيئاً. وكلُّ وعظٍ لم يغيّر منك صفةً تغييراً يغيّرُ أفعالَك حتى تُقبلَ على الله تعالى إقبالاً قوياً أو ضعيفاً، وتُعرِضَ عن الدنيا، فذلك الوعظُ زيادةُ حجّةٍ عليك، فإذا رأيته وسيلةً لك كنت مغروراً.

٤ ـ علاجُ الغرور

لسائل أن يسأل فيقول: ما ذكرتَهُ من مداخل الغرور أمرٌ لا

يتخلّصُ عنه أحد، ولا يمكن الاحتراز عنه، وهذا يوجب اليأس، إذ لا يقوى أحدٌ من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات؟

والجواب أن الإنسان إذا فَتُرتْ همّته في شيء أظهرَ اليأس منه واستعظم الأمرَ فيه، واستوعرَ الطريق. وإذا صحَّ منه الهوى ـ أي أحبَّ ذلك الشيء ـ اهتدى إلى الحيلِ واستنبط بدقيق النظرِ خفايا الطُرق في الوصول إلى الغرض، حتى أنّ الإنسان إذا أراد أن يستنزلَ الطيرَ المحلّق في جوِّ السماء مع بُعده عنه أنزَلَهُ، وإذا أراد أن يستصعد الحوت من أعماق البحار أصعدَهُ، وإذا أراد أن يستخرجَ الذهب والفضة من تحت الجبال أخرجَهُ، وإذا أراد أن يقتنصَ الوحوش المطلقةَ في البراري والصحاري اقتنصها، وإذا أراد أن يستسخر السباعَ والفيلةَ وعظيم الحيوانات استسخرها، وإذا أراد أن يأخذ الأفاعي والحيات ويعبث بها أخذها واستخرجَ الترياق، وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملوّن المنقوش من ورق التوت اتخذه، وإذا أراد أن يعرفَ مقادير الكواكب وطولَها وعرضَها استخرجَ بدقيق الهندسةِ (كل ذلك) وهو مستقرٌّ على الأرض.

وكلُّ ذلك باستنباط الحيَل وإعداد الآلات، فسخّر الفرسَ للركوب والكلبَ للصيد، وسخّر البازي لاقتناص الطيور، وهيّأ الشبكة لاصطياد السمك، إلى غير ذلك من دقائق حيلِ الآدمي، وكل ذلك لأن أمر دنياه قد أهمّه، ولأنّ ذلك معينٌ له على دنياه.

فلو أهمّه أمر آخرتِهِ، فليس عليه إلاّ شغلٌ واحد، وهو تقويم قلبِهِ، فعجزَ عن تقويم قلبهِ وتخاذل، وقال: هذا محال، ومن ذا الذي يقدرُ عليه؟! وليسَ ذلك بمحال. فلو أصبح وهمّه هذا الهم الواحد احتال له، بل هو كما يُقال: «لو صحَّ منك الهوى أرشدت للحيل».

فهذا شيء لم يعجز عنه السلفُ الصالحون ومن اتّبعهم بإحسان، فلا يعجزُ عنه أيضاً مَن صدَقت إرادتُه وقويت همّته، بل لا يحتاجُ إلى عُشرِ تعبِ الخلقِ في استنباطِ حيلِ الدنيا ونظم أسبابها.

واعلم أن العبد ينجو عن الغرور بثلاثة أمور: بالعقلِ والعلمِ والمعرفةِ؛ فهذه ثلاثة أمور لا بدَّ منها.

الأول: العقل

أما العقل فأعني به الفطرة الغريزيّة والنور الأصلي الذي به يُدرك الإنسانُ حقائق الأشياء. فالفطنةُ والكياسة فطرةٌ، والحمقُ والبلادة فطرة، والبليد لا يقدرُ على التحفظ عن الغرور، فصفاءُ العقلِ وذكاءُ الفهمِ لا بدَّ منه في أصلِ الفطرة. وهذا إذا لم يُفطر عليه الإنسانُ، فاكتسابُهُ غير ممكن. نعم، إذا حصلَ أصلُهُ، أمكن تقويتُه بالممارسة. فأساس السعادات كلها العقلُ والكياسة. قال رسول الله ﷺ: «تبارك اللَّهُ الذي قسّمَ العقلَ بين عباده أشتاتاً. إن الرجلينِ ليستوي عملهما وبرُّهما وصومهما وصلاتُهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذَّرَّةِ في جنب أُحُد، وما قسم الله لخلقه حظاً هو أفضل من العقل واليقين»[1].

وعن أبي الدرداء أنه قيل: يا رسول الله، أرأيت الرجل يصوم النهار ويقومُ الليل ويحجُّ ويعتمر ويتصدق ويغزو في سبيل الله ويعودُ المرضى ويشيّع الجنائز ويعينُ الضعيف، ما تعلمُ منزلتُه عند الله تعالى

(١) قال العراقي: أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية طاؤوس مرسلاً وفي أوله قصة، وإسنادهُ ضعيف، ورواه بنحوه من حديث أبي حميد، وهو ضعيف أيضاً.

يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما يُجزى على قدر عقله»[1].

وقد أُثنيَ على رجلٍ عند رسول الله ﷺ فقالوا خيراً، فقال ﷺ: «كيف عقله؟ فقالوا: يا رسول الله: نقولُ من عبادته وفضلهِ وخُلُقه، فقال: كيف عقله، فإنّ الأحمق يصيبُ بحمقه أعظم من فجور الفاجر، وإنما يقرَّبُ الناسُ يوم القيامة على قدر عقولهم»[2].

وقال أبو الدرداء: «كان رسول الله ﷺ: «إذا بلغه عن رجلٍ شدّةُ عبادةٍ سأل عن عقله، فإذا قالوا: حسنٌ، قال: أرجوه. وإن قالوا غير ذلك قال: لن يبلغ ذلك»[3] قال: وذُكِرَ له شدة عبادة رجلٍ فقال: كيف عقلُه؟ قالوا: ليس بشيء، قال: لن يبلُغَ صاحبكم حيث تظنون»[4]. وقد أسلفنا أخباراً من طريقِ أهل البيت عليهم السلام في ذلك في كتاب العقل من ربع العبادات.

والذكاء وشدةُ غريزة العقل نعمةٌ من الله تعالى في أصلِ الفطرة، فإن فاتت ببلادةٍ وحماقة، فلا تدارك لها.

الثاني: المعرفة[5]

وأعني بها أن يعرفَ أربعةَ أمور: يعرف نفسه، ويعرف ربه، ويعرف الدنيا، ويعرف الآخرة. أن يعرف نفسَهُ بالعبودية والذلّ،

---

(١) أخرجه الخطيب في التاريخ، وفي أسماء مَن روى عن مالك من حديث ابن عمر وضعّفَهُ، وقال العراقي: لم أرهُ من حديث أبي الدرداء.

(٢) تقدم في أبواب العلمِ عن داود بن المحبّر. وفي الكافي عن الصادق عليه السلام مثله.

(٣) (٤) روى الطبراني في مسنده الكبير عن أبي الدرداء قال: «كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن رجلٍ شدّه عبادة سأل عن عقله، فإن قالوا: حسنٌ، قال: أرجو له، وإن قالوا غير ذلك، قال: لا يبلغُ صاحبكم حيث تظنون» وفيه مروان بن سالم، متروك، كما في مجمع الزوائد ج٨ ص٢٨.

(٥) كذا.

وبكونه غريباً في هذا العالم وأجنبياً عن هذه الشهوات البهيمية، وأنها مضرّة له، وأن الموافقَ له طبعاً هو معرفةُ الله والنظرُ إلى وجهه فقط.

ولا يتصور أن يعرف هذا ما لم يعرف نفسه ولم يعرف ربه، وليستعن على هذا بما ذكرناه[١] في كتاب المحبّة، وفي كتاب شرح عجائب القلب، وكتاب التفكّر وكتاب الشكر، إذ فيها إشارات إلى وصف النفس ووصفِ جلال الله تعالى، فيحصلُ به التّنبهُ إجمالاً، وكمالُ المعرفةِ وراءه، فإنّ هذا من علوم المكاشفة، ولم نطنب[٢] في هذا الكتاب إلاّ في علوم المعاملة. وأمّا معرفة الدنيا والآخرة فيستعين عليها بما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا وفي كتابِ ذكرِ الموت، ليتبيّن له أن لا نسبةَ للدنيا إلى الآخرة.

فإذا عرفَ نفسه وربه، وعرفِ الدنيا والآخرة، ثار من قلبه بمعرفة الله تعالى حبُّ الله، وبمعرفة الآخرة شدّة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا الرغبةُ عنها، فيصير أهمُّ أموره ما يوصلهُ إلى الله تعالى وينفعُه في الآخرة. فإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه، صحّت نيّتُه في الأمور كلّها، فإن أكل مثلاً أو اشتغل بقضاء الحاجةِ، كان قصده من ذلك الاستعانةُ على سلوك طريق الآخرة، فصحّت نيّته واندفعَ عنه كل غرور محذورٍ منشأه تجاذب الأغراض والنزوعُ إلى الدنيا والجاه والمال، فإنّ ذلك هو المفسدَ للنية، وما دامت الدنيا أحبَّ إليه من الآخرة، وهوى نفسهِ أحبُّ إليه من رضا الله، فلا يمكنُه الخلاص من الغرور؛ فإذا غلب حبُّ الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه، الصادرةِ عن كمالِ عقله، احتاج إلى المعنى الثالث، وهو العلم.

---

(١) كذا، ولم يجىء بعدُ.

(٢) أطنب: بالغَ.

الثالث: العلم

أعني العلم بكيفية سلوك الطريق إلى الله، والعلمَ بما يقرّبه من الله تعالى وما يبعّدُه عنه. والعلمُ بآفات الطريق وعقباته وغوائلهِ وجميع ذلك قد أودعناه كُتُبَ «إحياء علوم الدين»، فيعرف من ربع العبادات شروطها فيراعيها وآفاتها فيتقيها، ومن ربع العادات أسرار المعائش، فما هو مضطرٌ إليه يأخذُه بإذن الشرع، وما هو مستغنٍ عنه فيُعرضُ عنه، ومن ربع المهلكات يعلم جميع العقبات المانعةِ في طريق الله، فإنّ المانعَ من اللَّهِ الصفاتُ المذمومة في الخلق، فيعلم المذموم ويعلم طريق علاجه، ويعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التي لا بدّ وأن توضعَ خَلَفاً ـ أي بدلاً ـ عن المذمومة بعد محوها، فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر عن الأنواعِ التي أشرنا إليها من الغرور، وأصل ذلك كلّه أن يغلبَ حبُّ الله على القلب، ويسقُطَ حبّ الدنيا منه، حتى تقوى به الإرادة، وتصحّ فيه النية؛ ولا يحصل ذل إلاّ بالمعرفة التي ذكرناها.

وهنا لسائل أن يسأل أنه إن فعل جميعَ ذلك، فما الذي يُخاف عليه بعدها؟ والجواب أنه يُخاف عليه أن يخدَعهُ الشيطانُ ويدعوهُ إلى نُصح الخلق ونشرِ العلم ودعوةِ الناس إلى ما عَرفه من دين الله عز وجل، فإن المريد المخلص إذا فرغَ من تهذيب الأخلاقِ وراقبَ القلبَ حتى صفّاه عن جميع الكدورات، واستوى على الصراط المستقيم، وصغُرت الدنيا في عينه، وتركها وانقطع طمعُهُ عن الخلق فلم يلتفت إليهم، ولم يبق له إلاّ همٌّ واحدٌ وهو الله تعالى والتلذذ بذكره ومناجاته والشوقِ إلى لقائه، وقد عجزَ الشيطان عن إغوائه، إذ يأتيه من جهة الدنيا وشهوات النفس فلا يطيعُه، ويأتيه من جهة الدين ويدعوهُ إلى الرحمة على خلق الله والشفقةِ عليهم وعلى دينهم بالنصح

لهم والدعاء إلى الله، فينظرُ العبدُ برحمتِهِ إلى العبيد فيراهم حيارى في أمرهم، سكارى في دينهم، صمّاً عمياً قد استولى عليهم المرض وهم لا يشعرون، وفقدوا الطبيب وأشرفوا على العطب، فتغلب على قلبِهِ الرحمةُ لهم، وقد كان عنده حقيقة المعرفةِ بما يهديهم ويبيّن لهم ضلالهم ويرشدهم إلى سعادتهم، وهو يقدرُ على ذكرها من غير تعبٍ ومؤونة ولزومِ غرامة، وكان مَثَلُه كرجلٍ كان به دواءٌ عظيم لا يُطاقُ ألمُه، وقد كان لذلك يسهرُ ليله ويقلقُ نهاره، لا يأكلُ ولا يشرب، ولا يتحرك ولا يتصرّف لشدة الألم، فوجدَ له دواءً عفواً صفواً من غير ثمنٍ ولا تعبٍ ولا مرارةٍ في تناوله فاستعمَلَهُ فبرأ وصحَّ، فطابَ نومُهُ بالليلِ بعد طولِ سهره، وهدأ بالنهار بعد شدةِ القلق، وطاب عيشهُ بعد نهاية الكدر، وأصاب لذة العافية بعد طول السقام، ثم نظرَ إلى عدد كثير من المسلمين وإذا بهم تلك العلّة بعينها، وقد طال سهرهم، واشتدَّ قلقُهم، وارتفع إلى السماء أنينهم، فتذكّر أن دواءهم هو الذي يعرفُه، ويقدرُ على شفائهم بأسهل ما يكون، وفي أسرعِ زمان، فأخذتهُ الرحمةُ والرقّة، ولم يجد فسحة من نفسهِ في التراخي عن الاشتغال بعلاجهم. فكذلك العبدُ المخلصُ بعد أن اهتدى إلى الطريق وشُفي من أمراض القلوب، شاهدَ الخلقَ وقد مرضت قلوبهم، وأعضلَ داؤهم، وقَرُب هلاكهم وشقاؤهم، وسهل عليه دواؤهم، فانبعث من ذات نفسه عزمٌ جازمٌ في الاشتغال بنصحهم، وحرّضهُ الشيطان على ذلك رجاء أن يجدَ مجال الفتنة، فلما اشتغلَ به وجدَ الشيطانُ مجالاً للفتنة، فدعاهُ إلى الرئاسةِ دعاءً خفياً أخفى من دبيب النمل لا يشعرُ به المُريد، فلم يزل ذلك الدبيبُ في قلبه حتى دعاهُ إلى التصنّع والتزيّن للخلق، بتحسين الألفاظ والنغمات والحركات والتصنّع في الزيّ والهيئات، فأقبلَ الناس يعظّمونه ويبجلونه ويوقرونه توقيراً

يزيدُ على توقير الملوك، إذ رأوه شافياً لأدوائهم بمحضِ الشفقةِ والرحمة من غير طمعٍ، فصار أحبَّ إليهم من آبائهم وأمهاتهم وأقاربهم، فآثروه بأبدانهم وأموالهم، وصاروا له خَوَلاً كالخدم والعبيد، فخدموه وقدّموه في المحافل، وحكّموه على الملوك والسلاطين، فعند ذلك استراح الطبع وارتاحت النفس، وذاقت لذةً يا لها من لذة! وأصابت من الدنيا شهوة يستحقِرُ معها كلَّ شهوة، وكان قد ترك الدنيا فوقعَ في أعظم لذاتها، وعند ذلك وجد الشيطان فرصةً وامتدت إلى قلبِهِ يدهُ، فهو يستعملُه في كلِّ ما يحفظُ عليه تلك اللذة.

وأمارة استراحةِ الطبع وركون النفسِ إلى الشيطان، أنه لو أخطأ فرُدَّ عليه بين يدي الخلق، غضبَ. فإذا أنكر على نفسهِ ما وجده من الغضب، بادر الشيطانُ يوهمه أن ذلك غضبٌ لله، لأنه إذا لم يَحسُن اعتقادُ المريدين فيه انقطعوا عن طريق الله، فوقع في الغرور، وربما أخرجه ـ أي دفعه ـ ذلك إلى الوقيعة في من ردَّ عليه، فوقع في الغِيبَةِ المحظورة بعد تركهِ الحلال المتّسع، ووقعَ في الكبر الذي هو تمرّدٌ عن قبول الحقِّ والشكرِ عليه، بعدَ أن كان يحذرُ من طوارق الخطرات.

وكذلك، إذا سبَقَهُ الضحك أو فترَ عن بعضِ الأوراد، جزعت النفسُ أن يطلعوا عليه، فيسقطُ قبوله عندهم، فيُتبعُ ذلك باستغفار ويتنفّس الصعداء، وربما زاد في الأعمال والأوراد من أجلهم، والشيطانُ يوهمهُ أنّك إنما تفعلُ ذلكَ كيلا يفتُرَ رأيهم عن طريق الله، فيتركون الطريق بتركك لها؛ وإنما ذلك خدعة وغرور، بل هو جزعٌ من النفس خيفةَ فوت الرئاسة، ولذلك لا تأبى نفسه من اطلاعهم على مثل ذلك في أقرانه، بل ربما يحبُّ ذلك ويستبشر به. ولو ظهر من أقرانه من مالت القلوبُ إلى قبوله، وزاد أثرُ كلامهِ في القبول على

كلامه هو، شقَّ ذلك عليه. ولولا أن النفس قد استبشرت واستلذّت الرئاسة، لكان يغتنمُ ذلك، إذ مثالهُ مثالُ من يرى جماعةً من إخوانه قد وقعوا في بئرٍ، وتغطى رأسُ البئر بحجرٍ كبير، فعجزوا عن الرقيّ من البئر بسببه، فرقَّ قلبُه لإخوانهِ فجاء يرفعُ الحجرَ من رأس البئر، فشقّ - أي صَعُبَ - عليه، فجاءه من أعانه على ذلك حتى تيسّر عليه إزاحة الحجر، أو كفاهُ ذلك فنحّاه في نفسه، فيعظمُ جراء ذلك فرحهُ لا محالة، إذ غرضُه خلاصُ إخوانهِ من البئر.

فإن كان غرضُ الناصح خلاصُ إخوانه المسلمين من النار، فإن ظهرَ مَن أعانَهُ أو كفاه، فرح بذلك ولم يَثقُل عليه. أرأيتَ لو اهتدوا جميعهم بأنفسهم لما كان ينبغي أن يثقُلَ عليه ذلك إن كان غرضه هدايتهم، فإذا اهتدوا بغيره، فلِمَ يثقلُ عليه؟!

وكلما وجدَ ذلك في نفسهِ، دعاه الشيطانُ إلى جميع كبائر القلوب وفواحش الجوارح وأهلكَهُ، فنعوذ بالله من زيغ القلوب بعد الهُدى، ومِن اعوجاجِ النفسِ بعد الاستواء.

ولسائل أن يسأل: فمتى يصحُّ له أن يشتغل بنصحِ الناس؟ والجواب أنه إذا لم يكن له قصدٌ سوى هدايتهم لله تعالى، وكان يودُّ لو وجدَ مَن يعينه أو لو اهتدوا بأنفسهم، وانقطعَ بالكلية طمعُهُ عن ثنائهم وأموالهم فاستوى عنده حمدهم وذمهم، فلم يُبالِ بذمِّهم إذا كان الله يحمدهُ، ولم يفرح بحمدهم إذا لم يقترن به حمد الله تعالى، ونظرَ إليهم كما ينظرُ إلى السادات وإلى البهائم: أمّا إلى السادات فمن حيث إنه لا يتكبر عليهم ويرى كلَّهم خيراً من نفسهِ لجهلهِ بالخاتمة. وأمّا إلى البهائم فمن حيث انقطاع طمعهِ عن طلبِ المنزلةِ في قلوبهم، فإنه لا يُبالي كيف تراهُ البهائم، فلا يتزيّن لها ولا يتصنّع، بل راعي

الماشية إنما غرضُهُ رعاية الماشية ودفعُ الذئب عنها دون نظرِ الماشية إليه بعينِ الحمد والثناء، فما لم يرَ سائر الناس كالماشية التي لا يلتفتُ إلى نظرها ولا يبالي بها، لا يسلمُ من الاشتغال بإصلاحهم. نعم، ربما يُصلحهم، ولكن يفسدُ نفسَهُ بإصلاحهم، فيكون كالشمع الذي يضيء لغيره ويحترقُ في نفسهِ.

لكن قد يعترضُ معترض بأنه لو ترك الوعّاظُ الوعظ، إلاّ عندَ نيل هذه الدرجة، لخلت الدنيا من الوعظِ وخربت القلوب.

والجوابُ أنّ رسول اللهﷺ قد قال: «حبُّ الدنيا رأس كلّ خطيئة»[1]، ولو لم يحبَّ الناسُ الدنيا لهلكَ العَالَم وبطلت المعائش وهلكت القلوب والأبدان جميعاً، إلاّ أنهﷺ علمَ أنّ حبَّ الدنيا مهلكٌ، وأن ذكرَ كونه مهلكاً لا ينزعُ الحبَّ من قلوبِ الأكثرين، لا الأقلين الذين لا تخربُ الدنيا بتركهم، فلم يترك النصح وذكر ما في حبِّ الدنيا من الخطر، ولم يترك ذكرهُ، خوفاً من أن يترك نفسَهُ بالشهوات التي سُلِّطت على الناس، أي يفلتَ الإنسانُ زمام نفسه في شهواتها.

فكذلك، لا تزال ألسنةُ الوعّاظ مطلقةً بحبِّ الرئاسة، ولا يدعونها بقولِ من يقول إنّ الوعظَ لحبِّ الرئاسة حرام، كما لا يدعُ الخلقُ الشراب والزنى والسرقة والرياءَ والظلم وسائر المعاصي بقول الله وبقول رسوله أنّ ذلك حرامٌ. فانظر إلى نفسكَ وكن فارغ القلب عن حديث الناس، فإنّ الله يصلحُ خلقاً كثيراً بإفسادِ شخص واحدٍ وأشـــخـــاصٍ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ

(١) أخرجَهُ البيهقي في الشعب عن الحسنِ مرسلاً، كما في الجامع الصغير.

ٱلْأَرْضُ﴾[1]، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجلِ الفاجر وأقوامٍ لا خَلاق لهم في الآخرة[2]؛ فإنما يُخشى أن ينسدَّ بابُ طريق الإتعاظ، وأمّا أن تخرس ألسنةُ الوعّاظ ووراءهم باعثُ الرئاسة وحبُّ الدنيا، فلا يكون ذلك أبداً.

هنا، لسائل أن يسأل ثانية أنه إن علم المريدُ هذه المكيدةَ من الشيطان فاشتغل بنفسهِ ـ أي عمل على تهذيبها ـ وتركَ النصحَ، أو نصحَ وراعى شرطَ الصدقِ والإخلاصِ فيه، فما الذي يُخافُ عليه؟ وما الذي بقي بين يديه من الأخطار وحبائل الإغترار؟

فاعلم أنه بقي عليه أعظمُها! وهو أن الشيطان يقول له: قد أعجَزتَني وأفلتّ مني بذكائك وكمالِ عقلِكَ، وقد قدرتُ على جملةٍ من الأولياء والكبراء وما قدرتُ عليك، فما أصبركَ وما أعظمَ عند الله محلّك، إذ قوّاكَ على قهري ومكّنكَ من التفطّن لجميعِ مداخلِ غروري، فيُصغي إليه ويصدّقَه، ويعجبُ بنفسهِ في فراره من الغرور كلّه، فيكونُ إعجابُه بنفسهِ غايةُ الغرور، وهو المهلِكُ الأكبر، فالعجبُ أعظمُ من كلّ ذنب، فلذلك قال الشيطان: يا بن آدم، إذا ظننت أنك بعلمك تخلّصت مني، فبجهلك قد وقعت في حبائلي.

فإن سألتَ حينئذٍ فقلت: لو أنّه لم يُعجب بنفسه، حيث علم أن ذلك من الله تعالى لا منهُ، وأنّ مثلَهُ لا يقوى على دفعِ الشيطان عنه إلاّ بتوفيق الله ومعونته، ولو أنّه عرف ضعفَ نفسه وعجزَه عن أقلّ القليل، وأنه لو قدر على مثل هذا الأمر العظيم لعلِمَ أنّه لم يقو عليه بنفسه بل بالله، فما الذي يُخافُ عليه بعد أن نفى عن نفسه العجبَ؟

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٢) تقدم حديثه مراراً عن أبي عوانة والبخاري وغيره.

كان الجواب أنه يُخافُ عليه الغرور بفضلِ الله والثقةِ بكرمه والأمنِ من مكره حتى يظنَّ أنه يبقى على هذه الوتيرةِ في المستقبل، ولا يخافُ من الفترة[1] والإنقلاب، فتكونُ حالهُ الإتكال على فضلِ الله فقط، دونَ أن يقارنه الخوفُ من مكره، ومَن أمِنَ مكرَ الله، فهو خاسرٌ جداً، بل سبيلهُ أن يكون مشاهداً لكلِّ ذلك من فضلِ الله، ثم خائفاً على نفسه من أن تكون صفةٌ من صفاتِ قلبه ـ كحبِّ الدنيا والرياء وسوء الخلق والالتفات إلى عزٍّ ـ قد خفيت عليه، وهو غافل عن ذلك. ويكون خائفاً أن يسلبَ حالَهُ في كلِّ طرفةِ عينٍ، غير آمنٍ من مكر الله ولا غافلٍ عن خطر الخاتمة؛ وهذا خطرٌ لا محيصَ عنه، وخوفٌ لا نجاةَ منه، إلاّ بعد مجاوزة الصراط.

ولذلك، لما ظهر الشيطانُ لبعضِ الأولياء في وقت النزع، وكان قد بقي له نفَسٌ، فقال له: أفلتَّ منّي يا فلان، فقال: لا، بعدُ! ولذلك قيل: الناس كلُّهم هلكى إلاّ العالمون، والعالمون كلُّهم هلكى إلاّ العاملون، والعاملون كلُّهم هلكى إلاّ المخلصون، والمخلصون على خطرٍ عظيم.

فإذن، المغرور هالكٌ والمخلصُ الفارُّ من الغرور على خطرٍ، فلذلك لا يفارقُ الخوفُ والحذرُ قلوبَ الأولياء أبداً: نسأل الله تعالى حسن الخاتمة فإن الأمور بخواتيمها.

ولنختم الكتاب بكلام الصادقعليه السلام، على ما روي عنه في كتاب مصباح الشريعة[2]. قال عليه الصلاة والسلام: «المغرور في الدنيا مسكين وفي الآخرة مغبونٌ، لأنه باعَ الأفضلَ بالأدنى، ولا تَعجب من

(١) الفترة: الإنكسار والضعف.

(٢) الباب السادس والثلاثون.

نفسكَ حيث ربما اغتررت بمالِكَ وصحّةِ جسمك أنْ لعلّك تبقى، وربما اغتررتَ بطول عمرك وأولادك وأصحابك لعلّك تنجو بهم. وربما اغتررت بجمالكَ ومُنيَتِكَ (أمانيك) وإصابتك مأمولَك وهواك، فظننت أنك صادقٌ ومصيب. وربما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك في العبادةِ ولعلَّ الله تعالى يعلمُ مِن قلبكَ بخلاف ذلك. وربما أقمتَ نفسكَ على العبادة متكلّفاً والله يريدُ الإخلاص. وربما افتخرتَ بعلمِكَ ونَسبِكَ وأنت غافل عن مضمرات ما في غيب الله. وربما توهّمت أنك تدعو الله وأنتَ تدعو سواه. وربّما حسبتَ أنّك ناصحٌ للخلق وأنت تريدهم لنفسك وأن يميلوا إليك. وربّما ذممتَ نفسكَ وأنت تمدحُها على الحقيقة. وٱعلم أنك لن تخرجَ من ظُلمات الغرور والتمنّي إلاّ بصدقِ الإنابة إلى الله والإخباتِ له، ومعرفةِ عيوبِ أحوالك من حيثُ لا توافق العقلَ والعلم ولا يحتملهُ الدين والشريعةُ وسنن القدوةِ وأئمةُ الهدى، وإن كنت راضياً بما أنت فيه، فما أحد أشقى بعلمِكَ منك وأضيع عمراً، فأُورثتَ حسرةً يوم القيامة».

هذا آخر الكلام في كتاب ذمِّ الغرور، وبتمامهِ تمّ ربع المهلكات من المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء. ويتلوه إن شاء الله تعالى في ربع المنجيات، كتابُ التوبة، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

المحتويات

آفة الغضب

١ ـ مدخل ٧
٢ ـ بيان حقيقة الغضب ٩
٣ ـ إزالة أصل القوة الغضبية ١٥
الأول: ما هو ضرورة لجميع الخلق ١٦
الثاني: ما ليس ضرورياً لأحد من الخلق ١٦
الثالث: ما يكون ضرورياً لبعض الناس دون بعض ١٧
٤ ـ الأسباب المهيجة للغضب ١٨
٥ ـ علاج الغضب بعد هيجانه ٢٠
٥ ـ أ العلاج العلمي ٢١
٥: ب ـ العلاج العملي ٢٣
٦ ـ ذم الغضب ٢٥
٧ ـ فضيلة كظم الغيظ ٣٠
٨ ـ فضيلةُ الحِلم ٣٢
٩ ـ جواز الانتصار والتشفي ٣٨

آفة الحقد

١ ـ معنى الحقد ٤٣
٢ ـ ثمار الحقد ٤٣
٢: أ ـ الحسد ٤٣
٢: ب ـ الشماتة ٤٤
٢: ج ـ الهجران ٤٤
٢: د ـ الاستصغار ٤٤
٢: هـ ـ إرتكابُ المحرّم ٤٤
٢: و ـ المحاكاة والتقليد ٤٤
٢: ز ـ الإيذاء ٤٤
٢: ح ـ منع الحقوق ٤٤
٣ ـ فضيلة العفو ٤٥
٤ ـ فضيلةُ الرفق ٥٠

آفة الحسد

١ ـ حقيقة الحسدِ وحكمُه ٥٧
٢ ـ مراتبُ الحسد ٦٣
٣ ـ أسابُ الحسد والمنافسة ٦٣
السبب الأول: العداوة والبغضاء ٦٤
السبب الثاني: التعزز ٦٥
السبب الثالث: الكِبْر ٦٦
السبب الرابع: التعجُّب ٦٦

السبب الخامس: الخوف من فوت المقاصد ٦٧
السبب السادس: حبُّ الرئاسة ٦٧
السبب السابع: خبثُ النفسِ وشُحُّهَا ٦٨
٤ ـ سبب كثرة الحسد ٦٩
٥ ـ ذم الحسد ٧٣
٦ ـ دواءُ الحسد ٧٩
٦:أ ـ العلاجُ العلمي ٧٩
٦: ب ـ العلاج العملي ٨٥
٧ ـ القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب ٨٧

آفة الجاه

١ ـ مدخل ٩٣
٢ ـ بيان معنى الجاه وحقيقته ٩٦
٣ ـ سبب حبِّ الجاه ٩٧
٤ ـ الكمال الحقيقي والكمال الوهمي ١٠٥
٥ ـ المحمودُ والمذموم من حبّ الجاه ١١٠
٦ ـ ذمُّ الشهرة وانتشار الصيت ١١٣
٧ ـ فضيلةُ الخمول ١١٣
٨ ـ ذمُّ حبُّ الجاه ١١٧
٩ ـ علاجُ حبِّ الجاه ١١٨
٩: أ ـ العلاج العلمي ١١٩
٩: ب ـ العلاجُ العملي ١٢٠
١٠ ـ سببُ حبِّ المدح والثناء ١٢٢

السبب الأول: شعور النفس بالكمال ١٢٣
السبب الثاني: ملكية الممدوح لقلب المادح ١٢٤
السبب الثالث: المدحُ سبب اصطياد قلب السامع ١٢٤
السبب الرابع: دلالةُ المدح على حشمةِ الممدوح ١٢٤
١١ ـ اختلافُ أحوال الناس في المدح والذم ١٢٥
١٢ ـ علاجُ حبِّ المدح ١٣٠
١٣ ـ علاج كراهة الذم ١٣٣

آفة الرياء

١ ـ مدخل ١٣٩
٢ ـ حقيقة الرياء ١٤٠
٣ ـ أقسام ما يراءى به ١٤٠
القسم الأول: البدن ١٤٠
القسم الثاني: الزيّ والهيئة ١٤١
القسم الثالث: القول ١٤٣
القسم الرابع: العمل ١٤٤
القسمُ الخامس: الأصحاب والزائرون والمخالطون ١٤٥
٤ ـ حكمُ الرياء ١٤٦
٥ ـ ذم الرياء ١٥٠
٦ ـ درجاتُ الرياء ١٦٠
الركنُ الأول: قصدُ الرياء ١٦١
الركن الثاني: المراءى به ١٦٢
الركن الثالث: المراءى لأجله ١٦٧

٧ ـ الرياءُ الخفيّ ١٧٠
٨ ـ الرياءُ المحبِطُ وغير المحبِط ١٧٤
٩ ـ علاج القلب من الرياء ١٨١
٩: أ ـ قطعُ عروقِ الرّياء واستئصالُ أصوله ١٨١
٩: ب ـ دفعُ العارضِ منه في أثناء العبادة ١٨٦
١٠ ـ الرخصةُ في إظهار الطاعات ١٩٦
١٠: أ ـ الإظهار في نفس العمل ١٩٦
١٠: ب ـ الإظهار في التحدث بما عمل ١٩٩
١١ ـ الرخصة في كتمان الذنوب ٢٠٠
١٢ ـ تركُ الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات ٢٠٦
١٢: أ ـ الطاعات التي لا لذة في عينها ٢٠٧
١٢: ب ـ الطاعات التي تتعلق بالخلق ٢٠٩
١٣ ـ العلمُ وآفة الرياء ٢١٥
الأولى: الولايات ٢١٦
الثانية: الصلاة والصوم والحج والصدقة ٢١٦
الثالثة: التصدي لمنصب الوعظِ والفتوى والرواية والتدريس ٢١٧
١٤ ـ الصحيح وغير الصحيح من النشاط للعبادة ٢١٨
١٥ ـ الإلزاماتُ لقلبِ المريد ٢٢٤

آفة الكبر

١ ـ مدخل ٢٣٥
٢ ـ حقيقة الكِبر وآفتُه ٢٣٧
٣ ـ البواعث على التكبّر وأسبابُه المهيّجة له ٢٤١

٣: أ ـ الباعث على الكبر ٢٤١
٣: ب ـ الباعث على التكبّر ٢٤١
٤ ـ بيانُ ما به التكبُّر ٢٤٣
السبب الأول: العلم ٢٤٤
السبب الثاني: العمل والعبادة ٢٤٧
السبب الثالث: النّسب والحسب ٢٥٣
السبب الرابع: الجمال ٢٥٤
السببُ الخامس: المال ٢٥٥
السبب السادس: القوة وشدة البطش ٢٥٦
السبب السابع: كثرةُ الأتباع ٢٥٦
٥ ـ أقسامُ المتكبَّر عليه ودرجاتُه وثمراتُ الكبرِ فيها ٢٥٧
الأول: التكبّرُ على الله ٢٥٧
الثاني: التكبر على الرسل ٢٥٨
الثالث: التكبّر على العباد ٢٦٠
٦ ـ ذمّ الكبر ٢٦٢
٧ ـ ذمُّ الاختيالِ وإظهارِ آثار الكِبر في المشي وجرِّ الثياب ٢٦٩
٨ ـ فضيلةُ التواضع ٢٧٠
٩ ـ علاج الكبر واكتساب التواضع ٢٧٩
٩: أ ـ استئصال أصل الكبر وشجرته ٢٧٩
٩: ب ـ دفع العارضِ منه ٢٨٧
٩: ج ـ امتحانات النفس في وجود الكبر ٣٠٢
١٠ ـ أخلاقُ المتواضعين وأهمُّ مواطنِ ظهور التواضعِ والكبر ٣٠٦
١١ ـ غايةُ الرياضة في خُلقِ التواضع ٣١٣

آفة العُجب

١ ـ مدخل ٣١٩
٢ ـ حقيقةُ العُجب والإدلال وحدُّهما ٣١٩
٣ ـ آفات العجُب ٣٢١
٤ ـ ذمُّ العُجبِ وآفتُه ٣٢٢
٥ ـ علاجُ العُجب على الجملة ٣٢٦
٦ ـ أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه ٣٣٣
الأول: بالبدن والجمال ٣٣٣
الثاني: بالقوة والبطش ٣٣٣
الثالث: بالعقل والكياسة والتفطن ٣٣٤
الرابع: بالنّسبِ الشريف ٣٣٥
الخامس: بنَسبِ السلاطين الظلمة وأعوانهم ٣٣٨
السادس: بكثرة العدد ٣٣٩
السابع: بالمال ٣٤٠
الثامن: بالرأي الخطأ ٣٤١

آفة الغرور

١ ـ مدخل ٣٤٥
٢ ـ حقيقةُ الغرور وأمثلته ٣٤٧
المثال الأول: غرور الكفار ٣٤٨
المثال الثاني: غرور العصاة من المؤمنين ٣٦٢
٣ ـ أصنافُ المغترين وفِرقُ كل صنفٍ منها ٣٧١
الصنف الأول: أهل العلم والمغترون منهم فِرَقٌ ٣٧١

الصنف الثاني: أرباب العبادة والعمل والمغترون منهم فرقٌ كثيرة ٣٩٩
الصنف الثالث: المتصوفة وما أغلبَ الغرور عليهم! والمغترون منهم فِرَق كثيرة ٤٠٧
الصنف الرابع: أرباب الأموال والمغترون منهم فرقٌ كثيرة ٤١٥
٤ ـ علاجُ الغرور ٤٢٠
الأول: العقل ٤٢٢
الثاني: المعرفة ٤٢٣
الثالث: العلم ٤٢٥
المحتويات ٤٣٣